

سليم برکات

السَّيرَتَانِ

سليم برکات

السَّيرَتَانِ

دار الجديده

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى، ١٩٩٨

الجندي الحديدي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٠.

هاته عالياً، هاتِ التغير على اخره، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٢.

- إنتاج وتنفيذ وتوزيع شركة دار الجديد ش. م. م. • صندوق بريد، ١١/٥٢٢٢ بيروت - لبنان •
- هاتف: ٥٠ ٩٨ ٧٢ - ٨١ ٧٢ (١٠) • بريد إلكتروني، Aljadeed@cyberia.net.lb • نخس
- النص، سناء سلامي وجميلة هزيمة • ضبطه بالشكل وعلى أصوله، محمود عساف •
- انشاه كتاباً، علي حمدان • الخطوط الداخلية بريشة، علي عاصي.

نزيف الطبعة الثانية

الْوَقْتُ يَضِيقُ، وَالْمَكَانُ يَتَّسِعُ؛ ذَلِكَ مَا يُعَلِّمُكَ تَأْوِيلُ
طُفُولَتِكَ. وَالْوَقْتُ يَتَّسِعُ، وَالْمَكَانُ يَضِيقُ؛ ذَلِكَ مَا يُعَلِّمُكَ
الْوَاقِعُ حَالِمًا بِتَدْوِينِ نَفْسِهِ كَشَقَاءٍ عَذْبٍ. وَبَيْنَ هَذَا
التَّلَقُّينِ الْفَائِضِ مِنْ عُمْرِكَ، وَذَلِكَ، بِاخْتِصَاصٍ فِي عُلُومِ
الْمَكَانِ وَعُلُومِ الْوَقْتِ، تَنْتَظِرُ أَنْ تَفْرَغَ مِنْ نَفْسِكَ إِلَى عِبَّيْهَا،
وَقَدْ اكْتَمَلَتْ بِغَيْبِوْبَةٍ كَالْحَصَادِ، وَأَرِثْتَ الْقِدَمَ الْحَالِمَ صَبْرَ
يَقِينِكَ الشَّيْخِ.

لَا طُفُولَةٌ إِلَّا فِي النَّسْيَانِ. الْمُغْلَنُ مِنْكَ هُوَ هَبَّةُ النَّسْيَانِ،
الْمُسْتَتَرِ مِنْكَ هُوَ هَبَّةُ النَّسْيَانِ. مَا يَحْدُثُ لَكَ فِي شَفَقِ
عُمْرِكَ الْأَوَّلِ يَحْدُثُ هُنَاكَ، بَعِيداً عَنْ أَمَلِكَ. وَمَا يَحْدُثُ
لَكَ فِي عَسَقِ عُمْرِكَ الثَّانِي يَحْدُثُ هُنَا، بَعِيداً عَنِ الْيَقِينِ.
كَمَالُكَ جَهَالَتُكَ، يَقِينُكَ مَا تَخْتَبِرُ بِهِ النَّارَ عَذَابِهَا، قَلَقُكَ

فِخَاخُكَ الْمَقْدُوفَةُ مِنْ كُھُولَتِكَ إِلَى مَا كُنْتَ تَزِنُ بِهِ نَفْسَكَ
طِفْلاً يَتَهَيَّأُ لِمُسَافَهَاتِ الْعَبَثِ وَإِغْمَاءَاتِهِ.

كَمْ تَتَجَرَّدُ طُفُولَتُكَ مِنْ نَفْسِهَا لِتُؤَاخِيكَ، كَمْ تَغْتَرِضُكَ
لِتَنْجُوَ مِنْ حِمَاقَةِ الْخِيَالِ، الَّذِي يَصِفُ قَلْبَكَ حَكِيماً. أَنْتَ
فِي جِهَةٍ، طُفُولَتُكَ فِي جِهَةٍ: كِلَاكُمَا مَعْذُورَانِ لِأَنَّكُمَا لَمْ
تَلْتَقِيَا كَيْ يُوَبِّخَ أَحَدُكُمَا الْآخَرَ، أَوْ يُعَانِقَهُ.

طُفُولَتُكَ حُرَّةٌ مِنْكَ لِأَنَّهَا يَقِينُ نَفْسِهَا، وَأَنْتَ جِهَالَةٌ
أَلَوْفَتِ الْمُنْحَدِرِ إِلَيْكَ بِلَا طُفُولَةٍ. فَانْتَظِرْهَا، طُفُولَتُكَ، قَدَرٌ
مَا تَسْتَطِيعُ. أَجْلُهَا قَدَرٌ مَا تَسْتَطِيعُ. مَوِّهُ الطَّرِيقِ إِلَيْكَ كَيْ
لَا تَصِلَ. أَبْقِهَا فِي الْمَتَاهَةِ لِأَنَّكَ لَنْ تُمْتَحَنَ بِإِرْثِهَا بَعْدَ
الآنَ: لَقَدْ تَقَوَّضَ الْأَبْدِيُّ.

ثُمَّ مَاذَا؟ بِكَ، أَوْ مِنْ دُونِكَ، كُلُّ طُفُولَةٍ مِثْلُكَ مُمَزَّقٌ.
كُلُّ طُفُولَةٍ مِخْنَةٌ.

سليم بركات
نيقوسيا ١٩٩٦

الجُنْدُب الحديدي

(السيرة الناقصة لطفلٍ لم يَرَ إِلَّا أرضاً هاربة فصاح :

هذه فِخَاخي أَيُّهَا القِطَا)

هِيَاهِ أَئِهَا الطَّفْلُ، هِيَاهِ

ما الَّذي تراه؟ قُلْ لي أَيُّها الطُّفْلُ ما الَّذي تراه؟ هَضَبَتَانِ
 فِي الْأَفُقِ، وَعَقْدٌ مِنَ الْقَرَى وَثُرَابٌ يَتَرَنِّحُ بَيْنَ صَيْفِ طَائِشٍ
 وَبَيْنَ شِتَاءٍ أَحْمَقَ. وَمَوْعِدُكَ أَيُّها الطُّفْلُ مَوْعِدُ نَبَاتٍ أَوْ طَيْرٍ.
 تُغْمِضُ عَيْنَيْكَ عَلَى ضُحَى تَتَساقَطُ مِنْ سِلَالِهِ الْأَقْنَعَةُ،
 وَتَقْبِضُ بِكَفَيْكَ عَلَى لِجَامٍ غَامِضٍ، كَأَنَّمَا تَنْتَهِي أَنْتَ لِلْكُهُولَةِ،
 أَوْ تَنْتَهِي لَكَ الْكُهُولَةُ، لِتُخْتَرِلَا، مَعاً، ذَلِكَ السَّحَرُ الَّذِي يَنْبِضُ
 مَرَّةً وَاحِدَةً فَتَنْتَجِرُ الْحَيَاةُ شَوْقاً إِلَى نَبْضَةٍ ثَانِيَةٍ.

هِيَهَاتِ أَيُّها الطُّفْلُ أَنْ تَرَى غَيْرَ مَا رَأَيْتَ. وما الَّذي رَأَيْتَ،
 قُلْ لي، غَيْرَ عَرَبَاتٍ تَتِيئُ، وَينَابِيعَ هَارِبَةٍ مِنْ ضَرَبَاتِ الْغُبَارِ؟
 كَفَاكَ أَنْتَ حَالاً لِلْأَشْكَالِ لِتَطْمَئِنَّ إِلَيْكَ الْأَشْكَالُ. كَفَاكَ دَفْعاً
 بِي إِلَى نَدَامَى آخِثَظَنُوا الْجُذُورَ وَنَامُوا. لَكِنْ، بِاللَّهِ، لَا
 تُخَفِّفْ مِنْ وَطْءِ الْعِمَامِ عَلَيَّ وَوَطْءِ الثَّلُوجِ، حَبِثُ الْمَحْكِ
 بَيْنَهُمَا تَنْحَرُ الْعَصَافِيرُ وَالْوَقْتُ، نَائِراً مِنْ نَشِيجِكَ عَلَى

الأرضِ طُفولةً للأرضِ، نائراً شباكَ دَمِكَ السَّكرانِ لِتَلْتَقِطَ
الْمَلَحَمَةَ.

أنتَ طِفْلٌ، وما الَّذي أرومُهُ مِنْ طِفْلٍ إِلَّا أَنْ يَنْقُضَ عَنْ
ثِيَابِهِ الشَّمَالَ كُلَّهُ بَيْتاً بَيْتاً، شَجَرَةً شَجَرَةً، نَهْراً نَهْراً، بَيْدِراً
بَيْدِراً، سُنْبُلَةً سُنْبُلَةً، سَحَابَةً سَحَابَةً، وَأَنْ يَكْسِرَ جِرَارَ الْأُفُقِ
لِتَنْدَلِقَ أَشْرَابُ السُّنُونُو وَالْقَطَا؟... أَزْكُضُ قَدْرَ مَا تَحْتَجِلُ
ساقاكِ، أَزْكُضُ مِنَ الزَّوَابِعِ إِلَى الزَّوَابِعِ، وَأَرْفَعُ قَلْبَكَ الصَّغِيرَ
أَبْيَهالاً إِلَى السُّهُولِ الَّتِي تَتَزَاخَمُ مِنْ حَوْلِهَا الْحُرُوفُ وَالزَّرَازِيرُ.
أَلَيْسَ فِي صَوْتِكَ صَوْتُ بِنَاتِ آوَى؟ أَلَيْسَ فِي صَوْتِكَ صَوْتُ
شَرْخٍ؟ أَلَيْسَ فِيكَ مَا فِي الْمَدِيحِ كُلِّهِ مِنْ تَرْفٍ مَهْزُومٍ؟
أنتَ طِفْلٌ، وما الَّذي يَأْسِرُ الرِّيحَ فِيكَ غَيْرُ مَدَى مُتَرَعٍ
بِالرِّيحِ؟ دَغْنِي أَنْبَسِطْ تَحْتَ دِزْعِكَ كَمَا تَنْبَسِطُ الْفَجِيعَةُ،
فَاتِحاً ذِرَاعِي لِلْبُقُولِ وَلِلثَّعَالِبِ، كَأَنَّمَا أَنَا هَوَى أَنْدَثَارٍ، أَوْ هَوَى
رَحِيلِ شَاهِرٍ فُؤوسُهُ عَلَى الْخَلَائِقِ... وَأَنْتَ طِفْلٌ، قُلْ لِي مَا
الَّذِي رَأَيْتَ مِنْ طِفْلٍ؟ قُلْ رَأَيْتَ صَوْتَكَ عَارِياً بَيْنَ الْأَصْوَاتِ،
لَاهِثاً كَرَّةً مَكْسُورَةً تَتَدَاغُ مِنْ شُقُوقِهَا الْحَدَاثُ وَتَنْبَجِسُ
الْمَنَاجِلُ. أَوْ أَثْبَاهُ الطُّفْلِ، كَمْ سَمِعْتُكَ يَقْظَانُ فِي الْحِكَايَةِ

تَسْرُدُ لِلْحِكَايَةِ قَلْبَكَ الصَّغِيرَ؛ تَسْرُدُ لِلْحِكَايَةِ لَهُوَ الْأَفْخُوَانِ،
وَتَنْسَى كَيْفَ طَعَنْتَ بِخَنْجَرِ النَّدَى بُيُوتَ بَرِيفَا، وَمُوسِيسَانَا
وَعَامُودَا، وَكَيْسْتِكَ وَبَهَارْنِكَ وَمُوزَانَ وَسِيْمَتِكَ، وَحَلَكُو
وَكَوْجَكَ، وَالْعَنْتَرِيَّةَ، وَتَرِيْسِي، وَعَاكُولَةَ، وَهَرَمَ رَشَ، وَهَرَمَ
شِيخُو، وَ... إلخ إلخ.

أَنْتَ طِفْلٌ، هَا، تَجْمَعُ فِي جُيُوبِكَ أَلْبَاقِلَاءَ الْبَرِّيَّةِ، وَأَزَاهِيرَ
الْبُشْتَارِ السُّكَّرِيَّةِ. هُنَا تَتَعَمَّدُ أَنْ يَرَاكَ نَوَاطِيرُ الْقَمَحِ لِتُضَلِّلَ
النَّوَاطِيرَ. تِلْكَ مَلْهَاتُكَ، تِلْكَ مَلْهَاءُ غُمْرٍ سَكْرَانٍ كَدَمِكَ
السُّكْرَانِ. تِلْكَ مَلْهَاءُ نَصَبْتَهَا بَيْنَ فِخَاخِكَ لِلْحَقُولِ كُلِّهَا،
وَضَحِكْتَ إِذْ عَلِقْتَ الْحَقُولُ حَتَّى تَضَاخَكَ مِنْ حَوْلِكَ أَلْهَوَاءُ.
وَكُنْتَ أَنْتَ وَالْهَوَاءُ عَاقِدَيْنِ أَمْتِدَادَاتِكُمَا مَعًا، وَتَنْفُخَانِ فِي بُوقٍ
وَاحِدٍ لِتَسْتَنْفِرَا طَيْشَ الْمَخْلُوقَاتِ. لَقَدْ عَرَفْنَا، يَقِينًا، بَعْدَ كُلِّ
هَذَا الرَّحِيلِ، أَنَّكَ أَنْتَ مَنْ حَفَرَ طَرِيقَ غَرِيَابِ التَّنِّ وَمَوَّهَهَا
لِيَكْسِرَ قَوَائِمَ بَغْلٍ سَمْعَانَ، وَأَنْتَ مَنْ أَوْصَلَ سِلْكَ الْكَهْرَبَاءِ
بِبَابِ فُزْنٍ مُرَادُو فَمَا أَمْسَكَهُ أَحَدٌ إِلَّا صُبْعُ. وَأَنْتَ مَنْ دَخَرَ
الْمِدْحَلَةَ الْحَجَرِيَّةَ عَنْ سَطْحِ الْبَيْتِ عَلَى كَلْبٍ فَلَمَزَ فَشَلَّ
نِصْفَهُ. وَأَنْتَ مَنْ قَتَلَ دِيكَ هِيلَانَ ذَا الرِّقَبَةِ الْعَارِيَّةِ وَالْعَرَفِ

الْمَقْصُوصِ بِحَجَرٍ. وَأَنْتَ مَنْ رَشَّ الْبَهَارَ فِي بَرْكَةِ إِرْزَاتِ
سَقْمُورٍ فَصِرُونَ مَشْعُورَاتٍ. وَأَنْتَ مَنْ سَرَقَ عَصَا كِتَامِ الْأَعْمَى.
وَأَنْتَ مَنْ كَسَرَ أَحَدَ قَرْزَيْنِ كَبِشٍ مِيرٍ. وَأَنْتَ مَنْ نَامَ، أَحْيَرًا،
وَمِلْءُ حُلْمِهِ أَنْ يَفْتَحَ مَقَابِرَ هَلَالِيَّةٍ قَبْرًا قَبْرًا لِيرَى كَيْفَ يَتَسَامَرُ
الْمَوْتَى فِي مَخَابِيهِمُ الضُّبِّيَّةِ. لَكِنَّكَ طِفْلٌ، وَمَنْ ذَا الَّذِي
يُعَاقِبُ طِفْلًا ضَرَبَتْهُ صَوَاعِقُ الْأَفْحَوَانِ فَتَنَّا زَبُوعُمَا بُوعُمَا بَيْنَ
نَبَاتٍ حَدِيدٍ وَعَغِيمٍ حَدِيدٍ؟ آه كَمْ قُلْنَا: لَا تَقْتَرِبْ أَثِيهَا الطِّفْلُ،
لَا تَقْتَرِبْ مِنَ الْحَطَامِ، بَيْدَ أَنَّكَ اقْتَرَبْتَ تَلْتَقِطُ مِنَ الْحَطَامِ
بَقَايَا خَزَفٍ لِتُرَيِّنَ الْمَرَاثِي.

لَقَدْ عَرَفْنَا، يَقِينًا، أَنَّكَ كُنْتَ يَقْظَانٌ طَوَالَ هَذَا الشَّبَابِ
الضَّارِبِ بِجَذْوَرِهِ فِي خُطُوتَيْنَا، وَالْمُرْتَسِمِ كَحَثَمٍ عَلَى
الْفُتُوحَاتِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ لَنَا؛ لَكِنْ لِمَ أَثْقَطْنَا الْآنَ وَأَسْلَمْنَا
لِلدُّعَابَةِ؟ كِبَارُ نَحْنُ أَثِيهَا الطِّفْلُ، كِبَارُ يَلْهُونَ بَقَعَقَعَةٍ
الْحَدِيدِ أَمَامَ بَابِ الْوَقْتِ، وَيَذْدُفُونَ أَلْفَلَزَ الْبَارِدِ. كِبَارُ نَحْنُ،
لَا نَبْشُطُ أَقْدَارَنَا لِسُنُونُوتٍ عَابِرَةٍ أَوْ لِمَرْحٍ، وَلَا نَلْبَسُ إِلَّا حِكْمَةً
الْبَطْشِ. فَإِذَا هَمَمْتَ، ثَانِيَةً، أَنْ تَخْتَبِيءَ مِنَ الْأَرْضِ وَرَاءَ
فَرَاشَةٍ فَلَا تَنْتَظِرُنَا، لِأَنَّ سَنَقِيفَ هُنَا، تَحْتَ هَذَا الصَّلِيلِ

الصَّامِتِ لِلأُدْوَارِ الصَّامِتَةِ، رَافِعِينَ قُرُونَ أَلْمَاعِزِ فِي مَهَبِّ
أَلْمَلْهَةِ.

كُنْتُ يَقْظَانُ فَأَيَّقَظْتُنَا لِنَلْمَحَكَ عَابِرًا بَوَابَةَ النَّبَاتِ، وَوَرَاءَكَ
نَيْرُكَ مِنْ مِيَاهِ وَرِيشٍ. لِنَلْمَحَكَ وَشَطَّ أَسْلِحَةِ الضُّحَى دَافِعًا
سُهُولَ كَيْسَتِكَ إِلَى نَصِيبِينَ، غَيْرَ عَابِيٍّ بِخَرَسِ أَلْمُدُنِ الَّذِينَ
أُطْلِقُوا عَلَى مَرَجِكَ سِهَامَ تَارِيخِ أُنْكُمْ. كُنْتُ مُمْتَدًّا، آنَذَاكَ،
مِثْلَ قَلْبِ سَكْرَانَ، وَبَقِيَتْ مُمْتَدًّا مِثْلَ قَلْبِ سَكْرَانَ، فَهَا أَنْتَ
تَرَانَا - نَحْنُ الَّذِينَ أَنْخَسَرُوا - رَاكُضِينَ مِنْ جُرُفٍ إِلَى جُرُفٍ
لِنَوْقِفَ أَلْجِسَارَ أَلْجِهَاتِ عَنَّا، خِشْيَةً أَنْ نَرَى أَلْحَاضِرَ الَّذِي لَا
جِهَاتَ لَهُ. إِيهِ، ظَلٌّ مُمْتَدًّا أَيُّهَا الصَّغِيرُ، ظَلٌّ صَغِيرًا كَمَا
تَشْتَهِيكَ أَلْجُذُورُ، وَأَكْسِرُ مَا شِئْتُ مِنْ أَلْجِرَارِ وَأَلْأَبَارِقِ، فَأَنْتَ
حُلُوٌّ فِي طَيْشِكَ، حُلُوٌّ فِي سُلْطَانِكَ الطَّاعِي، حُلُوٌّ حِينَ تَخْلَعُ
سِيَاحَاتِ أَلْوَرْدِ وَتَبْطِشُ أَلْوَرْدَ؛ حُلُوٌّ حِينَ تَرْكَبُ ظَهَرَ أَلْكَبْشِ
فَيَهِيحُ، حُلُوٌّ حِينَ تَزْمِي أَلْيَنَابِيعَ بِأَلْحَجَرِ فَيَجْعَلُ أَلْبَقَرُ الشَّارِبُ،
حُلُوٌّ حِينَ تَسْلُخُ أَلْجِرَبَاوَاتِ أَوْ تَغْبِثُ بِأَغْشَاشِ أَلْعَصَافِيرِ؛ حُلُوٌّ
حِينَ تَسْرِقُ أَلْبُقُولَ وَتَنْصُبُ أَلْفِخَاخَ لِلْحَمَامِ؛ حُلُوٌّ حِينَ تُحْرِقُ
أَلْقِطَطَ وَأَلْبِيَادِرَ؛ حُلُوٌّ حِينَ تُطْلِقُ أَلثَّيْرَانَ مِنْ أَلزَّرَائِبِ فَتَشْرُدُ

الثيران؛ حُلُو حِينَ تَرْبُطُ مَنَاقِيرَ الدِّيَكَةِ الرُّومِيَّةِ؛ حُلُو حِينَ
تَهْذِي عَنْ كَوَاكِبَ زَاحِفَةٍ وَمِيَاهِ تَزْتَدِي جَنَاحَ الطُّيُورِ؛ حُلُو
حِينَ تَهْذِي عَنْ سَائِسِ يَسُوقِ الْغُيُومِ بِسَوَاطِيهِ، وَعَنْ عَرَبَاتٍ فِي
قَاعِ النَّهْرِ؛ حُلُو حِينَ تَهْذِي عَنْ ثَعَالِبِ الظَّلَامِ وَتُيُوسِهِ، وَعَنْ
بَغَالِ ذَاتِ شَعْرِ كَشَعْرِ النِّسَاءِ. حُلُو حُلُو أَنْتَ، فَدَعْنَا بِاللَّهِ
عَلَيْكَ.

غَيْرَ أَنَّكَ، أَنْتَ الْيَقْظَانُ، تُوقِظُنَا لِتَشْرُدَ الْمَهْرَلَةَ.

(انتهى السجل، وتليه المُنْفَصِلَاتُ
الخمسةُ فِي السيرةِ الناصية).

فاصل أول

العنف الهندسي

كُتِبَ صِغَاراً يَا صَاحِبِي، صِغَاراً جِداً، مِثْلَ فِرَاحِ الْإِوْزِ،
وَاقِفِينَ عَلَى طَرَفِي الشَّارِعِ كَشَطُورِ الْكِتَابَةِ. وَكَانَ ثَمَّتْ هَرَجٌ
كَبِيرٌ، هَرَجٌ مَهُولٌ. وَكَانَ الْمُعَلِّمُونَ، الَّذِينَ يَقْفِزُونَ بَيْنَ
الصُّفُوفِ مُلَوِّحِينَ بَعْضُهُمْ، أَشْبَهَ بِقَطِيطِ مَذْعُورَةٍ، يَصْرُخُونَ:
«اتَّبِعُوا، لَوْحُوا بِأَيْدِيكُمْ حِينَ يَمُرُّ الرَّئِيسُ»... وَمَرَّ الرَّئِيسُ، مَرّاً
وَسَطْنَا مُلَوِّحاً بِيَدَيْهِ، ثُمَّ اخْتَلَطَتِ الصُّفُوفُ الْهَنْدَسِيَّةُ وَرَاءَ
الْمَوْكِبِ، وَتَحَوَّلَتْ إِلَى كُتْلٍ سَوْدَاءٍ مُتَدَحْرِجَةٍ، عَنِيفَةٍ فِي
فَوْضَاهَا.

سَقَطْتُ عَلَى الْأَرْضِ مِرَاراً، تَضَطَّيْتُ بِي الْأَجْسَادُ وَالْأَرْجُلُ،
وَأَنَا أَجَاهِدُ لِلْخُرُوجِ مِنَ الْبَحِيرَةِ الْآدَمِيَّةِ، وَحِينَ وَصَلْتُ إِلَى
الْبَيْتِ كَانَ وَجْهِي أَقْرَبَ إِلَى التُّرَابِ مِنْهُ إِلَى وَجْهِ طِفْلِ.
تِلْكَ كَانَتْ بَدَايَةَ الْغُنْفِ يَا صَاحِبِي، بَدَايَةَ أَمْتَدَّتْ أُسْبُوعَيْنِ
فِي مَدِينَةٍ صَغِيرَةٍ قُرْبَ جِبَالِ طُورُوس؛ بَدَايَةَ فَرَجٍ رَسْمِيٍّ

«عَنِيفٍ». وَكَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَهْتِفَ طَوَالَ الْوَقْتِ، دَاخِلَ حُجُرَاتِ الدَّرَاسَةِ وَخَارِجِهَا، وَأَنْ نُزَيِّنَ الْجُدْرَانَ مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ، حَيْثُ يَفْتَضِي الْأَمْرُ وَلَا يَفْتَضِي، وَأَنْ نُعَلِّقَ أَعْلَاماً صَغِيرَةً عَلَى صُدُورِنَا، حَيْثُ يَفْتَضِي الْأَمْرُ وَلَا يَفْتَضِي، وَأَنْ نَرْسُمَ فَرْحاً غَامِضاً عَلَى وُجُوهِنَا، دُونَمَا أَلْتِفَاتٍ إِلَى أَعْمَاقِنَا.

كَانَ غُنْفُ الْفَرْحِ «الرَّسْمِيِّ» غُنْفاً يَفُوقُ طَاقَةَ طِفْلِ لَارِسْمِيِّ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَتَحَمَّلَهُ فِي خُضُوعٍ سَاحِقٍ، وَأَنْ أَصِيرَ غَنِيفاً بِدَوْرِي، غَنِيفاً إِلَى دَرَجَةٍ تَفُوقُ طَاقَةَ طِفْلِ.

تِلْكَ كَانَتْ بِدَايَةَ الْغُنْفِ يَا صَاحِبِي، بِدَايَةَ دَعْتَنِي إِلَى سَرِقَةِ الطَّبَاشِيرِ الْمَلُونَةِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ، لِأَمْلَأُ مُرَبَّعَاتِ السُّورِ الْحَجَرِيِّ فِي الْحَدِيقَةِ الْعَامَّةِ حُرُوفاً هِيَ حُرُوفُ أَشْمِي، وَحُرُوفاً أُخْرَى هِيَ حُرُوفُ صِنْفِ الْقَلَمِ الرِّصَاصِ الَّذِي أَكْتُبُ بِهِ (H. B.) وَكَانَ الْأَشْمَانِ مَدْخَلاً إِلَى كَثِيرِ «السُّلُوكِ الْعَامِّ»، سُلُوكِ «النَّظِيفِينَ»، وَسُلُوكِ الْحِرْصِ عَلَى «النَّظَافَةِ» الْعَامَّةِ. لَكِنَّ الْغُنْفَ الَّذِي ظَنَنْتُهُ خَاصّاً بِي تَسَلَّلَ إِلَى بَيْتِنَا مُنْذُ ذَلِكَ الْمُرُورِ الْعَنِيفِ لِلرَّئِيسِ، وَاتَّخَذَ أَشْكَالاً تَدْرِيجِيَّةً فِي ظَهْوَرِهِ دَاخِلَ عَائِلَةٍ تَبْلُغُ أَحَدَ عَشَرَ فَوْداً.

كَانَتْ بَاحَةً بَيْتِنَا يَا صَاحِبِي، الْبَاحَةُ الْوَاسِعَةُ جِدًّا،
وَالْمُحَاطَةُ بِسُورِ عَالٍ، تُقْبَلُ رُؤَيْدًا رُؤَيْدًا عَلَى وَخْشَةٍ
لَمْ تَعْهَدْهَا. فَالضُّيُوفُ - الْغُرَبَاءُ مِنْهُمْ وَالْمَعْرُوفُونَ - الَّذِينَ
كَانُوا يَأْتُونَ وَيَمْضُونَ دُونَمَا سَبَبٍ لِلْمَجِيءِ أَوْ لِلْمَغَادِرَةِ،
يَتَنَاقَصُونَ يَوْمًا بَعْدَ آخَرَ، تَبْعًا لِتَنَاقُصِ أُمَلَّاكِنَا، وَكَانَ أَبِي
يَزْدَادُ تَجَهُمًا وَطَاطَأَةً، يَزْدَادُ غُفَاءً صَامِتًا لَا يُفْصِحُ عَنْ كُنْهِهِ
إِلَّا دَاخِلَ الْأَسْوَاقِ التِّجَارِيَّةِ فِي الْمَدِينَةِ، حَيْثُ يَصْطَلِدُهُمُ
التَّجَارُ الْيَائِسُونَ، فِي مُضَارِبَاتِهِمْ عَلَى الْحُبُوبِ، فَتَزْدَفُ أَكْثَرُ
مِنْ مَائَةِ يَدٍ تَحْمِلُ خُطَافَاتٍ حَدِيدِيَّةً وَتَهْوِي فَيَتَنَاثَرُ اللَّحْمُ
الْعَارِي.

كَانَتْ تِلْكَ بَدَايَةَ الْفَرَحِ «الرُّؤْسَمِيِّ» الْعَنِيفِ، وَبَدَايَةَ الْفَقْرِ
الشَّعْبِيِّ الْعَنِيفِ. بَدَايَةُ خَرَجَتْ مِنَ الْمَدْرَسَةِ إِلَى الْأَسْوَاقِ
التِّجَارِيَّةِ، وَدَخَلَتْ الْبُيُوتَ وَلَمْ تَخْرُجْ مِنْهَا.

وَكُنْتُ طِفْلًا يَا صَاحِبِي، لَا أَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ صَبَاحًا إِلَّا
بَعْدَ خُرُوجِ أَبِي مِنَ الْبَيْتِ، لِيَتَسَنَّى لِي أَنْ أَصْرُخَ فِي وَجْهِ
أُمِّي: «أَنَا لَا أُحِبُّ الشَّيْءَ. لَا أُحِبُّ الشَّيْءَ...». ثُمَّ أَرْكُلُ
الْإِبْرِيْقَ فَأَذْلُقُهُ كَامِلًا، وَأَقْدِفُ بِالْكَأْسِ قَدْرَ طَاقَتِي إِلَى الْحَائِطِ.

ثُمَّ أَهْرُبُ إِلَى الْمَدْرَسَةِ، وَأَعُوذُ أَهْرُبُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ إِلَى
مُسْتَنْقَعٍ قَاسِمٍ لَأُرَاقِبَ أَفَاعِي الْمَاءِ.

كَانَ ذَلِكَ دَأْبِي كُلَّ صَبَاحٍ، كَانَ دَأْبٌ إِخْوَتِي أَيْضاً، مُنْذُ
أَنْ مَلَأَ أَبِي الْبَيْتَ بِأَشْبَاحٍ تَحْمِلُ الْخَطَاطِيفَ الْحَدِيدِيَّةَ،
بِأَشْبَاحٍ هَادِيَةٍ تَلْفُ زُؤُوسَهَا بِخَطَّاتٍ مُرْقِطَةٍ تَكْثُرُ عَلَيْهَا لَطَخَاتُ
دَمٍ جَافٍ.

وَأَتَسَّعَتِ الْبِدَايَةُ؛ اتَّسَعَتْ كِدَوَائِرُ الْمَاءِ فِي بَرْكَةِ رَمَوْهَا
بِحَجَرٍ. وَصَارَتْ الْجِرَارُ الْخَرْفِيُّ، الْمَرْكُوزَةُ عَلَى قَوَاعِدٍ مِنَ
الْخَشَبِ دَاخِلَ الْبَيْتِ، تَتَسَاقَطُ وَاحِدَةً تَلُو أُخْرَى، تَتَسَاقَطُ
وَتَتَنَائَرُ. وَتَأْتِي جِرَارٌ جَدِيدَةٌ لِتَتَسَاقَطَ وَتَتَنَائَرُ. وَعَرَفْنَا، نَحْنُ
الْإِخْوَةَ، أَنَّ ذَلِكَ لَا يَشْفِي غَلِيلَنَا، فَصِرْنَا نَزْمِي زُجَاجَ النُّوَافِدِ
بِالْحِجَارَةِ، وَنَغِيبُ بَعْدَهَا عَنِ الْبَيْتِ يَوْماً أَوْ يَوْمَيْنِ، حَتَّى تَهْدَأَ
أُمنًا، فَنَعُوذُ نَكْسِرُ جِرَّةً أَوْ نَخْلَعُ شُجَيْرَةً وَرَدٍ مِنْ جُذُورِهَا،
وَنَهْرُبُ مِنْ جَدِيدٍ.

وَأَتَسَّعَتِ الْبِدَايَةُ، وَأَتَسَّعَتِ الْكَرَاهِيَّةُ، وَأَسْتَفْحَلَتِ الْعَدَاوَةُ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ أُمَّنَا. نَهْرُبُ مِنَ الْبَيْتِ كَثِيراً، وَحِينَ يَشْقُطُ أَحَدُنَا
فِي قُبْضَتِهَا يَغِيبُ عَنِ الْوَعْيِ. أُمِّي لَمْ تَكُنْ تَكْتَفِي بِالضَّرْبِ

بِالْعَصَا، كَانَتْ تَضْرِبُ بِكُلِّ مَا يَقَعُ فِي يَدَيْهَا، أَحَجَرًا كَانَ أَمْ
 حَدِيدًا. وَيَسِيلُ دُمْنَا، نَحْنُ الْأَطْفَالُ، وَقَدْ قَدَرْتُ أَنْ أَنْفَذَ مِنْهَا
 ذَاتَ مَرَّةٍ يَا صَاحِبِي، فَرَكَضْتُ إِلَى رُكْنٍ مِنْ بَاحَةِ الْبَيْتِ
 تَحْتَفِظُ فِيهِ بِسَرِّ مِنَ الْأَرَانِبِ، خَلَعْتُ الشَّبَكَ الْمَعْدِنِيَّ مِنْ
 حَوْلِهَا، وَهَوَيْتُ عَلَيْهَا بِإِبْرِيْقٍ نُحَاسِيٍّ ذِي قَاعِدَةٍ مُشْتَدِيرَةٍ
 حَادَّةٍ. صَارَتْ الْأَرَانِبُ تَتَخَبَّطُ. تَمُدُّ قَوَائِمَهَا الْخَلْفِيَّةَ ثُمَّ
 تَزْعِشُ لِتَهْدَأَ هُدُوءًا لَا حُدُودَ لَهُ.

إِنَّا عَشْرَ أَرْبَابًا حَصِيلَةُ الْمَجْرَزَةِ، وَعِشْرُونَ يَوْمًا مِنَ التَّسْكَعِ
 حَوْلَ الْبَيْتِ دُونَمَا جُرْأَةٍ عَلَى دُخُولِهِ. أَنَا بَيْنَ شُجَيْرَاتِ الْقُطْنِ
 فِي حَقْلٍ قَرِيبٍ، وَأَكُلُ مِمَّا يَسْرِقُهُ لِي إِخْوَتِي.

وَضَاقَتْ الْبَدَايَةُ لِتَصْيِيرِ كَالرَّسَنِ. ضَاقَتْ الْمَدِينَةُ الصَّغِيرَةُ
 الْمُتَاخِمَةُ لِجِبَالِ طُورُوسَ. يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
 بِمَا يُشْبِهُ الْهَمْسَ، وَأَبِي يَزْدَادُ هَرَمًا. وَخَدَهُمُ الْعَتَالُونَ الَّذِينَ
 أَعْدَقَ عَلَيْهِمُ أَبِي، فِي مَجْدِهِ، بِالْمُؤَنَاتِ مِنَ الْحِنَظَةِ، يَشُدُّونَ
 أَرْزُهُ. وَكَانُوا جَهْلَةً عَنِيفِينَ مِنْ أَجْلِ الْخُبْزِ. يَقُولُونَ: «لَيْكُنْ...
 لَنْ تَكُونَ صَفْقَةً إِلَّا وَلَكَ حِصَّةٌ فِيهَا». وَيُهْدَّدُونَ سَائِقِي
 الشَّاحِنَاتِ. لَكِنَّ الدَّوْلَةَ تَوَلَّتْ وَخَدَهَا تَسْوِيقُ كُلِّ شَيْءٍ،

فَانْقَسَمَ الْعَتَالُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، صَارُوا فُرَادَى، يَسْعَى وَاحِدُهُمْ
بِخَطَايِهِ الْخَدِيدِيَّ إِلَى سَحْبِ لُقْمَةٍ الْآخِرِ مِنْ قِمِهِ.

كُنَّا نَرَى إِلَى ذَلِكَ، نَحْنُ الْأَطْفَالُ، وَنَقْتَسِمُ الْعُنْفَ،
نَتَخَاطَفُهُ كَمَا نَتَخَاطَفُ الْخَلَوَى الْمُتْسِخَةَ مِنَ الْأَيْدِي
الْمُتْسِخَةِ. وَكَانَ مَلَكُوتُنَا هُوَ الْمَلَكُوتُ الْأُبْعَدُ عَنِ السَّمَاءِ،
كَانَ مَلَكُوتًا مِنَ الْغُبَارِ وَمِنْ فَرْحِ السَّبَاحَةِ فِي مُسْتَنْقَعٍ قَاسِمُو،
أَوْ الرُّكُضِ بَيْنَ السَّنَابِلِ لِتَتْرُكَهَا وَرَاءَنَا عَضْفًا مَأْكُولًا. وَنَتَبَارَى
فِي قُنُصِ الدَّجَاجَاتِ الشَّارِدَةِ بَيْنَ الْحُقُولِ بِمَقَالِينَا: نَتَخَبَّطُ
وَتَهْوِي. تَرْكُضُ وَتَهْوِي. تَفْرُدُ أَجْنِحَتَهَا لِصُقِّ الْأَرْضِ وَتَفْتَحُ
مَنَاقِيرَهَا الَّتِي تَمْتَلِئُ بِالْثَّرَابِ، ثُمَّ تَهْدَأُ.

كُنَّا أَطْفَالًا يَا صَاحِبِي، أَطْفَالًا يُحِبُّونَ وَصَفَ الْحَيَوَانَاتِ
وَهِيَ تَمُوتُ فِي بُطْءٍ. نُحِبُّ وَضْعَ وَرَقِ الْحَرُشْنَةِ فِي أَنْوْفِنَا
حَتَّى يَسِيلَ الدَّمُ، وَنَتَبَاهَى بِالَّذِي يَسِيلُ دَمُهُ أَكْثَرَ، بِالَّذِي
يَحْمِلُ كَدَمَاتٍ أَكْثَرَ، بِالَّذِي تَزْدَادُ الْجِرَاحُ الْعَمِيقَةُ فِي وَجْهِهِ
أَوْ يَدَيْهِ، وَيَا مَا وَقَفْنَا فِي اللَّيْلِ تَحْتَ الْمَصَابِيحِ الشَّحِيحَةِ فِي
الشُّوَارِعِ، نَنْتَظِرُ وَصُولَ عَرَبَاتِ الْخُضَرِ أَوْ الْبَطِّيخِ الْأَخْضَرِ مِنْ
الْقُرَى وَالْحُقُولِ الْمُجَاوِرَةِ إِلَى سَوَاقِ الْمَدِينَةِ. نَتَلَطَّى حِينَ

نَسْمَعُ حَوَافِزَ الْبِغَالِ، وَصَرِيرَ الْعَجَلَاتِ الْحَشِيَّةِ. نَتَلَطَّى حَتَّى
تَجْتَازَنَا فَتَنْهَزُولُ، حُفَاةً، وَرَاءَهَا، حَامِلِينَ، دَائِمًا، سَكَكِينَ
صَغِيرَةً أَوْ شَفَرَاتِ حِلَاقَةٍ، وَتَقْطَعُ الْجِبَالَ فَتَتَدَخَّرُجُ الْحُمُولَةَ.
نَحْمِلُ مَا نَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ وَنَهْرُبُ، لَا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ اللَّحَاقَ بِنَا
وَنَحْنُ حُفَاةً. نَأْكُلُ قَلِيلًا مِمَّا خَطِفْنَا، وَتَتَرَأَّسُ بِالْبَاقِي.

كُنَّا صِغَارًا يَا صَاحِبِي، صِغَارًا يَسْهَرُونَ فِي اللَّيْلِ تَحْتَ
مَصَابِيحِ الطُّرُقَاتِ. صِغَارًا لَا يُفَكِّرُونَ إِلَّا فِي سَرِيقَةٍ أَوْ خَطْفِ
أَوْ تَخْطِيمٍ، وَيَكْرَهُونَ الْمَدْرَسَةَ، يَكْرَهُونَ الدَّفَايِرَ وَالْمُعَلِّمِينَ،
وَيَزْجِفُونَ فِي الصَّبَاحِ حِينَ يَمُرُّ عَلَيْهِمُ التَّائِظُ لِيَرَى أَظْفَارَهُمْ
وَشُعُورَهُمْ. نَخَافُ دَائِمًا. نَخَافُ مِنَ الْبَيْتِ، وَمِنَ الْمَدْرَسَةِ،
وَمِنَ الشُّرُطِيِّ. وَنَتَمَنَّى أَنْ نُفِيقَ ذَاتَ صَبَاحٍ فَنَرَى الْأَرْضَ قَفْرًا
إِلَّا مَتَا.

كُنَّا أَطْفَالًا بِلَا طُفُولَةٍ. وَكَانَ الْكِبَارُ يَتَبَاهَوْنَ بِوَحْشِيَّتِنَا.
إِنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْأَطْفَالَ الْقُسَاةَ. وَنَحْنُ نُحِبُّ الرِّجَالَ الْقُسَاةَ.
الرِّيَاضِيُّونَ يَفْتِنُونَنَا، وَنَقْتَدِي بِالْقَبْضَايَاتِ. لَا طِفْلَ إِلَّا وَفِي
جَبِيهِ سِكِّينَ، أَوْ عَلَى وَسْطِهِ سِلْسِلَةٌ حَدِيدٍ. وَالْكُلُّ يُثْقِنُ صُنْعَ
مِقْلَاعٍ مِنَ الْقَنْبِ، أَوْ صُنْعَ كِرْبَاجٍ مِنْ أَشْرَطَةِ الْكَهْرَبَاءِ الرَّفِيعَةِ،

وَالْكُلُّ مَهْوُوسٌ بِجَمْعِ الثُّفَايَاتِ الثُّحَاسِيَّةِ لِأَنَّهَا تُبَاعُ. وَفِي
مَقْدُورِ الْكُلِّ أَنْ يُحْطَمَ سَيَّارَةٌ لِيَأْخُذَ مِنْهَا قِطْعَةً نُحَاسِيَّةً، يَقُودُهُ
تَمْنُهَا إِلَى السَّيْنَمَا.

إِنَّا نُحِبُّ كَيْفُورِكَ لِأَنَّهُ تَغَلَّبَ عَلَى سِتَّةِ رِجَالٍ مُسَلَّحِينَ.
نُحِبُّ كِنْعَانَ لِأَنَّهُ يَدْخُلُ آيَةً دَارٍ لِلْسَّيْنَمَا مَجَّانًا. نُحِبُّ شُرُ
الْعَتَّالِ، لِأَنَّهُ يَتَقَاضَى أَتْعَابُهُ مِنْ كُلِّ تَاجِرِ حُبُوبٍ، مِنْ دُونِ أَنْ
يَحْمِلَ كَيْسًا وَاحِدًا عَلَى ظَهْرِهِ، وَهُوَ عَنِيذٌ وَسَرِيعٌ فِي إِشْهَارِ
خِنْجَرِهِ. دَخَلَ السَّجْنَ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً. هَذِهِ زُمُورُنَا.

... وَتَضْيِيقُ الطُّفُولَةِ، وَتَضْيِيقُ الْبِدَايَةِ: بَدَأْتُ أَعْيَ شَيْعًا
جَدِيدًا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ، عَنِيْفٌ وَصَارِيخُ: أَنْتَ كُرْدِيّ.
الْأَكْرَادُ خَطِرُونَ. مَمْنُوعٌ أَنْ تَتَحَدَّثَ بِالْكُرْدِيَّةِ فِي الْمَدْرَسَةِ.
هَذَا جَدِيدٌ، لِأَنَّكَ تَعْرِفُ أَنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْمَتَاخِمَةِ
لِجِبَالِ طُورُوسَ هُمْ أَكْرَادٌ. وَهَا أَنْتَ تَلْمِزُ الْمَسْأَلَةَ: الْمُعَلِّمُونَ
يُغَالُونَ فِي تَحْقِيرِ التَّلَامِيذَةِ وَضَرْبِهِمْ. وَالْبِدَاةُ الَّذِينَ يَهْتَفُونَ لِكُلِّ
نِظَامٍ جَدِيدٍ، يَفْدُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَيُرَاقِبُونَ الْوُجُوهَ. أَنْتَ طِفْلٌ،
لِكِنَّكَ لَسْتَ أَعْمَى. إِنَّهُمْ يَكْرَهُونَكَ سَلَفًا، وَلَا تَذَرِي لِإِذَا.
الْمُعَلِّمُ يَكْرَهُكَ وَيَكْرَهُكَ مُوَظَّفُ الدَّوْلَةِ وَالشَّرِطِيّ. هَذَا شَرُوطُ

جديد، فَلَا تُكُنْ عَنيفاً إِذَا، عَنيفاً أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي تَجَاةَ هَذَا
الْأَفْتِحَامِ الشَّيْطَانِيَّ.

تَنْظُرُ، بِدَوْرِكَ، إِلَى أَطْفَالِ الْبَدْوِ شَرَّراً فِي الْمَدْرَسَةِ. تَسْخَرُ
مِنَ الْحِلَاقَةِ الْغَرِيبَةِ لِشَعْرِهِمْ، وَمِنَ الْوَشْمِ الْأَزْرَقِ الَّذِي يُعْطِي
أُنُوفَهُمْ وَخُدُودَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ، وَمِنَ بَدَائِيَّتِهِمُ الْمُفْرِطَةِ. لَكِنَّكَ لَا
تَعْرِفُ لِمَاذَا يُفَضِّلُونَهُمْ عَلَيْكَ. وَلِذَا تَنْتَظِرُهُمْ بَعْدَ الْآنْصِرَافِ
مِنَ الْمَدْرَسَةِ، وَتَخْتَلِقُ أَيَّ سَبَبٍ لِلْمُشَاجَرَةِ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ.
يَطْلُبُ النَّاطِرُ أَنْ تَجْلُبَ وَلِيَّ أَمْرِكَ فَيَأْتِيَكَ وَالدَّكَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ.
يَحْتَقِرُهُ النَّاطِرُ لِلْكُنْتِيَةِ الْأَعْجَمِيَّةِ، لَكِنَّ الدَّكَ عَنيفٌ ذُو كِبَرِيَاءٍ،
يَقُولُ لِلنَّاطِرِ: «مَنْ أَنْتَ لِتُخَاطِبَنِي هَكَذَا؟»، يَقُولُ النَّاطِرُ: «رَبِّ
رَبِّكَ...». يَذْهَبُ أَبِي غَاضِباً. وَفِي الْيَوْمِ ذَاتِهِ يَقِفُ عَتَلَانٍ فِي
الشَّارِعِ الَّذِي يَضُمُّ بَيْتَ النَّاطِرِ، وَيَسْخَلَانِهِ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ
قَدَمَيْهِ. يَشْتَكِي النَّاطِرُ إِلَى الشَّرْطَةِ. تَأْتِي الشَّرْطَةُ فَيَرْفُضُ وَالِدِي
الْمُضِيِّ مَعَهُمْ. يَجْتَمِعُ الْقَبْضَايَاتُ وَالْأَقْرِبَاءُ أَجْمَعِينَ فِي غَضَبٍ
كَاسِحٍ. يَصِلُ الْأَمْرُ إِلَى مُدِيرِ الْمِنْطَقَةِ، وَهُوَ بِرُتْبَةٍ مُقَدَّم. يَأْتِي
الْمُقَدَّمُ فِي سَيَّارَةٍ فَخْمَةٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ حَسِينٌ آغَا صَارِخاً:
«سَادُوسُ قُبْعَتَكَ إِذَا أَخَذْتَ هَذَا الرَّجُلَ»، وَيُسَوِّي الْأَمْرَ فِي

هُدُوءٍ، وَفِي هُدُوءٍ يَتَخَلَّى النَّاطِرُ عَنْ عِدَائِيَّتِهِ، لَكِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا
تَنْتَهِي، فَتُضْبِحُ الطُّفُولَةُ جَحِيمًا، وَكَذَلِكَ الْبِدَايَةُ الَّتِي لَوُحَّتْ
فِيهَا بِبَدَايِكَ الصَّغِيرَتَيْنِ لِلرَّئِيسِ.

وَتَرَاكُمْ الْأُمُورَ، فَتُثْمَعُونَ فِي الذَّهَابِ، لَيْلًا، إِلَى حَقْلِ الْقُطَنِ
لِتَجْمَعَ جُوزُهُ الْأَخْضَرُ الَّذِي لَمْ يَتَفَتَّحْ بَعْدُ، وَتُثْمَعُونَ فِي اقْتِلَاعِ
نَبَاتِ الْعَجَّورِ وَشُجَيْرَاتِ الْبَاذِنُجَانِ، وَتُثْمَعُونَ فِي تَسْلُقِ السُّطُوحِ
لِتَهْدِمَ أَغْشَاشَ الْعَصَافِيرِ وَتَكْسِرَ بَيْضَهَا. وَيَصِلُ بِكَ الْأَمْرُ إِلَى
مُغَافَلَةِ حَارِسِ الْحَيِّ، النَّائِمِ دَائِمًا، لِيَتَسَرَّقَ مُسَدَّسُهُ الْمِيرِيُّ،
أَنْتَ وَجَمْعٌ مِنْ رِفَائِكَ، ثُمَّ تَخْتَارُونَ فَتُلْقُونَهُ فِي نَهْرِ جَعَجَعِ.
يَذْهَبُ الْحَارِسُ إِلَى السَّجَنِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، بَيْنَمَا تَضْحَكُ مِنْ
الْأَمْرِ وَتَتَنَدَّرُ بِهِ. أَمَّا وَالِدُكَ فَيَغْرَقُ فِي لُغْبَةٍ جَدِيدَةٍ، هِيَ
الصَّيْدُ. إِنَّهُ يُطْلِقُ طَلْقَةً ١٢ مَلْمً عَلَى غُصْفُورٍ وَاحِدٍ فَيَتَمَرَّقُ
الْغُصْفُورُ تَمَامًا. تُذْرِكُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ صَيْدًا، فَتَبْدَأُ صَيْدَكَ أَنْتَ،
وَسَطَ الطُّفُولَةِ الَّتِي لَمْ تَبْقَ طُفُولَةً. تَنْصُبُ الْفِخَاخَ هُنَا وَهُنَاكَ،
فَتَضْطَبِطُ الْعَصَافِيرَ وَالزَّرَازِيرَ وَالتَّيْتِي، وَكُلَّمَا تَمَكَّنْتَ مِنْ
طَيْرٍ نَزَعْتَ عَنْهُ رِيشَهُ، وَدَفَنْتَهُ حَيًّا. لَكِنَّكَ كُنْتَ تُحِبُّ شَوْقًا
إِلَى الظَّفَرِ بِهَزَازِ الذَّيْلِ، الَّذِي لَمْ تَتَمَكَّنْ مِنْهُ قَطُّ، فَهُوَ

مَا كَرُّ جِدًّا، لَا يَهْدَأُ فِي مَكَانٍ: إِنَّهُ التَّحْدِي حَقًّا، التَّحْدِي
الَّذِي يَجْعَلُكَ حَانِقًا إِلَى دَرَجَةٍ لَا تُطَاقُ، وَتُقَسِّمُ أَنْ تَسْلُقَهُ
حَيًّا إِذَا أَمْسَكَتَ بِهِ.

أَنْتِ طِفْلٌ بِلَا طُفُولَةٍ، وَالْبِدَايَةُ تَضِيقُ، وَمَعَ الْبِدَايَةِ تَأْتِي
الثَّلُوجُ، ثُلُوجُ السَّنَةِ ذَاتَهَا الَّتِي رَفَعَتْ فِيهَا ذِرَاعَيْكَ تَحِيَّةً عَنِيفَةً
لِمَجِيءِ الرَّئِيسِ. وَطَوَالَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ كُنْتَ تَتَسَلَّقُ سَطُوحَ
الْجَبَرَانِ لِتَمُدَّ مَدَاحِنَ بُيُوتِهِمْ بِالثَّلُوجِ. كَانُوا يُطَارِدُونَكَ أحيانًا
وَكُنْتَ مَاهِرًا فِي النَّجَاةِ، تَمَامًا مِثْلَ مَهَارَتِكَ فِي صُنْعِ
مُثَلَّجَاتِكَ الْخَاصَّةِ، الَّتِي هِيَ مَزِيجٌ مِنَ الثَّلَجِ وَدُبْسِ الْعِنَبِ.

أَنْتِ تُحِبُّ الثَّلَجَ، تُحِبُّ هَذَا اللَّوْنَ الطَّاعِنِي الَّذِي يَسْطُو
عَلَى الْأَلْوَانِ كُلِّهَا، تُحِبُّ أَمْتِدَادَهُ وَأَمْتِدَادَ خُطَاكَ فِيهِ، لَكِنَّهُ
يُعَقِّدُ الْأُمُورَ قَلِيلًا، لِأَنَّكَ حِينَ تَدْخُلُ الْبَيْتَ وَقَدْ أَمْتَلَأَ حِذَاؤُكَ
بِالثَّلَجِ، وَأَبْثُلَ جُورُبُكَ، تُغَافِلُ أَمُّكَ لِتَضَعَ الْجُورَبَ
عَلَى الْمِذْفَأَةِ تَمَامًا، وَلَا تَمْضِي دَقَائِقُ إِلَّا وَيَخْتَرِقُ. وَهُنَا،
أَيْضًا، تَهْرُبُ مِنَ الْبَيْتِ خَوْفَ الْقِصَاصِ. تَهْرُبُ إِلَى الثَّلَجِ
الْبَارِدِ وَتَزْتَجِفُ وَتَزْتَجِفُ وَتَزْتَجِفُ، حَتَّى يَغْدُو لَوْنُكَ أَزْرَقَ
مُحْتَقِنًا. تَشْتُمُ الثَّلَجَ وَتُحِبُّهُ. تَشْتُمُ الْبَيْتَ وَلَا تُحِبُّهُ. تَضْرِبُ

أُخَوِّتَكَ لِأَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ السَّطْحَ الْأَمْلَسَ لِلثَّلَجِ فِي بَاحَةِ الْبَيْتِ
وَهُمْ يَعْبَثُونَ. وَأَخِيرًا، تَنْطَوِي فِي زَاوِيَةِ مَا، حَرِينًا جِدًّا، وَحِينَ
لَا تَعْرِفُ كَيْفَ تُحَدِّدُ سَبَبًا لِحُزْنِكَ تَعُودُ إِلَى الْبَيْتِ مُسْتَسْلِمًا،
فَتَتَلَقَّفُكَ الْأَيْدِي، وَيَسِيلُ مِنْ أَنْفِكَ الدَّمُّ، أَنْتَ الطِّفْلُ.

تَهْدَأُ قَلِيلًا وَقَدْ أَحْمَرَّتْ عَيْنَاكَ. تُفَكِّرُ فِي فِعْلٍ مَا، فِعْلٍ
صَاحِبٍ أَوْ مُدَمِّرٍ. تَقْتَرِبُ مِنَ الْمِدْفَأَةِ لِتَفْتَحَ مَسِيلَ الْأَمَازُوتِ
عَلَى آخِرِهِ، وَتَضُجُ الْمِدْفَأَةُ وَتَحْمَرُّ كِرَاسُ لُفَافَةِ الْوَيْدِ. وَهُنَا
تَتَمَنَّى أَنْ يَزْدَادَ الْوَهْجُ، أَنْ تَنْفَجِرَ الْمِدْفَأَةُ وَتُحْرِقَ الْبَيْتَ، لَكِنْ
لَا شَيْءَ يَحْصُلُ، بَلْ تَتَفَجَّرُ أَنْتَ، تَتَفَجَّرُ طُفُولُكَ طِينًا وَطُيُورًا
عَارِيَةً مَيِّتَةً. تَتَفَجَّرُ طُفُولُكَ حُطَّافَاتِ حَدِيدِيَّةٍ وَسَكَكِينَ،
وَجِرَارًا مَكْسُورَةً، وَثِيَابًا مَلَوْنَةً بِالدَّمِّ، وَفَخَاخًا، وَبِنَادِقَ صَيِّدٍ،
وَبَطِّيخًا أَحْمَرَ مُهَشَّمًا عَلَى الْأَرْصَفَةِ.

فاصل ثان

في ارتطام الجهات

ها نَحْنُ، فِي قِنْبَازَاتِنَا الصَّغِيرَةِ، مُتَحَلِّقُونَ حَوْلَ دِيكَيْنِ رُومِيِّينَ. أَتَعْرِفُونَ الدَّيْكَ الرُّومِيَّ، الدَّيْكَ الَّذِي يَفْرُدُ ذَيْلَهُ كَمِرْوَاحَةٍ كَبِيرَةٍ وَتَتَدَلَّى زَوَائِدُهُ اللَّحْمِيَّةُ مِنْ فَوْقِ مِنْقَارِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ؟ أَتَعْرِفُونَ أَمِيرَ الدَّيْكَ، الْأَمِيرَ الصَّخَمَ، الَّذِي تَبْيَضُ أُنْثَاهُ بَيْضَةً فِي حَجْمِ ثَلَاثَةِ بَيْضَاتٍ مِنْ بَيْضِ الدَّجَاجِ؟ أَتَعْرِفُونَ بَيْضَةَ الدَّجَاجَةِ الرُّومِيَّةِ، الْبَيْضَةَ الْمَرْقُطَةَ الَّتِي تَكْفِي وَاحِدَةً مِنْهَا وَجِبَةً لَطْفَلٍ مِثْلِي؟... مَا أَخْلَى الدَّيْكَ الرُّومِيَّ وَأُنْثَاهُ، مَا أَخْلَى هَذَا الْعِرَاكَ الصَّعْبَ بَيْنَ دِيكَيْنِ رُومِيِّينَ.

ها نَحْنُ نَسْمَعُ خَبْطَةَ الْأَجْنِحَةِ وَخَبْطَةَ الْمَنَاقِيرِ. نَسْمَعُ الصَّوْتَ الْمُتَوَهِّجَ لِذَكَرَيْنِ مُمْتَلِفَيْنِ ذُكُورَةً، يَعْرِفُ أَحَدُهُمَا أَنَّ الْعَلَبَةَ صِنُو الْأَنْكِسَارِ، لَكِنَّ الصَّرَاعَ يَجْعَلُ اللَّعْبَةَ أَكْثَرَ مِنْ لُغْبَةٍ، بَلْ يَجْعَلُهَا تَوَامَ حَيَاةٍ لَا تَسْتَوِي إِلَّا بِاللُّغْبَةِ. لِذَلِكَ تَشْتَدُّ خَبْطَةُ الْأَجْنِحَةِ، وَيَشْتَدُّ أَحْمِرَاؤُ

الَّلَحْمِ، تَشْتَدُّ الِاتِّفَاحَاتُ وَالْهَوَاجِسُ، وَيَغْلُو صُرَاخُنَا.

يَقْتَرِبُ الدِّيكُ مِنَ الْآخِرِ وَيَغْلُوهُ قَبْلَ أَنْ يَنْقُرَهُ عَلَى الرَّأْسِ.
يَتَطَايَرُ الرِّيشُ، وَتَتَطَايَرُ الْعُيُونُ. نَقْرَةٌ مِنْ هَذَا وَنَقْرَةٌ مِنْ ذَاكَ.
الذَّيْلُ مَفْرُودٌ عَلَى آخِرِهِ، وَالْأَجْنِحَةُ تُلَامِسُ الْأَرْضَ كَأَيْدِي
الْمُصَارِعِينَ قَبْلَ الِالْتِحَامِ. وَنَصْرُخُ هَيَّا أَيُّهَا الدِّيكُ... هَيَّا
يَا أَبْنَى الْكَلْبِ.

يَبْتَغِدُ الدِّيكَانِ كَأَنَّهُمَا يَتَمَهَّلَانِ لِانْقِضَاضِ آخِرٍ. وَتَتَرَقَّبُ:
هَيَّا يَا أَبْنَى الْكَلْبِ. وَحِينَ يَهْدَانِ قَلِيلاً، نَذْفَعُ أَحَدَهُمَا فِي
اتِّجَاهِ الْآخَرِ، بَلْ نَجْرُهُ جَرّاً، فَيَبْدَأُ الْعِرَاكُ مِنْ جَدِيدٍ.
وَهُنَا، وَقَبْلَ أَنْ يَسْقُطَ أَحَدُ الْخَصْمَيْنِ، تَرُكُضُ أُمَّنَا صَارِخَةً:
«يَا زَبَانِيَّة... أَنْتُمْ وَحُوشٌ». وَنَرُكُضُ مِنْ سَاحَةِ الدَّارِ قَبْلَ أَنْ
يَنَالَنَا حَجَرٌ أَوْ ضَرْبَةٌ عَصَا.

نَعَمْ يَا صَاحِبِي، كُنَّا صِغَاراً آنَذَاكَ، صِغَاراً يَلْهُوْنَ بِصِرَاعِ
الدِّيكَةِ، أَوْ يَسْحَبُونَ الْبَيْضَ مِنْ تَحْتِ الدَّجَاجَاتِ قَبْلَ أَنْ
يَفْقُسَ الْبَيْضُ. وَيَا مَا كَسَرْنَا الْبَيْضَ فَوَجَدْنَا فِيهِ الصَّيْصَانَ
الْعَارِيَّةَ، الصَّيْصَانَ الدَّيْقَةَ الْمُبْتَلَّةَ الَّتِي لَمْ تَكْتَمِلْ، وَيَا مَا وَجَدْنَا
صَفَاراً مُغَطًّى بِالدَّمِ، أَوْ غَلَقَاتٍ شَبِيهَةً بِصِغَارِ الضَّفَادِعِ.

نَحْنُ نُحِبُّ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ أَنْ تَكْتَمِلَ، نُحِبُّ صِرَاعَ الدَّيْكَةِ
 حِينَ لَا يَكُونُ فِيهَا غَلَبَةٌ لِدَيْكَ، وَنُحِبُّ الْبَيْضَ الَّذِي لَمْ
 تَكْتَمِلْ فِيهِ الْأَجِنَّةُ. نُحِبُّ الْمَنَاقِيرَ الْقَوِيَّةَ، وَصَحْبَ الرِّيشِ.
 هَكَذَا نَحْنُ يَا صَاحِبِي، وَهَكَذَا هِيَ حَيَاتُنَا. لَمْ نَكُنْ نَحْنُ سَبَباً
 فِي صِرَاعِ الْحَيَوَانَاتِ. إِنَّهَا مُنْدَفِعَةٌ إِلَى ذَلِكَ بِغَرِيزَتِهَا. لَكِنَّا
 كُنَّا نَزِيدُ الْأَمْرَ إثَارَةً حِينَ نَجْعَلُ الصَّرَاعَ صِرَاعاً لَا بُدَّ مِنْهُ...
 أَتَعْرِفُ كَيْفَ يَا صَاحِبِي؟ سَأَقُولُ لَكَ إِنَّا كُنَّا نَدْفَعُ الْأَكْبَاشَ
 بَعْضُهَا صَوْبَ بَعْضٍ نُمْسِكُهَا مِنْ قُرُونِهَا، وَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ
 يَخْتَاجُ إِلَى جُهْدٍ كَبِيرٍ. يَكْفِينَا أَنْ نُقَرِّبَ كَبِشاً مِنْ كَبِشٍ فَيَبْدَأُ
 الْعِرَاكَ. وَعِرَاكُ الْأَكْبَاشِ لَا يُشْبِهُ عِرَاكَ الدَّيْكَةِ الرُّومِيَّةِ. إِنَّهَا
 عَنِيفَةٌ، تَرْتَفِعُ وَتَتَصَادَمُ فِي الْهَوَاءِ فَيَنْتَفِضُ بَيْنَ أَصْوَابِهَا الْغَبَارُ
 الْحَنُونُ.

تَتَشَابَكُ الْقُرُونُ فَتَهْدَأُ، كَأَنَّهَا لَنْ تَتَعَارَكَ بَعْدَ ذَلِكَ، لَكِنَّا
 تَنْقَضُ حِينَ تُفْلِتُ قُرُونُهَا. الْجَبِينُ عَلَى الْجَبِينِ، وَصَوْتُ
 النَّطْحِ كَصَوْتِ الطُّبْلِ.

تَتَرَاوَعُ قَلِيلاً ثُمَّ تَنْقَضُ ثَانِيَةً. تَتَرَاوَعُ وَتَنْقَضُ. يَسْقُطُ
 كَبِشٌ عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَنْهَضُ، يَسْقُطُ ثَانِيَةً ثُمَّ يَنْهَضُ لِيَهْرُبَ

بعيداً. وَلَقَدْ رَأَيْنَا أَكْبَاشاً هَارِبَةً مَكْسُورَةَ الْقُرُونِ، تَظَلُّ تَعْوِي
كَالْكِلَابِ أَيَّاماً حَتَّى يَلْتَمِعَ جُرْحُهَا.

عَادَةً، يَحْتَفِظُ الْأَهْلُونَ بِكَبْشٍ وَاحِدٍ، كَبْشٍ مُنْتَصِرٍ يَظَلُّ
يَحُومُ حَوْلَ نِسَائِهِ. وَالْمُنْتَصِرُ مُدَلَّلٌ، يَضَعُونَ عَلَى صَدْرِهِ مَادَّةً
مُلَوَّنَةً لِيَعْرِفُوا كَمَ مِنَ الْإِنَاثِ مَرَزَنَ مِنْ تَحْتِهِ، وَيَطُوقُونَ عُنُقَهُ
بِجَرَسٍ وَبِبَعْضِ الْخَرَزِ: إِنَّهُ يَقْتَرِبُ مِنَ النَّعَاجِ وَيَعْلُوها فِي
حَرَكَةٍ غَرِيبَةٍ. تَزْكُضُ النَّعْجَةُ أَوَّلَ الْأَمْرِ ثُمَّ تَسْتَسْلِمُ فِي هُدُوءٍ
لَا يُعَكِّرُهُ إِلَّا لَهَا تُ الْكَبْشِ وَحَرَكَهُ أَلَيْتِهِ الَّتِي تَتَمَايَلُ يَمِيناً
وَيَسَاراً. نَصْرُخُ: هَيَّا... هَيَّا يَا ابْنَ الْكَلْبِ، وَيَنْظُرُ وَاحِدُنَا إِلَى
الْآخَرِ فِي حُبِّبٍ وَاضِحٍ.

كُلُّ الْحَيَوَانَاتِ كِلَابٌ، أَوْ شَبِيهَةٌ بِالْكِلَابِ: الدَّجَاجُ
وَالنَّعَاجُ وَالْعَصَافِيرُ، هَكَذَا نَفْهَمُهَا نَحْنُ الصَّغَارَ، وَهَكَذَا
نَشْتُمُهَا. بَيَدَ أَنِّي كُنْتُ مُعْجَباً بِبَغْلِي بَاقِي كَازَمُو. وَبَاقِي
كَازَمُو، سَائِسٌ عَرَبِيَّةً، وَعَزَبْتُهُ، (الْحَنْطُورُ)، تَنْقُلُ الرُّكَّابَ مِنْ
أَوَّلِ مَدِينَةِ الْقَامِشْلِيِّ إِلَى آخِرِهَا.

كَانَ بَاقِي كَازَمُو يَضَعُ سِيَّاحاً صَغِيراً مِنَ الْأَسْلَاكِ الشَّائِكَةِ
وَرَاءَ عَزَبَتِهِ، حَتَّى لَا نَجْلِسَ عَلَى الْعَارِضَةِ الَّتِي تَصِلُ مَا بَيْنَ

الْعَجَلَيْنِ الْخَلْفَيْنِ. وَكَانَ مِنْ عَادَتِنَا أَنْ نَجْلِسَ عَلَى الْعَارِضَةِ
تِلْكَ، كَيْ نَخْتَصِرَ الْمَسَافَاتِ، وَكَانَ هَذَا دَأْبُنَا مَعَ كُلِّ عَرَبِيَّةٍ
مِنْ عَرَبَاتِ نَقْلِ الرُّكَّابِ. لَكِنَّ بَعْضَ الْأَشْقِيَاءِ مِنَّا، حِينَ لَا
يَقْدِرُ عَلَى الرُّكُضِ وَرَاءَ الْعَرَبِيَّةِ، يَصْرُخُ: «سوط... سوط...»،
وَتِلْكَ إِشَارَةٌ يَفْهَمُهَا الْحُوذِيُونَ، وَيَفْهَمُهَا بَاقِي كَازَمُو، الَّذِي
يُلْهَبُ بِسَوِّطِهِ بَعْغِيهِ لِيَرْكُضَا، ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَى الْوَرَاءِ وَيَصْرُخُ:
«خُذُوا»، فَيَلْتَهَبُ ظَهْرُنَا مِنْ ضَرْبَةِ سَوِّطِهِ، فَتُلْقِي بَأَنْفُسِنَا عَلَى
الرَّصِيفِ وَنَتَدَخَّرُج. وَكُنَّا نَتَمَنَّى أَنْ نَسْلَخَ بَعْغِيهِ ذَاتَ يَوْمٍ.
لَكِنِّي كُنْتُ مُعْجَبًا بِهِمَا، مُعْجَبًا بِنَاصِيَتَيْهِمَا اللَّتَيْنِ يَتَدَلَّى
عَلَيْهِمَا الْخَزَرُ وَالشَّنَاشِيلُ.

وَالْحَقُّ أَقُولُ يَا صَاحِبِي، كَانَ فِي وُسْعِنَا أَنْ نَسْلَخَ
الْحَيَوَانَاتِ. أَتَعْرِفُ كَيْفَ نَسْلَخُ الْحَيَوَانَاتِ الْمَمِيَّتَةَ؟ دَعْنِي
أُخْبِرُكَ مَا لَا تَعْرِفُهُ مِنْ أَمْرِ ذَلِكَ:

كَانَ أَطْفَالُ حَارَتِنَا فُقَرَاءَ. كَانُوا فُقَرَاءَ حَتَّى الْعَظْمُ، يَأْكُلُ
بَعْضُهُمْ طِينَ الْجُدْرَانِ، وَكَانُوا إِذَا أَكْثَرُوا مِنْ تَنَاوُلِ الطَّيْنِ
يَأْخُذُونَهُمْ إِلَى أَطِبَّاءِ الْمَدِينَةِ، فَيَقُولُ الْأَطِبَّاءُ إِنَّهَا عَادَةٌ خَبِيثَةٌ،
(لَا أَقُولُ ذَلِكَ مِنْ قَبِيلِ الْمُبَالَعَةِ، أَسْأَلُوا الْأَطِبَّاءَ عَنْ آكِلِي

الطَّيْنِ)، وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالُ مُسْتَعِدِّينَ لِفِعْلِ أَيِّ شَيْءٍ مِنْ
أَجْلِ كَسْبِ مَضْرُوفٍ صَغِيرٍ.

... وَعَادَةً، حِينَ يُضْبِحُ الْبَيْطَرِيُّونَ أَطِبَاءَ لِلْبَشَرِ، تَزْدَادُ
الْحَيَوَانَاتُ النَّافِقَةُ، (وَالْبَشَرُ النَّافِقُونَ). وَكَانَ ثَمَّتْ وَادٍ قَرِيبٌ
مِنَ الْمَدِينَةِ، يَزُومِي فِيهِ النَّاسُ حَيَوَانَاتِهِمُ الْمَيْتَةَ، وَحَيْثُ تَكُونُ
الْحَيَوَانَاتُ الْمَيْتَةُ يَكُونُ الْأَطْفَالُ.

هُنَاكَ كَانَتْ سَكَكِيْنُ الْمَطْبَاخِ الْمَسْرُوقَةُ تَفْعَلُ فِعْلَهَا،
فَتَشْلُخُ الْجُلُودَ عَنِ اللَّحُومِ النَّيِّبَةِ، لَكِنَّ رَائِحَةَ الْكَسْبِ كَانَتْ
أَقْوَى مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ... وَهَكَذَا يَخْرُجُ طِفْلٌ، أَوْ طِفْلَانِ، بِغَنِيمَةٍ
دَسِيمَةٍ، حَيْثُ تُسَاوِي جِزَّةً مِنَ الصَّوْفِ لِيرَةً أَوْ لِيرَتَيْنِ. نَعَمْ
يَا صَاحِبِي، الْجِزَّةُ تُسَاوِي لِيرَتَيْنِ، وَاللَّيْرَتَانِ تُسَاوِيَانِ دُخُولَ
الْمَسْبَحِ الشَّعْبِيِّ أَوْ السَّيْنِمَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ.

كُنَّا أَطْفَالًا نَهْتَمُّ بِالْمَوْتِ، وَنَعِيشُ بِالْمَوْتِ. هَذَا دَأْبُنَا. لَكِنَّا
نَعِيشُ بِأَشْيَاءٍ أُخْرَى غَيْرِ الْخُبْزِ.

إِنَّا نَعِيشُ مِنَ التَّهْرِيبِ أَيْضًا... أَتَعْرِفُ كَيْفَ يَعِيشُ الْأَطْفَالُ
مِنَ التَّهْرِيبِ؟ تِلْكَ مَسْأَلَةٌ مُعَقَّدَةٌ، لَكِنِ دَعْنِي أَفْسِّرُهَا لَكَ:

مَدِينَتُنَا عَلَى ثُخُومِ تُرْكِيَا. بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا خَطٌّ مَدِيدٌ مِنْ

الأسلاك الشائكة، لكنّه لا يثنيّا عن عزمنا على دخول بلاد لا نعرفها... ونَدْخُلُ تُركيا عَبْرَ دَغْلٍ صَغِيرٍ من أشجار الكينا والعلّيق. يقول لنا دليلنا الصّغيرُ مثلنا، (١٢ سنة)، إنّهُ يَعرِفُ مكانَ الألغام، والآثراك لا يَعرِفونَ كيفَ يَنصُبونها جيّداً. ويقول دليلنا الصّغيرُ: إذا وَطِئْتُم مَكاناً لَيتاً، وَسَمِعْتُم صَوْتَ طَرِيقَةٍ ضَعِيفَةٍ فَهُناكَ لُغْمٌ. وإذا وَطِئْتُم لُغْماً فلا تَتَحَرَّكوا قَطُّ، وأنا كَفيْلٌ بِالباقي... وَنَدْخُلُ ماردينَ، مَدينَةَ الزَّيْبِ وَمُسْتَقَاتِ الْعَيبِ. نُبادِلُ النَّاسَ هُناكَ الثَّمَرَ بالتَّبْعِ. (لا نَحُلُ في تُركيا، وَكيلو الثَّمَرِ يُساوي خَمَسَ عُلْبِ مِنَ التَّبْعِ الْفاخِرِ). وَنَبِيعُ التَّبْعِ، حينَ نَعُودُ، إلى البَقالينَ بِسِعْرِ بَخْسٍ.

كُنّا أَطْفالاً يا صاحبي، لا نَعرِفُ أَنَّ مَمَرَاتِ الْأَدْغالِ هِيَ مَمَرَاتُ تَصِلُ بِبلادٍ بِلادٍ، بَلْ كُنّا نَشْعُرُ أَنَّ الْأَرْضَ مُسْتَوِيَّةٌ تَماماً، وَأَنَّ الْأَحدودَ الَّتِي يَزُومُها الْكِبارُ هِيَ أَحدودُ الْكِبارِ وَحَدُّهُمْ. لِذلكَ، نَصَبْنا فِخاخَنا تَحْتَ الْأَسْلاكِ الشَّائِكَةِ، تَخْديداً، حَيْثُ تَحُطُّ الِيماماتُ الْبَرِّيَّةُ بِحُرِّيَّةٍ لَمْ نَعْتَدْها في بِلادِنا. وَكُنّا إِذا حَظينا بِيمامةٍ رَكَضْنا إِلَيْها بِفَرَحٍ وَبِرُغْبٍ، حَشِيَّةً أَنْ يُطْلِقَ الْجُنُودُ الْأَثْرارَ النَّارَ عَلَينا. (لا تَمُرُّ لَيلَةٌ إِلَّا نَسْمَعُ فيها طَلقاتٍ

نَارِيَّةٌ مُصَوَّبَةٌ عَلَى الْمُهَرَّبِينَ)، لَكِنْ تُزَكِّيَا قَرِيْبَةً جِدًّا، قَرِيْبَةً إِلَى
 دَرَجَةِ الْمُصَاهَرَةِ، وَمَا زِلْنَا نُحِبُّ الْآسِتَانَةَ، (يُحِبُّهَا آبَاؤُنَا)، وَلَا
 نُحِبُّ أَتَاتُورَكَ، بِرَغْمِ أَنَّا نُرَدُّدُ فِي عَفْوِيَّةٍ عَنْ وَاحِدٍ مِنْ سِلَالَتِهِ:
 «يَا شَا يَا شَا جَمَالِ غُورَسِيلِ بَاشَا»

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، فِي أَثْنَاءِ الْأَعْوَامِ الطَّرِيَّةِ جِدًّا كَفَخَذِ الْبَقَرَةِ،
 كُنَّا نَهْتَمُّ بِأَشْيَاءٍ أُخْرَى، وَنَنْتَظِرُهَا بِفَرَحٍ لَا يُوصَفُ: أَحَدُهَا
 مَوْسِمُ الْحَصَادِ، وَالثَّانِي مَوْسِمُ سَلْقِ الْقَمْحِ لِجَرْشِهِ، وَجَعَلِهِ
 بُرْغُلًا. كَانَتْ هَاتَانِ مُنَاسَبَتَيْنِ طَرِيقَتَيْنِ كَأَعْمَارِنَا. فِي الْحَصَادِ
 نَنْتَظِرُ أَنْ تَنْتَهِيَ الْحَصَادَاتُ الضَّخْمَةُ ذَوَاتُ الْمَرَاوِحِ الْحَشَبِيَّةِ
 وَأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ. وَكَانَ يَلْزَمُهَا - مِنْ أَجْلِ أَنْ تَنْتَهِيَ - وَقْتُ مَنْ
 الصَّبَاَنَةِ مَلِيَّةٍ بِالْمَرْحِ: يُغَيِّرُونَ الْأَمْشَاطَ الْحَدِيدَ، يَفْكُونَ
 الْمَرَاوِحَ قِطْعَةً قِطْعَةً، وَكَذَلِكَ الدَّرَاسَاتُ الَّتِي تَفْصِلُ الْقَمْحَ عَنْ
 التَّنِّ، (كُلُّ ذَلِكَ يَتِمُّ فِي الْخَلَاءِ، حَيْثُ تُنْصَبُ خَيْمَةٌ كَبِيرَةٌ،
 وَيَجْتَمِعُ عَدَدٌ هَائِلٌ مِنَ الْعَامِلِينَ).

كَانَتْ آلَاتُ الصَّغِيرَةِ تَسْتَهْوِينَا: الْمَطَارِقُ وَمِفَكَاتُ
 الْبَرَاجِي. الْكَمَاشَاتُ وَالْأَمْشَاطُ الْحَدِيدُ الصَّغِيرَةُ. كُنَّا نَسْرِقُهَا
 أَخْيَانًا، وَنُوهِمُ أَنْفُسَنَا أَنَّا نُعِيدُ صِيَاعَةَ الْعَالَمِ عَلَى حِيْطَانِ اللَّبَنِ.

نَقَشُرُ الْحَيْطَانَ بِالْآلَاتِ، نَقَشُرُ مِسَاحَاتٍ كَبِيرَةً فَتَبْدُو قَوَائِبُ
الطَّيْنِ مِنْ تَحْتِهَا مُتَرَاصَّةً فِي صَلَابَةٍ. نُحْبِئُ الْآلَاتِ فِي حُفْرِ
تَحْتَ الْأَرْضِ، وَنُعْطِيهَا بِالثَّرَابِ، ثُمَّ نَقْتَرِبُ مَرَّةً ثَانِيَةً مِنْ عُمَالِ
الصَّيَانَةِ. نُغَاظِلُهُمْ لِنَضَعُ أَيْدِيَنَا فِي الرُّيُوتِ وَالشُّحُومِ. نَفْرُكُ أَيْدِيَنَا
بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، فَيَنْتَابُنَا شُعُورُ عُمَالٍ حَقِيقَتَيْنِ.

وَلِلْحَصَادِ، بَعْدَ ذَلِكَ، نَكْهَةٌ خَاصَّةٌ: الْحَصَادَاتُ تُعْرِى
الْأَرْضَ مِنْ ذَلِكَ النَّبَاتِ الذَّهَبِيِّ الْهَشِّ، تَمَاماً كَمَا نَتَعَرَّى مِنْ
قَنْبَارَاتِنَا قَبْلَ الْإِنْزِلَاقَةِ إِلَى التُّرَعِ. وَالْحَصَادَاتُ أَشْبَهُ بِغِيلَانِ
الْيَفَةِ، نَزُكُضُ مِنْ وَرَائِهَا حَيْثُ يَتَنَازَرُ الْقَشُّ عَالِياً بِفِعْلِ الْمَرَاوِحِ،
بَعْدَ أَنْ تَنْفَصِلَ الْحِنْطَةُ عَنْ سَنَائِلِهَا. نَزُكُضُ وَرَاءَهَا لِنَلْفَنَّا زَوَابِعَ
الْقَشِّ. نُبَغِّزُهُ وَنَتَحَبَّطُ فِيهِ فَتَمْتَلِئُ ذُؤَابَاتُنَا وَثِيَابُنَا بِالْقَشُورِ.

وَالْكِبَارُ يَزُكُضُونَ أَيْضاً وَرَاءَ الْحَصَادَاتِ. الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ.
إِنَّهُمْ يَجْمَعُونَ الْقَشَّ فِي حُزْمٍ كَبِيرَةٍ وَيَنْقُلُونَهَا عَلَى ظُهُورِ
الْحَمِيرِ، لِتُصْبِحَ عِلْفاً فِي مَا بَعْدُ، أَوْ لِيَتَمَتَّزَ بِالثَّرَابِ الْأَحْمَرِ
الَّذِي يَصْنَعُونَ مِنْهُ لِبَنَاتِ الْبِنَاءِ... كُلُّ شَيْءٍ، هُنَا، مِنْ طِينِ
يَا صَاحِبِي، الْأَرْضِ طِينٌ وَالْبُيُوتُ طِينٌ، وَكَذَلِكَ الطُّرُقُ.
وَحَيْثُ يَكُونُ الطَّيْنُ يَكُونُ الْقَشُّ. وَنَعْتَقِدُ، بَعْدَ ذَلِكَ، أَنَّ

وُلِدْنَا مِنَ الْقَشِّ، وَأَنْتَا سَنَصِيرُ إِلَى قَشٍّ، وَأَنَّ حُدُودَ الْأَرْضِ هِيَ
حُدُودُ الرِّيحِ الَّتِي سَتَحْمِلُنَا مَعَهَا. أَمَّا مَوْسِمُ سَلْقِ الْحِنْطَةِ فَهُوَ
الْمِهْرَجَانُ. إِنَّا نَشْتَرِي الصَّنَادِيقَ الْخَشَبَ الْفَارِغَةَ، وَكَذَلِكَ
الْإِطَارَاتِ الْمَطَاطِيَّةَ. نَضَعُ الدَّسْتِ الْكَبِيرَ عَلَى حِجَارَةٍ صَخْمَةٍ
وَنُشْعِلُ النَّارَ. تَغْلِي الْمِيَاهُ رُؤَيْدًا رُؤَيْدًا طَوَّلَ النَّهَارِ. تَنْتَفِخُ
الْحُبُوبُ وَتَلِينُ. تَنْتَفِخُ وَتَنْفَجِرُ مِنْ شِدَّةِ سَلْقِهَا. حِينَئِذٍ
تَنْبَسِطُ الْحُصُرُ عَلَى الشُّطُوحِ، وَتَغْلُو الدَّلَاءُ مُمْتَلِئَةً وَتَهْبِطُ فَارِغَةً.
تَغْلُو وَتَهْبِطُ، وَتَنْبَسِطُ السَّلِيُّ الْأَصْفَرُ ذُلُومًا إِلَى جَانِبِ ذُلُومٍ.

أَطْفَالُ الْحَارَةِ كُلُّهُمْ يَجْتَمِعُونَ قُرْبَ الدَّسْتِ الضَّخْمِ، كُلُّ
يَحْمِلُ طَاسَةً أَوْ صَحْنًا. يَنْتَظِرُونَ مِنَ الصَّبَاحِ. يَذْهَبُ الْبَعْضُ
وَيَأْتِي الْبَعْضُ الْآخَرُ، فِي مُنَاوَبَةٍ طَوِيلَةٍ، كَأَنَّمَا يَحْشَوْنَ فَوَاتَ
الْأَوَانِ. وَحِينَ يَتِمُّ السَّلْقُ، يَأْخُذُونَ حِصَصَهُمُ الصَّغِيرَةَ. يُرْشَوْنَ
عَلَى الْحِنْطَةِ قَلِيلًا مِنَ الشُّكْرِ، أَوْ يَمَزِجُونَهَا بِالسَّمَنِ وَالْمِلْحِ،
وَيَأْكُلُونَهَا فِي شَهِيَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ.

تِلْكَ مَادُّبَتُنَا الصَّغِيرَةُ يَا صَاحِبِي، لَكِنَّ الْمَادُّبَةَ الْكَبِيرَةَ،
مَادُّبَةَ الدِّمِّ الَّتِي يُعْطَى بِاحَاتِ الْبُيُوتِ، فَلَهَا مَوْسِمُهَا أَيْضًا.

فِي آخِرِ الصَّيْفِ، وَبَعْدَ ثَانِي دُفْعَةٍ مِنَ الْمَطَرِ الَّتِي يَتَسَاقَطُ

أَحْمَرَ كَالطَّيْنِ، تَبْدَأُ الْمَجْزَرَةُ، إِذْ يَبْدَأُ الْجَزَارُونَ بِشَحْدِ
بَسَاطِيرِهِمْ وَسَكَكِينِهِمْ، فَتَنْسَاقُ الْحَيَوَانَاتُ الصَّغِيرَةُ وَالْكَبِيرَةُ،
فَوَجْأً فَوَجْأً، وَيَكْثُرُ اللَّحْمُ وَالثَّرِيدُ.

كُلُّ بَيْتٍ يَهْيِيءُ خِرَافَهُ أَوْ أَبْقَارَهُ لِلذَّبْحِ. عَلَى مَدَى أَشْهُرٍ
يَتِمُّ تَغْلِيفُهَا حَتَّى تَمْتَلِيءَ أَجْسَامُهَا، لِتَصِيرَ مَوْوَنَةً خَرِيفٍ وَشِتَاءٍ
كَامِلَيْنِ.

وَكُلُّ بَيْتٍ يَتَعَاقَدُ مَعَ جَزَارٍ، وَالْجَزَارُ لَا يِنَالُ أَجْراً نَقْدِيّاً،
بَلْ يَسْتَأْثِرُ لِنَفْسِهِ بِجِلْدِ الصُّحَيَّةِ وَأَمْعَائِهَا: هَذَا هُوَ بَدَلُ أَثْعَابِهِ.

كُنَّا صِبْغَاراً يَا صَاحِبِي، نَتَخَلَّقُ حَوْلَ هَذَا الرَّجُلِ الْجَلِيفِ،
الرَّجُلِ الصَّامِتِ الَّذِي يَلْوِي غُنْقَ الْبَقَرَةِ مِنْ قُرُونِهَا حَتَّى تَشْقُطَ
أَرْضاً، ثُمَّ تَتَحَرَّكُ يَدُهُ حَرَكَةً خَفِيفَةً جِداً، حَرَكَةً حَدِيقَةٍ، وَيَنْفِرُ
الدَّمُّ عَالِياً، يَنْفِرُ فِي خَيْطٍ رَفِيعٍ وَقَوِيٍّ. وَحِينَ تَتَسِعُ
مَسَافَةُ الْجُرُوحِ بَيْنَ الرَّأْسِ وَالْجَذْعِ تَبْدَأُ أَلْيَنَابِيعُ الْحَمَرَاءِ
السَّاخِنَةُ أَنْدِفَاعَاتِهَا، وَتَسِيلُ عَلَى الثَّرَابِ فَاتِحَةً فِيهِ أَخَادِيدَ
صَبِيقَةٍ، أَوْ تَفِيضُ فَتَثْرَكُ عَلَى الْأَرْضِ بِزُكَّةٍ يَغْلُوهَا بُخَارٌ خَفِيفٌ.

جَمِيلٌ هُوَ دَمُ الْحَيَوَانِ، قُرْمَزِيٌّ أَوْ قَانٍ وَلَهُ رَائِحَةٌ تَجْذُبُ
الْقِطَطَ وَالْكِلابَ فَتَلْبَغُ فِيهِ. وَحِينَ يُهِيلُونَ الثَّرَابَ عَلَى الدَّمِّ،

يَسْتَلُّ الْجَزَارُ مِدْيَةً صَغِيرَةً حَادَّةً كَشَفَرَةِ الْحِلَاقَةِ. يَنْسَلِثُ
الْجِلْدُ عَنِ اللَّحْمِ كَالثُّوبِ، فِي تُوْدَةٍ وَهُدُوٍ. وَالْجَزَارُ حَازِقٌ
فِي فِعْلٍ ذَلِكَ. وَقَدْ يَعْمِدُ إِلَى وَضْعِ يَدِهِ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ،
بَعْدَ أَنْ يَضَعَ الْمِدْيَةَ الْمُدْمَمَةَ فِي فَمِهِ، وَفِي ضَرَبَاتٍ خَفِيفَةٍ
يَنْحَسِرُ الْجِلْدُ، يَنْحَسِرُ فِي صَوْتٍ أَشْبَهَ بِنَزْعِ اللَّصَقَاتِ الصَّمْغِيَّةِ
عَنْ ظَهْرِ الْوَدِيِّ. وَهَكَذَا، قِطْعَةً قِطْعَةً، تَأْخُذُ اللَّحُومُ طَرِيقَهَا
إِلَى حَيْثُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ: تُجَقِّفُ الْأَضْلَاعَ عَلَى حِجَالِ
الْعَسِيلِ. يُقَدِّدُ اللَّحْمُ الْأَحْمَرُ، وَتَدَابُ الشُّحُومُ. ثُمَّ تُوَضَّعُ كُلُّهَا
فِي الصَّفَائِحِ. يَسْتَهْلِكُ الْأَهْلُ مُخْتَوِيَاتِ بَعْضِهَا، وَيَخْتُمُونَ
الْبَعْضَ الْآخَرَ بِالْقَصْدِيرِ لِأَيَّامِ الشِّتَاءِ.

وَفِي هَذَا الْمَوْسِمِ، حَيْثُ تَتَرَاكُمُ النُّفَايَاتُ مِنَ الْعِظَامِ
وَالْهَمَلِ فِي الْحُقُولِ، تَكْثُرُ الْحَدَاثُ الصَّغِيرَةُ، وَالضَّخْمَةُ
الشَّيْبَهُةُ بِالذِّكَةِ الرُّومِيَّةِ. نُرَاقِبُهَا مِنْ بَعِيدٍ وَنَحْشَاهَا، نُرَاقِبُهَا
وَهِيَ تَنْفُرُ الْغُرَبَانَ كُلَّمَا اقْتَرَبَتْ مِنَ الْحَيْفِ. وَحَيْثُ نَسْتَشِيرُهَا
فِي حَرَكَةٍ عَصَبِيَّةٍ، تَفْرُدُ أَجْنَحَتَهَا الْكَبِيرَةَ وَتَغْلُو فِي كِبَرِيَاءٍ
مُذْهِشَةٍ. وَلَئِنْ الْحُقُولَ قَرِيبَةً مِنَ الْبُيُوتِ، مُتَشَابِكَةً مَعَهَا أَوْ
مُتَدَاخِلَةً، يَبْدَأُ طَقْسٌ لَيْلِيٌّ خَاصٌّ، طَقْسٌ مِنْ بَنَاتِ آوَى. طَقْسٌ

صَاحِبٌ يُخِيفُنَا، نَحْنُ الصُّغَارُ، لَكِنَّهُ يَنْشُرُ عَلَى الْأَرْضِ الصَّامِتَةِ
المَوْحِشَةَ رَنِيناً مِنَ الْحَيَاةِ.

وَأَبْنُ آوَى لَيْسَ جَبَاناً قَطُّ كَمَا يُشِيعُونَ. إِنَّهُ شَرِشٌ حَيْثُ
يَتَوَجَّعُ أَنْ يَكُونَ شَرِساً. أَتَعْرِفُ يَا صَاحِبِي؟ إِسْأَلُ حَسَنَ
الصُّوفِيِّ الَّذِي ذَهَبَ حَيَوَاناً مِنْ هَذِهِ الْفَصِيلَةِ نَهَاراً.

كَانَ الْحَيَوَانُ شَارِداً، فَأَبْنُ آوَى أَمِيرٌ فِي اللَّيْلِ فَقَطُّ. طَارَدَهُ
حَسَنٌ بِحِصَانِهِ وَبَخَيْرَانَةٍ طَوِيلَةٍ. كَانَ يَضْرِبُ الْحَيَوَانَ الشَّارِدَ
كُلَّمَا اقْتَرَبَ مِنْهُ، فَيَقْفِزُ أَتْبُنُ آوَى قَفْزَةً تَصِلُ فِيهَا مَخَالِبُهُ إِلَى
عَيْنِي الْحِصَانِ. وَيَقُولُ حَسَنٌ إِنَّ عِرَاكَ أَتْبَنِ آوَى دَامَ سَاعَتَيْنِ،
إِلَى أَنْ سَقَطَ مِنَ الْإِغْبَاءِ، فَوُطِئَتْهُ بِحَوَافِرِ حِصَانِهِ حَتَّى الْمَوْتِ.
وَحَسَنُ الصُّوفِيُّ، حِينَ يَصِفُ شَجَاعَةَ أَتْبَنِ آوَى، لَا يُبَالِغُ.
أَتَسْأَلُنِي لِمَاذَا؟ لِأَنَّ حَسَنَ الصُّوفِيِّ كَانَ يُغَطِّي وَجْهَهُ بِحِطَّتِهِ
وَيَذْهَبُ - مُدَاهِمَةً الْمَوْتِ الْآخِرَةَ - قُرَى أَتْبَنِ عَبَّاسِ الْبَدَوِيِّ.
يُطْلِقُ النَّارَ مِنَ الْعَرَاءِ الْمَكْشُوفِ عَلَى الْبُيُوتِ، وَعَلَى الْمُخْتَبِئِينَ
خَلْفَهَا بِبَنَادِقِهِمْ، ثُمَّ يَنْجُو، سَائِقاً أَمَامَهُ قِطْعاً مِنَ الْعَنَمِ.

وَكَانَ حَسَنٌ لَا يَتَّبَعِدُ بِالْقَطِيعِ طَوِيلًا، خِشْيَةً أَنْ يَلْحَقَ بِهِ
الْمُطَارِدُونَ، بَلْ يُؤَثِّرُ أَنْ يَتْرَكَ، بَعْدَ كُلِّ فَرْسَخٍ، قِسْماً مِنْهُ. إِلَّا

أَنَّهُ يَحْتَفِظُ، أخيراً، بِنَعَجَتَيْنِ أو ثلاثٍ، وهذا ما يَكْفِيهِ.
... كَانَ زَمَنُ نَهَبٍ، يا صاحبي، في أواخرِ هذا الْقَرْنِ.
وفي أواخرِ هذا الْقَرْنِ، أو أَقْلَهُ، كُنَّا أَطْفَالاً مُنْذُورِينَ لِلنَّهَبِ.

فاصل ثالث

في الحريق وفي الصَّيد

كُنَّا نَنْقُلُ الْمَاءَ فِي صَفِيحَةٍ صَدِئَةٍ، رَاكِضِينَ بَيْنَ النَّهْرِ
وَالْجُحْرِ الْخُلْدِ الْأَعْمَى. نَضُبُّ الْمَاءَ فِي فُتْحَةِ الْجُحْرِ وَنَعُودُ
فَنَمْلَأُ الصَّفِيحَةَ، وَنَعْرِفُ أَنَّنَا لَنْ نَنْتَظِرَ طَوِيلًا.

بَعْدَ حِينٍ يَطْفُخُ الْجُحْرُ بِالْمَاءِ. تَعْلُو فُقَاعَاتٌ صَغِيرَةٌ،
وَرُؤُودٌ رُؤُودٌ يَخْرُجُ الْخُلْدُ الْمُبْتَلُ. وَالْخُلْدُ الْأَعْمَى أَعْمَى
بِالطَّبْعِ، لَكِنَّ حَاسَّةَ الشَّمِّ الْقَوِيَّةَ لَدَيْهِ تُعْطِيهِ بَصِيرَةً لَا يَصْطَدِمُ
مَعَهَا شَيْءٌ. إِلَّا أَنَّنَا نُحِيطُ بِهِ أَحِيرًا. نُمْسِكُهُ مِنْ ذَنْبِهِ وَنَضَعُهُ
فِي الصَّفِيحَةِ.

هَذِهِ هِيَ طَرِيقَتُنَا فِي التَّقَاطِطِ الْخُلْدِ، وَفِي التَّقَاطِطِ يَرَابِيعِ
الْحُقُولِ. وَاللُّعْبَةُ لَا تَنْتَهِي عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ.

يَلْهَثُ الْخُلْدُ مَذْعُورًا، وَتَبْتَهِجُ لِذُعْرِهِ. نَحْفِرُ حُفْرَةً وَاسِعَةً
وَنَمْلَأُهَا بِمَاءِ النَّهْرِ، ثُمَّ نُطْلِقُ الْخُلْدَ فِيهَا فَيَسْبَحُ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَى

نَاجِيَةٍ، وَكُلَّمَا هَمَّ بِالْخُرُوجِ دَفَعْنَاهُ إِلَى الْمَاءِ بَعْصًا. لَا تَمْضِي
 سَاعَةٌ إِلَّا وَيَكُونُ قَدْ اِنْتَفَحَ كَالْقَرْبَةِ فَتَهْدَأُ حَرَكَتُهُ. يُحَاوِلُ
 الْخُرُوجَ فِي يَأْسٍ، وَحِينَ يَغِيَا عَنْ ذَلِكَ يَنْهَازُ. سَاعَتَيْدُ تَنْهَالُ
 عَلَيْهِ حِجَارَتُنَا. يَفْتَحُ فَمَهُ الْمُدْمَى وَيَعْوِضُ لِيَطْفَوْ جُثَّةً هَامِدَةً.
 وَهَذَا مَا نَفْعَلُهُ بِالْيَرَابِيعِ أَيْضًا. لَكِنَّ جُحُورَ الْيَرَابِيعِ مُتَعَدِّدَةٌ
 الْمَخَارِجِ، وَيَبْعُدُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ بِمِقْدَارِ مِثْرَيْنِ، وَكُلُّهَا مُتَّصِلَةٌ
 مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ. لِذَلِكَ نَسُدُّ الْجُحُورَ جَمِيعًا، إِلَّا وَاحِدًا،
 حَيْثُ نَضُبُّ الْمَاءَ فَتَخْرُجُ الْوَاحِدَةُ تَلَوَّ الْأُخْرَى مُنْتَفِحَةً مِنْ
 كَثَرَةِ مَا آتَيْتَعْتُهُ.

كُنَّا صِغَارًا آنَيْدُ، صِغَارًا يَلْهَوْنَ بِمُرَاقَبَةِ الْيَرَابِيعِ وَهِيَ تَخْرُجُ
 مِنَ الْجُحُورِ رَافِعَةً قَوَائِمَهَا الْأَمَامِيَّةَ. تَتَلَفَّتُ سَرِيعًا وَتَحُلُّ
 مَنَاخِيرَهَا فِي حَرَكَةٍ مُضْحِكَةٍ.

كَانَ هُمْنَا أَنْ نَتَصَيَّدَهَا لِنَلْهَوْ بِعَذَابَاتِهَا حَتَّى أَلْمُوتِ، لَكِنَّ
 سُكَّانَ الْقُرَى كَانُوا يَأْكُلُونَهَا، يَأْكُلُونَ يَرَابِيعَ الْحَقْلِ كَمَا
 يَأْكُلُونَ الْقَطَا وَالْقَنَافِدَ.

وَلِلْقَنَافِدِ عِنْدَنَا - نَحْنُ الْأَطْفَالُ - سَاعَاتُ لَهْوٍ لَا تَخْرُجُ
 مِنْهَا إِلَّا مَسْلُوحَةٌ.

كُنَّا نَمْضِي، بَعْدَ الْمَغِيبِ، إِلَى الْعَرَاءِ. نَتَحَيَّنُ اللَّيَالِي الَّتِي
يَتَكَوَّرُ فِيهَا الْقَمَرُ. وَحَيْثُ يَبْدَأُ الْقَمَرُ اكْتِسَاخَهُ تَبْدَأُ الْقَنَافِذُ
اكْتِسَاخَهَا. وَالْقَنَافِذُ بَطِيئَةٌ الْحَرَكَةِ بَعَامَّةٍ، لَكِنَّ دُرُوعَهَا
الشُّوْكِيَّةَ تَجْعَلُ الْإِمْسَاكَ بِهَا مَسْأَلَةً شَاقَّةً. يَبْدَأُنَا كُنَّا نَحْتَاطُ
فَنَجْلِبُ مَعَنَا الْقَبَاقِيبَ. نَضَعُهَا فِي أَرْجُلِنَا وَنَدُوسُهَا. وَكُلَّمَا
اشْتَدَّ الضَّغْطُ عَلَى الْقُنْفُذِ نَفَرَ رَأْسُهُ خَارِجَ الدَّرْعِ. حِينَئِذٍ
لَا نَحْتَاجُ إِلَّا إِلَى سِكِّينِ حَادَّةٍ. يَزَوِّجُنِي الدَّرْعُ بَعْدَ الذَّبْحِ،
فَنَشْقُهُ مِنْ بَطْنِهِ، وَنُقَشِّرُهُ كَالْمَوْزَةِ.

لَكِنَّ الْقَنَافِذَ وَالْيَرَابِيعَ الْمَسْلُوحَةَ وَالْمُنْتَفِحَةَ تَعُودُ حَيَّةً فِي
أَحْلَامِنَا. تَعُودُ مُجَنَّحَةً وَلَهَا أَذْيَالُ السَّحَالِي. وَنَهْذِي فِي اللَّيْلِ،
نَهْذِي فِيوَقْظِنَا أَهْلُونَا، فَلَا نَغْفُو بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا وَقَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ
الْمُؤْنِسُ. إِلَّا أَنَّ حَيَوَاتِنَا - نَحْنُ أَطْفَالَ الشَّمَالِ الْعَارِي - لَا أُنْسَ
فِيهَا غَيْرُ صَرِيرِ الرِّيزَانِ وَخَشْخَشَةِ الرِّوَاخِ يَنْعِنُ الْعُشْبِ الْيَابِسِ.

وَلَأَنَّا خُلِقْنَا هكَذَا، كُنَّا نَحَاوِلُ أَنْ نَخْلُقَ، بِدَوْرِنَا، مِنْ هَذَا
الْيَبَاسِ غِطَاءً لِلْحُلُمِ، فَتَجْتَمِعُ فِي الْخَرَائِبِ الْفَرَنْسِيَّةِ، وَهِيَ بَقَايَا
بُيُوتٍ أَوْ تُكُنَّاتٍ مِنْ عَهْدِ الْأَخْتِلَالِ، لِيَصُقَ نَهْرُ الْجَفْجَفِ، وَلِيَصُقَ
الطَّاحُونَةُ الْمَائِيَّةُ الْوَحِيدَةُ، الَّتِي لَا تَزَالُ حَيَّةً بِفِعْلِ الْحَرَكَةِ

الْعَمِيَاءِ لِبَغْلَيْنِ يَطْحَنَانِ فِي دَوْرَانِهِمَا الْقَمْحَ وَالْحَيَاءَ تَحْتَ
الرَّحَى. وهناك، في الْخَرَائِبِ تِلْكَ، كُنَّا نَلْفُ الشَّائِ السَّيْلَانِيَّ
الَّذِي نَسْرِقُهُ فِي وَرَقِ الدَّفَاتِرِ، وَنُشْعِلُ أَلْفَافَاتٍ مُقَلَّدِينَ الْكِبَارِ.
لَكِنَّ الْمُقَامِرِينَ الْمُتَسَكِّعِينَ كَانُوا يُزَاحِمُونَنَا عَلَى مَأْوَانَا.
وَالْمُقَامِرُونَ، أَوْلَيْكَ، فَثِيَانٌ يَزُيِّسُهُمْ دَائِمًا أَحَدُ الزُّعْرَانِ الْكِبَارِ.
يَجْتَمِعُونَ فِي الْخَرَائِبِ لِيَتَقَاسَمُوا مَا غَنِمُوهُ مِنَ الْقَرَوِيَّينِ الشَّدَجِ
بِأَلَاعِيهِمْ. وَهُمْ غَنَاءٌ، يَطْرُدُونَنَا حِينَ يَأْتُونَ، وَلَا يَنْقُضِي نَهَارُهُمْ
فِي أَلْفَتِسَامٍ مِنْ دُونِ أَنْ يَنَالَ أَحَدُهُمْ طَعْنَةً فِي خَاصِرَتِهِ أَوْ
ظَهْرِهِ. لَكِنَّهُمْ يَنْجُونَ دَائِمًا مِنَ الْمَوْتِ، إِلَّا رَشَادَ الْأُحُولِ، الَّذِي
لَمْ يَكْتَفِ زَمِيلُهُ بِطَعْنِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً، بَلْ شَقَّ مِنْ الصَّدْرِ حَتَّى
الْبَطْنِ، وَمِنْ الْخَاصِرَةِ إِلَى الْخَاصِرَةِ، ظَلَّ يَصْرُخُ - وَهُوَ مُلْقَى
وَقَدْ أُنْدَلَقَتْ أَحْشَاؤُهُ - خَمْسَ سَاعَاتٍ فَلَمْ يُنْجِدْهُ أَحَدٌ. نَزَفَ
آخِرَ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ وَمَاتَ. وَظَلَلْنَا نَحْنُ الْأَطْفَالُ نَسْمَعُ صُرَاخَهُ
مَدَى شَهْرٍ فِي أَحْلَامِنَا، بَلْ فِي يَقْظَتِنَا أَيْضًا، حِينَ يُصْبِحُ الظَّلَامُ
كَثِيفًا كَجِدَارٍ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ الْبَخِيلَةِ بِالْمَصَابِيحِ.

لَكِنَّ الْخَرَائِبَ الْفَرَنْسِيَّةَ تَظَلُّ مَلَاذًا، بِرُغْمِ خَوْفِنَا مِنَ
الْخَرَائِبِ، بَلْ خَوْفِنَا مِنْ كَائِنَاتِ الْخَرَائِبِ، وَهِيَ كَائِنَاتٌ

نَشْتَعِرُهَا هَائِمَةً حَوْلَنَا، ثَلَامِسْنَا أَنْفَاسُهَا أَحْيَانًا، أَوْ نَكَادُ نَجْزُمُ
أَنَّا نَسْمَعُ وَشَوَاشِيهَا: إِنَّهَا لَامَرِّيئَةٌ، إِنَّهَا مُسُوخٌ مَاضٍ لَا يَعْرِفُهُ
إِلَّا الْكِبَارُ، إِنَّهَا غِيلَانٌ وَمَرْدَةٌ بَيْضَاءُ تَمَامًا، لَهَا عُيُونٌ مَشْقُوقَةٌ
حَتَّى آذَانِهَا، وَتَهْتَيُّ فِي أَيِّ شَكْلِ تَحْتَازُهُ. لَكِنَّ أَوْسَمَانُو يَقُولُ:
لَا تَخَافُوهَا مَا دَامَ مَعَكُمْ دَبَّوسٌ مَعْدِنِي، أَوْ إِبْرَةٌ خِيَاطَةٍ.
وَنَقُولُ: أَوْسَمَانُو كَيْفَ؟ فَيُجِيبُ: إِنَّهَا تَخْشَى الْإِبْرَ، أَسْرَتْ
جَدَّتِي أَحَدَ هَذِهِ الْمُسُوخِ الْلَامَرِّيئَةِ حِينَ عَزَزَتْ فِيهِ إِبْرَةٌ
الْخِيَاطَةِ فَأَصْبَحَ طَوْرَعٌ بَنَانِهَا.

... وَأَوْسَمَانُو شَابٌ مُحَبِّطٌ، طَلَبَ يَدَ ابْنَةِ عَمِّهِ فَرَفَضَهُ عَمُّهُ
لَأَنَّهُ يَعِيشُ مِنَ الْحَرَامِ. وَأَمَامَ هَذَا الرُّفْضِ قَرَّرَ أَنْ يَعْمَلَ بِعَرْقِ
جَبِينِهِ فَاشْتَعَلَ مَاسِيحَ أَخَذِيَّةٍ. وَأَوْسَمَانُو يُنْتَمِي إِلَى فَرْعٍ مِنَ
الْأَكْرَادِ يُلقَّبُونَ بـ«كولي»، وَالْكُولِيُونَ ذَوُو بَاسٍ، يَنْتَصِرُ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ حَتَّى الْمَوْتِ.

كَانَ الْكُولِيُونَ عَتَالِينَ جَاؤُوا مِنْ تُرْكِيَا. اعْتَنَى بَعْضُهُمْ وَظَلَّ
الْبَغْضُ الْآخِرُ عَلَى حَالِهِ. يَتَمَسَّكُونَ بِالْفَضِيلَةِ وَلَا يُقِيمُونَ وَزْنَ
لِلْمَالِ أَوْ لِلجَاهِ. وَأَوْسَمَانُو الْكُولِيُّ مُحَبِّطٌ، لَيْسَ مِنْ فَقَرِهِ، بَلْ
مِنْ مَاضِيهِ.

وَأُوسَمَانُو يَجْمَعُنَا - نَحْنُ الصَّغَارَ - مِنْ حَوْلِهِ، فَيَسْرُدُ وَقَائِعَ
 حَصَلَتْ وَأُخْرَى لَمْ تَحْصُلْ قَطُّ. وَحِينَ يَجْمَعُنَا نَفْتَحُ أَفْوَاهَنَا
 دَهْشِينَ مِنْ حِكَايَاتِهِ: تَعَلَّقَتِ الْمُسُوخُ اللَّامَرْئِيَّةُ بِدِرَاجَتِهِ فِي
 مَكَانٍ قَفَرٍ بَيْنَ قُرَى عَامُودَا. هَذَا مَا يَقُولُهُ، وَيُضِيفُ أَنَّ الْجُرْأَةَ
 وَضَبَطَ النَّفْسِ هُمَا، وَخَذَهُمَا، سِلَاحُ الْمَرْءِ فِي مُوَاجَهَةِ
 الْكَائِنَاتِ اللَّامَرْئِيَّةِ، وَالْجِبَانُ يَسْقُطُ صَرِيحاً مِنَ الدُّعْرِ. يَقُولُ
 أُوسَمَانُو إِنَّ جَدَّتَهُ حِينَ أَسْرَتْ أَحَدَ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ بِإِثْرَةِ
 الْخِيَاطَةِ، صَارَ الْكَائِنُ اللَّامَرْئِيُّ مَرْئِيّاً، أَلِفّاً، يَضَعُ يَدَهُ عَلَى
 جِرَارِ السَّمَنِ فَتَفِيضُ الْجِرَارُ، وَتَظَلُّ تَفِيضُ حَتَّى تَأْمُرَهُ الْجَدَّةُ
 بِالتَّوَقُّفِ فَيَقِفُ. وَيَقُولُ أُوسَمَانُو إِنَّ جَدَّتَهُ أَطْلَقَتْ الْكَائِنَ، بَعْدَ
 سَنِينَ، وَبَعْدَمَا أَقْسَمَ الْيَمِينِ عَلَى الْكَفِّ عَنِ إِخَافَةِ الْبَشَرِ.

نَعَمْ، أَطْلَقْتُهُ. نَزَعْتُ مِنْهُ إِثْرَةَ الْخِيَاطَةِ وَأَطْلَقْتُهُ، (لَمْ نَسْأَلْهُ قَطُّ
 أَيْنَ غَرَزَتْ الْإِثْرَةَ، وَكَيْفَ). وَبَيْنَ الْحِكَايَةِ وَالْحِكَايَةِ يَضَعُ
 أُوسَمَانُو يَدَهُ فِي جَيْبِ سُرْتَرِهِ الدَّاخِلِيِّ وَيَسْحَبُ صُورَةَ غَامِضَةٍ:
 فَتَاةٌ شَقْرَاءُ تَجْلِسُ عَلَى رُكْبَةِ أُوسَمَانُو، وَأَمَامَهُ طَاوِلَةٌ عَلَيْهَا بَعْضُ
 الرُّجَاجَاتِ وَالْكَؤُوسِ. نَعَمْ، إِنَّهَا صُورَةُ غَامِضَةٍ لَنَا، نَحْنُ
 الْأَطْفَالُ، لَكِنَّ أُوسَمَانُو يُوضِحُ الْأَمْرَ: « كُنْتُ فِي اسْطَنْبُولَ، وَهَذِهِ

صديقتي»، ونصرخ «يا الله... أنتَ بارِعُ أوسمانو... شُقراء!»
وَيَنْظُرُ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ، أَوْ نَسْأَلُهُ: «أَتَعْرِفُ صَدِيقَتَكَ أَلْغَةَ
الْكُرْدِيَّةَ؟»، وَيَنْظُرُ إِلَيْنَا أوسمانو فِي اسْتِخْفَافٍ: «إِنَّهَا مُتَمَدِّدَةٌ جِدًّا
جِدًّا»، وَالْمَدَنِيَّةُ، كَمَا يَفْهَمُهَا أوسمانو، هِيَ ثَوْبٌ قَصِيرٌ، وَوَجْهٌ
سَافِرٌ مُتَبَرِّجٌ، وَلُغَةٌ غَرِيبَةٌ. وَالْحَقُّ مَعَهُ، فَثِيَابُ أُمّهَانَا طَوِيلَةٌ
وَمُعَقَّدَةٌ جِدًّا، وَهُنَّ لَا يَسْتَعْمِلْنَ أَحْمَرَ الشِّفَاهِ، وَلَا يَفْقَهُنَّ آيَةَ لُغَةٍ
فِي الْأَرْضِ. «يَا لِأوسمانو الْعَظِيمِ» نَهْتِفُ فِي سِرِيرَتِنَا.

... وَنَنْسَى أوسمانو، نَنْسَى عَمَّهُ الَّذِي جَاءَ مِنْ تُرْكِيَا
هَارِبًا، حِينَ وَقَفَ ذَاتَ مَسَاءٍ عَلَى بَابِ أَحْمَد سَالُو. وَقَفَ
شَاهِرًا خِنْجَرَهُ الْمَعْقُوفَ، فَخَرَجَتْ مِنْ تَحْتِ يَدِهِ اثْنَتَا عَشْرَةَ
جُثَّةً... عَشْرَةُ رِجَالٍ وَأَمْرَاتَانِ. وَنَحْنُ أَطْفَالٌ، وَالْأَطْفَالُ لَا
يَسْأَلُونَ عَنْ أَسْبَابِ الْمَجْزَرَةِ، بَلْ يَعْجَبُونَ بِالْيَدِ الْجَسُورَةِ الَّتِي
لَا تَخْذُلُ صَاحِبَهَا حِينَ تَهْوِي بِمِنْجَلٍ أَوْ بِخِنْجَرٍ.

وَلَأَنَّنَا مُعْجَبُونَ بِالْخَارِقِ، بِالْجَسُورِ وَالْقَوِيِّ، نَشْرِقُ الرِّيزْتُ
وَنَذْهَبُ بِهِ أَجْسَادَنَا التَّاجِلَةَ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ. نَقُومُ بِاسْتِغْرَاضَاتٍ
مُضْحِكَةٍ، اسْتِغْرَاضَاتٍ رِيَاضِيَّةٍ لَيْسَ فِيهَا عَضْلٌ بَلْ عِظَامُ.
وَنَنْزِلُ إِلَى الْمَاءِ بَعْدَ الْاسْتِغْرَاضِ فَلَا يَزُولُ الرِّيزْتُ. نُنْذِرُكَ

أَجْسَادَنَا بِالطَّيْنِ وَبِالْأَشْنِيَاتِ الْخَضِرَاءِ الْفَاسِيَةِ وَلَا يُزَالُ الرَّيْتُ.
يَتَبَقَّعُ النَّهْرُ وَلَا يُزَالُ الرَّيْتُ. نَرْجِعُ إِلَى بُيُوتِنَا وَثِيَابُنَا الدَّاحِلِيَّةِ
الْبَيْضَاءِ تَحَوَّلَتْ إِلَى مَا يُشْبِهُ الْجِلْدَ الْأَسْمَرَ الْمَحْرُوقَ. نَخْلَعُهَا
فِي مَكَانٍ مُنْعَزِلٍ لِنُلْقِيَ بِهَا بَعِيداً بَعِيداً. ثُمَّ نَزْتَدِي، عَلَى غَفْلَةٍ
مِنْ أَهْلِنَا، ثِيَاباً دَاحِلِيَّةً نَظِيفَةً. وَيَمْضِي وَقْتُ طَوِيلٍ قَبْلَ أَنْ
يَكْتَشِفُوا النُّقْصَ الْحَاصِلَ فِي غِيَارَاتِنَا.

لَكُنْنَا، هُنَاكَ، عَلَى ضِفافِ الْخَابُورِ، لَسْنَا مُجْبَرِينَ عَلَى
مُمَارَسَةِ هَذَا التَّمْوِيهِ. فَحَيْثُ نَكُونُ بَعِيدِينَ عَنْ أَهْلِنَا، نَكُونُ
بَعِيدِينَ عَنِ الرُّغْبِ أَيْضاً، بَعِيدِينَ عَنْ ذَلِكَ الْأَضْمِحْلَالِ
الرَّاعِبِ لِطُفُولَتِنَا. وَلَا يَأْتِي هَذَا الْمَوْسِمُ الْمُتْرَعُ بِالْحُرِّيَّةِ إِلَّا
صَيْفاً، آنَ يَسْتَدْعِينَا عَمَّنَا الْأَكْبَرُ إِلَى الْعِنَايَةِ بِمُسْتَوْدَعَاتِ
الْحُبُوبِ الَّتِي يَمْلِكُهَا قُرْبُ الْخَابُورِ.

وَمُشَارَكَتُنَا هِيَ مُشَارَكَةٌ صَغِيرَةٌ، تُقْتَصَرُ عَلَى جَمْعِ الْحُبُوبِ
الْمُسْتَوْدَعَةِ مِنَ الْأَكْيَاسِ الْمُثَقَوْبَةِ كُلَّمَا حَمَلَتِ الشَّاحِنَاتُ أَطْنَاناً
مِنْهَا عَنِ الْأَرْضِ. وَيَوْمَاً يَوْمَاً نُدْرِكُ أَنَّ جَمْعَنَا مِنْ تِلْكَ
الْحُبُوبِ مَا يَكْفِي قُوَّةَ عَائِلَةٍ كَامِلَةٍ طَوَالَ السَّنَةِ.

كَانَتِ الشَّاحِنَاتُ تَأْتِي مُمْتَلِئَةً فَتُفْرِغُ حُمُولَاتِهَا، أَوْ تَأْتِي

فَارِغَةً فَتَمْتَلِيءُ بِحُمُولِهَا، وَبَيْنَ الْمَجْيِءِ وَالرَّوْحِ يَأْخُذُنَا مَاءُ
 الْخَابُورِ فِي نُزْهِتِهِ. وَالْخَابُورُ أَمِيرٌ بَيْنَ الْأَنْهَارِ، غَرِيضٌ وَمُتَدَفِّقٌ
 كَعَاصِيفَةٍ. تَتَرَاخُمُ عَلَى ضِفَّتَيْهِ أَشْجَارُ الصَّفْصَافِ الْمُتَّصِلَةُ
 بِشَبَكَاتٍ مِنَ الْعُلَيْقِ ذِي الثَّوْتِ الْبَرِّيِّ الْأَحْمَرِ، أَوْ يُزْخِي شَجَرُ
 الْعَرَبِ غُصُونَهُ، وَيُزِيلُهَا عَلَى الْمَاءِ كَشَعْرِ مَحْلُولٍ. كُنَّا نَخْتَارُ
 لِنُزْهَاتِنَا الْأَمَاكِنَ الْقَرِيبَةَ مِنَ النَّوَاعِيرِ. نَخْلُعُ ثِيَابَنَا وَنَنْزِلُ إِلَى
 الْمَاءِ، حَامِلِينَ حَبَاتٍ مِنَ الْبَطِّيخِ الْأَحْمَرِ. وَحِينَ تَبْرُدُ تِلْكَ
 الْحَبَاتُ نَقْتَسِمُهَا لِنَبْتَرِدَ نَحْنُ فِي هَاجِرَاتِ الشَّمَالِ الَّتِي يَذُوبُ
 فِيهَا أَسْفَلُ الطُّرُقِ نَهَارًا.

وَهُنَاكَ قُرْبَ النَّوَاعِيرِ وَأُنْيُنِهَا الْمُتَوَاصِلِ، كَانَتْ تَحْطُ
 الْقَرَوِيَّاتُ كَأَشْرَابٍ مِنَ الْحَجَلِ، هَارِبَاتٍ مِنَ الظَّهِيرَةِ إِلَى
 الْمَاءِ. وَالْقَرَوِيَّاتُ يَعْمَلْنَ فِي الْحَقُولِ كَمَيَاوِمَاتٍ. يَقْطِفْنَ
 مَحَاصِيلَ الْبَاذِنَجَانِ وَالْفُلْفُلِ وَالْيَقْطِينِ وَالْخِيَارِ، مُقَابِلَ جُزْءٍ
 مِمَّا قَطَفْنَ. كُلُّ يَوْمٍ يَأْتِي فَوْجٌ جَدِيدٌ، وَكُلُّ فَوْجٍ يُهْرَوُلُ
 إِلَى الْمَاءِ فِي الظَّهِيرَةِ. ذَلِكَ دَائِبُهُنَّ.

كُنْ يَنْزِلْنَ إِلَى الْمَاءِ بِأَثْوَابِهِنَّ الطَّوِيلَةِ، بَعْدَ أَنْ يَتَحَرَّزْنَ مِنَ
 الْمَنَادِيلِ. وَالْقَرَوِيَّاتُ حَافِيَاتٌ عَادَّةً، وَلَا يَوْتَدِينَ ثِيَابًا دَاخِلِيَّةً.

كُنَّا أَطْفَالاً أَتَعِذُ، لَا تَعْنِينَا أَجْسَادُهُنَّ الَّتِي اَلْتَصَقَتْ بِالْأَثْوَابِ
 فَاتَّخَذَ كُلُّ تَكْوِيرٍ فِيهَا أَنْفِلَاتاً عَذْباً. وَلَا تَعْنِينَا مُدَاعِبَاتُهُنَّ
 بَعْضُهُنَّ لِبَعْضٍ. أَوْ بَعْضُهُنَّ لَنَا - نَحْنُ الْغُرَاءُ تَمَاماً. وَكَانَتْ
 أَثْوَابُهُنَّ تَطْفُو عَلَى الْمَاءِ، تَغْلُو حَتَّى أَعْنَاقِهِنَّ حِينَ يَغُطُّسْنَ، وَإِذْ
 يَنْهَضْنَ يُرْخِيْنَهَا فِي رَفْقٍ. وَكُنَّا نَسْتَعْرِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْمَرْأَةِ شَعْرٌ
 فِي جَسَدِهَا، وَنُظِنُهُ مُقْتَصِراً عَلَى الرِّجَالِ. لَكِنَّ الْغَرِيبَ حَقّاً هُوَ
 أَنَّهُنَّ كُلَّمَا آكْتَفَيْنَ مِنْ لَهْوِهِنَّ الصَّاحِبِ فِي الْمَاءِ، خَلَعْنَ
 أَثْوَابَهُنَّ وَنَشَرْنَهَا عَلَى الْعَلِيقِ لِتَجِفَّ، وَيَبْقَيْنَ عَارِيَاتٍ، يَتَحَفَّيْنَ
 وَرَاءَ الشَّجَرِ حِيناً، أَوْ يَبْزُزْنَ مِنْ دُونِ أَكْثِرَاتِ بِالْعُيُونِ الَّتِي
 تَسْتَفْرِئُهُنَّ. أَتَعِذُ كُنَّا نَتَسَاءَلُ عَنْ أَشْبَابِ نُزُولِهِنَّ إِلَى الْمَاءِ
 بِأَثْوَابِهِنَّ، مَا دُمْنَ يُجَفِّفْنَهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَهُنَّ عَارِيَاتٍ.

بَيَدَ أَنْ الْعَدَاوَةَ كَانَتْ تَسْتَفْجِلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُنَّ، حِينَ يَخْتَفِي
 ثَوْبُ إِحْدَاهُنَّ أَوْ مِنْدِيلُهَا. كُنَّ يَتَّهَمْنَ بَعْضُهُنَّ بَعْضاً وَحِينَ
 يَتَّعَيْنَ مِنَ الْجِدَالِ يَتَّهَمُنَا فَيَجْرُزُنَا مِنَ النَّوَاصِي فَتَعَضُّهُنَّ، وَإِذْ
 نُفِلْتُ وَنَبْتَعِدُ - وَلَا نَزَالُ غُرَاءً - نُؤَدِّي حَرَكَاتٍ بِخَوَاصِرِنَا أَشَدَّ
 وَقَعاً عَلَيْهِنَّ مِنَ الشَّتَائِمِ. وَنَتَمَادَى فِي حَرَكَاتِنَا لِأَنَّ ذَلِكَ
 يُغِظُهُنَّ: نُمْسِكُ بِأَغْصَانٍ يَابِسَةٍ وَنَضَعُهَا بَيْنَ أَفْخَاذِنَا صَارِخِينَ:

هيتا يا بنات ال... فَيَقْدِفُنَا بِالْجِجَارَةِ. وَبَعْدَ زَمَنِ مِنْ هَذَا اللَّهْوِ،
زَمَنِ قَصِيرٍ، كَرِهْنَا الْخَابُورَ لِأَنَّهُ اخْتَطَفَ مِنَّا عَبْدَ الْمَجِيدِ
جَاجَانَ. بَحَثْ أَهْلُهُ عَنْ جُثَّتِهِ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ، وَحِينَ وَجَدُوهُ كَانَ
مُنْتَفِخًا كَالطَّبَلِ، وَقَدْ أَكَلَتْ عَيْنَيْهِ الْأَسْمَاكَ.

لَكِنْ كَرِهْنَا لِلْخَابُورِ لَمْ يَوْقِفِ الْخَابُورَ. ظَلَّ أَمِيرًا صَاحِبًا
يَجْمَعُ مِنْ حَوْلِهِ قُرَى صَاحِبَةً، قُرَى تَنْقَاسُمُ الْجُغَرَايَا وَالْفَاكِهَةِ
وَالْأَغْرَافِ، بَدَأَ بِالْأَشُورِيِّينَ، وَأَنْتَهَاءَ بِالْأَكْرَادِ وَالْيَزِيدِيِّينَ.

كَانَتْ الْقُرَى الْأَشُورِيَّةُ لَا تُبَارَى فِي زِرَاعَةِ الْكُرُومِ، أَمَّا
الْقُرَى الْكُرْدِيَّةُ وَالْيَزِيدِيَّةُ فَلَا تُبَارَى فِي الرِّعْيِ وَتَرْبِيَةِ الدَّوَابِّ،
وَفِي بَعْضِ الْمَزْرُوعَاتِ الصَّغِيرَةِ كَالْقَثَاءِ وَالْقَطْنِ. وَلَمْ يَكُنْ كُلُّ
هَذَا لَافِتًا لِلنَّظَرِ قِيَاسًا إِلَى غَرَابَةِ الْيَزِيدِيِّينَ.

كُنَّا أَطْفَالًا آنَعِيدُ، لَا يَغْنِينَا التَّارِيخُ الَّذِي يُصَنَّفُ الْيَزِيدِيِّينَ
فِرْقَةً بَاطِنِيَّةً، لَا يَغْنِينَا مُنَشَأُهُمْ، أَوْ دَوْرُ بَرِيطَانِيَا فِي صُنْعِهِمْ أَقْلِيَّةً
مِنْ أَقْلِيَّاتِ الشُّرُقِ كَمَا اعْتَادَتْ أَنْ تَفْعَلَ بِعَالَمِنَا الْغَارِقِ فِي
مَاضِيهِ حَتَّى الْاِخْتِنَاقِ، أَوْ الرَّاكِنِ إِلَى الرِّضَا حَتَّى الْاِخْتِنَاقِ.
كُنَّا مَا بَيْنَ مُسْتَعْرِبٍ أَوْ مُنْدهَشٍ، آنَعِيدُ، بِأَوْلِيكَ الرِّجَالِ الَّذِينَ
يَضْفُرُونَ جَدَائِلَهُمْ كَالنِّسَاءِ، وَيُزَخَّوْنَ شَوَارِبَهُمْ الْكَثَّةَ فَلَا تَبِينُ

شَفَاهُهُمْ. كَانُوا قَذَرِينَ لَا يَسْتَحِمُونَ، يُقَدِّسُونَ أَلْمَلِكِ
الطَّارُوسَ، أَيِ الشَّيْطَانِ الْأَكْبَرَ كَمَا يَقُولُونَ.

وَلَعَمْرِي، صَاحِبِ الْمُسْتَوْدَعَاتِ قُورَبِ الْخَابُورِ، شَرِيكَ يَزِيدِي
يُذْعَى «الْحَاجَّ». لَمْ يَحْجْ إِلَى الْكَعْبَةِ قَطُّ، لَكِنَّهُ يُذْعَى
«الْحَاجَّ»، وَلَا نَسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ. وَ«الْحَاجَّ» تَاجِرٌ حَدِيقٍ، كُنَّا
نُحْسُهُ قَائِمًا كُلَّ لَيْلَةٍ، يُتَمَتِّمُ بِصَلَاةٍ غَرِيبَةٍ، حِينَ نَهْبِجُ جَمِيعًا
فِي قَاعَةٍ أَشْبَهَ بِشُكْنَةٍ. لَكِنْ فِي النَّهَارِ، كُنَّا نَعْمِدُ إِلَى الْأَعْيِنَا
مَعَ هَذَا الْكَهْلِ. نَسْتُمُّ الشَّيْطَانَ، أَوْ نَتَعَوَّذُ مِنْهُ كُلَّمَا مَرَرْنَا بِهِ،
فَيَحْمَرُّ وَجْهُهُ، وَيَتَعَوَّذُ مِنَّا. نَبْصُقُ عَلَى الْأَرْضِ فِي تَعْمِيدِ ظَاهِرِهِ،
لَأَنَّ الشَّيْطَانَ يَسْكُنُ الْكَشَافَةَ، الظَّلَامَ وَالْأَرْضَ، فَيَتَعَوَّذُ مِنَّا.
وَأَخِيرًا نَرْسُمُ مِنْ حَوْلِهِ دَائِرَةً عَلَى الْأَرْضِ الثَّرَابِيَّةِ. وَالْيَزِيدِي لَا
يَخْرُجُ مِنَ الدَّائِرَةِ حَتَّى الْمَوْتِ، أَوْ حَتَّى يَمْحُوهَا مَنْ رَسَمَهَا.
يَضْرُخُ «الْحَاجَّ» فِي فَرْعٍ وَاضِحٍ: أَمْحُوا الدَّائِرَةَ يَا أَوْلَادَ الْكَلْبِ.
وَنَضْرُخُ فِيهِ: أَنْتَ ابْنُ الْكَلْبِ وَسَلِيلُ الشَّيْطَانِ. وَيَهْبُثُ مِنَ
الْكِبَارِ أَخِيرًا مَنْ يُنْجِدُ «الْحَاجَّ» فَيَمْحُو الدَّائِرَةَ، وَيُطَارِدُنَا.

يَوْمَهَا يُقَاصِصُنَا عَمَّنَا، يُقَاصِصُنَا فِي غُفٍّ يَصِلُ أَحْيَانًا إِلَى
إِعَادَةِ أَحَدِنَا إِلَى أَهْلِهِ، وَيَعْتَذِرُ عَنَّا إِلَى «الْحَاجَّ» الرَّهِيْبِ.

وَعَوَّدُنَا مِنَ الْحُرِّيَّةِ تِلْكَ، مِنْ حُرِّيَّةِ الْخَابُورِ الْأَمِيرِ وَضِفَائِهِ
الَّتِي تُحَاذِي جِبَالَ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَيْثُ تَكْثُرُ مَغَاوِرُ الْحَمَامِ الْبَرِّيِّ،
هِيَ عَوْدَةٌ إِلَى الرُّعْبِ الرُّتِيبِ، عَوْدَةٌ إِلَى الْغُبَارِ وَالْقِصَاصِ،
عَوْدَةٌ إِلَى طُفُولَةِ مُضَرَّجَةِ بَحْرِيفِ الْمَدِينَةِ وَمَدَارِسِهَا، وَبِالْمَطَرِ
الَّذِي يَجْرُفُ غُبَارَ الصَّيْفِ مِنَ الْأَعَالِي فَلَا يَتَسَاقُطُ إِلَّا الطَّيْنُ.

بَيْدَ أَنَّنَا، حِينَ الرُّجُوعِ ثَانِيَةً إِلَى فَفْصِ الْكِبَارِ وَسُلْطَتِهِمْ
الْعَرِيقَةِ، نَفْتَحُ مَجْرًى لَأَهْوَائِنَا، مَجْرًى لِلْحَرَابِ وَالْعَذَابَاتِ.
نُحْطِّمُ مَا تَبَقِيَ مِنَ الطُّفُولَةِ، وَمَا تَبَقِيَ لِلْكِبَارِ مِنْ حُلْمٍ
بِطُفُولَتِنَا. نَرْشُ الْكَارَ عَلَى قِطَّةٍ وَنُشْعِلُ ذَنْبَهَا. تَرْكُضُ الْقِطَّةُ فِي
هِيَاجٍ مَجْنُونٍ. تَضْطَلِدُ بِجُذُرِ الْبُيُوتِ وَتَقْفِزُ أَمْتَاراً عَنِ
الْأَرْضِ. يَمْتَدُّ اللَّهُبُ مِنْ ذَيْلِهَا إِلَى جِسْمِهَا كُلِّهِ. تَنْظُلُ تَرْكُضُ
وَتَرْكُضُ خَلْفَهَا. تَصِلُ إِلَى الْبَيَادِرِ لِيُصِقَ الْبُيُوتَ قَبْلَ أَنْ تَنْفَجِرَ
جُمُجُمَتُهَا كَمَا يَنْفَجِرُ الْبَالُونُ. وَمَا أَشْهَلَ أَشْتِعَالَ الْبَيَادِرِ
بِدَوْرِهَا. كَوْمَةٌ كَوْمَةٌ يَمْتَدُّ الْحَرِيقُ، وَمِثْرًا مِثْرًا يَزْتَفِعُ اللَّهُبُ.

نَتَرَاجِعُ لِنُنْذِرَ الْكِبَارَ وَكَأَنَّ لَا شَأْنَ لَنَا بِمَا جَرَى. يَخْرُجُ
الْكِبَارُ بِدِلَاءِ أَلْمِيَاهِ، وَحِينَ لَا تَنْفَعُ أَلْمِيَاهُ تَأْتِي الرُّفُوشُ لِثَهِيلِ
الْتَرَابِ عَلَى النَّارِ. وَوَقْتُ يَنْشَعِلُ الْكِبَارُ بِرُفُوشِهِمْ، وَالنِّسَاءُ

بِالْمُرَاقَبَةِ، تَنْسَلُّ نَحْنُ إِلَى حَوْشِ عَفْدَالٍ. نَرْبُطُ الْمُمْرَقَعَاتِ إِلَى
أَذْيَالِ الْعُجُولِ وَنُفْتَحُ الْبَوَابَةَ الْحَشِيَّةَ الضَّخْمَةَ. نُشْعِلُ الْفَتَائِلَ
وَنُسْرِعُ خَارِجِينَ لِنَعُدَّ: وَاحِدٌ، اِثْنَان... وَلَا نُكْمِلُ ثَلَاثًا إِلَّا
وَيَدُبُّ الْهِيَاجُ فِي الْحَوْشِ: تَدْوُرُ الْعُجُولُ حَوْلَ نَفْسِهَا فَتَحْلَعُ
أَلْوَتَادَ مِنَ الْأَرْضِ، وَتَنْطَلِقُ عَبْرَ الْبَوَابَةِ مَجْنُونَةً.

يَقْضِي آلُ عَفْدَالٍ سَحَابَةَ نَهَارِهِمْ مُطَارِدِينَ الْعُجُولَ الشَّارِدَةَ
فِي الْأَرْقَةِ وَفِي الْحُقُولِ. وَحِينَ يَظْفَرُونَ بِهَا يَلْعَنُونَ الشَّرْقَ
وَالْعَرْبَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ، مِنَ التَّعَبِ.

وَنَلْعَنُ الْقَمَرَ وَالنُّجُومَ، نَلْعَنُهَا نَحْنُ أَيْضًا، صَارِخِينَ فِي غَوَائِ
خَافِتِ كَخَيَوَانَاتِ مَطْعُونَةٍ عَلَى أَقْدَامِ الْهَضَبَاتِ، مُتَّجِهِينَ
صَوْبَ الظَّلَامِ السَّاجِرِ، الظَّلَامِ الَّذِي يَمْحُو الْمَدِينَةَ وَيُحْيِلُهَا
بُحَيْرَاتٍ يَتَقَصَّفُ قَصَبُ ضِفَافِهَا مِنَ الرِّكْضِ الْمَجْنُونِ لِأَجْسَادِ
يَنْصِفُهَا أَقْدَامُ جَوَامِيسَ، وَيَنْصِفُهَا نَبَاتَاتُ الْحَرْشُوفِ. يَنْصِفُهَا
يَرَابِيعُ، وَيَنْصِفُهَا الْآخِرُ شَعْرٌ مَسْدُولٌ كَشَعْرِ النِّسَاءِ... وَنُتَمَعِنُ
فِي الْآتِجَاهِ ذَاتِهِ، كَأَنَّمَا أَقْدَامُنَا رِيَاخٌ مَهْبُهَا هُوَ الْمَهَبُ الْحَفِيُّ
بَيْنَ عَامُودَا وَحَلَكُو: غُبَارٌ غُبَارٌ، وَالْأَرْضُ لَا تَتَكَشَّفُ لِصَوَارِي
طُفُولَتِنَا إِلَّا ثَوْرًا يَحْمِلُ عَلَى قَوْنِيهِ كُرَّةَ الْكِبَارِ الْمَوْتَى.

فاصل رابع

في انهيار بريفا

أَنْتِ مَاذَا يَا بَرِيثَا؟ أَنْتِ طَعْنَةٌ مِنَ الطَّيْنِ. أَنْتِ خَفَقَاتُ
الطَّيْنِ وَقَلْبُهُ الْغُبَارِيُّ الشَّارِدُ. أَنْتِ جَنَاحُ الْقُرَى يَا بَرِيثَا،
يَا سَحَابَةَ غُبَرَاءِ نَاحِلَةٍ تَلْمُسُ الْأَرْضَ فِي خَجَلٍ، وَتَتَكَوَّمُ بَيْتاً
بَيْتاً حَوْلَ نَبْعٍ خَفِيٍّ مِنَ الْغُبَارِ وَالتَّعَبِ. أَقْرِيَّةٌ أَنْتِ حَقّاً؟ أَمْ
صَلِيلُ الظَّلَامِ حِينَ رَسَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ فَأَنْبَتَ الْوَحْشَةُ؟
ذَاهِلَّةٌ أَنْتِ يَا بَرِيثَا، ذَاهِلَةٌ كَأَنَّمَا فَاجَأَتْ نَفْسُكَ، ذَاتَ يَوْمٍ، فِي
مَرَايَا الْقُرَى، فَرَأَيْتِ شَبَحاً لَا قَدَمَيْنِ لَهُ، شَبَحاً زَاحِفاً بَيْنَ
الْخَزْنُوبِ وَأُورَاقِ الْكَمَاءِ، يَمُدُّ يَدَيْهِ، فِي تَوَسُّلِ أَحْيَرٍ، إِلَى غَيْبٍ
يَقُودُ أَبَاطِيلَهُ كَالثَّيْرَانِ وَلَا يَلْتَفِتُ. إِيْهِ بَرِيثَا، يَا شَبَحَ قَرِيَّةٍ، وَيَا
نَافِذَةَ الثَّرَابِ عَلَى الثَّرَابِ، لَمْ يَكُنْ لِيَسْمَعَ بِكَ أَحَدٌ، لَوْلَا بُوْغِي،
لَوْلَا هَذَا الْمَارِدُ الَّذِي خَلَقْتَهُ الْأَحَادِيثُ أَوْ خَلَقَ الْأَحَادِيثُ. لَمْ
نَزْ بُوْغِي الَّذِي أُضِيفَتْ إِلَى اسْمِهِ كُنْيَةُ بَرِيثَا فَصَارَ بُوْغِي بَرِيثَا.
لَمْ نَرَهُ نَحْنُ الْأَطْفَالُ، لَكِنَّا رَأَيْنَا قَبْرَهُ عَلَى قِمَّةِ هَضْبَةٍ مُوزَانٍ.

سَلَكْنَا طَرِيقَ الْهَضْبَةِ مِنْ قَرْيَةِ مِوزَانَ ذَاتِهَا، بَيْنَ شَجَرَاتِ
 الْعَيْنِ، خَاطِفِينَ أَعْنَاقِيذَ السُّودَاءِ هُنَا وَهُنَا، نَاطِرِينَ حَبَاتِهَا
 وَرَاءَنَا كَمَنْ يَبْزُكُ لِلْقَادِمِينَ أَثَرًا لَا يَقُودُ إِلَّا إِلَى الْعَبَثِ. وَكَانَتْ
 أَعْنَاقِيذُ حُلْوَةٍ جَدًّا، ذَاتَ حَبَاتٍ صَغِيرَةٍ يَغْلُوهَا مِنَ الْعُبَارِ
 مَا يَغْلُو الْأَرْضَ. وَكُنَّا نَلْتَهُمُهَا غَيْرَ عَابِئِينَ بِذَلِكَ الطَّعْمِ الْمَزِيجِ
 الْخَاصِّ، أَوْ نَعْتَصِرُهَا بَيْنَ أَيْدِينَا مِنَ الْبَطَرِ فَتَسْتَحِيلُ إِلَى عُصَارَةٍ
 مِنَ الطَّيْنِ الدَّقِيقِ الْأَسْوَدِ، وَمِنْ ثَمَّ نَغْسِلُ أَيْدِينَا بِثَرَابِ الطَّرِيقِ
 الَّذِي لَا يَلْبَثُ أَنْ يَخْتَفِيَ عَلَى أَطْرَافِ الْهَضْبَةِ فَتَسْلُكُ أَخَاذِيذَ
 السُّيُولِ الصَّيِّقَةِ الَّتِي تُوصِلُنَا إِلَى الْقِمَّةِ بَعْدَ جُهْدٍ.

وَقِمَّةُ هَضْبَةِ مِوزَانَ مُنْبَسِطَةٌ، مَلَأَى بِقُبُورٍ لَا مَعَالِمَ لَهَا،
 وَتَنَجَّنَبُ - نَحْنُ الْأَطْفَالَ - أَنْ نَطَأَ أَيًّا مِنْهَا خَشْيَةً إِيْقَاطِ
 الْمَوْتَى، وَكَذَلِكَ تَنَجَّنَبُ الْجُحُورَ الْمُنْتَشِرَةَ هُنَا وَهُنَا، لِأَنَّهَا
 خَاصَّةٌ بِحَيَوَانَاتِ الْمَوْتَى، الَّتِي تَخْرُجُ بِجَرَائِهَا لَيْلًا فَتَأْكُلُ
 الْجُثَثَ وَتَعْبَثُ بِالْعِظَامِ. وَإِذْ تَشْبَعُ، تَرْفَعُ حَنَاجِرَهَا بِعُغْوَاءٍ
 مَمْزُوجٍ بِأَنْبِنِ اللَّيْلِ وَمَخْلُوقَاتِهِ.

وَفِي وَسْطِ الْقِمَّةِ الْمُنْبَسِطَةِ، فِي وَسْطِ الْقُبُورِ الَّتِي تَسَاوَتْ
 بِالْأَرْضِ فَمَا يَبِينُ مِنْهَا إِلَّا شَوَاهِدُهَا، فِي وَسْطِ ذَاكَ الشُّكُونِ

الْمُزْهَقِ الشَّكْرَانِ الَّذِي لَا نُدْمَاءَ لَهُ، يَتَمَدَّدُ بُوغِي بَرِيفًا مُعْطًى
 بِرَقَائِقَ مِنَ الْخَزَفِ، عَلَى طَوْلِ ثَلَاثَةِ أَمْتَارٍ: إِنَّهُ الْأَطْوَلُ حَقًّا،
 وَالْأَعْرَاضُ حَقًّا، لَكِنَّهُ مُهْمَلٌ إِلَى دَرَجَةٍ يُوثَى لَهَا، وَكَانَ حَرِيًّا
 بِالنَّدَابَاتِ اللَّائِي شَيَّعْنَهُ، ذَاتَ يَوْمٍ، أَنْ يَبْقَيْنَ صَاعِدَاتٍ
 هَابِطَاتٍ عَنِ الْهَضْبَةِ أَلْفَ عَامٍ، وَأَنْ يَتَّصِلَ عَوِيلُهُنَّ كَمَا تَتَّصِلُ
 أَقْدَامُ الْهَضْبَةِ بِجُذُورِ الشَّمَالِ. فَمَا هَكَذَا يَنْتَهِي بُوغِي بَرِيفًا،
 وَمَا هَكَذَا يَتَلَاشَى صَوْتُهُ الَّذِي يَضَعْدُ، رُوَيْدًا رُوَيْدًا، مِنْ
 أَعْمَاقِنَا، (نَحْنُ الْوَاقِفِينَ أَمَامَ عَظَمَةِ الْخَرَابِ بَعِيونَ تَمَلُّهَا ثَلَاثَةُ
 أَمْتَارٍ مِنْ جَسَدِ مُعْطًى بِرَقَائِقَ مِنَ الْخَزَفِ). وَصَوْتُهُ وَائِثٌ -
 كَمَا يَشْهَدُ الرُّوَاةُ - وَهَادِيءٌ كَجَسَدِهِ الْهَادِيءِ الْمَدِيدِ.
 وَيُضَيِّفُونَ أَنَّهُ كَانَ يَقْطَعُ الْقُرَى رَاجِلًا، إِذْ لَمْ يَضْمُدْ تَحْتَ
 ثِقْلِهِ أَيُّ بَعْلٍ، وَأَشَدُّ الْبَغَالِ كَانَ يَمْضِي بِهِ خُطَوَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ
 يَنْحَنِيَ عَمُودُهُ الْفِقْرِيُّ فَيَلْمَسَ بَيْطَنَهُ الْأَرْضَ.

وَأَشْهَبَ الرُّوَاةُ فِي الْحَدِيثِ عَنْ شُؤُونِ أُخْرَى فِي حَيَاةِ
 الْمَارِدِ، عَنْ دَلْوِهِ الْخَاصِّ الَّذِي يَسْعُ عَشْرِينَ دَلْوًا عَادِيًّا. يَشُدُّهُ
 بُوغِي وَخَدَهُ مِنَ الْبَيْرِ وَيَسْقِي الْمَاشِيَةَ. عَنْ تَنَاوُلِهِ مَا يَسْعُ تَتَوْرًا
 كَامِلًا مِنَ الْأَرْغَفَةِ. عَنْ الْأَبْوَابِ الْعَالِيَةِ الَّتِي تَضِيقُ بِطَوْلِهِ

فَيَنْخَنِي لِيَدْخُلَهَا. عَنْ كُلِّهِ الَّذِي يُعَادِلُ بِضَخَامَتِهِ الْجِمَارَ، فَمَا يَظْهَرَانِ عَلَى التُّخُومِ إِلَّا مَعًا، شَكْلَيْنِ خُرَافِيَيْنِ لَمْ تَخْجُبْهُمَا زَوْبَعَةٌ قَطُّ، وَلَمْ يَطْلُعْ فَجْرٌ إِلَّا وَهُمَا يَخْرُجَانِ مِنَ الْأُخْدُودِ الْكَبِيرِ شَرْقَ بَرِيقَا، مِنَ الْأُخْدُودِ الَّذِي كَانَ نَهْرًا ذَاتَ يَوْمٍ، وَأَمْسَى زَرْبَةً صَيْفِيَّةً لِعَنَمِ بُوغِي وَأَكْبَاشِهِ. وَيَتَحَدَّثُونَ عَنْ بَقَائِهِ أَغْرَبَ فَلَا نَفْقَهُ الْمَسْأَلَةَ كَمَا يَنْبَغِي، لَكِنَّ الْوَاضِحَ أَنَّهُ لَمْ يُخْرِجْ أَحَدًا بِطَلَبِ أَثْنَى.

كان بوغي بريفا هادئاً إلى حينِ سَرَتْ هَمَّهَاتُ خَفِيضَةٍ بَيْنَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ: «الْأَقْوِيَاءُ يَقْتَسِمُونَ الْأَرْضَ». وَكَانَ جَدِيداً أَنْ يَأْتِيَ أَقْوِيَاءُ غَامِضُونَ عَلَى أَفْرَاسِهِمْ لِيَقُولُوا: «هَذِهِ تُخُومُنَا، وَهَذِهِ تُخُومُكُمْ». كَانَتْ الْأَرْضُ مُنْبَسِطَةً لَا حَدُودَ فِيهَا، مُنْبَسِطَةً وَاضِحَةً كَالْأَسْئِلَةِ، وَهَا هِيَ تُمْسِي مُلْتَوِيَةً كَأَجْوِبَةٍ غَرِيبَةٍ... وَضَافَتْ الْأَرْضُ مِنْ حَوْلِ بَرِيقَا، حَتَّى مَا عَادَ النَّاسُ بِقَادِرِينَ عَلَى الْخُرُوجِ بِأَغْنَامِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ فَرْسَخٍ وَاحِدٍ. آتَيْدُ خَرَجَ بُوغِي الْوَائِقُ عَلَى هُدُوءِهِ الْوَائِقِ. حَمَلَ حَجَرًا يَبْلُغُ قُطْرُهُ مِثْرًا أَوْ يَزِيدُ، وَسَارَ يُوَاكِبُهُ الرِّجَالُ. وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ تَعْبُوا مِنَ الْمَشْيِ وَمَا تَعَبَ بُوغِي. وَيَقُولُونَ جَلَسُوا يَمْسَحُونَ عَرَقَهُمْ فِي الظُّهيرةِ وَلَمْ

يَتَوَقَّفُ بوغي، ويقولونَ رُئِيَ يَمْضِي حَتَّى اخْتَفَى عَنِ الْعُيُونِ.
وَيَقُولُونَ وَصَلَ بوغي إلى مَقْرَبَةٍ مِنْ بُيُوتِ أَوْلِيكَ الْأَقْوِيَاءِ
الْغَامِضِينَ، الَّذِينَ أَنْذَرُوا النَّاسَ بِاقْتِسَامِ الْأَرْضِ، إِذْ ذَاكَ رَمَى
الْحَجَرَ عَنْ كَتِفِهِ قَائِلًا: «هَذِهِ حَدُودُ بَرِيثَا»، وَقَفَلَ رَاجِعًا.
ويقولونَ لَحِقَ بِهِ أَحَدُ الْأَقْوِيَاءِ عَلَى حِصَانِهِ، وَحِينَ حَازَاهُ دَفَعَ
بوغي الْحِصَانَ فَسَقَطَ أَرْضًا، ثُمَّ امْسَكَ بِأَحَدَى قَوَائِمِهِ فَكَسَرَهَا،
هَاتِفًا بِالرَّجُلِ: «لَا تَلْحَقْ بِي»، فَلَمْ يَلْحَقْ بِهِ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ.

لكن، لا أَحَدٌ يَقُولُ لَنَا مَاذَا يَفْعَلُ قَبْرُ بوغي بَرِيثَا عَلَى
هَضْبَةِ مِوزَانٍ، وَهُمَا قَوِيَّتَانِ ثَمَّتْ مَسَافَةٌ طَوِيلَةٌ بَيْنَهُمَا؟ أَوْ مَاذَا
حَلَّ بِكُلِّهِ الْمارِدِ مِثْلُهُ، الَّذِي شُوهِدَ مِرَارًا عَلَى قِمَّةِ آلْهَضْبَةِ،
رَافِعًا صَوْتَهُ بِغَوَاءٍ مَرِيرٍ، مَدَى ثَلَاثِ سَنِينَ، مُلْتَمِعًا تَحْتَ صَوْنِ
الْقَمَرِ أَوْ وَمِضِ الْبُرُوقِ؟ مَاتَ عَلَى مَا نَعْتَقِدُ نَحْنُ الْأَطْفَالُ،
مَاتَ مِثْلَ صَاحِبِهِ، دُونَمَا صَحَبٍ أَوْ نَذِيرٍ. أَوْتَعْرِفُونَ كَيْفَ
مَاتَ بوغي بَرِيثَا؟

يَقُولُ الرُّوَاةُ إِنَّ وَبَاءَ أَصَابَ غَنَمَ بوغي. بَدَأَ صَوْفُهَا يَهْرُ
وَأَجْسَامُهَا تَتَقَرَّحُ، ثُمَّ هَوَّتِ الْوَاحِدَ تِلْوَ الْآخَرِ.
ذَاتَ فَجَرٍ لَمْ يَخْرُجْ بوغي مِنَ الْأُخْدُودِ النَّهْرِيِّ. رَأَوْهُ

مُسْنِدًا ظَهَرَهُ إِلَى حَافَةِ الْجُرُفِ وَقَدْ جَمَعَ حَوْلَهُ الْكَثِيرَ مِنْ
الْصُّوفِ الْمُنْسِيخِ، بَيْنَمَا رَاحَ كَلْبُهُ يَحُومُ وَيَعُوي. وَنَسْأَلُ - نَحْنُ
الْأَطْفَالَ - أَكَانَتْ عَيْنَاهُ مُعْمَصَّتَيْنِ أَمْ مُفْتَحَتَيْنِ فَلَا يَرُدُّ أَحَدٌ.

... وَنَهَيْتُ الْهَضْبَةَ الْعُضَارِيَّةَ، الَّتِي تَفْتَحُ مَرَاتٍ عَدِيدَةً
عَنْ جِرَارٍ مِنَ الْكَهْرْمَانِ الثَّمِينِ وَالْفِضَّةِ، مُتَّجِهِينَ عَبْرَ الشُّهُولِ
الشَّرْقِيَّةِ الْجَرْدَاءِ إِلَى الْمَدِينَةِ، لَكِنَّ الْمَدِينَةَ لَمْ تَعُدْ ذَاتَهَا، بَلْ
هِيَ أَشْبَهُ الْآنَ بِثُكْنَةٍ لِحَقْرِ الْبَادِيَةِ، أَيْ الْهَجَانَةِ كَمَا يُسَمُّونَهُمْ.
وَنَحْنُ لَمْ نَسْأَلْ قَطُّ عَنْ سَبَبِ وُجُودِ هَؤُلَاءِ الْعَسْكَرِيِّينَ الْبِدَاةِ،
بَيْنَ أَنَّهُمْ أَفْصَحُوا، بِجَلَافَةٍ وَقَسْوَةٍ، عَنْ تَرْتِيبَاتٍ خَفِيَّةٍ هَيَّأَهَا
«الْكَبَارُ» لِلْجَزِيرَةِ.

كَانَ زَمَنُ «إِصْلَاحَاتٍ»، زَمَنُ اقْتِسَامِ مُدْهَشٍ لِلْأَرْضِ بَيْنَ
الدَّوْلَةِ وَالنَّاسِ، لَكِنَّ النَّاسَ تَنَازَلُوا عَنْ حِصَصِهِمْ لِلدَّوْلَةِ حِينَ
لَمْ يَجِدُوا الْبِدَارَ، وَهَكَذَا بَدَأَتِ الْأَمْبَرَاطُورِيَّاتُ الصَّغِيرَةُ فِي
الْأَنْهِيَارِ، أَمْبَرَاطُورِيَّاتُ الْأَقْوِيَاءِ وَكَذَلِكَ أَحْلَامُ الصُّغَارِ الضُّعَفَاءِ:
كُلُّ شَيْءٍ مَضَى كَالسَّيْلِ يَجْرُفُ آخِرَ مَعَالِمِ الْمَاضِي بِطُفُولَتِهِ
وَبَرِيْقِهِ الْخُرَافِيِّ الْجَمِيلِ. وَحِينَ هَذَا السَّيْلُ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ
مُعْطًى بِطِينِ أَحْمَرَ لَا أَثَرَ لِلْحَيَاةِ فِيهِ.

إِنْقَرَضَ الْقَمَحُ فِي فِرْدَوْسِ الْقَمَحِ، وَبِشْنَا - نَحْنُ الْأَطْفَالُ -
نَتَرَاخُمُ فِي الصَّبَاحَاتِ عَلَى أَبْوَابِ الْأَفْرَانِ، وَقَدْ تَقْضِي سَحَابَةٌ
مِنَ النَّهَارِ قَبْلَ أَنْ نَطُولَ إِلَى الْأَرْغَفَةِ، لِأَنَّ الْهَجَانَةَ ذَوْرُ أُولَوِيَّةٍ،
وَيَا مَا قَدَفَ هَوْلَاءِ الْعَتَاةُ بِطِفْلِ أَوْ بِشَيْخٍ خَارِجِ الزَّحَامِ،
لِيَأْخُذُوا مَكَانَهُ فِي الصُّفُوفِ. وَيَا مَا آجَتَاوَا الصُّفُوفَ وَصَفَعُوا
الْفَرَانِينَ، أَوْ دَاسُوهُمْ بِالْأَحْذِيَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ حَتَّى يَنْفَرِ الدَّمُ مِنْ
الْأَذَانِ وَالْأَفْوَاهِ.

لَمْ يَعُدْ يَنْفَعُ الْأَقْوِيَاءُ كَثْرَةُ أَنْصَارِهِمْ بَعْدَ مَجِيءِ الْهَجَانَةِ،
وَلَمْ يَنْفَعِ الضُّعَفَاءُ ضَعْفُهُمْ بَعْدَ مَجِيءِ الْهَجَانَةِ، وَكَانَ اقْتِحَامُهُمْ
لِلْمَدِينَةِ اقْتِحَاماً ذَا تَوْقِيَةٍ مُوََاكِبٍ لِتَوْقِيَةِ انْقِرَاضِ الْقَمَحِ،
وَمُوََاكِباً لِاسْتِغْلَةِ النَّاسِ: «أَيْنَ خُبْرُنَا؟»

كُنَّا أَطْفَالاً آنَعِذُ، يَأْخُذُنَا الدَّهْشُ مِنْ غَنُودٍ - الْأُنْثَى الَّتِي
تَزَوَّدِي حَظَّةً كَالرِّجَالِ، وَدَشْدَاشَةً كَالرِّجَالِ، وَسُتْرَةً كَالرِّجَالِ،
وَتَتَمَنَّنُ طُقُ بِمُسَدَّسٍ كَالرِّجَالِ. وَلَهَا سَيَارَاتُهَا وَمُرَافِقُوهَا. لَكِنَّ
غَنُودَ، آبَنَةً كَبِيرَ شُيُوخِ الْبَادِيَةِ، لَمْ يَدُمْ مَجْدُهَا طَوِيلًا بَعْدَ
مَجِيءِ الْهَجَانَةِ. وَعَرَفْنَا، مَعَ تَضَعِيدِ مَوْجَةِ «الْإِصْلَاحَاتِ
الْجَمِيلَةِ»، وَإِذْ صَارَ لَنَا حُكْمُنَا عَلَى حَاضِرٍ خُرَافِيٍّ، أَنَّ كُلَّ

شَيْخٍ مِنْ شُيُوخِ الْبَادِيَةِ، وَكُلُّ قَوِيٍّ بِاتِّبَاعِهِ فِي الْمَاضِي، أُعِيدَتْ
إِلَيْهِ أَمْبِرَاطُورِيَّتُهُ... أَمَّا الضُّعَفَاءُ فَيَتَّبِعُونَهُ حَتَّى الْعَظَمِ، وَمَعَ الْيَأْسِ
بَدَأَتْ تَتَكَوَّمُ جُثَّتُ الْهَجَانَةِ فِي الْمُنْعَطَفَاتِ وَالْأُودِيَةِ.

ضَجَّتِ النَّاسُ مِنَ الْبَطْشِ الْيَوْمِيِّ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَزِيدُونَ
حَطَّاتِ حُمْرَاءَ وَلَا يَذْفَعُونَ إِبْجَارَاتِ يُبُوتِهِمْ. ضَجَّتْ مِنَ الَّذِينَ
يَأْخُذُونَ رَغِيفَهَا الصُّبَاحِيِّ، وَيَقْتَحِمُونَ الْبُيُوتَ إِذَا تَشَاجَرَ
طِفْلَانِ. وَحِينَ أَدْرَكُوا أَنَّ هَؤُلَاءِ جَاءُوا لِيَمْحُوا الْأَسْئِلَةَ فِي
الْأَفْوَاهِ، نَصَبُوا لَهُمُ الْفَخَاخَ اللَّيْلِيَّةَ، وَنَشَرُوا بِالرُّفُوشِ وَالْمَنَاجِلِ
أَغْضَاءَهُمْ. وَلَمَّا تَفَاقَمَ الْأَمْرُ، حَمَلَ الْهَجَانَةُ أَحْلَامَهُمْ
الصُّخْرَاوِيَّةَ الْمُتَمَتِّزَةَ بِالْبَغْرِ إِلَى الْبَادِيَةِ ثَانِيَةً، وَلَمْ يَعُودُوا بَعْدَ
ذَلِكَ قَطُّ.

لَكِنَّ الْأَمْبِرَاطُورِيَّاتِ الصَّغِيرَةَ، الَّتِي تَدَاعَتْ، تَدَاعَتْ. وَمَعَ
هَذَا التَّوَافِدِ الْكَثِيفِ لِلْكَاتِبَةِ السَّامَوِيَّةِ، بَدَأَتْ الْمَقَاهِي تَنْفِرُ
طَالِعَةً مِنْ زَاوِيَةِ هُنَا وَزَاوِيَةِ هُنَاكَ. وَكَانَتْ مَقَاهِي مَسْقُوفَةً
بِحُصْرِ الْقَشِّ، يَجْتَمِعُ الرِّجَالُ فِيهَا عَصْرًا، أَوْ يَقْضُونَ أَكْثَرَ اللَّيْلِ
عَلَى ضَوْءِ الْفَوَانِسِ، صَارِخِينَ لِاعْنِينَ وَرَقِ اللَّعِبِ الَّذِي يَجْعَلُ
حُظُوطَهُمْ أَشَدَّ مَهْزَلَةً، أَوْ يَقْذِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِكَرَاسِي

أَبْوَصَ، وَمِنْ ثَمَّ يَنْجَلِي الْأَمْرُ فَيَعُودُونَ إِلَى صَحْبٍ وَضَرَاخٍ لَا
عُنْفَ فِيهِمَا.

بَدَأَ كُرْهُنَا صَغِيرًا وَنَمًا، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، لِيَشْمَلَ الْمَقَاهِي،
وَقَطَارَ الْمَدِينَةِ الْوَحِيدِ، وَمَطَا حِنَ الْقَمْحِ الْآلِيَّةِ، وَمَصْنَعَ الْجَلِيدِ،
وَالْمَطَارَ، وَالطَّائِرَاتِ، وَالنَّهْرَ، وَبُيُوتَ الضَّوَا حِي الطَّيْنِيَّةِ،
وَالْمَادِنَ، وَالْفَقْرَ. كَرِهْنَا كُلَّ شَيْءٍ لَأَنَّا لَمْ نَمْتَلِكْ - وَسَطَ
أَحْلَامِنَا الْغَامِضَةِ بِأَمْتِلَاكِ لُغَبَةِ مَا، أَوْ حَقِيقَةِ جَمِيلَةٍ - إِلَّا عَبَثْنَا
الصَّارِخَ، فَأَطْلَقْنَاهُ كَغَيْمَةٍ مُسْرِعَةٍ، وَأَنْطَلَقْنَا مَعَ عَابُو الْأَعْمَى
الَّذِي يَعْرِفُ الْأَرْضَ خُطْوَةً خُطْوَةً، وَالْمَدِينَةَ زُقَاقًا زُقَاقًا،
وَيَعْرِفُ الْمَسَالِكَ الْخَطِرَةَ إِلَى تُرْكِيَا، وَيُعْنِي كَكَلْبٍ مَبْحُوحٍ.

وَعَابُو فِي الثَّلَاثِينَ، دَمِثْ ذُو صَوْتٍ خَشِينٍ أَبَحَّ. لَمْ
يَسْتَعْمِلْ، وَهُوَ الْأَعْمَى، عَصًا قَطُ، بَلْ يَقُودُهُ طِفْلٌ عَادَةً، أَوْ
يَتَقَرَّى الْحَيْطَانِ، وَيَجْتَازُ عَرِضَ الطُّرُقِ الَّتِي يَعْرِفُهَا عَنْ ظَهْرِ
قَلْبٍ. وَعَابُو لَا يَخَافُ. عَابُو مَلِكُ النَّهْرِ. وَنَتَسَابَقُ رَاكُضِينَ
عَلَى الصُّفَّتَيْنِ حِينَ يَهْبِطُ عَارِيًّا إِلَى الْمَاءِ. يَغْوِصُ حَتَّى رَقَبَتِهِ
وَهُوَ يَتَحَسَّسُ الْأَعْمَاقَ الضَّخْلَةَ بِيَدَيْهِ. وَبَيْنَ الْفَيْتَةِ وَالْفَيْتَةِ يَوْمِي
إِلَيْنَا بِشَبُوطٍ أَوْ رَعَادٍ نَهْرِيٍّ. وَإِذَا كَانَ الصَّبِيُّ ضَيْلًا، يَغْمِدُ إِلَى

الْجُحُورِ. يَحْشُرُ يَدَهُ فِيهَا وَيُخْرِجُهَا جَاذِبًا سَلْطَعُونَ أَوْ حَنْكَلِسًا. يَزْفَعُ الْغِطَاءَ الْعَظْمِيَّ عَنِ ظَهْرِ السَّلْطَعُونَ وَيَقُولُ: «انْظُرُوا، هَذِهِ سَاعَتُهُ اللَّحْمِيَّةُ». أَوْ يَقُولُ: «إِخْذُرُوا ذَيْلَ الْحَنْكَلِسِ فَهُوَ سَامٌّ»، وَيَقْطَعُ بِأَسْنَانِهِ مِقْدَارَ عَشْرَةِ سَنِمَتَرَاتٍ مِنْ ذَيْلِهِ. وَكَانَ عَابُو يَلْتَقِطُ الْأَفَاعِي أَيْضًا. يَغْوِضُ بِهَا تَحْتَ الْمَاءِ لِيُفْسِكَهَا مِنْ غُنْقِهَا، وَحِينَ يَطْفُو يَصِيخُ: «هَاتُوا قَمِيصِي». نُعْطِيهِ الْقَمِيصَ فَيَضَعُهُ عَابُو فِي فَمِ الْأَفْعَى، ثُمَّ يَشُدُّهُ فَيَخْلَعُ أَسْنَانَهَا. بَعْدَئِذٍ يَضَعُهَا فِي جَنِبِهِ آمِنًا، وَيُخِيفُ بِهَا الْآخَرِينَ.

... وَنَمْضِي وَرَاءَ عَابُو لِنَطُوفَ بِالْمَقَاهِي كُلِّهَا. يَقُولُ لِلطُّفْلِ الَّذِي يَقُودُهُ: «دُلَّنِي عَلَى فُلَانٍ» فَيَدُلُّهُ. يَقْتَرِبُ عَابُو مِنَ الرَّجُلِ وَيَهْمِسُ: «لِي دَيْنٌ فِي ذِمَّتِكَ». يَضْحَكُ الرَّجُلُ وَيُنَاوِلُهُ نُقُودًا. وَلَا يَنْقُضِي النَّهَارُ إِلَّا وَنَجْمَعُ مَا يَكْفِينَا جَمِيعًا لِدُخُولِ السَّيْنِمَا. يَجْلِسُ عَابُو فِي الصَّلَاةِ وَوَجْهُهُ إِلَى الْأَعْلَى. يَسْأَلُنَا بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ عَنْ مَجْرَى الْأَحْدَاثِ، وَإِذَا نَشَرْدُهَا لَهُ تَنْفَرِجُ أَسَارِيرُهُ، أَوْ يُقَهِّقُهُ فَيُعِدُّنَا بِالْقَهْقَهَةِ.

وعابو زَوْجٌ شَحَادَتَيْنِ، جَمَعَهُمَا مَعًا فِي بَيْتِهِ الشَّبِيهِ بِرَبْرِيَةِ

ضَيِّقَةً فِي الصُّوَا حِي . إِحْدَاهُمَا تُدْعَى شَوْشَةً ، فِي ضَخَامَةِ
الْفِيلِ ، حَافِيَةً دَائِمًا ، وَلَقَدْ مَيَّهَا الْمُفْلَطَحَتَيْنِ دَمْدَمَةً عَلَى الْأَرْضِ
كَدَمْدَمَةِ الْجَامُوسِ .

وَهِيَ لَا تَخْرُجُ مِنْ أَيِّ بَيْتٍ تَدْخُلُهُ إِلَّا بِغَنِيمَةٍ ، رَضِيَ
أَهْلُ الْبَيْتِ أَمْ أَبَوَا . وَالْأُخْرَى تُدْعَى بَاسِي ، وَدِيْعَةٌ لَا يُجَاوِزُ
ذِكَاؤُهَا ذَكَاءَ دَجَاجَةٍ ، لَكِنَّ شَوْشَةً وَبَاسِي تَتَشَاجِرَانِ أَبَدًا فِي
الطُّرُقَاتِ ، وَأَبَدًا تَسْقُطُ بَاسِي بِشَعْرِهَا الْأَشْعَثِ أَرْضًا ، فَتَعْوِي .

صِرَاعٌ أَبَدِيٌّ بَيْنَ ضُرَّتَيْنِ ، صِرَاعٌ يَقِفُ فِيهِ عَابُو عَلَى
الْحِيَادِ ، وَيَسْتَرْضِي الْأَقْوَى . صِرَاعٌ نُضْرِمُهُ ، أَكْثَرُ ، نَحْنُ
الْأَطْفَالُ ، بِهِيَا جِنَا ، إِذْ نَتَخَلَّقُ مِنْ حَوْلِهِمَا ، وَنُوَلِّبُ إِحْدَاهُمَا
عَلَى الْأُخْرَى ، فَتَتَنَاقِرَانِ مِثْلَ دِيكَيْنِ تَتَطَايَرُ مِنْهُمَا الْخِرْقُ بَدَلِ
الرِّيشِ . وَنَذْكُرُ ، بَعْدَئِذٍ ، أَنَّ بَاسِي مَاتَتْ ، فَبَقِيَتْ شَوْشَةُ سُلْطَانَةٍ
عَلَى عَابُو وَبَيْتِهِ .

وعابو لا يفوته غُرْسٌ ، حَاضِرٌ أَبَدًا كَمَا حُضُورُ الطَّنْبُورِ أَوْ
الطُّبْلِ . وَالْأَعْرَاسُ تَجْرِي - هُنَاكَ ، شِمَالًا - فِي الصَّيْفِ . سَبْعَةٌ
أَيَّامٍ وَسَبْعُ لَيَالٍ . يَغْلُو أَلْغَبَارُ رُؤُوسِ الرَّاqَصِيْنَ ، وَيُحِيطُ كَغَلَالَةٍ
أُنثَوِيَّةٍ بِفَوَانِسِ الْكَازِ الْمُعَلَّقَةِ إِلَى الْأَعْمِدَةِ ، وَكَذَلِكَ بِعَيْنِي عَابُو

أَلْبِيضَاوَيْنِ اللَّتَيْنِ تَرِيَانِ الْأُبْعَدَ، تَرِيَانِ الدَّمِ وَدَوَّرَتُهُ فِي الْعُرُوقِ،
وَتَرِيَانِ الْأَسْمَاءِ فِي لُهَاثِ الْآخَرِينَ.

يَجْتَمِعُ الرَّاقِصُونَ فِي حَلَقَةٍ تَدُورُ، وَفِي وَسْطِهِمُ الطَّبَّاالُونَ
يُطْبِلُهُمُ الَّتِي لَا إِيقَاعَ لَهَا غَيْرُ الصَّخَبِ الْبَاسِلِ. وَعَلَى مَبْعَدَةٍ
مِنْ الْحَلَقَةِ نَجْلِسُ حَوْلَ عَابُو الَّذِي يَسْأَلُنَا: «أَبْنَتَا عَارِيفَ
هُنَا؟»، وَنُجِيبُهُ: «نَعَمْ». وَيَسْأَلُ: «أَوَّلَاذُ سَطَّامَ وَمَهْرُو هُنَا؟»،
وَنُجِيبُ: «نَعَمْ». يَقُولُ عِنْدئِذٍ: «هَيَّا نَتَرَصَّدِ الْبَيَادِرَ».

يَعْرِفُ عَابُو أَنَّ أَمْرًا مَا يَتَجَمَّعُ فِي الْعُبَارِ اللَّيْلِيِّ. فَابْتَنَّا
عَارِيفَ الْجَمِيلَتَانِ مَشْهُودٌ لُهُمَا بِالتَّهْتِكِ. يَأْخُذُهُمَا أَخُوهُمَا
الْأَكْبَرُ إِلَى الْأَغْرَاسِ. وَيَعْقِدُ الصَّفَقَاتِ هُنَاكَ. وَأَوَّلَاذُ الْآغِيَيْنِ
سَطَّامَ وَمَهْرُو مَشْهُودٌ لَهُمُ بِالتَّهْتِكِ، لَا يُخْفُونَ أَخْبَارَ طَيْشِهِمْ
وَلَهْوِهِمْ عَنْ أَحَدٍ. يَحْضُرُونَ الْأَغْرَاسَ فِي سَيَّارَةٍ صَغِيرَةٍ مِنْ
نَوْعِ اللَّانْدُرُوفَرِ، حَامِلِينَ قَنَانِي الْجَعَةِ، فَيَزِدُّرِيهِمْ رِجَالُ الشَّمَالِ
الْمُتَعَفِّفُونَ. لَكِنَّا نُنْذِرُكَ أَنَّ لِلنِّسَاءِ رَأْيًا آخَرَ، وَنَظْرَةً يَنِيْمُ مِنْهَا
إِعْجَابٌ بِالْجَسَارَةِ.

وَنَمْضِي مَعَ عَابُو إِلَى مَا وَرَاءَ الْبُيُوتِ الْمُتَنَائِرَةِ فِي
الصَّاحِيَةِ وَنَتَرَصَّدُ. وَإِذْ يَحْمِي وَطِيشُ الثُّرَابِ تَحْتَ الْأَرْجُلِ،

وَيَنْحَدِرُ عَرَقُ الطَّبَالِينَ عَلَى صُدُورِهِمْ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْأَحْذِيَّةِ،
يُغَابِلُ أَوْلَادُ سَطَّامٍ وَمَهْرُو النَّاسِ لِيَجْلِسُوا عَلَى كَوْمَةٍ مِنْ أَكْوَامِ
الْقَشِّ الْكَثِيرَةِ، بَعِيداً عَنِ الصَّخَبِ. وَمِنْ بَغْدِهِمْ، وَعَلَى
مَهْلٍ كَمَا يَتَمَهَّلُ الْقَطَا، تَتَسَلَّلُ ابْنَتَا عَارِيفَ وَأَخُوهُمَا، آتِينَ
أَكْوَامَ الْقَشِّ ذَاتَهَا. وَقَفَّتْهَا يَهْمِسُ «عابو»: «أَأْتَوَا؟»، فَتُجِيبُهُ:
«هشش».

يَقِفُ ابْنُ عَارِيفَ الْقَوَادُ بَعِيداً عَنْ أُخْتَيْهِ وَأَوْلَادِ سَطَّامٍ
وَمَهْرُو، لِيُرَاقِبَ الْمَسَالِكَ. وَبِالتَّائُوبِ، مَثْنَى مَثْنَى، وَعَلَى أَكْوَامِ
الْقَشِّ السَّمَاوِيِّ، نَرَى أَنْصَافَ عُرَاقٍ، مِنَ الشَّرَرِ فَمَا دُونَهَا،
وَنَرَى أَفْخَاذاً عَلَى أَكْتَافِ الشُّبَّانِ مُلْتَمِعَةً كَالْخَنَاجِرِ.

يَتَقَفَّصُ الْقَشُّ وَيَتَأَوُّهُ. يَهْمِسُ عَابو: «أَبَدَأُوا»، فَتُجِيبُهُ:
«هشش».

وَيَزِيدُ النَّشِيجُ الْمَخْنُوقُ، وَيَزْدَادُ صَخَبُ الْقَشِّ، حَتَّى لَنكَادُ
نَعْتَقِدُ أَنَّ هَؤُلَاءِ غَيْرُ أَبْهَيْنَ إِلَّا لَا كِتِمَالِ الدَّوْرَةِ فِي هَذِهِ
الْفَاكِهَةِ الْآدَمِيَّةِ، وَأَنَّ أَلْفَ صَرْخَةٍ أَوْ فُجَاءَةٍ لَنْ تُزْخَرْجَ - فِي
لَحْظَةِ النَّشِيجِ الْغَامِضِ تِلْكَ - نِصْفاً عَارِياً عَنْ نِصْفِ عَارٍ، وَأَنَّ
التَّهْتُّكَ الَّذِي يُجَاهِرُ بِهِ أَوْلَادُ سَطَّامٍ وَمَهْرُو لَمْ يَغْدُ تَهْتُّكاً آلَانِ،

بَلْ بَحْثُ مُضْنٍ تَنْتَفِخُ فِيهِ غُرُوقُ الرِّقَبَةِ قَبْلَ الْعُنُورِ عَلَى بِدَايَةِ
تَنْتَفِخُ فِيهَا غُرُوقُ الرِّقَبَةِ مِنْ جَدِيدٍ.

بَعْدَئِذٍ يَنْسَحِبُ الْجَمِيعُ، أَوْلَادُ سَطَّامٍ وَمَهْرُو، وَابْنَتَا عَارِيفَ
وَأُخُوهُمَا، لَكِنَّهُمْ يَتْرَكُونَ خَلْفَهُمْ - عَلَى الْقَشِّ - تِلْكَ اللَّهْفَةَ
الْمُذْهِشَةَ الَّتِي أَتَوْا بِهَا أَوَّلَ الْأَمْرِ. يَنْسَحِبُونَ فِي أَنْكِسَارٍ. وَإِذْ
يَصِلُ أَوْلَادُ الْآعْيَيْنِ إِلَى مَقْرُبَةِ مِنْ حَلَقَةِ الرِّقْصِ يُطْلِقُونَ عِيَارَاتِ
نَارِيَّةٍ فِي الْهَوَاءِ، مِنْ مُسَدَّسَاتِهِمْ، كَأَنَّمَا يُخَفُونَ وَجُوهَهُمْ مِنْ
الْبَحْثِ الَّذِي لَنْ يَنْتَهِيَ، فِي قِنَاعِ الصَّخَبِ. وَنَنْسَحِبُ - نَحْنُ
الْأَطْفَالَ - بِدَوْرِنَا، حَامِلِينَ أَسْئَلَةً جَدِيدَةً، أَسْئَلَةً تَتَطَاوَلُ
كَنَشِيجِ أَوْلَادِ سَطَّامٍ وَمَهْرُو، وَتَلْتَمِيعُ كَأَفْخَاذِ بَنَاتِ عَارِيفَ.

فأصل خامس

في التَّلَجِّ والخراب

يَتَسَاقَطُ الثَّلْجُ. سِتَّةَ أَيَّامٍ يَتَسَاقَطُ الثَّلْجُ مِنَ الْأَعَالِي وَمِنْ
أَعْمَاقِنَا. يَخْتَلِطُ الْأَبْيَضُ عَلَيْنَا حَتَّى نَرَى الثَّلْجَ حِصَادًا تَتَلَقَّفُهُ
الْمَذَارِي فَتَنْثُرُهُ عَلَى الْأَشْكَالِ. يَخْتَلِطُ عَلَيْنَا فَنَرَى بَيَاضَ بَيْضَاءَ،
وَبَغَالًا بَيْضَاءَ تَدُورُ حَوْلَ الدَّرِيسِ بِنَوَارِجٍ وَحَوذِيَّيْنَ مِنَ الثَّلْجِ.

ثَلْجٌ فِي الْمَدَافِيءِ. نَازًا مِنَ الثَّلْجِ فِي الْمَدَافِيءِ سِتَّةَ أَيَّامٍ،
وَسِتَّةَ أَيَّامٍ يَطْنُ مِنْ حَوْلِنَا نَحُلُّ مِنَ الثَّلْجِ، وَيَعَاسِبُ مِنَ الثَّلْجِ،
وَطَيُورٌ مِنَ الثَّلْجِ، وَبُيُوتٌ مِنَ الثَّلْجِ، وَقُرَى مِنَ الثَّلْجِ، وَنَبَاتَاتٌ
مِنَ الثَّلْجِ تَتَسَلَّقُ الْجُدْرَانَ حَتَّى تُجَاوِزَ الشُّطُوحَ، فَتَمُضِي عَالِيًا
فِي الْفَرَاغِ، حَامِلَةً أَضَامِيمَ مِنْ أَزَاهِيرِ الثَّلْجِ، وَمَدَائِحَ بَيْضَاءَ لِهَذَا
الْجُنُونِ الْأَبْيَضِ.

كُنَّا نَعْرِفُ كَيْفَ نَتَّقِي نَحْلَ الصَّيْفِ، أَنْ تَشْتَدَّ الْهَاجِرَةُ
وَيُمْسِي سَكْرَانٌ مِنَ الْغَضَبِ، لَكِنْ مَاذَا نَفْعَلُ بِنَحْلِ الثَّلْجِ وَلِمَ يَرِهِ
الْخَفِيَّةِ الَّتِي تَخْتَرِقُ اللَّحَافَ إِلَى الْعِظَامِ؟ كُنَّا - نَحْنُ الْأَطْفَالُ -

نَسْتَشِيرُ نَحْلَ الصَّيْفِ. نَضَعُ عَصاً فِي ثَقْبِ الْقَفِيرِ فَيَخْرُجُ هَائِجاً
فَنَضْرِبُهُ بِالْمِدْبَاتِ، لَكِنَّ الثَّلَجَ نَحْلٌ حديدِيّ، فَمَاذَا يُمَكِّنُ أَنْ
يَفْعَلَ اللَّحْمُ بِالْحَدِيدِ؟ يَا لِقَفِيرِ الْفَضَاءِ الْمَفْتُوحِ، وَيَا لِمَمْلِكَاتِ
نَحْلِهِ وَعَامِلَاتِهِ، يَا لِحَنَاحِ الثَّلُوجِ: سِتَّةَ أَيَّامٍ وَكُلُّ شَيْءٍ
مُؤَصَّدٌ بِمِزْلاجٍ أبيض، بَعْدَهَا تَتَنَفَّسُ الْبُيُوتُ رُويْداً رُويْداً،
وَتَتَزَيَّنُ السُّطُوحُ بِخُطُوطِ سَوْدَاءٍ مِنَ الزَّرَازِيرِ كَخُطُوطِ الْكِتَابَةِ.
فِي وَسْطِ هَذَا الْجَبْرِ الْإِلَهِيِّ الْأَبْيَضِ تَمْتَرِجُ طُفُولُنَا بِطُفُولَةِ
الْكِبَارِ. الْكِبَارُ يَسْرُدُونَ طُفُولَتَهُمْ، وَنَحْنُ الصَّغَارُ نُضْغِي،
(يَا لِلْحَنِينِ الَّذِي يَتَفَتَّحُ فِي الثَّلَجِ!).

كَانَ الْكِبَارُ صِغَاراً مِثْلَنَا ذَاتَ يَوْمٍ. يَقُولُ الْقَائِلُونَ ذَلِكَ وَلَا
نُصَدِّقُهُمْ، لَكِنَّا نُضْغِي كَمَنْ يَوَدُّ أَنْ يَسْمَعَ الْأُكْذُوبَةَ الْكَبِيرَةَ
كُلُّهَا مِنْ قَبِيلِ الطَّرَافَةِ: أَحَقّاً كَانَ لِلْكِبَارِ طُفُولَةٌ ذَاتَ يَوْمٍ؟
أَحَقّاً كَانَ هَؤُلَاءِ أَطْفَالاً؟ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خُلِقُوا لِإِرْاقِبُونَا، خُلِقُوا
كِبَاراً لِيُزِمِعُوا عَلَيَّ آخِصَارِنَا، وَآخِصَرُونَا، فَهِيَ نَحْنُ شَدِهُونَ
مِنْ أَكَاذِبِهِمْ عَنْ طُفُولَةٍ لَمْ تَكُنْ، يَسْرُدُونَهَا زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ
يُفْرِحُونَا بِهَا، لَكِنَّهُمْ - يَقِيناً - يَسْرُدُونَهَا لِيُقْنِعُوا أَنْفُسَهُمْ أَنَّهُمْ
كَانُوا كَائِنَاتٍ وَدِيعَةً فِي زَمَنِ مَا، زَمَنِ مُوْغِلٍ فِي الْجَحِيمِ.

يَبْدَأُ السَّرْدُ، أَوَّلَ الْأَمْرِ، عَنْ عَاصِفٍ مِنَ الثَّلْجِ أَشَدَّ مِمَّا رَأَيْنَا، وَيُسَمَّوْنَهُ «الثَّلْجَ الْكَبِيرَ». وَهُنَا تَخْتَلِطُ الْوَقَائِعُ.

يَزْعُمُ الْكَثِيرُونَ - مِمَّنْ يَتَمَلَّقُونَ طِبَائِعَ الْبُسْطَاءِ فِي تَمْشِكِهِمْ بِالْأَصَالَةِ الرَّثِيَّةِ - أَنَّ الرِّيفِيِّينَ يَعْرِفُونَ التَّوَارِيخَ وَوَقَائِعَهَا مِنْ دُونِ سِجَلٍ. وَالْأَكِيدُ أَنَّهُمْ يُتَقِنُونَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، يُتَقِنُونَ مَعْرِفَةَ مَوَاعِيدِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، طُولَهُمَا وَقَصَرَهُمَا. وَيَعْرِفُونَ مَوَاعِيدَ الْمَطَرِ وَهُبوبِ الرِّيحِ، وَكَذَلِكَ ذَوَاتِ الْبُذُورِ، إِنَّهُمْ يُتَقِنُونَ اسْتِقْرَاءَ السَّنَةِ الَّتِي يَعِيشُونَهَا تَفْصِيلاً، لَكِنَّهُمْ، حِينَ يُحَاوِلُونَ اسْتِعَادَةَ الْمَاضِي، وَاسْتِعَادَةَ التَّوَارِيخِ وَوَقَائِعِهَا، فَإِنَّمَا يَخْلُطُونَ مَا حَصَلَ بِمَا لَمْ يَحْصُلْ، وَيَخْلُطُونَ «سَوْفَ» بـ «كَانَ»، وَيُحِيلُونَ الْحَاضِرَ إِلَى مَصَبِّ خُرَافِيٍّ لِجَدَاوِلَ مَنْ حَصَى الذَّاكِرَةَ. لِذَلِكَ كُلِّهِ كَانَ «الثَّلْجُ الْكَبِيرُ» مَوْفَ كُلِّ حَادِثٍ وَقَعَ قَبْلَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ، أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ.

يَسْرُدُ الْكِبَارُ أَنَّ اللَّحْمَ كَانَ يَتَسَاقَطُ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ عَنِ الْأَقْدَامِ حَتَّى تَبْدُو الْأَمْشَاطُ الْعَظَمِيَّةُ. كَانَتْ الْأَقْدَامُ تَنْتَفِخُ فَيَلْتَصِقُ اللَّحْمُ بِبَاطِنِ الْأَحْذِيَّةِ، وَتَأْكُلُ الْأَغْنَامُ بَعْضُهَا صَوْفَ بَعْضٍ مِنْ قِلَّةِ الْعَلْفِ. وَيَسْرُدُونَ أَنَّ الصَّيْفَ الَّذِي أَغْقَبَ شِتَاءَ

«الثَّلَجُ الْكَبِيرُ» كَانَ صَيفًا مُجْدِبًا دَفَعَ النَّاسَ إِلَى الْبَحْثِ عَنْ
 بقايا حُبُوبٍ فِي رَوْثِ الْمَاشِيَةِ. وَيَسْرُدُونَ أَنَّ ثَمَنَ عُضْوِ الثَّوْرِ
 جَاوَزَ ثَمَنَ نَعْجَةٍ مِمَّا يُبَاعُ فِي أَيَّامِ الرَّخَاءِ. وَتَنَلَّقُفُ - نَحْنُ
 الْأَطْفَالُ - الْمَسْأَلَةَ بِدَهْشٍ بِالْعِلْغِ: «عُضْوُ الثَّوْرِ؟» وَيَقُولُونَ: «نَعَمْ،
 عُضْوُ الثَّوْرِ... يَشْوِيهِ الْمَرْءُ عَلَى النَّارِ قَلِيلًا ثُمَّ يَلُوكُهُ مُتَوَهِّمًا أَنَّ
 فِي فَمِهِ طَعْمَ شَوَاءٍ». وَيَسْرُدُونَ أَنَّ النَّاسَ أَكَلَتِ الْعَنَمَ، وَحِينَ
 نَفِدَتِ الْعَنَمُ أَكَلَتِ الْأَخْصِنَةَ وَالْبِغَالَ، وَحِينَ نَفِدَتِ الْأَخْصِنَةُ
 وَالْبِغَالُ أَكَلَتِ الْحَمِيرَ، وَحِينَ نَفِدَتِ الْحَمِيرُ أَكَلَتِ الْقِطَطَ.
 بَعْضُ النَّاسِ تَوَقَّفَ عَنِ الْأَكْلِ، انْتَفَحَتْ بُطُونُهُمْ وَنَفَقُوا،
 وَبَعْضُهُمْ الْآخَرُ أَكْمَلَ الْمَسِيرَةَ فَاسْتَنْفَدَ الْكِلَابَ وَالسَّحَالِي.

... وَيَمْضِي الْكِبَارُ عَلَى سَرْدِهِمْ، فَلَا نَرَى فِي مَا يَسْرُدُونَ
 شَيْئًا مِنْ طُفُولَتِنَا، فَنَمْضِي لِلْبَحْثِ عَنْهَا فِي الثَّلَجِ، وَفِي مَا وَرَاءَ
 الثَّلَجِ، حَيْثُ تَدُورُ مَغَارِلُ الرِّيَّاحِ فَتُحِيلُ الْقُطْنَ السَّمَائِيَّ الْبَارِدَ
 إِلَى جَلِيدٍ صَلْبٍ كَالْخُوذَةِ، وَحَيْثُ تَدُورُ مَغَارِلُ الْأَرْضِ فَتُحِيلُ
 الْكَائِنَ إِلَى خُرَافَةٍ.

عَقِبَ أَيَّامِ الثَّلَجِ، وَحِينَ تَشَقَّقَتِ الشُّهُولُ فَتَفَرَّتِ الْحَيَاةُ مِنْ
 الشُّقُوقِ لَا يَسْتَعِينُ بِقِنَاعٍ بُرْغَمٍ أَوْ فَرَّاشَةٍ، بَدَأَتْ مَوَاصِبُ الْمُرِيدِينَ

تَقْصِدُ بَيْتَ الشَّيْخِ أَحْمَدَ الْخَزَنَوِيِّ فِي الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ.
وَمُرِيدُو الْخَزَنَوِيِّ مُتَعَصِّبُونَ لَهُ، يَعْقِدُونَ خَلْقَاتِ الذُّكْرِ طَوَالَ
مَوْسِمِهِمْ ذَلِكَ، وَإِذَا يَعُودُونَ يَسْتَأْنِفُونَ خَلْقَاتِهِمْ فِي الْبُيُوتِ،
يَخْتَارُونَ بَيْتَ الْأَكْثَرِ تَقْوَى عَادَةً، وَهُنَاكَ كُنَّا - نَحْنُ الْأَطْفَالُ -
نَضْحَكُ أَوْ نَزْعُشُ مِمَّا يَجْرِي.

قَبْلَ عَقْدِ الْحَلَقَةِ يَتَوَزَّعُ الْمُرِيدُونَ خُبَرَ الشَّعِيرِ الَّذِي جَاؤُوا
بِهِ مِنْ بَيْتِ الْخَزَنَوِيِّ، وَيَكُونُ لَنَا نَصِيئُنَا مِنَ التَّبَرُّكِ بِذَلِكَ
الْخُبَرَ الْقَاسِي. يَجِيءُ ضَارِبُ الدَّفِّ، (يُسَمَّوْنَهُ «الْعُزْبَانَةَ»)، ذِي
الْحَلَقَاتِ النُّحَاسِيَّةِ، وَتَبْدَأُ التَّوَاشِيحُ هَادِئَةً، ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ
تَكْتَسِحَ قَامَاتِ شَجَرِ الصَّفْصَافِ غُلُوًا.

يَتَمَائِلُ الْمُرِيدُونَ. تَتَمَائِلُ الرُّؤُوسُ. يَخْتَلِطُ الْكَلَامُ فَيُمَسِّي
هَمَّهُمَةً وَدَمْدَمَةً. تَتَشَنَّجُ الْوُجُوهُ وَتُزْغِي الْأَفْوَاهُ. يَتَسَاقَطُ الْبَعْضُ
غَائِبًا عَنْ وَعْيِهِ فَيَصْرُخُ الْآخَرُونَ: «جَاءَهُمُ السَّرُّ». وَنَتَمَنَّى -
نَحْنُ الْأَطْفَالُ - أَنْ يَجِيعَنَا «السَّرُّ» ذَاتَ يَوْمٍ، لَكِنَّ «السَّرَّ» لَا
يَأْتِي. نُقْنِعُ أَنْفُسَنَا أَنَّ الْمَسْأَلَةَ خَاصَّةٌ بِالْكِبَارِ.

يَقُولُ بَعْضُ الْمُرِيدِينَ إِنَّ الشَّيْخَ الْخَزَنَوِيَّ يَمْتَعِضُ مِنْ هَذِهِ
الْحَلَقَاتِ، لَكِنْ مَاذَا يَفْعَلُ الْخَزَنَوِيُّ وَهَؤُلَاءِ هُمْ مَجْدُهُ؟ إِنَّهُ

يُولَمُ لِلْمُرِيدِينَ طَوَالَ أُسْبُوعَيْنِ. يُوَلَمُ لِعَشْرَاتِ آلَافٍ مِنْ
الْقَاصِدِينَ. السَّكَاكِينُ مَشْهُورَةٌ أَبَدًا فَوْقَ أَعْنَاقِ الْخِرَافِ،
وَتَنَانِيرُ الْخُبَزِ مُسْجَرَةٌ أَبَدًا أَمَامَ أَرْغِفَةِ الشَّعِيرِ. هَذَا دَأْبُ
الْخَزْنَوِيِّ الْأَعْظَمِ مَجْدًا فِي الشُّمَالِ كُلِّهِ، وَالْأَعْظَمِ هَيْبَةً.
تَسْتَرْضِيهِ الْحُكُومَاتُ الْمُتَعَايِنَةُ كَالْجِرَادِ، وَتَسْتَرْضِيهِ الْعَشَائِرُ...
وَكَذَلِكَ يَسْتَرْضِيهِ الْأَطْفَالُ الَّذِينَ إِذَا أَقْسَمُوا لَمْ يَخْنِثُوا فِي
الْقَسَمِ قَطُّ، لِأَنَّ الْخَزْنَوِيَّ يَتَهَيَّأُ فِي الْأَحْلَامِ فَيَأْخُذُ بِتِلَابِيبِ
الْكَادِيبِينَ أَوْ يَضْغُطُّ الْأَعْنَاقَ حَتَّى تَجْحَظَ الْعَيُونُ. وَيَا مَا سَمِعْنَا
أَنْ فُلَانًا مِنَ النَّاسِ هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ صَارِخًا: «التَّوْبَةُ، التَّوْبَةُ
يَا شَيْخَ أَحْمَد».

... وَمُرِيدُو الشَّيْخِ الْخَزْنَوِيِّ تَقْلِيدِيُّونَ. نَحْفَظُهُمْ عَنْ ظَهْرِ
قَلْبٍ. نَحْفَظُ حَرَكَاتِهِمْ وَشُلُوكَهُمْ. نَعْرِفُ النِّسَاءَ الْأَكْثَرَ صُرَاخًا
فِي الْحَلَقَاتِ، وَالْأَكْثَرَ تَطَرُّفًا فِي تَصَرُّفَاتِهِنَّ إِذَا جَاءَهُنَّ «السَّرُّ».
لَكِنَّ شُكْرَ مُرِيدٍ غَرِيبٍ، مُرِيدٌ مُتَقَلَّبٌ طَرِيفٌ لِلْغَايَةِ. يَقْطَعُ
تِسْعِينَ كِيلُومِتْرًا مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى بَيْتِ الْخَزْنَوِيِّ عَلَى قَدَمَيْهِ،
زَاعِمًا أَنَّ الْبَرَكَاتَةَ تَكُونُ أَكْبَرَ إِذَا كَبُرَتْ أَلَمَشَقَّةُ. وَشُكْرُ
مُتَوَسِّطِ الطُّوْلِ، عَرِيضٌ جِدًّا. يَلْبَسُ ثَلَاثَةَ أَثْوَابٍ بَعْضُهَا فَوْقَ

بَعْضٍ، وَيَزْنِدِي تَحْتَهَا سِرْزَالاً مِنَ الصَّوْفِ، وَفَوْقَهَا عِبَاءَةٌ
 سَمِيكَةٌ مِنْ شَعْرِ الْمَاعِزِ. يَزْنِدِي كُلُّ تِلْكَ الثِّيَابِ صَيِّفًا شِتَاءً،
 وَيَحْمِلُ فِي يَدِهِ هِرَاوَةً طَوِيلَةً مَرْبُوطَةً إِلَى مِعْصَمِهِ بِخَيْطٍ مِنْ
 الْقَنْبِ خَشِيَّةً أَنْ تَضِيعَ. وَلَهُ - فَوْقَ هَذَا - هَوَسٌ يَجْمَعُ
 الْخُبُوطَ مِنَ الطُّرُقِ. كُلُّ جُبُوبِهِ مَلَأَى بِالْخَيْطَانِ، وَحِينَ تَفِضُ
 عَنْ جُبُوبِهِ يَضَعُهَا فِي عِمَامَتِهِ.

لَا عَمَلَ لَشُكْرِهِ غَيْرُ الْبَحْثِ عَنِ الْوَلَائِمِ، وَلَائِمِ الْأَعْرَاسِ أَوْ
 الْوِلَادَاتِ أَوْ الْخِتَانِ أَوْ الْمَوْتِ. وَتَنْتَابُهُ نَوْبَاتٌ صَرَعَ يُرْغِي
 وَيُزِيدُ فِيهَا كَثُورٌ، ثُمَّ يُفِيقُ مِنْهُوَكًا فَيَشْرِبُ سَطْلًا مِنَ الْمَاءِ
 يَنْدَلِقُ عَلَى لِحْيَتِهِ الطَّوِيلَةِ الْكَثَّةِ فَتَسْتَحِيلُ إِلَى مِزْرَابٍ. وَلَيْسَ
 لَشُكْرِهِ بَيْتٌ. يَنَامُ كَيْفَمَا اتَّفَقَ لَيْلًا، فِي زُرِيَّةٍ أَوْ فِي خِرْبَةٍ.

كُنَّا نَخَافُهُ، نَحْنُ الْأَطْفَالُ، نَخَافُ عَيْنَيْهِ الْجَاحِظَتَيْنِ وَنَوْبَاتِ
 صَرَعِهِ، عَلَى الْعَكْسِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّائِي كُنَّ يَشْمَخْنَ لَهُ - وَهُوَ
 الذَّكَرُ - بِحُضُورِ الْحَلَقَاتِ الْخَاصَّةِ بِهِنَّ، مُتَعَلِّلَاتٍ بِقُصُورِهِ
 الْعَقْلِيِّ. وَكَانَ شُكْرُهُ يَتَحَيَّنُ ذَلِكَ، بَلْ يَزِيدُ فِي بِلَاهَتِهِ لِيَتَنَعَّمَ
 بِاللُّغْبَةِ، فَإِذَا اهْتَابَتْ إِحْدَاهُنَّ وَأَدَّعَتِ الْإِعْمَاءَ فِي حَضْرَةِ آلِإِلَهِ،
 يَنْهَضُ شُكْرُهُ إِلَيْهَا فَيَحْمِلُهَا خَارِجَ الْحَلَقَةِ. وَقَدْ ضَبَطَ مِرَارًا

وَهُوَ يَضَعُ الْمُغْمَى عَلَيْهَا فِي جَعْرِهِ عَلَى صَوْرَةِ تُنْبِيءٍ لَا
بِالْمُسَاعَدَةِ، بَلْ بِشَيْءٍ آخَرَ. وَرَأَيْنَا مِرَاراً - نَحْنُ الْأَطْفَالُ - أُنَّ
الْمُغْمَى عَلَيْهِنَّ كُنَّ يَثْبَنَ إِلَى رُشْدِهِنَّ، لَا مِنْ إِسْعَافَاتٍ شَكَرُوا،
بَلْ مِنْ شِدَّةِ الْيَصَاقِيهِ بِهِنَّ، كُنَّ يَحْدُجْنَهُ شَزْراً حَدْجاً مُمْتَرِجاً
بِشَهْوَةٍ خَفِيَّةٍ، وَيَشْتُمْنَهُ مُشِيرَاتٍ بِأَبْصَارِهِنَّ إِلَى مَكَانٍ مُتَأَهَّبٍ
فِي جَسَدِهِ، فَيَضْحَكُ ضِحْكَاً كَالنَّشِيعِ وَيَسْتَلْقِي.

كَانَ شَكَرُوا مَرِحاً عَادَةً، لَكِنَّ «يَوْمَ الظَّلَامِ» أَحَالَهُ إِلَى كَائِنٍ
مُتَجَهِّمٍ مَذْعُورٍ. أَتَعْرِفُونَ «يَوْمَ الظَّلَامِ»؟ أَفَقْنَا ذَاتَ صَبَاحٍ عَلَى
ظَلَامٍ غَرِيبٍ، ظَلَامٍ أَسْمَرَ، وَكَانَ الْهَوْلُ مُزْتَسِماً عَلَى وَجْهِهِ
الْكِبَارِ. إِنَّهُ الصَّبَاحُ حَقّاً، لَكِنَّهُ صَبَاحٌ لَا يَرَى فِيهِ الْمَرْءُ أَبْعَدَ مِنْ
مِثْرٍ وَاحِدٍ. خَرَجْنَا إِلَى بَاحَةِ الْبَيْتِ فَكِدْنَا نَضِلُّ الطَّرِيقَ إِلَى
الْبَابِ. الْعُبَارُ الْمَلَكِيُّ، الْعُبَارُ الْجَسُورُ اقْتَحَمَ الْأَرْضَ كُلَّهَا،
كَانَ يَنْدَلِقُ مِنَ الرُّجَاجِ. يَتَسَرَّبُ مِنَ الرُّجَاجِ كَمَا يَتَسَرَّبُ
شُعَاعُ الشَّمْسِ. كَانَ يَنَامُ مَعَنَا فِي الْأَسِيرَةِ حِينَ أَفَقْنَا. كَانَ
دَاخِلَ ثِيَابِنَا.

سَرَتْ أَلْهَمَهُمَاتُ: «إِنَّهَا الْعَلَامَةُ». تَوَضَّأَ الْكِبَارُ وَسَارُوا إِلَى
الْمَسْجِدِ فَيَسُونَا وَرَاءَهُمْ نَتَقَرَّى الْحَيَاطَانَ كَمَا يَتَقَرَّوْنَ، غُمِيَانٌ

يَجْرُهُمُ الْعُمَيَّانُ. وَعَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ الضَّخْمِ اجْتَمَعَ رِجَالُ
الْحَيِّ كُلُّهُمْ. تَمْتَمَاتٌ وَتَعَاوِذُ. يَنْظُرُونَ فِي اتِّجَاهِ الْغَرْبِ
وَيَقُولُونَ: «سُشْرِقْ مِنْ هُنَا».

كَانَتْ لُغَبَةٌ غَرِيبَةٌ عَلَيْنَا، لُغَبَةٌ بَدَأْتُ بِقَلْبِي صَغِيرٍ مَا لَيْتَ أَنْ
بَاتَ تَرَقُّبًا حَقِيقِيًّا لِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنَ الْغَرْبِ.

الغبارُ يَنْحَسِرُ قَلِيلًا. صَبَرْنَا نَرَى الْبُيُوتَ عَلَى الرُّصَيفِ
الْمُقَابِلِ، لَكِنَّ الْهَوَلَ هُوَ الْهَوْلُ: يَرُوحُ شُكْرُو وَيَجِيءُ فِي وَسْطِ
الشَّارِعِ، وَحِينَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ فِي اتِّجَاهِ الْغَيْبِ صَارِخًا: «مَدِّدْ
خَوْجًا... مَدِّدْ» تَرْتَفِعُ هَرَاوُتُهُ الْمُعْلَقَةُ بِخَيْطٍ إِلَى مِغْصَمِهِ.
يَصِيحُ بِهِ الْكِبَارُ: «إِهْدُوا يَا شُكْرُو»، فَيَرْكُضُ شُكْرُو إِلَى الْإِمَامِ
الْوَاقِفِ أَمَامَ بَابِ الْمَسْجِدِ، يُقْبِلُ يَدَيْهِ فِي ضَرَاعَةٍ، وَيَنْظُرُ إِلَى
وَجْهِهِ مُتَوَسِّلًا. يَقُولُ الْإِمَامُ: «لَا خَوْفَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، لَا
خَوْفَ عَلَيْهِمْ».

لَا نَعْرِفُ لِمَاذَا يَقِفُونَ عِنْدَ الْبَابِ وَلَا يَدْخُلُونَ، لَكِنَّ بَعْضَ
التَّمْتَمَاتِ يُسَرِّي عَنَّا: «الْمَسْجِدُ مَلَأَ أَحْيَرٌ... إِذَنْ لَمْ يَأْتِ،
بَعْدُ، الْحَطَرُ الْقَادِحُ الَّذِي يُلْجِئُنَا إِلَى الْمَسْجِدِ. نَتَنَفَّسُ قَلِيلًا،
ثُمَّ نَكْتُمُ أَنْفَاسَنَا حِينَ نَسْمَعُ بِ«الدَّجَالِ» وَ«الْيَأْجُوجِ وَالْمَأْجُوجِ».

كَائِنَاتٍ سَتَاتِي. كَائِنَاتٍ ذَاتُ لِحَى. كَائِنَاتٍ لَا يُجَاوِزُ طُولُهَا
الذَّرَاعَ، تَأْكُلُ الْحَدِيدَ وَالْحِجَارَةَ... كَائِنَاتٍ يَقُودُهَا أَعْوَرُ عَلَى
حِمَارٍ أَعْوَرٍ، يَنْضَمُّ إِلَيْهِ الْعَاصُونَ فِي الْأَرْضِ، وَأَكْثَرُهُمْ مِنَ
النِّسَاءِ. وَهُنَّ سَيَتَقَدَّمُنَّ عَارِيَاتٍ يُعْوِينَ مَنْ صَمَدٌ، وَعِلَامَةٌ
الْمَجِيءِ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ الْغَرْبِ.

هذا هو الظَّلَامُ النَّذِيرُ إِذَا، وهذا الْعَبَارُ هُوَ غُبَارُ السُّورِ الَّذِي
أَنهَارَ، السُّورِ الَّذِي صَرَبَهُ اللَّهُ مِنْ حَوْلِ الْيَأْجُوجِ وَالْمَأْجُوجِ فَمَا
أَسْتَطَاعُوا آجِنْيَاةَ.

يَقُولُ شُكْرُو لِلْإِمَامِ: «سَأُرُدُّهُمْ بِالْهَرَاةِ»، يَقُولُ لَهُ الْإِمَامُ:
«إِهْدَأْ». يَقُولُ شُكْرُو: «سَأَغْصِبُ عَيْنِي فَلَا تَقْدِرُ النِّسَاءُ عَلَى
إِعْوَائِي»، فَيُرَدُّ الْإِمَامُ: «إِهْدَأْ». يُهْزِلُ شُكْرُو مِنْ جَدِيدٍ رَائِحاً
غَادِياً فِي وَسْطِ الطَّرِيقِ، مُبْتَهَلاً: «مَدِّدْ خَوْجاً... مَدِّدْ».

يَوْتَفِعُ الْعَبَارُ عَنِ الْأَرْضِ ظَهراً. تَظْهَرُ الْأَشْكَالُ كَمَا لَوْ
خَرَجَتْ مِنْ بُحَيْرَةٍ تُرَابِيَّةٍ. يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَى أَعْلَى. تَلُوحُ الشَّمْسُ
خَلْفَ غُلَّالَةٍ مُعْتِمَةٍ قُرْصاً أَحْمَرَ بَاهِتاً فِي وَسْطِ حُوْدَةِ السَّمَاءِ.
يَحَارُ الْكِبَارُ: «إِنَّهَا فِي الْمُنْتَصَفِ! أَتُرَاهَا طَلَعَتْ مِنَ الشَّرْقِ أَمْ
مِنَ الْغَرْبِ؟» يَتَرَيِّثُونَ لِيَعْرِفُوا فِي أَلَمَدَى الْمُقْبِلِ أَيْنَ تَمِيلُ.

لَكِنَّ شُكْرُو لَا يَتَرَيُّثُ. يُلْقِي بِعِمَامَتِهِ إِلَى الْأَرْضِ وَيَصْرُخُ: «مِنْ
الْعَرَبِ، مِنَ الْعَرَبِ... مَدَدَ». ثُمَّ تَنْتَابُهُ نَوْبُهُ صَرَخَ فَيَسْتَلْقِي
عَلَى الْقَارِعَةِ كَسُورِ أَلْيَاوُجِ الَّذِي أَنْهَارَ.

بَعْدَ حِينٍ يَظْهَرُ خَطَأُ التَّقْدِيرِ. تَأَجَّلَتِ الْقِيَامَةُ، وَتَأَجَّلَ
خَرَابُ الْعَالَمِ، وَعَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَحْتَمِلَ عِبَّهَا قُرُونًا أُخْرَى، أَنْ
تَحْتَمِلَ الْمَوْتَى وَدَسَائِسَهُمْ. وَهُنَا يَنْفُضُ الْكِبَارُ عَنْ بَابِ
الْمَسْجِدِ وَنَبْقَى نَحْنُ الصَّغَارُ، فَمَا يَمُرُّ بَعْضُ الْوَقْتِ إِلَّا نَزْكُضُ
خَلْفَ أَغْنَامِ حَمْدَانَ الرَّاعِي، الَّذِي خَرَجَ مِنْ حَظِيرَتِهِ مُتَأَخِّرًا
ذَلِكَ النَّهَارَ، لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، بَعْدَ ثَلَاثِينَ سَنَةً مِنَ الْبُكُورِ.

لَيْسَ لِشُكْرُو صَدِيقٌ - كَمَا نَعْلَمُ - غَيْرَ حَمْدَانَ. وَالْأَخِيرُ
يُؤْوِيهِ فِي حَظِيرَتِهِ أَكْثَرَ اللَّيَالِي. وَحَمْدَانُ فِي الْعَقْدِ الرَّابِعِ مِنَ
الْعُمُرِ، يَزْعَى غَنَمَ أَخِيهِ الْجَزَارِ غَرْبَ الْمَدِينَةِ. وَهَبَهُ أَخُوهُ،
مُقَابِلَ عَمَلِهِ، بَيْتًا مُسَيِّجًا بِسُورِ طِينِيٍّ وَاطِيٍّ. بَيْتًا مِنْ غُرْفَةٍ
وَاحِدَةٍ، يَنَامُ فِيهَا مَعَ أَتَانِهِ وَكَلْبِهِ وَبَعْضِ الْخِرَافِ الْوَلِيدَةِ،
وَأَنْضَمَّ إِلَيْهِمْ شُكْرُو بَعْدَ ذَلِكَ. أَمَّا الْبَاخَةُ الْوَاسِعَةُ فَكَانَتْ مِلْكَاً
لِلْأَغْنَامِ. لَكِنَّ صَدَاقَتَهُمَا لَمْ تَدُمَ طَوِيلًا، لِأَنَّ شُكْرُو لَمْ يَكُنْهُمْ
أَسْرَارَ صَاحِبِهِ.

كَبُرَ حَمْدَانُ الْيَتِيمِ فِي كَنَفِ أَخِيهِ الَّذِي أُوْكَلَ إِلَيْهِ الرَّعْيِ
 مُنْذُ صِغَرِهِ، فَتَشَأْ لَا يَفْقَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَالنَّاسِ غَيْرَ الْأَسْمَاءِ، وَلَا
 يُجَاوِزُ عَالَمَهُ دَائِرَةً تَتَسِعُ لِمَائَةِ نَعْجَةٍ. كَانَ وَحِيداً تَمَاماً،
 وَلَمْ يَصُنْ شُكْرُو أَسْرَارَ وَحْدَةِ حَمْدَانِ: كَانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ
 عِلَاقَةٍ غَرِيبَةٍ بَيْنَ الرَّاعِي وَبَيْنَ النَّعَاجِ. وَاسْتَدْرَجَ الْفُضُولِيُّونَ
 الْكِبَارُ شُكْرُو لِيُشْرِخَ تِلْكَ الْعِلَاقَاتِ تَفْصِيلاً فَلَمْ يُؤَفِّزْ شَارِدَةً
 أَوْ وَارِدَةً.

كَانَ يَقُولُ إِنَّ حَمْدَانَ يَنْهَضُ لَيْلاً فَيَحْشُرُ الْأَتَانَ فِي زَاوِيَةٍ،
 ثُمَّ يَغْتَلِيهَا أَعْتِلَاءُ الرَّجُلِ الْأَمْرَأَةِ، أَوْ يَغْتَصِبُ النَّعَاجَ فَوْقَ
 الْعِزْزَالِ.

غَضِبَ حَمْدَانُ مِنْ تَشْهِيرِ شُكْرُو، لَكِنَّ غَضَبَ أَخِيهِ مِنْ
 الْأَثْنَيْنِ كَانَ أَشَدَّ. وَدَفْعاً لِلْأَقَاوِيلِ قَرَّرَ تَزْوِيجَ الرَّاعِي، فَدَفَعَ
 أَلْفَ لِيرَةٍ مَهْراً إِلَى طِفْلَةٍ يَتِيمَةٍ فِي الْحَادِيَةِ عَشْرَةِ مِنْ عُمرِهَا.
 كَانَتْ طِفْلَةً حَقّاً، تَسْرُدُ لَنَا - نَحْنُ الْأَطْفَالُ - بِبِلَاهَةٍ كَيْفَ
 يَضْرِبُهَا حَمْدَانُ إِذَا تَمَنَّعَتْ عَلَيْهِ، وَكَيْفَ يَخْلَعُ ثِيَابَهَا بِفَظَاطَةِ
 كَمَا يُقَشِّرُ الْبَصَلَ، وَكَيْفَ يَسُدُّ فَمَهَا بِيَدِهِ الْخَشِنَةِ كَيْ لَا
 يَسْمَعَ ضُرَاحَهَا أَحَدٌ... وَكَيْفَ... وَكَيْفَ... وَنَوَجِفُ - نَحْنُ

الَّذِينَ اسْتَدْرَجُوهَا - مِنْ هَذَا الطُّقْسِ كُلِّهِ، وَمِنْ هَذَا الرَّاعِي
الشَّيْطَانِيِّ «زَوْجِ النَّعْجَةِ».

لَمْ يَكُنْ لَنَا - نَحْنُ بُدُورَ الشَّمَالِ - إِلَّا أَنْ نَخْرُجَ مِنَ
الشَّقْوَى مُسْتَسْلِمِينَ لِعَاصِفَةِ الرُّعْبِ. الرُّعْبُ الرُّعْبُ الرُّعْبُ
الرُّعْبُ. بِهِ تَبْدَأُ الْأَرْضُ وَبِهِ تَنْتَهِي. وَبِالرُّعْبِ ذَاتِهِ، بِالْهَذْيَانِ
الَّذِي يُسَدِّلُهُ الرُّعْبُ عَلَى الْأَعْمَاقِ، كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَتَوَاصَلَ فِي
وَسْطِ كَوْكَبٍ مِنْ صُرَاخِ زَوْجَةِ حَمْدَانَ الْمَكْتُومِ، مِنْ صُرَاخِ
مَدِيدٍ يَسْتَفْجِلُ وَيَسْتَشْرِي. وَكُنَّا نَضْحَكُ دَائِماً، نَزْجِفُ مِنْ
الضَّحِكِ، نَضْحَكُ مُزْجِفِينَ. وَكَيْفَ لَا نَضْحَكُ مِنْ مَشْهَدِ
فَتَى رَاكِضٍ فِي الْأَرْقَةِ وَخَلْفَهُ الْمَطَارِدُونَ؟ أَتَعْرِفُونَ لِمَاذَا
يُطَارِدُونَهُ؟ خَذَلَهُمْ فِي الدُّخُولِ عَلَى عَرُوسِهِ، نَعَمْ... خَذَلَهُمْ
فَطَارَدُوهُ كَالْمَلْعُونِ.

جَاءَ وَالِدُ بِيرَامَ لْبِيرَامِ بِعُرُوسٍ مِنْ عُمْرِهِ، (كِلَاهُمَا فِي الرَّابِعَةِ
عَشْرَةَ)، ثُمَّ أَقَامَ الْأَرْضَ وَأَقْعَدَهَا طَبِلاً وَزَمْراً لِتَكُونَ شَاهِدَ
اكتِمَالِ الْفُحُولَةِ. وَذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ لِيَالِي الْكَرْنَفَالِ السَّبْعِ دَفَعَ ابْنَهُ
إِلَى غُرْفَةٍ جَهَّزَتِ النِّسَاءَ فِيهَا عَرُوسَهُ، وَانْتَظَرَ مَعَ الْمُنتَظِرِينَ
خُرُوجَ الْفَتَى رَافِعاً بَيْرَقَ اتِّبَارِهِ عَلَى غِشَاءِ النُّعْمَةِ الْأَزَلِيِّ.

وَطَالَ أَنْتِظَارُ آلَابٍ حَتَّى الصُّبَاحِ. وَفَتَدَا أَفْتَحَمَتِ النِّسَاءُ
الْقَلِيقَاتُ مَضْجَعَ الْعَرُوسَيْنِ. رَكَضْنَ يَكْشِفْنَ عَنِ الْفَتَاةِ فَمَا
رَأَيْنَهَا إِلَّا كَمَا دَخَلَتْ، كَنَزاً عَلَيْهِ الْقِفْلُ ذَاتُهُ. وَلَوْلَنَ فَارَزَعَدَ
الْفَتَى. جَرَزَتْهُ مِنْ شَعْرِهِ صَارِخَاتٍ: «إِنَّهُ عَنِّيَّيْنِ». تَمَلَّصَ مِنْهُنَّ
أَفْتَى وَوَلَّى هَارِباً يَتَعَقَّبُهُ الصُّغَارُ الصَّاخِبُونَ وَالْأَقْرِبَاءُ الَّذِينَ
خَذَلَهُمْ، فَعَطَّوْا وَجُوهَهُمْ مِنَ النَّاسِ خَجَلًا بِضَعَةَ أَيَّامٍ.
وَنَضَحَكَ نَحْنُ الْأَطْفَالُ، نَضَحَكَ مِنَ الْفَتَى الْخَائِبِ وَنَنُضَمُّ
إِلَى الْمَطَارِدِينَ. هَكَذَا، دُونَ إِنْذَارٍ نُغْلِي عِدَاءَنَا. وَجَدْنَا، أَخِيرًا،
مَنْ نُقَاصِصُهُ غَيْرَ خَائِفِينَ مِنَ الْعِقَابِ. نَحْمِلُ حِجَارَةً خَشِينَةً،
نَحْمِلُ الثَّرَابَ مِلءَ قَبَضَاتِنَا وَنَضْرِبُ رَأْسَ الْفَتَى. نُثْمَعُ فِي
أَنْتِقَامٍ لَا سَبَبَ لَهُ. نُثْمَعُ فِي أَكْتِشَافِ حِقْدِنَا عَلَى الْكَائِنِ،
عَلَى أَيِّ كَائِنٍ، وَحِينَ نَعْيَا عَنِ اللَّحَاقِ بِهِ طَوِيلًا، نَكِيلُ لَهُ
الشُّتَائِمَ الْمُرَّةَ، وَنَعُودُ أَذْرَاجَنَا إِلَى حَيْثُ نَسْمَعُ هَمْسًا غَرِيبًا:
«لَمْ يُلْقِنُوا الْكَلْبَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِيَدِهِ إِذَا خَذَلْتُهُ الْفُحُولَةُ؟...
تَفُو». وَنَتَسَاءَلُ نَحْنُ: «بِيَدِهِ؟» مِنْ دُونَ أَنْ يَكُونَ لِلْأَمْرِ
أَيُّ مَعْنَى. فَالْيَدُ لِلْأَكْلِ وَلِلضَّرْبِ وَلِلسَّرِقَةِ وَلِلْعِبِ الْبَلِيِّ لَا
غَيْرَ. لَكِنَّ الْكِبَارَ يَفْعَلُونَ بِأَيْدِيهِمْ أَشْيَاءَ لَمْ تَخْطُرْ عَلَى بَالِنَا.

كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي مَا مَضَى مِنْ وَقْتِ غَرِيبٍ، أَلْقَى عَلَى
 رُؤُوسِنَا نِثَاراً مِنْ طَحِينِ أَشْمَرٍ، وَمِنْ حُرُوفِ وَنُحَاسٍ وَأَبَاطِيلَ
 خُلُوعٍ كَجُذُورِ السَّوسِ. كَانَ وَقْتاً لَيْسَ لَنَا، مِثْلَ الْأَوْقَاتِ كُلِّهَا
 الَّتِي تَعَاقَبَتْ عَلَى الْأَرْضِ. بَيِّدَ أَنَّ الْمَكْسُورِينَ مِثْلَنَا لَمْ يَكُونُوا
 لِيَأْبَهُوا لَانْكِسَارِ جَدِيدٍ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ مَا لَا
 يَمْلِكُونَهُ. لَذَا وَضَعْنَا الدَّبَابِيسَ فِي عِلْفِ بَقَرَاتٍ سَيُروِبُ،
 وَفَتَحْنَا سُدُودَ أَلْمِيَاهِ عَلَى حُقُولِ غَرِيبٍ حَتَّى آخَتَنَقَّتْ، ثُمَّ
 مَضَيْنَا إِلَى مَخَادِعِنَا لِنَنْهَبَ لَيْلاً مَا لَمْ نَقْدِرْ عَلَى نَهْبِهِ نَهَاراً.

خاتمة يليها صبا لم أكتبه بعد

وماذا بَعْدُ؟ ماذا عَنِ الْكَلْبَةِ السَّوداءِ تَوْسِي الَّتِي لَمْ تَتْرُكْ قُتْلاً
إِلَّا وَسَرَقَتْ مِنْهُ بَيْضَةً أَوْ صُوصاً؟ ماذا عَنِ قَتْلِهَا غَرْقاً فِي
مُسْتَنْقَعِ مُوسِيَّسَانَا بَعْدَ مَا مَلَأَتْ أَلْمَذَارِي الْحَدِيدِيَّةُ جَسَدَهَا
ثُقُوباً؟ ماذا عَنِ الْعُصْفُورِ ذِي السَّاقِ الْوَاحِدَةِ، الْعُصْفُورِ
الْتَرَاجِيدِيِّ الَّذِي كَانَ يُزَاجِمُ الدَّجَاجَاتِ عَلَى حُبُوبِهَا فَتَنْقُرُهُ
الدَّجَاجَاتُ فَيَنْتَحِي جَانِباً يَنْتَظِرُ فُرْصَةً لَأَخْتِلَاسِ زَاوِيهِ الْمَرِيرِ؟
ماذا عَنِ أَصْطِيادِكَ لَهُ بَعْدَ تَرْبُصٍ طَوِيلٍ، وَعَنْ نَتْفِكَ لِجَنَاحِيهِ
وَالْقَائِهِ إِلَى الدَّجَاجَاتِ لِيَتَنَاوَبْنَ عَلَيْهِ نَقْراً حَتَّى الْمَوْتِ؟ ماذا
عَنِ أُخُوَّةِ شَاكِرِ الْعَتَالِ، الَّذِينَ حَوَّلُوا غُرُوسَ بَهْرَمَ إِلَى مَجْزَرَةٍ،
لَأَنَّ أَخَاهُمْ كَانَ يَطْمَعُ فِي الزَّوْاجِ مِنَ الْعُرُوسِ؟ ماذا عَنِ
خَطْفِهِمْ لِلْفَتَاةِ بَعْدَ مَقْتَلِ الْعَرِيسِ وَسِتَّةِ آخَرِينَ؟ ماذا عَنِ
أَغْصَابِهَا تَحْتَ مَطَرٍ مِنْ زَغَارِيدِ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي تَشْفِيْنَ مِنْ أَهْلِ
الْعُرُوسِ لِرَفْضِهِمْ تَزْوِيجَهَا مِنْ شَاكِرٍ؟ ماذا عَنِ حَنْدَرِ الَّذِي

أَجْتَازَ الْحُدُودَ التُّرْكِيَّةَ فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا عَلَى الْخُيُولِ لِيَأْخُذَ
 عَفْدِي مِنْ بَيْتِهِ سَخْلًا إِلَى تُرْكِيَا؟ مَاذَا عَنْ ضُرَاخِ عَفْدِي
 وَعَوِيلِهِ؟ مَاذَا عَنِ الدَّرَكِ النَّائِمِ؟ مَاذَا عَنْ مَخَافِرِ الْحُدُودِ الَّتِي
 لَمْ تُحَرِّكْ سَاكِنًا، وَكَانَتْ أَغْتَفَ مَا تَكُونُ حِينَ يَشْتُمُ طِفْلٌ فِي
 بِلَادِهِمْ طِفْلًا آخَرَ، أَوْ يُغْلِبُ كُرْدِيٌّ أَنَّهُ كُرْدِيٌّ؟ مَاذَا عَنْ شَاوِرِ
 السَّكْرَانِ أَبَدًا، عَنْ وَقُوفِهِ أَمَامَ بَوَابِ السَّيْنِمَا لَيْلًا نَهَارًا، حَامِلًا
 وَرَقَةً حَظَّ صَغِيرَةٍ لِيُقَامِرَ عَلَى غُلْبِ بُولِ مَوْلَى؟ مَاذَا عَنْ سَطِيفُو
 الَّذِي يَغْبُرُ الطَّرِيقَ عَارِيًا يَنْصِفُهُ الْأَعْلَى، وَقَدْ كُتِبَتْ عَلَى ظَهْرِهِ
 كَلِمَةُ «طِرْزَان» بِحَظِّ عَرِيضٍ؟ مَاذَا عَنِ حَبْسُونِو الْأَبْلَهِ؟ مَاذَا عَنِ
 الْعَتَالِينَ الَّذِينَ تَعَاقَبُوا عَلَيْهِ آغْتِصَابًا دَاخِلَ سُورِ الْمَلْعَبِ الْبَلَدِيِّ،
 فِي وَضَحِ النَّهَارِ، أَمَامَ حَشْدٍ مِنَ الْأَطْفَالِ الرَّاجِعِينَ مِنَ
 الْمَدْرَسَةِ؟ مَاذَا عَنْ غُولِيسَارِ الدَّائِعَةِ الصَّيْتِ، قَهْرْمَانَةِ الْعَاهِرَاتِ
 الْمُرَحَّصَاتِ، الَّتِي رَفَضَ الْأَيْمَةُ الصَّلَاةَ عَلَى جُثْمَانِهَا، وَرَفَضَتْهَا
 قُبُورُ الْمَسِيحِيِّينَ وَالْمُسْلِمِينَ، فَذِفْنَتْ فِي أَرْضٍ خَاصَّةٍ، وَحِيدَةً
 بَعْدَ مَجْدِ أُنْبِرَاطُورِيِّ؟ مَاذَا عَنِ الْمَلَا أَحْمَدِ، إِمَامِ الْمَسْجِدِ
 الصَّغِيرِ الثَّانِي فِي الْمَدِينَةِ؟ مَاذَا عَنْ سُورَعِيَةِ الْمُفْرِطَةِ
 فِي اخْتِصَارِ حُطْبَةِ الْجُمُعَةِ وَصَلَاتِهَا مَعًا؟ مَاذَا عَنِ الْمُؤَدِّينِ

عبد الرحمن الَّذِي رُئِيَ مراراً يُخْرِجُ مِنْ بَاطِنِ سُتْرَتِهِ مَجَلَّاتٍ
مُمْتَلِئَةً بِصُورٍ عَارِيَّةٍ؟ ماذا عن ثَوَرِ الصَّوْفِيِّ محمود، الَّذِي
أَعْتَلَى نِصْفَ بَقَرَاتِ الْأَرْضِ مُقَابِلَ أَجْرِ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ؟ ماذا
عَنْ دريغ الَّذِي قَامَرَ بِزَوْجَتِهِ ذاتَ لَيْلَةٍ، حِينَ نَفِدَتْ نُقُودُهُ
فَانْتَهَبَ إِخْوَتُهَا لَحْمَهُ بِالْخَنَاجِرِ، فَعَاشَ، بَعْدَ ذَلِكَ بِسَاقٍ وَيَدٍ
مَسْلُوكَتَيْنِ وَأُذُنٍ وَاحِدَةٍ؟ ماذا عَنِ الْحَيِّ الْيَهُودِيِّ وَخَوْفِنَا
الْغَامِضِ مِنْهُ؟ ماذا عَنِ هَضْبَةِ قَوْلِ آلَتِي تَتَنَفَّسُ لَيْلًا، وماذا عَنِ
سَعَالِي النَّهَارِ فِي سَهْلٍ مَعِيرِيكَ؟ ماذا عَنِ الْكِلاِبِ ذاتِ
الرُّؤُوسِ الْآدَمِيَّةِ فِي مَقْبَرَةِ إِنْياس؟ ماذا عَنِ الْعَجَرِ الْمُقِيمِينَ فِي
أَرْضِ الْمَقَالِيعِ الْجَنُوبِيَّةِ، عَنِ نِسَائِهِمِ اللَّوَاتِي حَيْثُما مَرَزَتْ
بِصَخْرَةٍ رَأَيْتَ إِحْدَاهُنَّ خَلَفَهَا، نِصْفَ عَارِيَّةٍ، تَحْتَ رَجُلٍ
غَرِيبٍ؟ ماذا عَنِ أَوْسِي الْكَهْلِ الَّذِي يَدُورُ عَلَى الْأَحْيَاءِ حَامِلًا
عَلَى ظَهْرِهِ صُنْدُوقًا خَشَبِيًّا يَبِيعُ فِيهِ الْبُوظَةَ؟ ماذا عَنِ الْعُبَارِ
الْأَبْدِيِّ، وماذا عَنِ بُرُوقِ الشَّمَالِ أَيْهَا الطُّفْلُ؟
لَقَدْ أَيْقَظْتَنَا لِنَسْرُدَ الْمَهْزَلَةَ.

(بليز الذي لا يلبس أي شيء)

بيروت، ١٩٧٩

هَاتِهِ عَالِيًا،
هَاتِ النَّفِيرَ عَلَى آخِرِهِ...
(سيرة الصَّابَا)

إِيْذَان

لِيَدِيْكَ يَبِيْتَ رَمَوْ، وَلِيَعْمَلِ زِيْرِيْ نُذَبِّجْ كَلِمَةً الْإِنْشَاءِ، وَلِلْآدَمِيْ
حِطَابِ آلَلْهَات. كُلُّ وَسِحْرُهُ، فَلَا تُضْعُوا إِلَى أَحَدٍ أَئِيْهَا الصَّبِيَّةُ.

سَيَقُولُونَ لَكُمْ كَمْ أَحْبَبُوا، وَكَمْ كَدَحُوا، وَكَمْ سَدَّوْا مَهَبَّ
أَقْدَارِهِمْ بِالْجَسَارَاتِ. سَيَمْتَحِنُونَكُمْ بِمَا لَمْ يَمْتَحِنُوا أَنْفُسَهُمْ
بِهِ، وَسَيَزِفَعُونَكُمْ قَلِيلاً قَلِيلاً كَالْقَطِطِ إِلَى صُدُورِهِمْ، مُتَمَتِّمِينَ:
«تُضْبِحُونَ عَلَى خَيْرٍ، أَئِيْهَا الطَّيِّعُونَ».

لَا تُضْعُوا إِلَى أَحَدٍ. لَا تَنَامُوا. إِزْفَعُوا الْغِطَاءَ فِي نَزَقٍ،
وَأَنْزِلُوا عَنْ أَسِرَّتِكُمْ هَارِبِينَ مِنَ الْبَابِ. لَا تَقْلَقُوا حِينَ
تُضْبِحُونَ خَارِجاً، فَالظَّلَامُ لَا يُخِيفُ، بَلْ يُخِيفُ النَّهَارُ. لَا
تَقْلَقُوا، فَإِنَّا جَاهِزٌ لِأَذْلُكُمْ عَلَى الْمَخْبِيَّاتِ، حَيْثُ لَا عِمَارَاتٍ، وَلَا
مَدَارِسَ، وَلَا وَقْتَ إِلَّا لَكُمْ، وَالْمَكَانُ مُشَاعٌ تَحْوِكُونَ فِيهِ
الْأَحَابِيلَ لِلْأَزْوَاجِ، وَتَقْفَقِهُونَ حَتَّى تَنْشَطِي الْأَرْضَ.

سَأَخْذُكُمْ إِلَى الْعَرَاءِ؛ سَأَخْذُكُمْ إِلَى الْفَحِيحِ الْغَامِضِ
لِلشُّكُونِ، حَيْثُ الْمَرْتَعُ الْأُبْهِيُّ لِأَقْدَارِنَا الَّتِي لَا تَرْتَظِمُ بِسُورِ
الْبَلَدِيَّةِ، أَوْ بِالْأَشْجَارِ الْمُنَمَّقَةِ فِي حَدِيقَةِ الْقَائِمَقَامِ. سَيَحْتَبِيءُ
بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ تَنَاوِبًا، وَسُنْضِرُمُ الْخَرَائِقِ الصَّغِيرَةَ حَوْلَ
الْقَنَافِذِ. سَنُقَلِّدُ بَنَاتِ آوَى، زَاحِفِينَ عَلَى الْحُقُولِ نَقْضُمُ
الْحُضَارَ مِثْلَهَا، وَسَنَنَامُ، إِذَا تَعَبْنَا، فِي الْأَوْكَارِ وَالشُّقُوقِ.

سَأَخْذُكُمْ إِلَى الْمُسْتَنْقَعَاتِ. سَنَتَعَرَّى وَنَدْخُلُ الْمِيَاهَ لِنَجْمَعَ
الْعَنَاكِبَ الطَّافِيَّةَ وَبُيُوضَ الْأَفَاعِي. وَسَيَقْدِفُ بَعْضُنَا بَعْضًا
بِجُذُورِ الْأَشْنَةِ وَبِرَقَاتِ الصَّفَادِعِ. وَإِذَا نَجُوعُ سَنَأْكُلُ
الْحَزْشُوفَ، وَالْحَمِيضَ، وَبُصَيَّالَاتِ الْبَيْقُونِكِ. وَسَأَخْذُكُمْ إِلَى
الْجِهَةِ الَّتِي لَا يَرَاهَا إِلَّا نَا؛ جِهَةِ السَّاجِرِيِّ؛ جِهَةِ الشَّنَكْرَاتِ
الْكَبِيرَةِ، حَيْثُ تَزْدِي الْقُصُولُ قِنَاعَ الْآدَمِيِّ، وَتَخْرُجُ الْعُيُومُ
وَالْأَرَانِبُ مِنْ أَوْكَارٍ وَاحِدَةٍ.

صَدَّقُونِي أَيُّهَا الصَّبِيَّةُ، أَنْ نَصْحَبَ الظُّلَامَ يَغْنِي أَنْ نَرَى عَبْرَ
الشُّقُوقِ الصَّغِيرَةِ فِي تَوَابِيَتِ أَعْمَاقِنَا مَمَالِكَ لَمْ تَنْدَثِرْ بَعْدُ،
عَلَى تَحُومِ الْعَرَاءِ، هُنَاكَ، رَافِلَةٌ فِي نِعْمَةٍ أَنْ تُنْسَى، وَعَلَى
أَسْوَارِهَا الْبَتْفَسَجِيَّةِ مَرَّحٌ يَغْبِثُ بِالسَّنَاجِبِ.

لَسْتُ أَغْوِيَكُمْ، لَا. أَنْظُرُوا إِلَى مُرَوِّضِيكُمْ، يَتَنَاوَبُونَ عَلَى
 جَعْلِ مَسَافَاتِكُمْ أَكْثَرَ هَنْدَسَةً، مُرْتَدِينَ أَمَامَكُمْ قُبْعَةَ الْحَكِيمِ،
 وَإِذَا تَنْصَرِفُونَ يَنْكَبُ كُلُّ عَلَى أَحَابِيلِهِ؛ الْعَتَالُونَ، وَالْمُزَارِعُونَ،
 وَالشَّاحِنَاتُ، وَالْحُكُومَةُ، وَمُدُنُ الْمَلَاهِي، وَالْمُقَامِرُونَ،
 وَالزَّوْجَاتُ، وَالذِّيكَةُ، وَالْقَطِطُ الشَّارِدَةُ، وَالْغِيَوْمُ، وَاللَّهُ. كُلُّ
 يَنْكَبُ عَلَى أَحَابِيلِهِ، فَلَا تَنَامُوا. لِيَتَّبِعْ غِيُونُكُمْ عَلَى أَهْلِكُمْ، فَإِنْ
 نَامُوا أَتْبَعُونِي.

سَنُحْطِطُ لِإِضْلَاحَاتِ كَبِيرَةِ بَيْنِ الْأَغْشَابِ. سَنُحْطِطُ لِأَنْ
 تَتَجَنَّبَ الْعَرَبَاتُ الْمُرُورَ مِنْ هَذَا الدَّرَبِ أَوْ مِنْ ذَاكَ. سَنُحْطِطُ
 لِأَثْقَالِ بَابِ تَحِيلِ الْبَغْلِ الْهَادِيءِ إِلَى نَمِيرٍ: ضَعُوا فِي مُوَحَّرَتِهِ
 بَعْضَ النَّشَادِرِ وَسَتَرُونَ. سَنُحْطِطُ لِإِطْفَاءِ خَرَائِقِ نُشْعِلُهَا نَحْنُ،
 وَسَنَدْلِقُ الْمَحَابِرَ عَلَى ثِيَابِنَا الَّتِي نَكْرَهُهَا لِيَشْتَرِيَ آبَاؤُنَا غَيْرَهَا.
 سَنَضْرِبُ بِأَخْذِ يَتِينَا الْحِجَارَةَ بَدَلَ الْكَرَاتِ لِيَتَفَقَّقُوا، وَسَنُحْطِطُ
 طَاسَاتِ الشُّحَاذِينَ أَمَامَ أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ لِنَجْمَعَ مَضْرُوفَنَا.

لَسْتُ أَغْوِيَكُمْ. الْمَكَانُ يُغْوِي لِتَكُونُوا لَاثِقِينَ بِهِ، فَاسْعِلُوا
 حُرُوبَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُشْعِلَ الْآخَرُونَ حُرُوبَهُمْ، وَأَتْبَعُونِي.

النَّفِيرُ الْأَوَّلُ

الهِياجُ على أَشَدِّهِ، والدَّعَائِمُ الْحَشَبِيَّةُ لِلسِّيَاحِ الْكَبِيرِ
تَتَهَاوَى، وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى، حَيْثُ يَنْفُذُ الْمُتَسَلِّلُونَ الْغَاضِبُونَ
مِنْ بَيْنِهَا إِلَى مَدِينَةِ الْمَلَاهِي، حَامِلِينَ الْعِصِيَّ وَالْحِجَارَةَ، وَمَنْ
لَا يَجِدُ الْعِصِيَّ أَوْ الْحِجَارَةَ يَسْتَلُّ نِطَاقَهُ الْجِلْدِيَّ.

قَبْلَ يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنْ هَذَا الْهِيَاكِ، كَانَ التَّارِيخُ يَحْمِلُ مُؤَشَّرَهُ
الْخَاصَّ بِرِيَاكِ لَا تَهْبُ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، تَمَاماً كَالْمُؤَشَّرِ
الْمَنْصُوبِ عَلَى سَطْحِ مَبْنَى الْبَلَدِيَّةِ. وَلَا نَعْرِفُ، حَتَّى الْآنَ،
لِمَاذَا نَصَبُوا مُؤَشَّرًا لِلرِّيَاكِ عَلَى سَطْحِ ذَلِكَ الْمَبْنَى، الَّذِي يُصَادِرُ
مُوظَّفُوهُ مَوَازِينَ الْبَطِّيخِ التُّحَاسِيَّةِ، والدَّرَاجَاتِ.

كَانَ التَّارِيخُ، قَبْلَ يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنْ هَذَا الْهِيَاكِ، يَزْدَدِي جِدَاءَهُ
الْخَاصَّ، وَشَارَاتِهِ الصَّارِمَةَ كَشَارَاتِ الْعَسْكَرِيِّ، وَمِلءَ أَوْرَاقِهِ
كِتَابَاتُ رَشْمِيَّةٍ حَازِمَةٌ وَخُطْبُ كَثِيرَةٌ عَنِ التُّهُوُضِ بِالْعَالَمِ
الْعَرَبِيِّ إِلَى الشَّدَّةِ الَّتِي أَنْزَلَتْ عَنْهَا، كَمَا كُنَّا نَنْزِلُ عَلَى طُرُقِنَا

الْمُوحِلَةَ قَبْلَ أَنْ نَذِلَّ إِلَى بُيُوتِنَا الْمَرْفُوعَةِ كُنُصْبٍ مِنْ طِينٍ
لِإِلَهِ طِينِي.

لَكِنَّ التَّارِيخَ تَعْرِى ذَلِكَ الْيَوْمَ، بَلْ فَقَدْ أَتْرَانَهُ، وَهَبَّ رَاكِضاً
كَالْجَمْعِ الرَّاكِضِ، مُخْتَرِقاً سِيَاجَ مَدِينَةِ الْمَلَاهِي، إِلَى حَيْثُ
أَوْصَدَ حَشْدٌ مِنَ الْعُمَالِ الْمِصْرِيِّينَ عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ مَقْطُورَاتِهِمْ
الْخَشَبِيَّةِ، وَكَانُوا مَذْعُورِينَ، يَصْرُخُونَ بِلَهْجَتِهِمُ الْخُلُوةِ،
وَيَتَكَوَّمُونَ كَأَسْرَى.

لَكُمْ أَحِبَّتِنَا مَدِينَةُ الْمَلَاهِي تِلْكَ. لَكُمْ سَرَفُنَا الثُّقُودَ لِنَدْخُلَهَا
مِنْ حَيْثُ لَا خَوْفَ عَلَى الدَّاخِلِينَ، أَوْ تَسَلَّلْنَا عَبْرَ السِّيَاجِ الْكَبِيرِ
مِنْ حُفَرٍ لَا تَتَّسِعُ لِجُرُذٍ. وَكُنَّا نَحِيفِينَ؛ كُنَّا صَبِيَّةً نَحِيفِينَ،
أَنَذَاكَ، إِلَى دَرَجَةٍ نَسْتَطِيعُ مَعَهَا غُبُورَ ثَقْبٍ فِي قُفْلٍ، مَبْهُورِينَ
أَنْبَهَارَ عَصْرِ بَعْضٍ: سُفُنٌ لَا تَلْمُسُ الْمَاءَ، وَلَا تَلْمُسُ الْأَرْضَ،
بَلْ تَدُورُ حَوْلَ قَاعِدَةٍ عَالِيَةٍ، فِي حَرَكَةٍ تَقْطَعُ النَّفْسَ هُبُوطاً
وَصُعُوداً. مُشْعُودُونَ يَجْعَلُونَكَ تَتَبَّؤُلَ فِي قُمْعٍ مِنْ دُونَ أَنْ
تَتَبَّؤُلَ، وَيُخْرِجُونَ كُرَاتٍ مِنْ أُذُنِكَ مِنْ دُونَ أَنْ تُحَسَّ بِهَا،
وَيُخْرِقُونَ الثُّقُودَ وَيُفَتِّشُونَكَ فَإِذَا بِكَ لِصٌّ تَجْهَلُ كَيْفَ سَرَقَتْ،
وَمَتَى سَرَقَتْ. مُهَرَّجُونَ يُطْلِقُونَ الثُّكَاتِ بِتَلْمِيحَاتٍ جَنَسِيَّةٍ

تَبَعْتُ فِي الْجَالِسِينَ مَوْجَةً مِنَ الْعَوِيلِ وَالصَّفِيرِ، وَكُنَّا لَا نَعْرِفُ
لِمَاذَا يَضْحَكُ الْجَالِسُونَ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يُتَقَنُّ الْعَرَبِيَّةَ، فَكَفَيْفَ
يَفْهَمُونَ لَهْجَةً كَأَنَّهَا مِنْ أَقْصَايِ الْأَرْضِ؛ مِنْ أَقْصَايِ كُنِينَا
الْجُغْرَافِيَّةِ الَّتِي طَالَمَا تَحَدَّثْتُ عَنْ خُصُوبَةِ ثُرَابِنَا، وَأَطْوَالِ
أَنْهَارِنَا، وَبَثْرُولِنَا، وَأَسْمَاكِ بَحَارِنَا، وَلَمْ تَقُلْ لَنَا لِمَاذَا لَا نَفْلِكُ
شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ. (كُنَّا نُقَارِنُ الْبَحْرَ فِي ذَاكِرَتِنَا بِبُحَيْرَةِ قَاسِمِ الْتِي
لَا تُجَاوِزُ ٥٠٠ مِثْرٍ مُرَبَّعٍ). وَكَانَ ثَمَّتَ أَمَاكُنُ مُعَلَّقَةً لَا يَسْمَحُونَ
لَنَا بِدُخُولِهَا: «أَنْتُمْ صِغَارٌ... تَنْحَوُوا يَا صِغَارُ»، لِكِنَّا كُنَّا نَحْشُرُ
أَنُوفَنَا بَيْنَ فُرُجَاتِ الْأَلْوَاكِ الْخَشَبِيَّةِ، لِنَلَمَّحَ عَبْرَ الدُّخَانِ، وَعَبَّرَ
ذُهُولِ الْجَالِسِينَ عَلَى كِرَاسِي الْقَشِّ الْوُطَيْئَةِ، نِسَاءً يَتَلَوَّنَ فِي
حَرَكَاتِ فُطَّةٍ، رَافِعَاتِ أَثَوَابَهُنَّ، بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ، عَنْ مَلَائِسَ
دَاخِلِيَّةٍ حُمْرَاءَ، فَنَضْرُخُ: «يَا لِلْأُرْتِشَاتِ»، (كَلِمَةُ أُرْتِشَتْ مُعَادِلَةٌ
لِكَلِمَةِ عَاهِرَةٍ عِنْدَنَا). وَبِرُغْمِ ذَلِكَ أَحْبَبْنَا مَدِينَةَ الْمَلَاهِي، الَّتِي
حَلَّتْ بِصَحْبِهَا فِي تِلْكَ الْأَرْضِ النَّائِيَةِ، ذَاتَ صَيْفٍ أَخِيرٍ، لَمْ يَعْقُبْهُ
إِلَّا هَيْجٌ أَخِيرٌ، وَقَدْ جَاءَ بِهَا مُضَرِّيُونَ كَانُوا يَمْسَحُونَ عَرَقَ
جِبَاهِهِمْ بِمَنَادِيلَ مِنْ وَرَقٍ لِكَثْرَةِ تَقَاطُرِ الْفُضُولِيِّينَ بِتُقُودِهِمْ
الْفِضِّيَّةِ، لَكِنْ مَا لَبِثُوا أَنْ مَسَحُوا عَرَقَ جِبَاهِهِمْ، ثَانِيَةً، بِأَكْمَامِهِمْ،

حِينَ اخْتَرَقَ الْغَاضِبُونَ بَتَارِيخَهُمُ الْعَارِي مِنْ شَارَاتِهِ، وَرَصَانَتِهِ،
السَّيَاجَاتِ الْعَالِيَةِ، وَحَطَّمُوا كُلَّ شَيْءٍ.

فِي ذَلِكَ النَّهَارِ تُلِيَّ الْبَيَانُ الْأَوَّلُ، وَكَانَ بَيَانًا مُنَمَّقًا عَنْ
أَخْطَاءٍ، وَتَجَاوُزَاتٍ، وَوَحْدَةٍ مِنْ فَوْقُ، وَاسْتِخْبَارَاتٍ، وَقَمْعٍ،
وَشَعْبٍ لَا يَدُّ لَهُ فِي الْأَمْرِ، وَإِصْلَاحَاتٍ مَقْلُوبَةٍ... إلخ. وَبَعْدَ
سَاعَاتٍ، حِينَ حُلَّ مَكَانَ الذُّهُولِ عَلَى الْوُجُوهِ شَيْءٌ آخَرُ،
تَدَافَعَ الْغَاضِبُونَ صَوْبَ مَدِينَةِ الْمَلَاهِي. أَخْرَجُوا الرَّاغِبَاتِ مِنْ
مَقْصُورَاتِهِنَّ وَقَدَّ اتَّصَقُوا بِهِنَّ مِنْ خَلْفٍ، فِي هِيَاجٍ لَا يَنْبَغُ عَنْ
غَضَبٍ، بَلْ عَنْ سَبَقٍ عَامٍّ. بَيَّنَّ أَنَّ الْمُسْعُوذِينَ، وَالْمُهَرَّجِينَ،
وَالْعُمَالِ، كَانُوا أَقَلَّ حِطًّا، فَتَنَازَرَتْ ثِيَابُهُمْ، وَقُبَعَاتُهُمْ الْوَرَقِيَّةُ،
وَأَخَذَ يَتُّهُمْ، وَكُرَّاتُهُمُ الصَّغِيرَةُ الْبَيْضَاءُ، وَمَنَادِيلُ السَّحْرِ،
وَالْأَرَانِبُ، وَبَعْضُ الْحَمَامَاتِ، عَلَى مَدَى الْمَكَانِ التُّرَابِيِّ.
حَصَلَ كُلُّ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ الشَّرْطَةُ فَتَجْعَلَ الْكُلَّ سَوَاسِيَةً
فِي الْفَوْضَى. ضَرَبَ هُنَا، وَضَرَبَ هُنَاكَ، وَسَطَ قَهَقَهَاتِ الْغُبَارِ.

فِي الْأَيَّامِ الَّتِي تَلَتْ ذَلِكَ الْهِيَاجَ بَدَأَتْ الْأَرْضُ تَسْتَجْمِعُ
مَعَالِمَ أُخْرَى: خَرَجَتْ الْأَحْزَابُ إِلَى الطُّرُقَاتِ، مُسَلَّحَةً بِالْعِصِيِّ،
وَبَقَبْضَاتِ مِنَ النُّحَاسِ ذَاتِ عُقَدٍ مُسَنَّنةٍ، وَبِالسَّكَاكِينِ،

وَسَلَالِيلِ الْحَدِيدِ الَّتِي يُمَكِّنُ إِخْفَاؤُهَا تَحْتَ الْقُمْصَانِ،
وَكَذَلِكَ بِشِعَارَاتِهِمْ. لَقَدْ رَأَيْنَا، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي ذَلِكَ الْعُمْرِ الْعَصْرَ،
أَنَّ الْحُكُومَةَ لَا تُؤَزِّوْ حِزْباً عَلَى حِزْبٍ، وَلَا شِعْراً عَلَى شِعَارٍ
نَقِيضٍ. وَرَأَيْنَا، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، مَجَلَّةً تَحْمِلُ صُوراً كَارِيكاتوريةً
لِأَفْرَادِ الْحُكُومَةِ، فَصَرَحْنَا: «يَا لِلْهَوْلِ. سَيُعْغِدُونَ رَبَّ الْمَجَلَّةِ
وَرَبَّ رَبِّهَا» لَكِنَّ أَحَدًا لَمْ يَمَسَّ أَحَدًا بِأَذَى، بِاسْتِثْنَاءِ الْأَحْزَابِ
الَّتِي مَزَّقَ مُنَاصِرُو بَعْضِهَا قُمْصَانَ مُنَاصِرِي الْبَعْضِ الْآخَرِ،
وَهَشَمُوا الدَّرَاجَاتِ الْهَوَائِيَّةَ، وَزُؤُوسَ الَّذِينَ سَقَطُوا تَحْتَ
الْأَوْجُلِ. أَمَّا رِجَالُ الشُّرُطَةِ فَتَحَوَّلُوا إِلَى مُضْلِحِينَ. كَانُوا
يَجْمَعُونَ الْمُتَحَارِبِينَ فِي سِيَّارَاتِهِمْ لِيَقُودُوهُمْ إِلَى الْمَحْفَرِ
الْوَحِيدِ، وَهُنَاكَ يَسْتَقْبِقُونَهُمْ عِدَّةُ أَيَّامٍ فَقَطْ، ثُمَّ يُطْلِقُونَ سَرَاحَ
الْجَمِيعِ. «يَا لِلْحُكُومَةِ» كُنَّا نَهْتِفُ. «وَيَا لِلْحِزْبِ» كَانَ يَهْتِفُ
الْمُحَازِبُونَ.

كُنَّا صَبِيَّةً آنَئِذٍ، يَخْرُجُ بِنَا الْمُعَلِّمُونَ عَلَى هَوَاهُمْ فِي
التَّظَاهُرَاتِ الْوَطَنِيَّةِ، وَلَمْ يَتَّقَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ لَمْ نَهْتِفْ بِشِعَارِ حِزْبِهِ.
وَكَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَيَقُودُ بَعْضُهُمْ فَرِيقاً مِنَ التَّلَامِذَةِ
عَبْرَ شَارِعِ أَوَّلٍ، وَفَرِيقاً عَبْرَ شَارِعِ ثَانٍ، وَثَالِثٍ، وَرَابِعٍ... بَيْنَ

أَنَّا جَمَعْنَا شِعَارَاتِ الْفُرْقَاءِ جَمِيعاً كَمَا نَجْمَعُ الطَّوَابِعَ،
مُتَسَلِّلِينَ مِنْ شَارِعٍ إِلَى شَارِعٍ، هَاتِفِينَ فِي كُلِّ مِنْهَا كَمَا
يَهْتِفُونَ. وَكَانَ اسْتِغْرَابُنَا عَلَى أَشَدِّهِ، فَلَيْسَ لِمُعَلِّمٍ عَلَيْنَا
سُلْطَةٌ أَنْ نَمْضِيَ مَعَهُ وَمَعَ هُتَافَاتِهِ، وَلَيْسَ لِمُعَلِّمٍ أَنْ يُؤَيِّخَنَا إِذَا
رَأَا فِي تَظَاهِرَةِ مُعَلِّمٍ آخَرَ. إِيْهِ، كَانَ زَمَنَ تَظَاهِرَاتٍ، مُبَرِّزُهَا
الْأَوْحَدُ أَنَّ الْكُلَّ قَادِرُونَ عَلَى تَحْوِيلِ الْوَقْتِ إِلَى عُرْسٍ خَاصٍّ.
وَالْكُلُّ قَادِرُونَ عَلَى نَسْجِ صَحْبٍ نَسُوا كَيْفَ يُعَادُ نَسْجُهُ.
وَالْكُلُّ قَادِرُونَ عَلَى تَهْدِيدِ مُتَوَازِينَ لَا يَغْلِبُ فِيهِ أَحَدٌ أَحَدًا.
وَلِمَاذَا لَا يَجْعَلُونَ الصَّحْبَ، فِي كُلِّ آيٍ، مُنْبَعًا لِلصُّرَاخِ؟ وَلِمَاذَا
لَا يَمْتَحِنُونَ خَنَاجِرَهُمْ، وَكَانَتْ مِلْكَاً رَسْمِيّاً لِلْحُكُومَةِ: تَقُولُ
أَهْتِفُوا فَيَهْتِفُونَ. وَتَقُولُ أَصْمُتُوا فَيَصْمُتُونَ. وَتَقُولُ لَا خَنَاجِرَ
لَكُمْ، فَيَكْثُبُونَ عَلَى اللَّوْحِ الْأَسْوَدِ بِطَبَاشِيرِ الْكِلْسِ: عَاشَ مَنْ لَا
خَنَاجِرَ لَهُمْ. تَسْقُطُ مِلْكِيَّةُ الْخَنَاجِرِ. يَسْقُطُ الْفَرْدِيُّونَ الَّذِينَ
يَمْلِكُونَ الْخَنَاجِرَ. تَسْقُطُ الْحَنَجَرَةُ، وَالْمَرِيءُ، وَالْقَصَبَةُ
الْهَوَائِيَّةُ، وَالْقَلْبُ، وَالْإِنْكَوِيَّاسُ، وَالْكَبِدُ، وَالْمَثَانَةُ، وَالْكَلْبَتَانِ،
وَشَحْمَةُ الْكُطْرَانِ، وَمَجْرَى الْبُزْلِ، وَالْإِخْلِيلُ، وَالْخِصْيَتَانِ.
تَسْقُطُ، تَسْقُطُ، تَسْقُطُ. وَنَهْتِفُ: تَسْقُطُ، تَسْقُطُ، تَسْقُطُ.

يَسْقُطُ كِتَابُ التَّشْرِيحِ الَّذِي يُعَلِّمُنَا أَنَّ لِلْإِنْسَانِ حُنْجَرَةً.

لَقَدْ تَذَكَّرْنَا، بَعْدَ أَيَّامِ الصَّحَبِ تِلْكَ، رَنِينَ أَصْوَاتِنَا، وَأَنَّنَا قَادِرُونَ - كَمَخْلُوقَاتٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِ الطَّبِيعَةِ - عَلَى الْغَوَاءِ، وَالْعَوِيلِ، وَالتَّمَتُّعَةِ، وَالضَّحِكِ. وَالْأَهَمُّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ تَذَكَّرْنَا أَنَّنَا قَادِرُونَ عَلَى إِدَارَةِ الصَّحَبِ بِنِظَامٍ لَا فَوْضَى بَعْدَهُ. فَتَحْنُ أَنَاسٌ صَاحِبُونَ بِالسَّلَاقَةِ، مُتَعَوِّدُونَ عَلَى انْتِهَارِ الْحَمِيرِ وَالْبِغَالِ الَّتِي تَقُودُ عَرَبَاتِنَا الْمُحْمَلَةَ بِالْبَطِيخِ إِلَى سَوَاقِ الْمَدِينَةِ، وَكَذَلِكَ قِطْعَانَ الْعَنَمِ، وَإِخْوَتَنَا الصَّغَارَ، بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ مَا سَبَبٍ. نَشْتُمُ أُمَّهَاتِنَا، وَنُوَصِّدُ الْأَبْوَابَ وَرَاءَنَا فِي غُنْفٍ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ آبَاؤُنَا الرَّاجِعُونَ فِي ظَهِيرَاتِ صَيْفِ الشَّمَالِ إِلَى الْبُيُوتِ، حَيْثُ تُكَلَّلُ رُؤُوسُهُمْ هَالَاتٌ نَوْرَانِيَّةٌ مِنَ التَّعَبِ الْمُرِّ وَالْعَرَقِ.

مُحْتَكِرُوا صَحَبِ نَحْنُ الْآنَ، تَمَاماً مِثْلَ مُعَلِّمِ الرِّيَاضَةِ الْحِزْبِيِّ قَبْلَ مَجِيءِ الْفَوْضَى؛ الْمُعَلِّمِ الَّذِي يُعَدُّ فِي الْمَرْتَبَةِ الْعَاشِرَةِ تَصْنِيفاً بَيْنَ الْمُعَلِّمِينَ، لَكِنَّهُ كَانَ - بِحُكْمِ حِزْبِيَّتِهِ - إِلَهَ آلِهَةٍ، يُعْتَفُّ مُدِيرَ الْمَدْرَسَةِ، وَيَضْرِبُ الْمُعَلِّمِينَ إِذَا اقْتَضَى الْأَمْرُ، مُخْتِلاً بِسُلْطَةِ تَقَارِيرِهِ الَّتِي يَوْفَعُهَا عَنِ الْمَشْبُوهِينَ إِلَى مَكْتَبِ حِزْبِهِ - الْحِزْبِ الْأَوْحَدِ فِي عِرَاءٍ لَا عِرَاءَ بَعْدَهُ. وَنَشْتُمُ

أُمّهاتِ التَّلَامِيذِ وَأَبَاءَهُمْ، وَأَبَاءَ آبَائِهِمْ، وَأَرْضَهُمْ وَسَمَاءَهُمْ.
يَسْتُمْ كَيْفَمَا اتَّفَقَ، فِي مَدْرَسَةٍ كَانَ هَمُّهَا أَنْ تَقُولَ لَنَا: «لَا
تَسْتُمْوا». وَكَانَ يُرَاقِبُنَا فِي الصَّبَاحَاتِ الْبَاكِرَةِ، حِينَ نَقِفُ
صُفُوفاً صُفُوفاً مُرَدَّدِينَ أَنَاشِيدَ الْكَرَامَةِ وَالْفَخْرِ الْوَطَنِيِّ، نَاعِسِينَ،
شُعْتَ الشُّعُورِ، وَحَوْلَ غُيُونِنَا مِنَ الْقَذَى مَا يُنْفَرُ حُكُومَةً
بِكَامِلِهَا، وَيُنْفَرُ الْجَيْشَ وَالشُّرْطَةَ وَمُوظَّفِي الدَّوْلَةِ. وَعَلَيْنَا مَظَاهِرُ
مِنَ اللَّاتِنَاسِقِ تَجْعَلُهُمْ، جَمِيعاً، يَحْزُمُونَ سُلْطَتَهُمْ ذَهَاباً إِلَى
شَعْبٍ آخَرَ. كَانَتْ صَدَارِينَا الْمَدْرَسِيَّةُ مُمَرَّقَةً مِنَ الْأَكْتَنَافِ
أَبْداً، مُلَطَّخَةً بِالْحَبْرِ وَالْوَحْلِ شِتَاءً، وَبِعُصَاةِ الْعُشْبِ وَالثَّرَابِ
رَبِيعاً، وَأَظَافِرُنَا مَقْضُومَةٌ بِالْأَسْنَانِ، أَمَا الْأَخْذِيَّةُ فَمِلْؤُهَا أَمَاءُ
الدَّبَقِ، أَوْ الْعُصَاةُ الْفَرِيدَةُ مِنَ الْعَرَقِ وَالْعُبَارِ، مُتَفَقِّةٌ مِنْ أَمَامِ،
وَلَا كُعُوبٌ لَهَا.

هَكَذَا نَحْنُ أَيُّهَا الدَّوْلَةُ؛ هَكَذَا نَحْنُ يَا مُعَلِّمَ الرِّيَاضَةِ
الْحَزْبِيِّ. لَكِنَّ الْمُعَلِّمَ لَمْ يَغْفِرْ لَنَا هَذَا: «أَلَا يَمْلِكُ آبَاؤُكُمْ ثَمَنَ
أَخْذِيَّةٍ يَا أَوْلَادَ الْعَاهِرَاتِ؟ أَلَا تَمْلِكُ أُمّهَاتُكُمْ الْخِيْطَانِ؟»،
يَقُولُ ذَلِكَ فِي اسْتِعْرَاضِهِ الصَّبَاحِيِّ بِرَفَقَةٍ الْمُدِيرِ، الَّذِي
يَنْكَمِشُ فِي ثِيَابِهِ خَجِلاً مِنْ سُلْطَتِهِ الْمَفْقُودَةِ، إِلَى دَرَجَةٍ لَا

نَلْمُحُ مَعَهَا مُدِيرًا، بَلْ ثِيَابًا عَلَى مِشْجَبٍ مُنْحَنٍ، تَتَنَفَّسُ
وَحْدَهَا، وَتَتَحَرَّكُ بِفِعْلِ هَوَاءٍ خَفِيٍّ.

يَصْرُخُ الْمُعَلِّمُ الْحِزْبِيُّ فَجَاءَ: «أَبْطِحو!» فَتَبْطِخُ عَلَى
بُطُونِنَا. يَقُولُ: «أَزْخَفُوا حَتَّى الدَّرَجِ الَّذِي يَقُودُ إِلَى غُرَفِ
التَّدْرِيسِ»، فَتَزْخَفُ حَتَّى الدَّرَجِ، ثُمَّ نَضَعُهُ زَخْفًا، ثُمَّ نَسْتَمِرُّ
حَتَّى غُرَفِ التَّدْرِيسِ، وَمِنْهَا نَدْخُلُ اللَّوْحَ الْأَسْوَدَ الطَّوِيلَ عَلَى
الْحَائِطِ. نَدْخُلُ السَّوَادَ عَلَى بُطُونِنَا مِنْ أَوَّلِ الْأَرْضِ إِلَى آخِرِهَا
(هَذِهِ الْأَرْضُ الْمُسَطَّحَةُ، الَّتِي يَرَى أَصْغَرُ مُرَاقِبِ حُكُومِيٍّ، مِنْ
شِمَالِهَا، أَبْعَدَ دَجَاجَةٍ فِي جُنُوبِهَا)، وَنَخْرُجُ، بَعْدَئِذٍ مُعَفَّرِينَ
بِهَبَابِ الطَّبَاشِيرِ كَعَتَالِي الطَّاحُونَةِ، لِنَجْلِسَ عَلَى مَقَاعِدِنَا
الْخَشَبِيَّةِ مُتَّصِلِينَ بِأَيْدِي عَلَى الصُّدُورِ. وَحِينَ يَدْخُلُ مُعَلِّمُ
الْحِصَّةِ الْأُولَى نَهْبُتُ وَاقِفِينَ: «صَبَاحَ الْخَيْرِ يَا أَسْتَاذَ»، فَيَتَمَلَّلَانَا
فِي ضَجَرٍ، وَيُشِيرُ بِإِيدِهِ أَنْ أَجْلِسُوا، ثُمَّ تَبْدَأُ الْمَهْرَلَةُ.

كَانَ هَذَا قَبْلَ مَجِيءِ الصَّبْحِ الَّذِي مَلَأَ سَاحَةَ مَدِينَةِ
الْمَلَاهِي بِسَرَاوِيلِ الرَّاقِصَاتِ الْمُمَزَّقَةِ، قَبْلَ أَنْ تَسْتَحِيلَ مَدِينَةُ
الْمَلَاهِي ثَدْيًا يَقْضُمُهُ الْجَائِعُونَ. وَالْآنَ، لَنْ يَعُودَ الْمُعَلِّمُ
الْحِزْبِيُّ إِلَى الْمَدْرَسَةِ قَطُّ. لَقَدْ حَاصَرَتِ النِّسَاءُ الرِّفْيَاتُ بَيْتَهُ،

وَأَخْرَجْنَاهُ بَثْيَابِ التَّوْمِ، (كَانَ وَاضِحاً أَنَّهُ لَمْ يَنْمَ)، مُزْتَجِفاً، ابْنُ
الْجَزْوِ، صَارِخَاتٍ: «قُلْهَا مَرَّةً ثَانِيَةً، قُلْهَا... أَنْحُنْ عَاهِرَاتُ؟
أَبْنَاؤُنَا أَوْلَادُ قَحْبَةٍ؟ قُلْهَا مَرَّةً ثَانِيَةً، قُلْهَا. أَيْنَ أُمُّكَ يَا قَحْبُ؟
سَنَزُفَعُ فَحَذِي أُمُّكَ لِرَجَالِنَا حَتَّى تَمْتَلِيءَ كَالْبَزْمِيلِ. أُمَّكَ
وَاسِعَةٌ يَا قَحْبُ؟ سَنُدْخِلُ فِيهَا أَخَذَيْتَنَا؛ سَنُدْخِلُ فِيهَا أَعْمَدَةَ
الْمَدْرَسَةِ، وَيُهْوِينَ عَلَيْهِ بِأَخْذَيْتَيْهِنَّ الْبِلَاسْتِيكِيَّةِ وَقَبَاقِيهِنَّ،
وَالْمُعَلِّمُ يَوْتَجِفُ حَتَّى أَغْمَاقِ أُمِّهِ. بَيِّدْ أَنَّهُ أَنْتَفَضَ أَنْتِفَاضَةً
أَذْهَلْنَا. صَرَخَ وَتَصَالَبَ. اخْتَفَى صَوْتُهُ لِيَجِلَّ مَحَلُّهُ غَوَاءَ
خَافِتٍ. جَحَظَّتْ عَيْنَاهُ وَأَزْرَقَ لَوْنُهُ. كَانَتْ إِحْدَاهُنَّ قَدْ
أَمْسَكَتْ خِصْيَتَيْهِ، وَظَلَّتْ تَغْتَصِرُهُمَا حَتَّى خَرَجَتْ رَعْوَةٌ
بَيْضَاءُ مِنْ فَمِهِ، وَأَنْسَابَتْ عَلَى صَدْرِهِ فِي خَيْطِ لَزَجٍ. لَقَدْ
مَضَى ابْنُ أُمِّهِ فِي غَيْبِيَّةٍ لَحْمِيَّةٍ لَمْ يُفِقْ مِنْهَا. مَضَى الْمُدَلِّلُ
كَمَا مَضَتْ الْحُكُومَةُ وَعَاهِرَاتُ مَدِينَةِ الْمَلَاهِي، أَلِلَوَاتِي كُرُ
يُقَدِّمْنَ وَصَلَاتٍ رَاقِصَةً، بِأَسْمِ الْفَنِّ، حَتَّى الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ لَيْلًا،
وَيُقَدِّمْنَ وَصَلَاتٍ أُخْرَى، بَعْدَ سَاعَاتِ الْعَمَلِ، بِأَسْمِ الْأَنْشِرَاحِ
الْوَطَنِيِّ، حَيْثُ تَأْخُذُهُنَّ سَيَّارَاتُ مَدِينَةٍ يَقُودُهَا رِجَالٌ تَتَدَلَّى
مُسَدَّسَاتُهُمْ مِنْ تَحْتِ الْقُمْصَانِ.

عَاشَ الصَّخْبُ آلَانَ، عَاشَ رَبُّ الصَّخْبِ، وَمَحْظِيَّاتُهُ،
وَأَطْفَالُهُ. عَاشَ الْمُعْلَمُونَ الَّذِينَ بَاتُوا يَدْخُلُونَ - بَعْدَ أَيَّامِ
الصَّخْبِ - إِلَى حُجَرَاتِ التَّدْرِيسِ بِمَرَجٍ، وَيُعَايِشُونَ الصَّبِيَّةَ وَلَا
يَضْرِبُونَ. فَلْيَنْتَمِ الصَّخْبُ الْعَالَمَ إِذَا كَانَ لَطِيفاً كَهَذَا الصَّخْبِ.
فَلْيَأْتِ كُلَّ يَوْمٍ لِيَأْخُذَ مُعَلِّماً فَظّاً أَوْ مُخْبِراً. فَلْيَأْتِ كُلَّ يَوْمٍ لِيَتَقَلَّ
حُظْوَةَ أَتْنَاءِ الْحِزْبَيْنِ فِي الْمَدْرَسَةِ. فَلْيُوَحِّدْنَا الصَّخْبُ الْعَرِيقَ.

لَقَدْ قِيلَ لَنَا: لَوْ لَمْ يَأْتِ هَذَا الصَّخْبُ لَجَاءَ مِيرُو. وَبِئْسَ
نَشْكُرُ - نَحْنُ الصَّبِيَّةُ - رَأْفَةَ الْقَدَرِ تِلْكَ؛ رَأْفَةً أَنْ تُدَمِّرَ حُكُومَةُ
حُكُومَةُ أُخْرَى لِيَتَأَجَّلَ مَجِيءُ مِيرُو، فَهُوَ لَنْ يَذَرَ حَجَراً عَلَى
حَجَرٍ، وَسَيَذْهَبُ بِالْعُقُولِ. سَيُعِيدُ الْأَرْضَ كَمَا كَانَتْ،
مُوحِشَةً، صَلْبَةً، يَسْلُخُ الْآدَمِيَّ فِيهَا الْآدَمِيَّ لِيَزِيدَ جِلْدَهُ.

لَا بُدَّ مِنَ الْحَرَابِ، إِذَا، بَيْنَ حَيْنٍ وَحَيْنٍ. لَا بُدَّ مِنْ زَوَابِعِ
غُبَارِيَّةٍ تَنْفُخُ كُورَهَا حَتَّى تَلِينَ الْبُيُوتَ فَتَمِيلَ كَالْغُصُونِ، وَلَا
بُدَّ مِنْ سُيُولٍ تُعِيدُ الْبُيُوتَ عَجِيناً أَحْمَرَ، وَتَتْرُكُ وَرَاءَهَا جِشْرِي
الْمَدِينَةِ الْوَحِيدَيْنِ هَيَاكِلَ عَارِيَّةً. لَا بُدَّ مِنْ حُكُومَاتٍ مُتَعَاقِبَةٍ
يَنْتَزِعُ الْعَسْكَرِيُّونَ فِيهَا شَارَاتِ الْعَسْكَرِيِّينَ وَأَخْذِيَّتَهُمْ، وَيُلْقِي
الْخَلْفُ بِأَوْرَاقِ السَّلَفِ مِنْ شَبَابِيكِ السَّرَايِ: «وَدَاعاً

لِلْأَنْتِهَازِيِّينَ»، هذا ما يَهْتِفُ بِهِ الْخَلْفُ. «وَدَاعَاً لِلْأَنْتِهَازِيِّينَ»، يَهْتِفُ خَلْفُ خَلْفِ الْخَلْفِ. وَالْكُلُّ يَوْتَدِي الشَّارَاتِ وَالْأَوْسِمَةَ الَّتِي غَنِمَهَا مِنْ سَابِقِهِ، وَكَذَلِكَ أَخَذِيَّتَهُ وَقُبَّعَاتِيهِ، وَيَجْلِسُ وَرَاءَ الْمِنْصُذَةِ ذَاتِهَا الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ خَشْخَشَةُ الْأَوْرَاقِ عَلَيْهَا، يَفْعَلُ الْمَرْوَحَةُ الْكَهْرِبَائِيَّةَ الْمَعْلَقَةَ إِلَى السَّقْفِ.

فَلْيَحْيِ الْخَرَابُ إِذَا، فَلَوْلَاهُ لَجَاءَ مِيرو. هذا ما يَقُولُونَهُ لَنَا وَيُضَيِّفُونَ: «إِذَا أَمْتَدَّ السَّلَامُ عَلَى الْأَرْضِ خَمْسِينَ سَنَةً، مِنْ دُونِ زَوَائِعِ أَوْ سُيُولٍ، أَوْ أَنْقِلَابَاتِ دَمَوِيَّةٍ، سَيَأْتِي مِيرو. مِيرو لَنْ يَحْتَمِلَ هُدُوءاً صَليباً يَمْتَدُّ خَمْسِينَ سَنَةً، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَعْشَ يَوْماً وَاحِداً، فِي حَيَاتِهِ الْأَرْضِيَّةِ، مِنْ غَيْرِ دَمٍ أَوْ كَارِثَةٍ». وَنَسْأَلُ: «أَمَاتَ مِيرو؟»، فَيَرُدُّونَ: «لَا. مَضَى بِقَطْعِهِ مِنْ الْأَكْبَاشِ الشَّيْطَانِيَّةِ، ذَاتِ غُرُوبٍ، مُتَوَعِّداً بِاقْتِحَامِ الْأَرْضِ. مَضَى إِلَى الظَّلَامِ؛ إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي تَظَلُّ ظَلاماً».

أِهْ مِيرو. مَنْ أَنْتَ بِاللَّهِ عَلَيْكَ؟ وَمَنْ أَنْتَ لِنَعْدُ السَّنِينَ؟ مَنْ أَنْتَ لِنُخْصِي عَلَى الْأَرْضِ سَاعَاتِ هُدُوثِهَا؟ أَلَا تَسْتَرِيحُ مِيرو؟ نُرِيدُ أَنْ نَسْتَرِيحَ.

وَمَعَ هَذَا نُحْصِي سَكَنَاتِ الْفُصُولِ: صَيْفٌ هَادِيءٌ... آه. خَرِيفٌ هَادِيءٌ... آه. ربيعٌ هَادِيءٌ... آه. سَنَةٌ مَرَّتْ. يَا لِلْهَوْلِ. بَقِيَّ تِسْعَ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً فَقَطْ. هَكَذَا يَعِيشُ مَعَنَا مِيرُو. لَكِنَّ فُصُولَنَا فُصُولُ خَرَابٍ. فُصُولٌ تَرْتَدِي دُرُوعَ الْحَرْبِ أَبَدًا، وَتَغْتَمِرُ خُوْدَةً الْمُفَاجَأَةِ. وَفِي السَّنَوَاتِ الْأَرْبَعِ الَّتِي سَبَقَتْ مَجِيءَ الصَّحْبِ، (حَيْثُ أَنْهَارَ سِيَاخِ مَدِينَةِ الْمَلَاهِي، وَالتَّمَعَتْ أَفْخَاذُ الرَّاغِبَاتِ بِوَمِيضِ غَرِيبٍ)، لَمْ يَمُرَّ فَضْلٌ مِنْ فُصُولِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْمِلَ خُبْرًا مُرًّا، وَغُيُومًا حَامِضَةً. فَمَا يَكَادُ يَأْتِي الْخَرِيفُ حَتَّى يَنْفِرَ مِنْ شُقُوقِ الْأَرْضِ مَطَرٌ يَمْحُو أَثْلَامَ الْجَرَانَةِ، وَيَجْرُفُ حُبُوبَ الْقَمْحِ الْمَبْدُورَةَ إِلَى أَرْضِ الشَّعِيرِ، وَحُبُوبَ الشَّعِيرِ الْمَبْدُورَةَ إِلَى السَّوَاقي الَّتِي لَا تُخْطِئُ مَجَارِيهَا حَتَّى فِي أَشَدِّ الْأَرَاضِي اسْتِوَاءً. بَلْ تَطْفُرُ السَّوَاقي هُنَا وَهُنَاكَ. كَأَنَّمَا كَانَتْ مُحَبَّاتٌ تَحْتَ غِطَاءِ تُرَابٍ رَقِيقٍ جَذَبَهُ الْغَيْمُ فَأَفَاقَتْ. وَمَا يَكَادُ يَأْتِي الشِّتَاءُ حَتَّى يَأْتِيَ الصَّقِيعُ، فَتَنْجَمَدُ الْبِرْكُ وَالسَّوَاقي وَالْأَنْهَارُ، وَمِيَاهُ الْمَوَاسِيرِ، وَيَغْدُو التُّرَابُ مُتْرَاصًا صَلْبًا كَالِإِسْمَنْتِ، ثُمَّ تَتَشَقَّقُ خَزَانَاتُ الْمِيَاهِ الْحَدِيدِيَّةُ فِي السَّيَّارَاتِ. أَمَّا النَّبَاتُ الْأَخْضَرُ الطَّرِيفِيُّ فَيَسْتَحِيلُ جَافًا كَعِيدَانِ

الْحَصِيدِ، إِمَّا أَمْسَكَتُهُ تَقْصُفَ، وَإِمَّا لَوَيْتَ شَجَرَةً صَغِيرَةً
تَكَسَّرَتْ. وَمَنْ يُرِيدُ مَاءً لِلشُّرْبِ يَغْلِيهِ حَتَّى يَذُوبَ جَلِيدُهُ. وَفِي
الرَّيْبِ كَأَنَّمَا تَنْتَظِرُ السَّمَاءَ أَنْ تَغْلُو سَيْقَانُ الْقَمَحِ وَالشَّعِيرِ عَنِ
الْأَرْضِ قَلِيلاً، لِتَخْصُصَهَا قَبْلَ الْآوَانِ، بِمَقَالِيعِ خَفِيَّةٍ تَرْمِي بَرْدًا
أُنَيْضُ بِحَجْمِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ. بِاللَّهِ عَلَيْكُمْ، مَنْ مَرَّ بِسَهْلٍ فَمَحِ
عَاثَ فِيهِ الْبَرْدُ؟: عُشِبَ مَقْصُوصٌ بِالْمِقْصَاصِ، وَوَزِقَ نَبَاتٌ
يَهْذِي، كَأَنَّمَا أَطْلَقَ الْغَيْمُ مِنْ حَانِيهِ سُكَارَى شَقَقُوا ثِيَابَهُمْ،
وَشَقَّقُوا الْجُدُورَ.

وَحِينَ يَأْتِي الصَّيْفُ تَكُونُ الْخَاتِمَةُ قَدْ اكْتَمَلَتْ. تَضَعُ
الْأَرْضُ نُقْطَةً فِي آخِرِ الْجُمْلَةِ: «انْتَهَى». «عَاشَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ»
يُلْهَجُ النَّاسُ، وَإِلَى مُوسِمِ آخَرَ. ثُمَّ يَسْتَدِينُونَ. ثُمَّ يُسَدِّدُونَ الدِّينَ
بِدَيْنِ آخَرَ. ثُمَّ يَبِيعُونَ الْأَرْضَ، وَمَنْ لَا يَجِدُ أَرْضاً يَبِيعُهَا، يَبِيعُ
حُلِيِّ أَمْرَأَتِهِ، وَمَنْ لَا يَجِدُ حُلِيّاً يَبِيعُ دَجَاجَتِهِ وَخِرَافَهُ، وَمَنْ لَا
يَجِدُ دَجَاجَاتٍ يَبِيعُهَا يَبِيعُ الْمَوُونَةَ، وَمَنْ لَا يَجِدُ الْمَوُونَةَ يَبِيعُ
أَسِيرَةَ النَّوْمِ، وَمَنْ لَا يَجِدُ الْأَسِيرَةَ يَبِيعُ ظَهْرَهُ كَعَتَالٍ، وَمَنْ لَا
يَقْدِرُ عَلَى الْعِتَالَةِ يَتَّجِعُ صَوْبَ الْحُدُودِ لِئَهْرَبَ التَّبَعُ وَالزَّيْبُ
حَتَّى تَفْتَنِيصَهُ طَلْقُهُ دَوْرِيَّةٍ مِنْ دَوْرِيَّاتِ الْحُدُودِ.

الخرابُ عَمِيمٌ، وَالْحَمْدُ لِلرَّحْمَنِ، فَلَا تَأْتِ مِيْرُو.

لَكِنْ مَنْ أَنْتَ مِيْرُو؟ مَنْ أَنْتَ لِنَحْمَدَ الْخَرَابَ حَتَّى لَا
تَسْجِيءَ؟ إِنَّهُمْ لَا يُخْبِرُونَنَا مَاذَا فَعَلْتَ بِكَ الْأَرْضُ، وَمَا هِيَ
أَيَّامُكَ الَّتِي تَوَاصَلْتَ بِلُحْمَةِ الْفَجِيعَةِ. لَا يُخْبِرُونَ عَلَامَ وَعَيْدِكَ،
وَأَيْنَ أَنْتَ. أَهُمْ يَعْرِفُونَ حَقًّا مِيْرُو؟ كُلُّ الَّذِي نَعْرِفُهُ أَنَّكَ تَخْرُجُ
فِي كُلِّ غُرُوبٍ مِنْ آذَارٍ إِلَى تُخُومِ الْمَدِينَةِ، مُمْتَطِيًا كَبْشَكَ
الصُّخْمِ صَخَامَةَ الثَّوْرِ، ثُمَّ تَقِفُ فَوْقَ الْهَضْبَةِ الْمُشْرِفَةِ عَلَى
سَهْلِ الْقَمَحِ الْجَنُوبِيِّ، صَامِتًا كَشَبَحٍ، تَتَمَائِلُ أَسْمَالُكَ مَعَ
الْحَرَكََةِ الْخَفِيفَةِ لِلْهَوَاءِ الَّذِي يَغْمُرُ بِلَهَائِهِ الْعُشْبَ فَيَمُوجُ إِلَى
لَا نِهَآيَةٍ. وَرُؤَيْدًا رُؤَيْدًا تَكْتَمِلُ مِنْ حَوْلِكَ حَلَقَةٌ مُتْرَامِيَّةٌ مِنْ
أَكْبَاشٍ أُخْرَى خَرَجَتْ مِنَ الظَّلَامِ الْخَفِيفِ، صَامِتَةً مِثْلَ
كَبْشِكَ، ثُمَّ تَتَسَّعُ الْحَلَقَةُ مَعَ اتِّسَاعِ الظَّلَامِ، وَتَظَلُّ تَتَسَّعُ حَتَّى
تَغْمُرَ الْأَفُقَ كُلَّهُ، وَإِذَا يَمْتَلِئُ الْأَفُقُ تَخْرُجُ مِنَ الْعَيْمِ، قَطِيعًا
قَوَائِمُهَا تَلْمُسُ الْهَوَاءَ لَا الْأَرْضَ، عَابِقَةً بِرَائِحَةِ مَطَرٍ لَمْ
يَهْطُلْ بَعْدُ.

مُنْذُ مَتَى تَخْرُجُ فِي كُلِّ غُرُوبٍ مِنْ آذَارٍ مِيْرُو؟ مُنْذُ مَتَى
تَجْمَعُ هَذِهِ الْأَكْبَاشَ حَوْلَكَ، وَتَمْتَحِنُ بِكَ الظَّلَامَ، كَأَنَّمَا لَا

ظَلَامَ لَسْتَ فِيهِ، أَوَلَيْسَ لِأَكْبَاشِكَ فِيهِ أَحْتِدَامٌ أَشْبَهُ بِحَنِينِ
الْحَيَوَانِ إِلَى أَثْنَاهُ؟

إِنِّقَ هُنَاكَ مَيُورُو، إِنِّقَ هُنَاكَ، فَلَنَا مَشَاغِلُنَا آلَانَ، بَعْدَ هَذَا
الصَّحْبِ الَّذِي غَطَّى مَدِينَةَ الْمَلَاهِي بِبُخَارِ أَلِيفِ.

وَمَشَاغِلُنَا قَلِيلَةٌ عَلَى أَيْتِهِ حَالٍ. فَأَبَاؤُنَا يَنْتَظِرُونَ مِنَ الْحُكُومَةِ
الْجَدِيدَةِ مُعْجِزَةً تُخَفِّفُ مِنْ وَطْأَةِ سَنَوَاتِ الْجَدْبِ الْأَرْبَعِ، الَّتِي
نَثَرُوا فِيهَا بِذَارَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ الْأَرْضِ الْأَمِينَةِ فَحَذَلَتْهُمْ، مُعْطِيَةً
سَنَابِلَ لَا يَزِيدُ طَوْلَ أَشْوَاقِهَا عَنْ طَوْلِ الْإِصْبَعِ، فَلَا هُمْ قَادِرُونَ
عَلَى حَصْدِهَا بِالْأَيْدِي، وَلَا هُمْ قَادِرُونَ عَلَى حَصْدِهَا
بِالْحَصَادَاتِ الْآلِيَّةِ، وَلِذَلِكَ تَرَكوها لِأَغْنَامِ الرُّغْيَانِ تَأْكُلُهَا حَتَّى
التُّخْمَةِ. إِنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَ إِذَا، فِي مَقَاهِيهِمْ، يَرْمُقُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا
فِي غَضَبٍ، أَوْ يُسَاوِمُونَ عَلَى صَفَقَاتٍ وَهْمِيَّةٍ فَلَا يَبِيعُونَ وَلَا
يَشْتَرُونَ.

وَفِي حِينِ كَانَتِ الْحُكُومَةُ مَشْغُولَةً بِجَمْعِ أَوْرَاقِهَا، وَتَرْتِيبِ
الْأَضَابِيرِ الْخَاصَّةِ بِحَيَاةٍ لَمْ تَأْتِ بَعْدُ، كَانَتْ حَرْبٌ صَغِيرَةٌ
تَسْتَعِرُ فِي الْحَيِّ الْعَرَبِيِّ، الْحَيِّ الْأَكْثَرِ كَثَافَةً بِأَكْرَادِهِ الْعَنِيفِينَ.
وَإِخْتِصَارُ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ مُدِيرِيَّةَ الْأَوْقَافِ أَقَامَتْ هُنَاكَ مَسْجِدًا

جَمِيلًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، مِنْ الْإِسْمَنْتِ الصُّرْفِ الْمَرْهُو
بِصَلَابَتِهِ وَسَطَ الْبُيُوتِ الطَّيْبَةِ، وَأَقَامَتْ عَلَيْهِ مِقْدَنَةً مِنْ ثَلَاثَةِ
أَعْمَدَةٍ حَدِيدِيَّةٍ تَنْتَهِي فِي الْأَعْلَى بِغِطَاءٍ كَالْقَبْعَةِ، وَجَعَلَتْ لَهُ
سَاحَةً مَرْصُوفَةً، كَانَ الْمُصَلِّونَ يُؤَدُّونَ صَلَاتَهُمْ عَلَيْهَا فِي
عَشِيَّاتِ الصَّيْفِ، هَرَبًا مِنَ الدَّاخِلِ الْمُشْتَعِلِ كَالْفُرْنِ. لَكِنَّ
الْمُدِيرِيَّةَ لَمْ تَحْسُمْ قَضِيَّةَ تَغْيِيرِ إِمَامٍ وَمُؤَدِّينَ لِذَلِكَ الْمَسْجِدِ.
فَاشْتَعَلَتْ حَرْبٌ بَيْنَ مَنْ رَأَوْا أَنْفُسَهُمْ أَكْفَاءَ لِيَتَبَوَّأُوا الْمُنْصِبِينَ،
وَكَانَ أَنْ اسْتَقَرَّ الصَّرَاعُ، آخِرَ الْأَمْرِ، بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَطْ، هُمَا الْمَلَأُ
أَحْمَدُ وَالْمَلَأُ رَشِيدُ.

كَانَ الْمَلَأُ أَحْمَدُ إِمَامًا، فِي الْأَصْلِ، لِمَسْجِدِ طِينِي فِي
ذَلِكَ الْحَيِّ، وَحِينَ شَيَّدَتْ الْأَوْقَافُ مَسْجِدَ الْإِسْمَنْتِ، بَايَعَهُ
بَعْضُهُمْ إِمَامًا، هَكَذَا بِقَرَارٍ مِنْهُمْ، وَكَانُوا خَلِيطًا مِنَ الْعَتَالِينَ
وَالْكَوْلِيِّينَ. أَمَّا الْمَلَأُ رَشِيدٌ، فَمَا إِنْ اسْتَمَّ رَائِحَةً الْأَمْرِ - وَكَانَ
فَقِيهًا مَحْدُودَ الْعِلْمِ، نَاصِرَ الشُّيُوعِيِّينَ فَتْرَةَ طَوِيلَةٍ ثُمَّ نَكَصَ عَنْ
ذَلِكَ - حَتَّى بَادَرَ إِلَى جَمْعِ أَنْصَارِهِ الْبَسْطَاءِ الْقُدَامَى، وَأَعْلَنَ
نَفْسَهُ إِمَامًا بِحُكْمِ أَقْدَمِيَّتِهِ فِي الْمَدِينَةِ، فَهُوَ أَبْنَاهُ، يَنْمُو الْمَلَأُ
أَحْمَدُ قَرَوِيٌّ طَارِيءٌ، لَمْ يَخْضِ عَلَى مَجِيئِهِ بِضْعَ سِنِينَ.

وَتَصَاعَدَ الْمَوْقِفُ، وَلَمْ تَنْفَعْ وَسَاطَةُ الْوُسْطَاءِ لِيَتَنَحَّى
أَحَدُهُمَا، فَبَاتَ الْمَسْجِدُ مَسْجِدَيْنِ، إِذْ يَقِفُ مُؤَدِّ كُلِّ مَنِ
الْإِمَامَيْنِ فِي جَانِبٍ مِنَ الْبَاحَةِ، هَذَا يُؤَدِّ بِصَوْتٍ وَذَاكَ
بِصَوْتٍ، وَكِلَاهُمَا يُشِيرُ بِقَبْضَتِهِ إِلَى الْآخَرِ. وَحِينَ يَنْتَهِيَانِ،
يَذْلِفُ أَحَدُ الْإِمَامَيْنِ وَرَاءَ الثَّانِي، ثُمَّ يَنْتَحِي كُلُّ مِنْهُمَا بِرُكْنٍ،
وَوَرَاءَهُ مُنَاصِرُوهُ. وَقَدْ لَا يَنْتَهِي الْأَمْرُ بِانْتِهَاءِ الصَّلَاةِ، فَيَعْمِدُ
الْإِمَامَانِ إِلَى جَمْعِ الْأَنْصَارِ فِي حَلَقَتَيْنِ، لِيَطْعَنَ أَمَلًا أَحْمَدُ فِي
«أَهْلِيَّةِ» أَمَلًا رَشِيدٍ، الشُّبُوعِيِّ الْمُلْجِدِ، وَلِيَطْعَنَ أَمَلًا رَشِيدٌ فِي
«أَهْلِيَّةِ» أَمَلًا أَحْمَدَ الْفَأَفَاءِ، الَّذِي لَا يَعْرِفُ مَخَارِجَ الْحُرُوفِ
وَأُصُولَ التَّجْوِيدِ.

بِعَامَّةٍ لَمْ يُجَاوِزِ الْأَمْرُ بَيْنَ الْإِمَامَيْنِ حَدَّ الْأَتِّهَامَاتِ، وَالطُّعْنِ
الْعَاقِلِ. وَلَمْ يُجَاوِزِ الْمُنَاصِرُونَ حُدُودَ النَّظَرِ شَرْرًا، بَعْضُهُمْ إِلَى
بَعْضٍ، أَوْ الطُّعْنِ فِي جَوَازِ الصَّلَاةِ وَرَاءَ هَذَا الْإِمَامِ أَوْ ذَاكَ،
وَأَعْظَمُ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ هُوَ سَرَقَةُ الْأَخْذِيَّةِ، بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، أَوْ
الْقَرْعُ بِقُوَّةٍ عَلَى أَبْوَابِ الْمَرَا حِيضٍ، إِذَا كَانَ أَحَدُ أَنْصَارِ
الْإِمَامَيْنِ فِي الدَّخْلِ، وَغَرِيْمُهُ فِي الْخَارِجِ. لَكِنَّ الْأَمْرَ كَانَ
مُخْتَلِفًا بَيْنَ الْمُؤَدِّ قَاسِمُو نَصِيرِ أَمَلًا أَحْمَدَ، الَّذِي يَمْلِكُ

بُحَيْرَةٌ خَارِجَ الْمَدِينَةِ، يَبِيعُ الثَّرَابُ مِنْ حَوَافِّهَا لِلْبَنَاءِ، وَبَيْنَ
عَقْدَكِي كَشُومَشُو نَصِيرِ الْمَلَا رَشِيدٍ، قَبْلَ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْهُ آخِرُ
الْأَمْرِ، بَعْدَمَا اقْتَنَعَ بِطُلَانِ الصَّلَاةِ وَرَاءَ شُيُوعِي سَابِقٍ.

كانا - أي قاسمو وعقدكي - صَاخِبَيْنِ حَقًّا، وَلِصَوْنَيْهِمَا
قَرْعُ كَقَرْعٍ عَلَى الصَّاحِ. شَخْصَانِ ضَيْلَا الْبُنْيَةِ. ضَيْلَانِ إِلَى
دَرَجَةٍ لَا نَعْرِفُ كَيْفَ يُمَكِّنُ لَهُمَا أَنْ يُثِيرَا هَذَا الصَّخَبَ كُلَّهُ.
وَكُنَّا، كَصِبْنِيَةِ أَنْعِدٍ، نَحْسِبُ أَلْفَ حِسَابٍ لَهُمَا. فِقَاسَمُو بَاشِقُ
مُتَرْقُبُ أَبَدًا. مَوْجُودٌ وَرَاءَ الْمَسْجِدِ وَأَمَامَهُ. يَمْنَعُنَا مِنَ اللَّعِبِ
بِالْبَلِي حَوْلَ مَمْلَكَتِهِ بِمِقْدَارِ فَوْسَخٍ، ذُو صَوْتٍ حَادٍّ نَفِيرِي.
«يَا لِلْجَحِيمِ قَاسَمُو. صَوْتُكَ صَوْتُ دِيكَ». وَيَلْعَنُ قَاسَمُو
أَجْدَادَنَا النَّائِمِينَ. «صَوْتُكَ صَوْتُ أَسْتِ الْحِمَارِ»، وَيَلْعَنُ قَاسَمُو
أُمَهَاتِنَا. نَقْذِفُ سَاحَةَ الْمَسْجِدِ بِالْحَصَى مِنْ فَوْقِ السَّوْرِ،
فَيَرْكُضُ وَرَاءَنَا بِدَشْدَاشَتِهِ الْبَيْضَاءِ حَتَّى تَنْحَلَّ عِمَامَتُهُ وَتَنْسَدِلَ
عَلَى عَيْنَيْهِ الْبُومِيَّتَيْنِ. أَمَّا عَقْدَكِي كَشُومَشُو فَأَبْنُ جَحِيمٍ حَقًّا.
شَيْخٌ فِي السَّنَعِينَ. نَحِيلُ كَقَصْبَةٍ. أَعْمَصُ لَا يَكَادُ يَرَى، وَأَذْرُدُ
لَا سِنَّ فِي فَمِهِ. يَغْتَمِرُ عِمَامَةً صَفْرَاءَ، وَبِيَدِهِ عَصَا مِنْ أَغْصَانِ
الْكِينَا. يَشْتُمُ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ. يَشْتُمُ قَاسَمُو، وَالْإِمَامُ الْمَلَا

أحمد، والمدینة، وأبقار الناس وأغنامهم. یَشْتُمُ الغُیومَ والهَوَاءَ.
یَشْتُمُ حَتَّى التَّعَبِ، وَیَضْرِبُ بِعَصَاهُ الْحِیْطَانَ مِنَ الْغَیْظِ،
وَيَدْعِي، أبدأ، أَنْ لَهُ دَيْنًا فِي ذِمَّةِ «الرُّومِيِّينَ». وَ«الرُّومِيُّونَ» اسْمٌ
يُطْلَقُ عَلَى الشُّرْطَةِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ، حَتَّى الْآنَ، سَبَبَ
الْاِسْتِيقَاقِ الْغَرِيبِ. وَفِي كُلِّ يَوْمٍ يَتَسَبَّبُ فِي مُشْكَلَةٍ مَعَ شُرْطَةِ
الْبَلَدِيَّةِ، الَّذِينَ يَدُورُونَ عَلَى الْبَقَالِينَ الْمَذْعُورِينَ، حَامِلِينَ
مَحَاضِرَ ضَبِيطِ جَاهِزَةٍ، وَعَلَى أَلْسِنَتِهِمْ جُمْلٌ جَاهِزَةٌ: «الْعُبَار...
الْعُبَار». وَمَاذَا يَفْعَلُ الْبَقَالُونَ فِي مَدِينَةِ كُلِّهَا غُبَارًا. طُرُقَاتٌ مِنَ
الْتِرَابِ وَبُيُوتٌ مِنَ التُّرَابِ، فَمَاذَا يَفْعَلُونَ؟ وَأبدأ تَخْرُجُ شُرْطَةُ
الْبَلَدِيَّةِ بِغَنَائِمٍ مِنَ الْبَطِيخِ، وَاللَّحْمِ، وَالْبَنْدُورَةِ، وَعُغْلِبِ الدُّخَانِ.
لَكِنْ عَقْدَكَ بِالْمِرْصَادِ: «أَنْتَ... هِيه. أَنْتَ، أَيُّهَا الرُّومِيُّ، لِي
فِي ذِمَّتِكَ دَيْنٌ». وَيَتَفَكَّهُ الشُّرْطِيُّونَ، فَهُمْ يَعْرِفُونَهُ: «أَيُّ دَيْنٍ
عَقْدَكَ؟»، وَيَحْتَدُّ عَقْدَكَ: «الدَّيْنُ دَيْنٌ يَا رُومِي أَبْنِ الرُّومِيِّ.
أَلَا تَتَذَكَّرُ؟»، وَيَزَوِّعُ عَصَاهُ عَالِيًا، فَيَهْدُونَهُ: «نَعَمْ، تَذَكَّرْنَا.
نَعَمْ. أَخْفِضْ عَصَاكَ. إِنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ فِي الْبَلَدِيَّةِ لِيُعْطَوْكَ
دَيْنَكَ». وَتَنْفَرِجُ أَسَارِي عَقْدَكَ: «أولادُ الْقَحْجَةِ... دَائِمًا يَنْسَوْنَ.
الدَّيْنُ دَيْنٌ». وَيَا مَا طَرْدَهُ مُوظَّفُو الْبَلَدِيَّةِ بَعْدَ احْتِفَالَاتِ صَاحِبَةِ.

ويا ما أَجْتَمَعَ حَوْلَهُ النَّاسُ، وَسَطَ الْمَدِينَةِ، وَهُوَ يُلَوِّحُ بِعَصَاهُ فِي اتِّجَاهِ مَبْنَى الْبَلَدِيَّةِ: «نَصَابُونَ. أَوْلَادُ كَلْبَةٍ. هَاتُوا الدِّينَ». ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَى النَّاسِ هَاتِفًا: «ما حَاجَتُنَا إِلَى دَوْلَةٍ؟ لَا تُرِيدُ دَوْلَةً. لَا تُرِيدُ الرُّومِيِّينَ. يَأْكُلُونَ أَفْوَالَنَا. نَصَابُونَ. أَوْلَادُ قَحْبَةٍ»، وَيَبْصُقُ مِلءَ فَمِهِ الْأَذْرَدَ، هَاجِمًا، لَا عَلَى الْمَبْنَى، بَلْ عَلَى النَّاسِ الْمُتَحَلِّقِينَ حَوْلَهُ: «أَنْتُمْ السَّبَبُ. تَحْمِلُونَ خِصِيَّاتِكُمْ إِلَى الْبَلَدِيَّةِ لِيَكْتُشِبُوا عَلَيْهَا مَحَاضِرَ الضُّبُطِ. تَفُو عَلَى مُؤَخَّرَاتِكُمْ. تَفُو عَلَى طَائِرَاتِكُمْ»، وَتَكُونُ طَائِرَةٌ مَا قَدْ غَبَرَتْ السَّمَاءَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ.

وَذَاتَ يَوْمٍ، وَمِنْ دُونِ إِثْدَارٍ، وَيَنْبِئُ كُلٌّ مِنَ الْإِمَامِينَ يُؤَدِّي الصَّلَاةَ فِي أَنْصَارِهِ، حَمَلَ عِفْدَكَ طَشْتًا مِنَ الْوَحْلِ وَوَضَعَهُ حَيْثُ يَسْجُدُ الْمَلَأَ أَحْمَدُ. وَقَدْ أَهْمَلَهُ الْأَخِيرُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْوَرَعِ، دَافِعًا بِيَدِهِ الطَّشْتَ بَعِيدًا عَنْ مَكَانِ سُجُودِهِ، بِرُغْمِ دَفْعَةِ الْمُصَلِّينَ الْوَاقِفِينَ وَرَاءَهُ، الَّذِينَ خَلَطُوا آيَاتِ بَأْنَصَافٍ جُمِلَ تَتَعَلَّقُ بِمُؤَخَّرَةٍ أَمْ عِفْدَكَ، وَبَأَصْلِهِ وَفَضْلِهِ، بَيِّدَ أَنَّ قَاسِمُو وَحْدَهُ قَطَعَ الصَّلَاةَ، مُنْدَفِعًا وَصِيَاخُهُ صِيَاخُ دِيكٍ، مُهَوِيًا عَلَى عِفْدَكَ بِضُرْبَاتٍ مِنْ نِطَاقِهِ الْجِلْدِيِّ الثَّخِينِ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْمَعْرَكَةُ الْمُخْتَلِطَةُ بِالْكَثِيرِ مِنَ الْغَوَاءِ، وَبِالْقَلِيلِ مِنَ الْكَدَمَاتِ،

مَدْخَلًا إِلَى كَرٍّ وَفَرٍّ طَوِيلَيْنِ بَيْنَهُمَا: يَقِفُ قَاسِمُو عَلَى بَابِ
الْمَسْجِدِ لِيَمْنَعَ دُخُولَ عَقْدَكِي، وَفِي يَدِهِ مِنْجَلٌ؛ أَوْ يَقِفُ
عَقْدَكِي عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ وَفِي يَدِهِ بَطِيخَةٌ مُعْطِنَةٌ فِي أَنْتِظَارِ
قَاسِمُو. وَدَائِمًا يَتَدَخَّلُ الْوُسَطَاءُ مِنْ بَاعَةِ الْعَرَبَاتِ، فَيَخْتَصِرُونَ
الْمَعْرَكَةَ إِلَى بَضْعِ شَتَائِمٍ، وَأَطْنَانٍ مِنَ التَّهْدِيدِ الْمَتَبَادِلِ. وَكَانَ،
بَعْدَئِذٍ، أَنْ تَدْخُلَ أَوْلَادُ عَقْدَكِي، وَأَوْلَادُ قَاسِمُو، وَزَوْجَتَاهُمَا،
وَزَوْجَاتُ أَوْلَادِهِمَا، حَتَّى أَنْقَسَمَ الْحَيُّ الْعَرَبِيُّ مَمْلَكَتَيْنِ
صَغِيرَتَيْنِ لِلنِّسَاءِ الْمُحَارِبَاتِ، بَيْنَهُمَا فَاصِلٌ مِنْ بُيُوتِ
الْمُحَايِدِينَ، لَكِنَّ الْحِجَارَةَ، وَالْبَنْدُورَةَ، وَالْقَبَاقِيبَ الْبَالِيَةَ،
كَانَتْ تَغْبِرُ ذَلِكَ الْفَاصِلَ الْمُحَايِدَ، فِي خَطِّ هَوَائِي مِنْ فَوْقِ
الرُّؤُوسِ وَالْأَبْيَيتِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَى أَحَدٌ أَحَدًا.

وَأخِيرًا، حَسَمَتْ مُدِيرِيَةُ الْأَوْقَافِ الْأَمْرَ، فَأَصْدَرَتْ مَرَاسِيمَ
يَتَّبِعِينَ أَمَلًا أَحْمَدَ إِمَامًا، وَقَاسِمُو مُؤَدِّنًا. وَبِالطَّبْعِ لَمْ يُعَارِضْ
مَنْ خُذِلُوا مِنَ الْبُسْطَاءِ هَذَا الْأَمْرَ، فَرِجَالُ الْأَوْقَافِ فَقَهَاءُ
ضَالِعُونَ فِي الدِّينِ؛ هَكَذَا عَزَّوْا أَنْفُسَهُمْ، وَبَرَّزُوا أَنْفُسَاضَهُمْ مِنْ
حَوْلِ أَمَلًا رَشِيدٍ. ثُمَّ بَاتُوا يُؤَمِّنُونَ الْمَسْجِدَ إِلَّا عَقْدَكِي، الَّذِي
أَعْلَنَ الْعَدَاءَ لِلْأَوْقَافِ أَيْضًا، وَبَعْدَ فِتْرَةٍ أَعْلَنَ الْعَدَاءَ لِشَيْخِهِ أَمَلًا

رَشِيد، وَلِلْحَيِّ الْعَزَبِيِّ كُلُّهُ. ذَهَبَ إِلَى تُرُكِيَا، خِلْسَةً، عَبَرَ
الْحُدُودَ، وَعَادَ بَعْدَ أَشْهُرٍ بِالطَّرِيقَةِ ذَاتِهَا، أَشَدَّ مَقْتًا
لِلنَّاسِ، وَأَكْثَرَ هَذْيَانًا، لَا يَتَحَدَّثُ إِلَّا عَنِ الْأَنَاضُولِ وَعَشْكَرِ
سَفَرِ بَزْلُكْ، وَيَثْنُ الشُّمُوسِمَ، إِنْ مَشَى، مِنْ جَبِيبِ قُفْطَانِيهِ،
مُتَمَتِّمًا: «أَنْتُمْ لُطَفَاءُ. لُطَفَاءُ جِدًّا. أَتَبْعِينِي يَا حَيَوَانَاتِ اللَّهِ»،
وَكَانَ يَقْصِدُ بِالْمُخَاطَبَةِ أَشْبَاحَ زَمَانِهِ الْمُتَدَثِّرِ بِغِطَاءِ سَمِيكِ مِنَ
الْبَطُولَةِ، وَيَوَدِّي دُرُوعَهُ الصَّدِئَةَ تَحْتَ تِلْكَ الْبَحِيرَةِ الصَّلْبَةِ مِنَ
النَّسِيَانِ الْآدَمِيِّ.

هَكَذَا تَفَرَّدَ قَاسِمُو السُّلْطَةِ، وَخَذَهُ، فِي ذَلِكَ الْمَجْنَى
الْإِسْمَنْتِيِّ الْعَارِي، وَبَاتَ يَحْتَالُ أَمَامَ بَاعَةِ الْعَرَبَاتِ بِنْيَاشِينِهِ
الْحَفِيَّةِ. لَا يَكَادُ يُغَادِرُ الْمَسْجِدَ قَطُّ. يَكُنُّسُ بَاحْتَهُ لَيْلَ نَهَارَ
بِمَكْنَسَتِهِ الْخَاصَّةِ، وَهِيَ مَخْضُ عَصَا طَوِيلَةٍ رَبَطَ إِلَى طَرَفِهَا
حُزْمَةً صَحْمَةً مِنْ نَبَاتِ الْخَزْنُوبِ، لَكِنَّ زَهْوَهُ تَعْدَى زَهْوَ مَلِكٍ
حَقِيقِيٍّ حِينَ أَمَدَّتْ الْأَوْقَافُ الْمَسْجِدَ بِمُكَبِّرٍ لِلصُّوْبِ، زَرَعَتْهُ
فِي أَعْلَى الصَّارِي الَّذِي يُسَمَّى مِقْدَنَةً، وَمَدَّتْ مِنْهُ شَرِيطًا يَصِلُهُ
بِالْمِكْرُوفُونِ فِي الدَّاخِلِ. وَقَدْ عَمَدَ قَاسِمُو إِلَى بِنَاءِ كُوخٍ صَبِيحٍ
جِدًّا فِي زَاوِيَةٍ مِنَ الْبَاحَةِ، تَفَنَّنَ الصُّوفِيُّ مَحْمُودٌ، بِائِثِ الْبَطِّيخِ

الْمُتَجَوِّلُ، فِي تَلْوِينِ خَشْيِهِ بِدِهَانَاتِ شَتَّى، فِي خُطُوطِ
مُتَصَالِبَةٍ، وَمُتَعَامِدَةٍ، وَمُتَوَازِنَةٍ، وَمَائِلَةٍ. «مَائَةٌ لَوْنٍ وَلَوْنٍ» كَانَ
يَقُولُ الصَّوْفِيُّ مَحْمُودٌ، «سَأْدَهُنَّ مِائَةٌ لَوْنٍ وَلَوْنٍ تَلِيْقُ
بِمِكْرُوفِن قَاسِمُو». وَقَدْ نَقَلَ قَاسِمُو اَلْمِكْرُوفُونَ إِلَى اَلْكُوخِ،
وَبَاتَ يُدَلِّلُهُ كَمَا يُدَلِّلُ دَجَاجَاتِ تَبِيضٍ. يَدْخُلُ اَلْكُوخَ الَّذِي
لَا يَتَسَيَّعُ لِرَجُلٍ إِلَّا جَالِسًا اَلْقُرُفْصَاءَ، بِسَبَبٍ وَبَعِيْرِهِ، فِي أَوْقَاتِ
اَلْأَذَانِ وَفِي غَيْرِهَا. وَيَظَلُّ يُتَمَتِّمُ: «إِجْم. إِجْم. إِخ. إِخ»،
فَيَلْتَفِتُ بَاعَةً اَلْخُضَارِ اَلْمُتَجَوِّلُونَ اَلَّذِينَ يَزْدَحِمُ بِهِمُ الرِّصْفُ
اَلْمُلَاصِقُ لِلْمَسْجِدِ، مُعْمَغِمِينَ: «رَحِيمُ صَوْتُكَ قَاسِمُو. حَيَّاكَ
اَللَّهُ». وَقَدْ أَشَاعَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ يَشْرَبُ بَيْضَتَيْنِ نَيْعَتَيْنِ كُلَّ
صَبَاحٍ، وَلَا يَأْتِي إِلَى اَلْمَسْجِدِ قَبْلَ أَنْ يُؤَدِّنَ أَمَامَ زَوْجَتِهِ مِرَارًا
وَتَكَرَّرًا، حَتَّى تَقُولَ لَهُ: «الآنَ. نَعَمْ، الآنَ صَفَا صَوْتُكَ
فَاذْهَبْ»، وَيَهْزُولُ قَاسِمُو إِلَى اَلْمَسْجِدِ قَبْلَ أَنْ يَطْرَأَ طَارِيءٌ
يُعَكِّرُ بِفَرْ حَنْجَرَتِهِ اَلتَّوَرَانِيَّةَ.

وَلَمْ يَمُضِ وَقْتُ طَوِيلٍ إِلَّا تَحَوَّلَ صَوْتُ قَاسِمُو إِلَى مَصْدَرٍ
إِزْعَاجٍ حَقِيقِيٍّ، حَتَّى بَاعَةً اَلْخُضَارِ اَلْمُتَجَوِّلُونَ لَمْ يُخْفُوا
اَسْتِيَاءَهُمْ، وَقَدْ عَمَدْنَا - نَحْنُ الصَّبِيَّةُ - مِرَارًا إِلَى قَطْعِ شَرِيْطِ

الْمَكْبَرِ، مِنْ فَوْقِ السَّورِ، لَكِنَّ الصُّورَ كَانَ يَعُودُ أَقْوَى: «إِجْم»،
 إِجْم. إِخْ إِخْ»، فَتَضَرِّبُ كَفًّا يَكْفُ: «رَجَعَ الدِّيكُ».

كُلُّ الْأَشْيَاءِ دِيكٌ. الْعَالَمُ دِيكٌ، وَالْحُكُومَةُ دِيكٌ، إِلَّا دِيكُنَا
 فِي سَاحَةِ الْبَيْتِ، فَهِيَ تَمْشِي مَشْيَةً سَكْرَانٍ. وَتَكْتُمُ قَلِيلاً،
 فَإِنَّ تَسْكِرَ الدِّيَكَةِ يَعْنِي أَنْ يَفْتَحِمَ مِيرُو هُدُوءَ الْأَرْضِ مِنْ زَاوِيَةِ
 مَا، مُعِيداً سِيرَةَ الْوَحْشَةِ وَالْوَحْشِيِّ، مُعِيداً أَنْيْنَ الْكَائِنِ إِلَيْهِ؛ أَنْيْنُهُ
 الْأَوَّلُ الصَّامِتُ، حِينَ وَقَفَ عَلَى هَضْبَةٍ يَسْتَطْلِعُ شَبِيهَهُ الْكَائِنِ
 وَيَدُهُ عَلَى هِرَاوَتِهِ؛ ضَعِيفاً فِي الْمَمْلَكَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ؛ لَا يُنَافِسُ
 الْأَقْوَى، بَلْ يَحْبُكُ الْفَخَاخَ، وَيَسْتَجِدِي الْحِيلَةَ. لَكِنَّ دِيكُنَا -
 كَمَا كَشَفَ لَنَا الْعَارِفُونَ - لَمْ تَكُنْ سَكْرَى. إِنَّهَا مَرِيضَةٌ مِنْ
 جَرَاءِ تَنَاوُلِ السَّمَادِ الْكِيمَاوِيِّ الَّذِي تَتَزَنَّهُ فِي حَقْلِ الْبَصْلِ
 الصَّغِيرِ. «يَا لِلدِّيَكَةِ الْمَغْدُورَةِ» تَنْدُبُ أُمِّي، «لَا يَأْخُذُ اللَّهُ إِلَّا
 الْفَاضِلِينَ». وَدِيكُنَا فَاضِلَةٌ بِحَقٍّ. دِيكَةُ حَقِيقَةٍ. ثَلَاثُونَ دِيكاً
 أَوْ أَكْثَرَ. ضَعِيفَةُ الْحَجْمِ، طَوِيلَةُ أَعْنَاقِهَا الْعَارِيَّةُ مِنَ الرِّيشِ
 وَسِقَانِهَا. دِيكَةُ صِرَاعٍ لَا دِيكَةُ طَعَامٍ. دِيكَةُ فُحُولٍ،
 تَنْتِفُ الدَّجَاجَاتِ نَتْفاً قَبْلَ أَنْ تَنْقَوَسَ مِنْ فَوْقِهَا فِي جِمَاعٍ
 لَا يَسْتَعْرِقُ ثَوَانِي، وَمِنْ ثَمَّ تَنْهَضُ مُغْلِنَةً بِصَبَاحٍ رَصِينٍ فَجَرَهَا

الْبَهِيمِيَّ الْفَحْلَ حَتَّى أَبْعِدَ نَجْمَةً فِيهِ. دَيْكَةٌ تُهَاجِمُ الْقِطَطَ
وَالْبَقَرَ. وَإِذَا تَهَيَّأَتْ لَهَا وَلِيمَةٌ مِنْ طِفْلِ رَضِيعٍ فَلَا مَانِعَ لَدَيْهَا.

... وَنَجْمَعُ دَيْكَتَنَا ذَاتَ فَجْرِ. نَلْتَقِطُهَا مِنَ الْأَرْضِ فِي
سَهْوَةٍ بِالْعَةِ، مُتَرَاخِيَةً تَتَذَلَّى أَغْنَاقُهَا ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ
الشِّمَالِ، وَكَذَلِكَ أَجْنَحُهَا. نَجْمَعُهَا مِنْ سِقَايَها حُرْمَةً حُرْمَةً،
ثُمَّ نَجْعَلُ بَيْنَ كُلِّ حُرْمَتَيْنِ حَبْلًا مِنَ الْقَنَبِ وَنُلْقِيها عَلَى
أَكْفَانِنا، فَتَتَذَلَّى عَلَى بُطُونِنا وَظُهُورِنا، فَاتِحَةً مَنَاقِيرَها الْمُزْبَدَةَ،
وَنَتَّجِعُ بِها إِلَى سُوقِ الدَّجَاجِ فِي الْمَدِينَةِ.

«يَا لِلدَّيْكَةِ الْمَغْدُورَةِ» تَتَذَبُّ أُمِّي، وَتُخْصِي مَا أَعْطَيْتَها مِنْ
نُقُودٍ. «أَهَذَا ثَمَنُها؟ أَهَذَا كُلُّ شَيْءٍ؟»، وَتَنْظُرُ إِلَيْنَا - نَحْنُ
أَبْنَاءُها الصَّبِيَّةِ وَأَبْنَاءُ أُخْتِها - فَتَقُولُ: «نَعَمْ». وَتُضِيفُ بَعْدَ بُرْهَةٍ
مِنْ التَّرَدُّدِ: «تَعْلَمِينَ، بِالطَّبْعِ، مَاتَ نِصْفُها فِي الطَّرِيقِ،
وَالنِّصْفُ الْآخَرُ كَانَ يُحْتَضَرُ. لَمْ يَدْفَعِ الشَّارُونَ إِلَّا مَبَالِغَ
بُخْسَةٍ ثَمَنَ الدَّيْكِ الْوَاحِدِ، أُمَاهُ». وَتَظَلُّ تَنْظُرُ إِلَيْنَا فِي رِبْتِهِ،
فَنُخْرِجُ جَيُوبَنَا الْكَبِيرَةَ مِنْ دُشْدَاشَاتِنَا، فِي حَرَكَةٍ عَصَبِيَّةٍ مُفْتَعَلَةٍ:
«أَنْظُرِي. لَا شَيْءَ وَاللَّهِ»، وَقَبْلَ أَنْ نُكْمَلَ جُمْلَتَنَا تَكُونُ قَطْعُ
مَعْدِنِيَّةٍ قَدْ أَصْدَرَتْ رَنِينًا نَتِيجَةَ آخِثِكَ بِغَضِها بِبَعْضِ دَاخِلِ

جوارِبنا الْفَضْفَاضَةَ. عِنْدَيْدِ نَحْلُجْ جوارِبنا فِي هُدُوءِ الْمَذْنِبِ،
مُبْتَعِدِينَ عَنْهَا قَلِيلاً، حَتَّى لَا تَطُولَنَا ضَرْبَةُ مُفَاجِئَةٍ، وَنُلْقَى
بِالْقَطْعِ النَّقْدِيَّةِ إِلَيْهَا مُتَمَتِّمِينَ: «سَقَطَتْ سَهْواً أُمَاهُ. لَا بُدَّ أَنْ
جُيُوبَ دَشْدَاشَاتِنَا مَثْقُوبَةٌ، وَإِلَّا لَمَّا سَقَطَتْ الْقَطْعُ فِي جوارِبنا
أُمَاهُ»، وَيَمْضِي الْأَمْرُ فِي سَلامٍ... يَا لِلدَّيْكَةِ الْمَعْدُورَةِ.

وَفِي الصَّبَاحِ الْتَالِيَةِ، حِينَ يَتَرَدَّدُ صَوْتُ قَاسِمُو مِنْ مِقْدَنَةِ
الْمَسْجِدِ مُبَشِّراً بِتَعَبِ جَدِيدٍ، لَا تُجَارِيهِ دَيْكُثُنَا، بَلْ دَيْكَةُ
أُخْرَى بَعِيدَةً، لَا يُفَكِّرُ أَحَدٌ فِي فُحُولِهَا، وَإِنَّمَا فِي قُدْرَتِهَا عَلَى
اِكْتِنَازِ اللَّحْمِ كَمَا تَكْتَنِيزُ مَارِغُو اللَّحْمِ فِي فَخْذِهَا وَرِذْفِهَا.

أِهْ مَارِغُو، لَوْ كُنَّا نَعْرِفُ آتِيْدَ بَهَاءِ ذَلِكَ اللَّحْمِ، كَمَا نَعْرِفُهُ
الْآنَ، لَطَلَلْنَا خَاشِعِينَ قَرْنًا مِنَ الزَّمَنِ عَلَى سَطْحِ بَيْتِنَا. كَمَا
نَرَاكَ مَارِغُو، فِي صَبَاحِ الصَّبِيْفِ، كَيْفَ تَنْهَضِينَ فِي تَنَاقُلِ
شَيْطَانِيٍّ، دَافِعَةً عَنْكَ الْغِطَاءَ الْكَسْلَانَ، وَأَنْتِ فِي ثُوبٍ شَفِيفٍ
مُنْحَسِرٍ حَتَّى الْبَطْنِ. لَمْ تَكُونِي تَأْبَهُينَ لِنَظَرَاتِنَا - نَحْنُ
الصَّبِيَّةُ - مِنَ السَّطْحِ الْمُقَابِلِ لِسَطْحِ بَيْتِكَ، الَّذِي لَا يَبْعُدُ
عَنْكَ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ أَمْتَارٍ. ثُمَّ كُنْتَ تَطْوِينَ الْفِرَاشَ كُلْفَافَةً،
مُنْحَنِئَةً إِلَى أَمَامِ، يَفْصِلُ جِذْعُكَ مِنْ وَرَاءِ، فِي تِلْكَ الْآنُجْنَاءَةِ

النَّهْرِيَّةَ، حَيْطُ دَقِيقٍ يَسْتُرُ الْمَكْمَنَ الْكَوْكَبِيَّ لِلْوِلَادَاتِ كُلِّهَا،
وَالْبَطُولَاتِ كُلِّهَا، وَلِلدَّمِ الَّذِي أَهْرَقَ، وَلِلدَّمِ الَّذِي سَيَّهَرَقُ،
وَلِلْأَنْبِيَاءِ، وَلِصَوَاعِقِ الْأَقْحُوَانِ، وَلِتَعَاقِبِ الْحُكُومَاتِ، وَلِلْخِيَانَةِ
الَّتِي تَعْلُقُ عَلَى مِشْجَبِ كُلِّ عَصْرِ قَرْبَةٍ نَبِيذِهَا. وَكَانَ الْحَيْطُ
الدَّقِيقُ ذَاكَ، الْمُتَمَعِّنُ فِي التِّصَاقِهِ بِأَخْذِهِ لَحْمِيٍّ، يُشِيرُ عَلَى
جَانِبَيْهِ أَحْمِرَارًا خَفِيفًا يَغَارُ مِنْهُ أَحْمِرَارُ الْفَاكِهَةِ الْمَرْسُومَةِ فِي
كَرَارِيْسِنَا الْمَدْرَسِيَّةِ. غَيْرَ أَنَّنَا لَمْ نَلْحَظْ ذَلِكَ كُلَّهُ آنَئِذٍ، فَكُنَّا
نَتَنَدَّرُ بِالْحَجْمِ الصَّغِيرِ لِسِرِّوَالِكِ مَارْغُو.

فِي الشُّمَالِ، عَادَةً، يَضَعُدُ النَّاسُ بِأَسْرَتِهِمْ إِلَى سُطُوحِ
الْمَنَازِلِ لَيْلًا، حَيْثُ يَنَامُونَ بَعْدَ إِخْصَاءِ أَكْبَرِ عَدَدٍ مِنَ الثُّجُومِ،
وَعَلَى مَقَرَّةٍ مِنْهُمْ تَنَامُ الدَّجَاجَاتُ، الَّتِي تَضَعُدُ السَّلَالِمَ
الْخَشْيِيَّةَ بِدَوْرِهَا. وَقُبَالَ سَطْحِنَا كَانَتْ تَنَامُ مَارْغُو.

وَمَارْغُو مُمَرَّضَةٌ فِي الْمُسْتَشْفَى الْحُكُومِيِّ فِي الْمَدِينَةِ،
وَنَفْتَحِرُ بِأَنَّهَا جَارَتُنَا، لِأَنَّهَا «مُوظَّفَةٌ حُكُومِيَّةٌ»، وَالْمُوظَّفُونَ
الْحُكُومِيُّونَ ذَوُو أَمْتِيَّازَاتٍ، وَنَادِرُونَ، تَتَمَلَّقُهُمُ النَّاسُ بِرُغْمِ
تَجَاهُلِهِمُ لِلنَّاسِ. يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِمْ، وَقَلَّمَا يَدُونُ. وَمَارْغُو عَوْرَاءُ.
يَسْتُرُ عَيْنَهَا الْيُمْنَى غِشَاءٌ أَبْيَضُ كَثُوبُهَا الْأَبْيَضُ، وَمَعَ ذَلِكَ

يَزُورُهَا الْكَثِيرُونَ مِنْ مُوظَّفِي الْحُكُومَةِ فِي بَيْتِهَا. وَلَهَا حُظُورَةٌ
عِنْدَ ضُبَاطٍ يَجِيعُونَ وَيَذْهَبُونَ فِي سِيَارَاتٍ لَانْدَرُوفِر. إِنَّهَا ذَاتُ
سَطْوَةٍ حَقًّا، لَكِنَّ سَطَوَتَهَا فِي الْمُسْتَشْفَى تُعَادِلُ سَطْوَةَ
قَائِمِّقَام.

وَمَنْ يُوِّمُ الْمُسْتَشْفَى الْحُكُومِيَّ غَيْرَ الْقَرَوِيِّينَ وَبُسْطَاءِ
الصُّوَاخِي؟ يَنْظُرُ الْمَمْرُضُونَ وَالْمَمْرُضَاتُ إِلَيْهِمْ شَزْرًا، وَهُمْ
يَذْفَعُونَ طَاسَاتٍ مَطْعُوجَةً فِي آتَجَاهِهِمْ: «تَبَوَّلُوا». وَأَيْنَ يَتَبَوَّلُ
الْمَرَضِي فِي طَاسَاتِهِمْ؟ كُلُّ الْمَرَضَى يَحْمِلُونَ طَاسَاتٍ، حَتَّى
أُولَئِكَ الَّذِينَ يَحْضُرُونَ طَلَبًا لِيُغْضَ الْيُودُ مِنْ أَجْلِ إِضْبَعٍ جَرِيحٍ،
وَحَتَّى مَنْ يَزُورُونَ أَقْرَبَاءَهُمْ؛ كُلُّهُمْ يَحْمِلُونَ طَاسَاتٍ. فَاتِجَةً
الدُّخُولِ إِلَى الْمُسْتَشْفَى، زَائِرًا أَوْ مَرِيضًا، هِيَ الطَّاسَةُ، وَعَلَيْكَ
أَنْ تَتَبَوَّلَ فِيهَا، قَبْلَ أَنْ تُفْنِعَ الْمَمْرُضَ الْبَوَّابَ، أَوْ مُوظَّفَ
الْإِسْتِغْلَامَاتِ، أَنَّكَ لَسْتَ مَرِيضًا، بَلْ جِئْتَ مِنْ أَجْلِ طَعْمِ
الْمُجْدَرِيِّ... مَثَلًا. مَرَضِي، مَرَضِي حَتَّى يَثْبُتَ الْعَكْسُ. وَتَأْتِي
حُقْنَةُ بِنِيسَلِينَ، وَتَمْضِي حُقْنَةُ بِنِيسَلِينَ. بِنِيسَلِينَ لِكُلِّ شَيْءٍ،
لِلسَّرَطَانِ، وَلِلشُّكْرِيِّ، وَلِلتَّيْفُوئِيدِ وَلِللَّهْرَسِيَا، وَلِلسَّلِّ، وَلِلجُرُوحِ،
وَلِلْأَسْنَانِ، وَلِلْفَتَقِ، وَلِلزَّائِدَةِ الدَّوْدِيَّةِ. إِبْرُ بِنِيسَلِينَ تَطِيرُ

كَالْيَعَاسِبِ فِي أَرْوَاقِ الْمُسْتَشْفَى. حُلْمٌ هَائِلٌ طَوِيلٌ مِنْ
 الْهَيْسَلِينَ يَنْتَظِرُ الدَّاحِلَ بِطَاسِئِهِ إِلَى الْمُسْتَشْفَى. لَكِنْ، أَيْنَ
 يَتَبَوَّلُ الْمَرْضَى فِي طَاسَاتِهِمْ؟ ثَمَّتْ مِرْحَاضٌ لَا يَتَسَّعُ لِخَمْسَةِ
 أَشْخَاصٍ، وَالْمَرْضَى مِائَاتٌ. وَلِذَا عَلَيْكَ الْبَحْثُ عَنْ رُكْنٍ مَا،
 بَيْنَ شَجَرَاتِ الْحَدِيقَةِ، أَوْ قُرْبَ حَائِطٍ، أَوْ فِي مُنْعَطَفٍ مِنْ
 مُنْعَطَفَاتِ الْمَبْنَى الشَّبَحِيِّ الضَّخْمِ، لَكِنَّكَ، يَقِينًا، لَنْ
 تَجِدَ رُكْنًا، أَوْ مُنْعَطَفًا، أَوْ شَجَرَةً، لَمْ تَسْبِقَكَ إِلَيْهَا طَاسَةٌ مَا.
 «ش خ خ. ش خ خ». الْكُلُّ يَتَبَوَّلُونَ عَلَى دُفْعَاتٍ صَغِيرَةٍ،
 فَالْحَجَلُ يَحْبِسُ الْبَوْلَ، أَوْ يَجْعَلُهُ مُتَقَطِّعًا. وَالْحَجَلُ سِمَةٌ عَامَّةٌ
 فِي ذَلِكَ الْعَرَاءِ الْمُطَرَّزِ بِالْأَعْضَاءِ النَّاسِلِيَّةِ الْمُتَدَلِّيَةِ مِنْ فُتُوحَاتِ
 السَّرَاوِيلِ، أَمَا الْقَرَوِيَّونَ الْقَادِمُونَ بِدَشْدَاشَاتِهِمْ فَيُقَرِّفُونَ عَلَى
 الْأَرْضِ، وَاضْعِعِينَ طَاسَاتِهِمْ بَيْنَ أَفْخَاذِهِمْ، أَوْ يَزْفَعُونَ
 الدَّشْدَاشَاتِ حَتَّى الْخُصُورِ، مُنْسِكِينَ بِحَوَاشِيهَا فِي أَفْوَاهِهِمْ،
 فَتَظْهَرُ مُؤَخَّرَاتُهُمْ الْعَارِيَّةُ مِنْ أَيِّ لِبَاسٍ دَاخِلِيٍّ.

الْمِرْحَاضُ لِلنِّسَاءِ، وَعَرَاءُ الْحَدِيقَةِ، وَالْمُنْعَطَفَاتُ،
 وَالْحَيْطَانُ، لِلرِّجَالِ وَغَيْرِهِمْ؛ وَالدَّاحِلُ لِمَارْغُو. صَوْتُهَا يَتَدَخَّرُ
 عَلَى الْبِلَاطِ الصَّقِيلِ، وَعَلَى الْأَغْطِيَةِ الْبَيْضَاءِ، وَالْقَوَارِيرِ،

وَالطَّاسَاتِ الْمَمْلُوءَةِ بِالْبَوْلِ. صَوْتُهَا يَتَدَخَّرُ عَلَى أَنْيْنِ
الْمَرَضِيِّ، خَارِجاً مِنَ التَّوْفِيزِ كَالرَّيْحِ فَتَمِيلُ شَجَرَاتُ الْحَدِيقَةِ،
وَتَحْتَبِيءُ الْجَنَادِبُ. وَمَارِغُو مَحْلُولَةِ الثَّوْبِ أَبْدَأُ. زِرَانِ
مَفْكُوكَانِ مِنَ الْأَعْلَى، وَثَلَاثَةُ أَزْرَارٍ مِنَ الْأَسْفَلِ تَكْشِفُ طَوْقَ
الْجَوَارِبِ الْبَيْضَاءِ مِنَ الْأَعْلَى، الْغَائِصُ فِي لَحْمِ الْفَخْذِ الْبَضُّ.
وَلَيْسَ مِنْ رُواقٍ مُعْتَمٍ، أَوْ سِتَارَةٍ خَسْبِيَّةٍ مِمَّا يَتَفَحَّصُونَ خَلْفَهَا
الْمَرَضِيُّ، إِلَّا وَلِمَارِغُو وَرَاءَهَا لُهَاثٌ أَوْ رَائِحَةٌ. يَكْفِي أَنْ تَنْحَنِي
مُمرَّضٌ عَنْ صَدِيقِهِ دَقِيقَتَيْنِ لِيَحْتَطِفُهُ مَارِغُو. يَكْفِي أَنْ تَنْحَنِي
دَقِيقَةً وَاحِدَةً عَلَى الْمَغْسَلَةِ لِيَكُونَ أَحَدُهُمْ قَدْ رَفَعَ ثَوْبَهَا إِلَى
خَضْرَاهَا وَبَدَأَ غَوَاءَهُ الْأَبَدِيَّ. يَكْفِي أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ جَالِساً
لِكِتَابَةٍ وَضَفَةٍ حَتَّى تَفْتَحَ مَارِغُو أَزْرَارَ بَنْطَالِهِ، وَمِنْ دُونِ أَنْ تَرْفَعَ
ثَوْبَهَا قَطُّ، وَبَعْرِيزَةَ كَعْرِيزَةِ الْبَشْرُوشِ، لَا تُخْطِئُ الْهَدَفَ
السُّفْلِي الصَّلْبَ الَّذِي يَتَفَجَّرُ حَلَقَةً حَلَقَةً مِنَ الْحَلْوَى وَالْفَاكِهَةِ
الْغَامِضَةِ، قَائِمَةً قَاعِدَةً فِي حَرَكَةٍ سَرِيعَةٍ مُتَوَاصِلَةٍ، ثُمَّ تَسْتَدِيرُ
وَتَمْضِي، غَيْرَ عَابِئَةٍ، أحياناً، بِالْقَطْرَةِ الْبَهِيَّةِ اللَّزِجَةِ الَّتِي تَتَدَخَّرُ
عَلَى طَوْلِ الْجَوْرِبِ، حَتَّى تَسْتَقِرَّ فِي حِذَائِهَا. هَكَذَا تَمْلِكُ
مَارِغُو الْمُمرَّضِينَ. أَمَّا الْأَطِبَّاءُ الشُّيُوخُ الْقَلِيلُونَ، الَّذِينَ يَغْبِرُونَ

الْأَزْوَاقَ كَبَقَايَا حَيَوَانَاتٍ بَعْدَ مَحَلِّ طَوِيلٍ، فَيَكْفِيهِمْ مِنْ مَارْغُو
 أَنْ تَجْلِسَ أَمَامَهُمْ عَلَى كُرْسِيِّ، طَاوِيَةً سَاقاً وَاحِدَةً لِصْقِ
 صَدْرِهَا، كَاشِفَةً عَنْ مَعْبَرِهَا الصُّبْقِ الَّذِي يَصِلُ فَخْذَيْنِ لَا
 تَهْدَانِ؛ مَعْبَرِهَا الَّذِي لَا يَخْرُجُ مِنْهُ الرَّجُلُ إِلَّا حَائِباً، أَوْ أَشَدَّ
 تَضْمِيماً عَلَى تَكَرُّارِ هَزَائِمِهِ. وَلَرُبَّمَا مَدَّ أُولَئِكَ الشُّيُوخُ أَيْدِيَهُمْ
 الْمُرْتَجِفَةَ إِلَى الْجَحِيمِ الصَّغِيرَةِ - مِرَآةَ شَبَابِهِم الضَّائِعِ - فِي
 مُنْتَصَفِ جَذَعِ مَارْغُو، وَتَأَوَّهُوا بِاخْتِنَاقٍ، وَهُمْ يَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ
 الْآخَرَى فِي فُتُوحَاتِ سَرَائِلِهِمْ.

مِنْ بَعِيدٍ يَتِمُّ كُلُّ شَيْءٍ مَعَ الْأَطِبَّاءِ الشُّيُوخِ، وَتَتَسَيَّعُ مَمْلَكَةُ
 مَارْغُو؛ تَتَسَيَّعُ كَحُلْمٍ مِنَ الْبِنْسِلِينَ فِي ذَاكِرَةِ الْمَرْضَى. وَبِسُلْطَةِ
 مَارْغُو، وَحَدَهَا، يَنْتَقِلُ مَرِيضٌ مِنْ جَنَاحٍ إِلَى جَنَاحٍ، وَتَزْدَادُ
 حُظُورُهُ بَعْضِهِمْ عِنْدَ الْمَمَرِّضَاتِ أَوْ تَقَلُّ؛ تُبَدِّلُ الشَّرَاشِفُ يَوْمِيّاً،
 أَوْ تَبْقَى أَشْهُراً. وَبِسُلْطَةِ مَارْغُو يَسْتَقْبِلُ الْمُسْتَشْفَى مَرْضَى
 جُدُداً، أَوْ يَبْقَوْنَ سَنَوَاتٍ فِي الْخَارِجِ، وَهُمْ يَحْمِلُونَ طَاسَاتِ
 الْبُزْلِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْخُذَهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى الْعُرْفَةِ ذَاتِ الْأَنْبَاقِ،
 وَالْأَوَانِي الرُّجَاجِيَّةِ، الَّتِي يَطْنُ مِنْ حَوْلِهَا الْبَعُوضُ لِطَوِيلِ مَا رَكَدَ
 فِيهَا الْبُزْل.

كُلُّ آمَالِ الْمَرَضَى مُعَلَّقَةٌ عَلَى بَوْلِهِمْ. أَنْ يَقْبَلُوا بَوْلَكَ يَغْنِي
أَنْهُمْ يَقْبَلُونَكَ. وَفِي الْمُسْتَشْفَى تَخْتَلِطُ الطَّاسَاتُ. لَا أَحَدٌ مِنَ
الْمُرَضِينَ الْمُتَأَفِّينَ يَتَفَحَّصُ بَوْلَ أَحَدٍ، وَمَعَ ذَلِكَ تَجْرِي
الْأُمُورُ فِي رُتُوبٍ مُنْتَظِمٍ، وَفَقْ مَشِيئَةِ عُمَيَّاءَ تُصِيبُ - أَبَدًا -
غَيْرَ مَا هُوَ مَقْصُودٌ: «فُلَانٌ... فَلَيْتَقَدَّمَ فُلَانٌ»؛ وَهَكَذَا تَنْتَقِي
الْمُصَادَفَةُ رَعَايَاهَا، وَيَدْخُلُ الْمُسْتَشْفَى مَنْ لَمْ يَتَقَدَّمَ بِطَلَبٍ
قَطُّ، وَلَا بِطَاسَةِ بَوْلٍ.

مُصَادَفَاتٌ مُتَوَاصِلَةٌ فِي شِمَالٍ لَمْ يَكُنْ وُجُودُهُ إِلَّا مُصَادَفَةً.
إِذْ لَمْ تَكُنْ لِلْأَرْضِ، مِنْ قَبْلُ، إِلَّا ثَلَاثُ جِهَاتٍ، تَتَعَاقَبُ فِيهَا
الْأُمُورُ وَالْحَيَوَانَاتُ فِي هَنْدَسَةٍ مَجْنُونَةٍ مُحْكَمَةٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ
مَحْسُوبٍ فِي السَّجَلِ اللَّامَرْئِيِّ، مُقَسَّمٌ إِلَى أَصْغَرِ جَذَرٍ تَرْبِيعِيٍّ،
أَوْ تَكْعِيبِيٍّ، كَاللَّوْغَارِ تَم. وَكَانَ الْهَوَاءُ مُحَاسِبَ الْأَرْضِ
وَدَفْتَرُ دَارَهَا، يُرْتَّبُ الْعَيْمُ فِي مُكْعَبَاتٍ، وَيَحْسُمُ مِنْ كَثَافَةِ
الضَّبَابِ أَوْ يَزِيدُهَا، يَخْفِرُ مَجَارِي جَانِبِيَّةٍ فِي الْأَنْهَارِ لِيَخْتَرِلَ
الْمِيَاءُ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي تَحْتَاجُهُ أَرْضٌ مَا؛ يَمِيلُ بِأُورَاقِ الْأَشْجَارِ
لِيُزْتَسِمَ ظِلُّهَا فَوْقَ بُذُورٍ فِي حَاجَةِ إِلَى ظِلٍّ، أَوْ لِيَكْشِفَ بُذُورًا
أُخْرَى لَيْسَتْ فِي حَاجَةِ إِلَى ظِلٍّ. وَالْهَوَاءُ الدَّفْتَرُ دَارُ، الْخَازِنُ

الْأَكْبَرُ لِشَعْفِ آلِإِلَهِةٍ بِالنِّظَامِ وَالْمَنْطِقِ، يَأْتِي وَيَمْضِي وَفُقَ
حِسَابٍ مَعْلُومٍ لِرَوَايَا الْهُبُوبِ: زَاوِيَةٌ حَادَّةٌ، زَاوِيَةٌ قَائِمَةٌ، زَاوِيَةٌ
مُنْفَرِجَةٌ. وَلَهُ فُوجَاوٌ يَطْلُ لِقَلَمِهِ الرِّصَاصِ صَرِيحٌ مُؤْنِسٌ عَلَى
وَرَقَةِ الْغَيْبِ الشَّفِيفَةِ. غَيْرَ أَنَّ الْإِلَهِةَ مَلَّتْ تِلْكَ الْهَنْدَسَةَ كُلَّهَا،
وَمَلَّتْ سُلْطَةً أَنْ تَعْرِفَ التَّعَاقُبَ وَاحْتِمَالَاتِهِ؛ مَلَّتْ سُلْطَةً أَنْ
تَعْرِفَ الْأُمُورَ إِلَى الْأَبَدِ، فَفَرَّزَتْ، ذَاتَ ظَهِيرَةٍ، وَهِيَ تَنْقُلُ
حِجَارَةَ شَطْرُنُجِهَا فِي كَسَلٍ، أَنْ تَخْلُقَ جِهَةً رَابِعَةً تَسْتَعْصِي
عَلَى الْهَنْدَسَةِ، وَعَلَى الْحِسَابِ، وَعَلَى الْجَبْرِ، وَعَلَى
الْإِحْتِمَالَاتِ، وَعَلَى كُلِّ قِيَاسٍ آخَرَ مِنْ قِيَاسَاتٍ مَعْرِفَتِهَا...
فَكَانَ الشَّمَالُ... الشَّمَالُ الْمُطَّرَّزُ بِمُصَادَفَاتٍ مُلْتَمِعَةٍ كَالْحَزْرِ.

وَهَا مَارِغُو تَزِيدُ فِي مُصَادَفَاتِ الشَّمَالِ مُصَادَفَةً جَدِيدَةً؛
مُصَادَفَةً أَنَّ مَارِغُو هِيَ مَارِغُو. وَمَاذَا لَوْ لَمْ تَكُنْ هِيَ هِيَ؟ إِذَنْ
لَا تَنْتَفِي أَيُّ سَبَبٍ لِيُجُودَ الْمُسْتَشْفَى. فَالْتَّاسُ لَا تَذْهَبُ إِلَيْهِ
لَأَنَّهُمْ مَرْضَى، بَلْ حُبًّا بِالْوَقُوفِ أَمَامَ بَوَابَاتِهِ. حُبًّا بِامْتِحَانِ
مَقْدِرَتِهِمْ عَلَى التَّبَوُّلِ أَمَامَ أَنْظَارِ الْآخَرِينَ. حُبًّا بِامْتِحَانِ
الْمُصَادَفَةِ وَسُلْطَتِهَا الْعَذْبَةِ.

كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ قَبْلَ مَجِيءِ الصَّحْبِ الَّذِي خَلَعَ مَدِينَةَ

الْمَلَاهِي مِنْ أَسَاسَاتِهَا، وَجَعَلَ الرَّاقِصَاتِ مَشَاعاً لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ
 يَمْتَعَ عَيْنِيهِ بِفَحْذَيْنِ لَا يَتَوَسَّطُ مُلتَقَاهُمَا شَعْرٌ أَوْ زَعْبٌ، بَلْ
 رَابِئَةٌ خَلِيقَةٌ مِنَ اللَّحْمِ الصَّرُوفِ فِي حَجْمِ قَبْضَةِ الْيَدِ، تُثِيرُ مِنَ
 اللَّهَاطِ مَا يَكْفِي لِحَرْفِ قَرْيَةٍ كَبِيرَةٍ بِمَنَازِلِهَا، وَنَاسِهَا،
 وَأَغْنَامِهَا، وَكِلَابِهَا، وَدَجَاجَاتِهَا. لَكِنَّ الْأَمْرَ تَبَدَّلَ مَعَ مَارِعُو،
 بَعْدَ يَوْمِ الصَّحْبِ، فَكَأَنَّ سُلْطَتَهَا كَانَتْ مِنْ سُلْطَةِ الْهَدَوِ
 الضَّارِي الَّذِي خَيَّمَ بَضْعَ سِنِينَ، (بِقُوَّةِ الشُّرْطَةِ)، حَتَّى لَيَرْعُمُ
 بَعْضُهُمْ، آنَذَكَ، أَنَّهُمْ تَوَجَّسُوا قُدُومَ مِيرو بِأَكْبَاشِهِ، وَاضْعَيْنِ
 آذَانَهُمْ عَلَى جُذُرَانِ الْبُيُوتِ: «هَس. هَس. إِنَّهَا أَظْلَافُ الْأَكْبَاشِ
 تَرْتَطِبُ بِالْحَصَى فِي وَادِي بَلِير. هَس. هَس.». وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ
 فِي الرِّعْمِ إِلَى حَدِّ تَأْكِيدِ أَنَّهُمْ رَأَوْا، مِنْ بَعِيدٍ، فِي التَّخُومِ الَّتِي
 تَنْجِسُ مِنْهَا هَضْبَةُ قَوْلُو كَنْدِي أَرْضِي، زَوَابِعَ مِنْ غُبَارٍ وَدَمٍ
 يَابِسٍ مَطْحُونٍ، تَعَالَتْ حَتَّى أَبْعَدَ أُخْدُودٍ فِي السَّمَاءِ الْمَشْقُوقَةِ،
 ثُمَّ أَنْحَدَرَتْ فِي اتِّجَاهِ سَهْلِ زِيرِيك، مُلْطَحَةً رُؤُوسَ السَّنَابِلِ
 بِلَوْنٍ قَانٍ: «إِنَّهُ مِيرو؛ تَتَجَشَّأُ أَكْبَاشُهُ مِنْ أَعْمَاقِ أَحْشَائِهَا». غَيْرَ
 أَنَّ اتِّقْلَابَ الْحُكُومَةِ الْجَدِيدَةِ عَلَى الْحُكُومَةِ الْقَدِيمَةِ بَدَّدَ
 الْمَزَاعِمَ، وَقَدَّمَ إِلَى النَّاسِ زَمَنًا صَاحِبًا عَلَى صَحْنٍ وَرَقِيٍّ:

«كُلُوا هَنِيئاً مَرِيئاً. كُلُوا الْأَوْسَمَةَ، وَالْأَضَابِيرَ، وَالْقَبْعَاتِ،
وَالْأَخْذِيَّةَ الْعَشْكَرِيَّةَ. كُلُوا مُحَلَّلَاتِ الْأَنْتِهَازِيِّينَ، وَأَمْحُوا
أَنَارَهُمْ». وَأَكَلْنَا كُلَّ ذَلِكَ حَقًّا، أَكَلْنَا جُذْرَانَ السَّرَايِ، وَبَيَّتَ
الْقَائِمَقَامِ ذَا الْحَدِيقَةِ الْمُتَرْفَةِ بِأَزَاهِيرِهَا. ثُمَّ أَكَلْنَا الْمُسْتَشْفَى.

يَا لِلْهُدُوءِ أَلْهَشِ الَّذِي نَسَجَتْهُ الْحُكُومَةُ السَّابِقَةُ بِخُيُوطِ مَنْ
أَبْصَارِ الشُّرُطَةِ، وَصَرِيرِ أَبْوَابِ الْأَقْبِيَّةِ. يَا لِمَا زَغُو.

لَقَدْ دَاهَمَ أَوْلَادُ مَيْسِي الْمُسْتَشْفَى بَعْدَ الْبَلَاغِ الْأَوَّلِ
لِلْحُكُومَةِ الْأَلْفِ. قَلَبُوا أَنْابِيقَ الْبَوْلِ، وَقَمَاقِمَهُ، وَقَوَارِيرَهُ،
وَطَاسَاتِهِ، فِي طَرِيقِهِمْ. قَلَبُوا الْأَسِيرَةَ، وَدَخَرَجُوا الْمَرْضَى عَلَى
الْبِلَاطِ الصَّقِيلِ، وَهُمْ يَبْحَثُونَ بِغَيُونِهِمُ الْعِنَبِيَّةَ عَنْ مَارْغُو،
مُزِيدِينَ كَبَقْرِ الْجِرَائَةِ. «سَيَأْكُلُونَهَا أَكْلًا» تَمْتَمَ بَعْضُهُمْ.
«سَيَأْكُلُونَهَا كَمَا أَكَلَ أَطِبَاءُ الْمُسْتَشْفَى أُمَّهُمْ مَيْسِي». لَقَدْ
وَقَفَ أَوْلَادُهَا أَمَامَ بَوَابَةِ الْمُسْتَشْفَى شَهْرَيْنِ، مُمَدِّدِينَ أُمَّهُمْ
عَلَى فِرَاشِ رَثٍّ، وَفِي يَدِ أَحَدِهِمْ طَاسَةٌ بَوْلِهَا. شَهْرَانِ وَهُمْ
يَكْشُونَ الذُّبَابَ عَنْ عَيْنَيْهَا الْمُتَوَخَّيَتَيْنِ. شَهْرَانِ، بِطُولِهِمَا،
يُرَدِّدُونَ جُمْلَةً وَاحِدَةً عَلَى مَسْمَعِ أُمَّهُمْ: «سَتَكُونِينَ فِي خَيْرٍ.
إِنَّهُ الْمُسْتَشْفَى»، ثُمَّ يَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهِمُ الصَّارِمَةِ

كَأَنَّمَا يَخْنُقُونَ زِيَانَ الْأَلَمِ الَّتِي تَتَخَبَّطُ فِي حَنَاجِرِهِمْ. وَحِينَ
 نَادَى مُنَادٍ مِنَ الرُّوَاقِ الْمُعْتِمِ: «مِيسِي بَرِيخَان»، طَارُوا بِهَا
 كَالْعَصَافِيرِ إِلَى الدَّاحِلِ، مُضْطَّدِّمِينَ بَطَاسَاتِ الْبُولِ فِي الْأَيْدِي:
 «يُنَادُونَ أَمَّنَا. وَسَّعُوا، وَسَّعُوا». وَكَانُوا مَرَحِينَ بَعْدَ ذَلِكَ كَأَشَدَّ
 مَا يَكُونُ الْمَرْحُ. يَتَحَلَّقُونَ حَوْلَ سَرِيرِ أُمِّهِمْ، مُتَبَاهِينَ بِحَبَاتِ
 الْبُرْتُقَالِ الَّتِي يَجْلُبُونَهَا، بَيْنَمَا يَنْظُرُ الْمَرْضَى الْآخَرُونَ إِلَيْهِمْ فِي
 حَسَدٍ ظَاهِرٍ. وَلَمْ يَدُمْ الْأَمْرُ طَوِيلًا، فَقَدْ دَخَلَتْ مَارَعُو
 كَصَاعِقَةٍ مِنَ اللَّحْمِ وَالْبَيَاضِ إِلَى الرُّذْهَةِ الْمُرْدِحَةِ بِالْأَسِيرَةِ،
 وَأَشَارَتْ إِلَى سَرِيرِ مِيسِي، هَائِفَةً بِمُمرضِينَ يُجْرَانِ مَحَفَّةً ذَاتَ
 دَوَالِيبَ: «هَذِهِ هِيَ الْمَيِّتَةُ. خُذُوهَا». وَتَقَدَّمَ الْمُمرضَانِ فِي
 حَرَكَةٍ آليَّةٍ، سَاحِبِينَ الْهَيْكَلَ الشَّبَحِيَّ مِنْ بَيْنِ الْأَعْطِيَةِ.

كَانَ وُجُومٌ صَلَبٌ فِي الرُّذْهَةِ؛ وَوُجُومٌ يَتَطَايَرُ مِثْلَ الْمَذْنَبَاتِ
 الْعَمِيَاءِ. وَوُجُومٌ وَذُهُولٌ لَمْ يُفِقْ مِنْهُمَا أَوْلَادُ مِيسِي إِلَّا وَكَانَ
 الْمُمرضَانِ قَدْ مَضَيَا بِهَا فِي الرُّوَاقِ. رَكَضُوا: «أُمَاه». صَرَخَ
 طَبِيبٌ كَهْلٌ: «يَا لِلْحَمِيرِ، لِمَاذَا يَزُكُّضُونَ؟». اتَّفَقُوا إِلَيْهِ،
 وَتَشَبَّثُوا بِقَمِيصِهِ: «أَعِذْهَا يَا سَيِّدِي». قَالَ الدُّكْتُورُ فِي أَمْتِعَاضٍ:
 «أُبْعِدُوا أَيْدِيَكُمْ عَنِّي. إِنَّهَا مَيِّتَةٌ يَأْخُذُونَهَا إِلَى غُرْفَةِ التَّشْرِيحِ».

«مِئَةِ؟؟» كَرَّرُوا الْكَلِمَةَ فِي عَوِيلٍ مَكْتوم. «لا. إِنَّهَا حَيَّةٌ يا دُكتور. تَعَالَ اسْمَعْ تَنْفُسْهَا. تَعَالَ اسْمَعْ حِكَايَةَ جَدِّيْهَا ذِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ». وَكَأَنَّمَا اسْتَدْرَكُوا مَسْأَلَةَ مُهِمَّةٍ فِي لَحْظَاتِ الذُّهُولِ تِلْكَ، فَاسْأَرُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى مَارْغُو: «إِسْأَلْهَا يا دُكتور. إِسْأَلِ السَّتَّ مَارْغُو، سَتَقُولُ لَكَ إِنَّ أُمَّنَا حَيَّةٌ». وَأَوَّمَاتُ مَارْغُو بِرَأْسِهَا فِي إِشَارَةٍ جَارِمَةٍ: «دَعَكَ مِنْهُمْ».

حَاولُوا أَنْ يُقْنِعُوا الدُّكْتُورَ بِكَلَامٍ جَدِيدٍ فَحَذَلَتْهُمْ حَنَاجِرُهُمْ. تَرَكُوهُ وَتَبِعُوا الْمُمَرِّضِينَ وَالْمِحْفَةَ ذَاتَ الدَّوَالِيبِ. وَحِينَ وَصَلُوا إِلَى الْمَسْلُخِ الْآدَمِيِّ الْمَعْرُوزِ، كَانَ آخِرُ طَبِيبٍ بَيْطَرِيٍّ يُحَاوِلُ أَنْ يُوَصِدَ أَلْبَابَ الْحَشِيِّيِّ خَلْفَهُ. صَرَّخُوا: «أُمَّنَا»، ثُمَّ حَاولُوا اقْتِحَامَ أَلْبَابِ، فَوَقَفَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ طَبِيبَانِ فِي أَيْدِيهِمْ سَوَاطِيرُ صَغِيرَةٌ: «أَلَا تَفْهَمُونَ؟ الْمَامَا مَاتَتْ... مَاتَتْ»، لَكِنَّ صَوْتًا ضَعِيفًا، فِي الدَّاحِلِ، كَانَ يُرَدِّدُ اسْمَهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، ثُمَّ أَخْتَفَى لِيُخْرِجَ طَبِيبٌ ثَالِثٌ حَامِلًا قَلْبًا آدَمِيًّا: «انْظُرُوا يا حَمِير. أَلَمْ نَقُلْ إِنَّهَا مَاتَتْ؟». إِذْ ذَاكَ سَقَطَ أَوْلَادُ مِيسِي عَلَى رُكْبِهِمْ كَشَجَرَاتٍ مِنْ دَغَلِ الْهَلَالِيَةِ.

«أَيْنَ سَتَخْتَفِي مَارْغُو؟» تَمَتَّمَ أَوْلَادُ مِيسِي. وَفَعَلًا، لَمْ

يَسْتَطِيعُ الْمُسْتَشْفَى الضَّخْمُ كَهَيْكَلٍ مِنْ هَيَاكِلِ حَيَوَانَاتٍ
 الْحِكَايَةِ أَنْ يُلْجِئَ مَارْغُو، فَإِذَا هِيَ مُتَكَوِّمَةٌ فِي مِرْحَاضِ
 السَّيِّدَاتِ، فَجَرَّوْهَا مِنْ غُرْفَةٍ إِلَى غُرْفَةٍ، وَمِنْ رَذَهَةٍ إِلَى أُخْرَى،
 وَمِنْ رِوَاقٍ إِلَى شَبِيهِهِ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى الْحَدِيقَةِ، مُتَّجِهِينَ إِلَى
 غُرْفَةِ التَّشْرِيحِ الْمَغْرُولَةِ.

كَانَتْ تَتَشَبَّثُ بِالْعُشْبِ فَيَتَقَصَّفُ، وَبِالْحِجَارَةِ فَتَنْفِرُ
 كَالسَّحَالِي، صَامِتَةً تَمَامًا، مُعْمِضَةً عَيْنَهَا السَّلِيمَةَ، بَيْنَمَا ظَلَّتِ
 الْعَيْنُ الْعُورَاءُ مُفْتَحَةً تُحَدِّقُ فِي مَغِيبِ يَقْضَمِ أَعْضَاءَهُ الْمُضْبِئَةِ.
 وَعَلَى الطَّابِلَةِ الْحَشَبِيَّةِ ذَاتِهَا، الَّتِي تَتَدَلَّى مِنْ حَوَائِهَا قِطْعَ
 مُقَدَّدَةٍ مِنَ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ، مَدَّدَ الْغَاضِبُونَ مَارْغُو. طَوَّرُوا فَخَذَيْهَا
 الْمَلُوثَيْنِ بِدَمِ الْخَيْضِ عَلَى صَدْرِهَا، وَأَدْخَلَ أَحَدُهُمْ ذِرَاعَهُ كُلَّهَا
 فِي التَّجْوِيفِ الْأُبْهِيِّ لِجُنُونِ الشَّلَالَةِ. أَدْخَلَهُ كَمَا تَعَوَّدَ أَنْ
 يُدْخِلَهُ فِي شَرْجِ الْبَقَرَاتِ الَّتِي تُصَابُ بِالثُّخْمَةِ، لِيُخْرِجَ الرُّوثَ
 بِيَدِهِ. وَالْقَرَوِيُّونَ حَازِقُونَ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ طَبُّهُمْ الشَّافِي. لَكِنَّهُ
 بَدَلَ أَنْ يَسْحَبَ الرُّوثَ، هَذِهِ الْمَرَّةَ، سَحَبَ أَحْشَاءَ مَارْغُو
 كُلَّهَا: الرَّحِمَ، وَالْمَثَانَةَ، وَالْأَمْعَاءَ. تَشَنَّبَتْ وَازْتَحَتْ تَحْتَ
 الْأَيْدِي الصَّلْبَةِ الْأُخْرَى. تَهَاوَى رَأْسُهَا إِلَى وَرَاءِ فِي بُطْءٍ،

وطلَّتْ عَيْنُهَا الْبَيْضَاءُ الْمَفْتُوحَةُ تُحَدِّقُ فِي آخِرِ صَوْرَةٍ رَأَتْهَا
تِلْكَ الْعَيْنُ، قَبْلَ سَبْعَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا.

عَلَّقَ أَوْلَادُ مَيْسِي نَذْرَهُمُ الدَّمَوِيَّ عَلَى مِشْجَبٍ فِي الْعُرْفَةِ،
ثُمَّ خَرَجُوا تِبَاعًا.

لَمْ تَكُنْ مَارِغُو تَهْمُنَا، نَحْنُ الصَّبِيَّةُ، قَطُّ، لَكِنَّا ظَلَلْنَا نَتَفَكَّهُ
رَدْحًا مِنَ الْوَقْتِ بِسِرْوَالِهَا الدَّاخِلِيِّ الصَّغِيرِ. وَلَمْ يَكُنْ تَفَكُّهَا
بِحَقِّ، بِمِقْدَارِ مَا كَانَ تَفَتُّحًا لِحَوَاسِّنَا عَلَى غَابَةِ جَدِيدَةٍ مِنْ
غَابَاتِ ذَلِكَ الْعُمْرِ. وَلَمْ تَمُضِ ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ إِلَّا وَكُنَّا نَلْهَثُ
لَهَاثِ كَبْشٍ صَغِيرٍ إِذْ نَتَذَكَّرُ، أَوْ نَرَى، سِرْوَالَ كَسِيرِوَالٍ
مَارِغُو.

كَانَ آبُنَا مَرَادُو الْمُرَاهِقَانِ بِشِيرُو وَحْسِينُو قَدْ آكْتَشَفَا مَنَبَعَ
الْهَزَائِمِ وَالْعُدُوَّةِ قَبْلَنَا. آكْتَشَفَا سِحْرَ السَّرَاوِيلِ الصَّغِيرَةِ وَمَا
تُخْفِيهِ، فَكَانَا يُزِيلَانَا فِي مُهِمَّاتٍ سِرِّيَّةٍ إِلَى دُكَانٍ بَعْدِي
الْأَخْدَبِ، لِيُعْطِيَنَا، مُقَابِلَ التَّقْوِدِ الَّتِي أُرْسَلَاهَا، مَظَارِيفَ مُقْفَلَةٍ
نَعُودُ بِهَا سِرَاعًا.

لَمْ نَسْأَلْهُمَا قَطُّ عَنْ مُحْتَوَيَاتِ تِلْكَ الْمَظَارِيفِ، إِذْ كَانَ
يَكْفِينَا مِنْ كَرَمِهِمَا أَنْ يَمُدَّانَا بِبَعْضِ أَلْفَافَاتٍ، نُدْخِلُهَا - فِي

أَوَّلَ عَهْدِنَا بِالتَّدْحِينِ - دَاخِلَ قَبْرِ فُزْنِهِمَا. وَفُزْنُ مَرَادُو فُزْنٌ غَرِيبٌ، دَاخِلَ قَبْرِ يَغْلُوهُ ذُكَاؤُهُ، وَبَيْتُهُ الْإِسْمَنْتِيُّ الْأَكْثَرُ بِدَائِيَّةٍ فِي هَنْدَسَتِهِ وَسَطَ هَذَا الْعَصْرِ. بَيْتٌ ذُو قُنٍّ، فِي دَاخِلِهِ، لِلدَّجَاجَاتِ. تَبْيِضُ فِي الصُّحُونِ، وَعَلَى الْأَسِرَّةِ، وَتَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُهُ الْعَائِلَةُ. وَالْقَبْرُ مُقَسَّمٌ إِلَى رَذَهَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا لِلْفُرُونِ وَلِلْمَعْجَنِ الطَّوِيلِ كَمَغْطَسِ الْحَمَامِ، وَالْثَانِيَةُ مَلَأَى بِدَقِيقِ الْكِلْسِ يَبِيغُهُ مَرَادُو. وَثَمَّتْ مَدْخَلٌ مَفْتُوحٌ يَصِلُ الرُّذَهَتَيْنِ، فَتَأْتِي الدَّجَاجَاتُ مِنْ جِهَةِ الْبَيْتِ، وَتَنْزِلُ الدَّرَجَ الْعَرِيزَ إِلَى رَذَهَةِ الْكِلْسِ، ثُمَّ تَغْبُوها إِلَى رَذَهَةِ الْفُرُونِ، فَتَضَعُ إِلَى حَافَةِ مَغْطَسِ الْعَجِينِ. تَأْكُلُ حَتَّى الشَّبْعِ، وَتُكْمِلُ دَائِرَةَ نُزْهَتِهَا فَتَخْرُجُ، بَعْدَ قَفْزَتَيْنِ عَلَى الدَّرَجَاتِ الْوُطِيقَةِ، مِنْ الْبَوَابَةِ الضَّيِّقَةِ الَّتِي يَدْخُلُ مِنْهَا الزُّبَايْنُ لِشِرَاءِ الْخُبْزِ. وَإِذَا تَجِدُ نَفْسَهَا عَلَى الطَّرِيقِ الْعَامِّ تَمْضِي فِي شِبْهِ قَوْسٍ إِلَى بَاخَةِ الْبَيْتِ، وَمِنْ ثَمَّ تُكْمِلُ النُّزْهَةَ الدَّائِرِيَّةَ، مِنْ جَدِيدٍ، غَيْرَ مَدْخَلِي الْقَبْرِ. هَذَا دَأْبُهَا. أَمَّا الْقَبْرُ فَيُخْتَلِطُ فِيهِ دَقِيقُ الْكِلْسِ بِالطَّحِينِ، وَالْأَرْغَفَةُ الْبَائِتَةُ بِالْأَرْغَفَةِ الطَّارِجَةِ، وَالسَّحَالِي الصَّغِيرَةُ بِالْفِئْرَانِ الَّتِي تَصِلُ طَرِيقَهَا، أحياناً، فَتَدْخُلُ «بَيْتَ النَّارِ»، وَمِنْ ثَمَّ تَنْفَجِرُ كَالْمَفْرَقَاتِ.

لَقَدْ اسْتَنْفَدَتْ شُرْطَةُ الْبَلَدِيَّةِ دَفَاتِرَهَا الَّتِي تُدَوَّنُ عَلَيْهَا
مَحَاضِرُ ضَبِيطٍ، فَطَلَبَتْ الْبَلَدِيَّةُ دَفَاتِرَ مِنَ الْعَاصِمَةِ فَاسْتَنْفَدَتْهَا
الشُّرْطَةُ، بِدَوْرِهَا، عَلَى بَابِ فُزُونٍ مُرَادُو. وَحِينَ لَمْ تَجِدْ وَرَقًا،
دَوَّنَتْ الْمَحَاضِرَ عَلَى قِطْعٍ مِنْ حِجَارَةِ الْبَاطُونِ، وَعَلَى خَشَبِ
صِنَادِيقِ الْبَنْدُورَةِ، وَعَلَى تَرَفُوتِ الْبَقَرِ الْمَذْبُوحِ. وَأَخِيرًا،
صَرَفَتِ الشُّرْطَةُ النَّظَرَ عَنِ الْأَمْرِ كُلِّهِ، وَبَقِيَ فُزُونُ مُرَادُو أَمِيرَ
أَفْرَانِ الْخِيَّ الْغُرُوبِيِّ الَّذِي لَا فُزُونَ آخَرَ فِيهِ.

كَانَ فُزُونُ مُرَادُو مَلَاذَنَا فِي ذَلِكَ الْعُمْرِ الْعَاقِبِ يَتَفَتَّحَاتٍ مِثْلَ
زَهْرِ الْبَامِيَّةِ. نَجْلِسُ عَلَى مِحْدَةٍ مِنَ الْقَشِّ فِي رَذَاهَةِ الْكِلْسِ،
وَنَتَبَارَى فِي نَقْتِ الدُّخَانِ مِنْ أَنْوْفِنَا، أَوْ نَقُومُ بِحَرَكَاتِ بَهْلَوَانِيَّةٍ
عَلَى حَافَةِ مَغْطَسِ الْعَجِينِ، وَقَدْ سَقَطَتْ فِيهِ مِرَارًا، وَنَهَضْتُ
كَرْجَلِ ثُلُوجٍ، أَبْيَضَ مِنَ الرَّأْسِ حَتَّى الْقَدَمَيْنِ. لَكِنْ، أَكْثَرُ مَا
شَدَّنَا فِي ذَلِكَ الْقَبْرِ هِيَ مَجَلَّاتُ الْأَطْفَالِ، وَقَصَصُ الْمُغَامِرَاتِ،
فَأَبْنَا مُرَادُو شَغْفَانِ بِجَمْعِهَا، وَيَمْلِكَانِ أَنْ يَسْرِقَا مِنْ دَخْلِ الْقُرُونِ
مَا يَشْتَرِيَانِ بِهِ أَشْيَاءَ لَا نَعْلِكُ أَنْ نَشْتَرِيَهَا. إِنَّهُمَا سَيِّدَا الْقُرُونِ،
يُدِيرَانِهِ بِنَفْسَيْهِمَا. يَقِفُ بِشِيرُو ذُو الْعَصَلَاتِ أَمَامَ الْفُؤَاهَةِ اللَّاهِبَةِ،
وَفِي يَدَيْهِ لَوْحٌ خَشَبِيٌّ يَنْتَهِي بِمِقْبَضِ طَوِيلٍ، بَيْنَمَا يُرَقُّ حُسِينُو

قَطَعَ الْعَجِينِ، وَيَذْهَبُهَا بِالرُّؤْيَةِ لِتَخْرُجَ الرِّقَائِقُ، مِنْ ثَمَّ، أَرْغَفَهُ
حَمْرَاءَ. وَيَتَنَاوَبُ الشَّابَّانِ الْبَيْعَ، وَفِي كُلِّ نَوْبَةٍ يَكُونُ أَحَدُهُمَا قَدْ
دَسَّ فِي حِذَائِهِ بَضْعَ وَرَقَاتٍ نَقْدِيَّةٍ.

لَقَدْ كَشَفَ لَنَا حُسَيْنُو ذَاتِ يَوْمٍ، سِرَّ الْمُغْلَفَاتِ الْمَغْلَقَةِ
الَّتِي اشْتَرَيْنَاهَا لَهُ مِنْ بَغْدِي الْأَخْذَبِ. وَكَانَ لِحُسَيْنُو صُنْدُوقُ
مِنْ خَشَبٍ مَتِينٍ، وَعَلَيْهِ قُفْلٌ ذُو أَرْقَامٍ لَا يَعْرِفُ فَكُّ لُغْزِهَا إِلَّا
هُوَ. صُنْدُوقٌ مَلِيءٌ بِمَا يَشْتَهِيهِ صَبِيَّةٌ مِثْلُنَا: قِصَصٌ وَمَجَلَّاتٌ
مُصَوَّرَةٌ. كَامِيرَا، زُجَاجَاتٌ مُكَبَّرَةٌ، ثَوْبٌ سِبَاحَةٍ مُدْهِشٌ،
كَاسَكِيَتٌ، صُورٌ مُمَثِّلِينَ وَمُمَثَّلَاتٍ، مُكْعَبَاتٌ زَهْرِيَّةٌ، أَزْرَاقُ
لَعِبٍ پِلَاسْتِيكِيَّةٍ، أَمْتَارٌ مِنْ أَشْرَاطِيَّةٍ سِيَنَمَائِيَّةٍ مَسْرُوقَةٍ، أَقْفَالٌ
خَاصَّةٌ، أَقْلَامٌ عَلَيْهَا صُورٌ رَاقِصَاتٍ، بِزِيَانَتَيْنِ لِلشَّعْرِ، خِنْجَرٌ
نُحَاسِيٌّ، وَرَقٌ مُلَوَّنٌ لِكِتَابَةِ الرِّسَائِلِ، قُقَازَاتٌ جِلْدِيَّةٌ، أَحْزِمَةٌ
مُزَخْرَفَةٌ، غُلَبٌ تَبِغٌ تَرْوِكِيٌّ. غَلِيُونٌ، أَنْيَابُ ذَنْبٍ، غَلَاقَاتُ مَفَاتِيحَ
مِنَ الْخَزَرِ يَصْنَعُهَا الْمَسْجُونُونَ عَادَةً، نَظَارَاتُ شَمْسِيَّةٌ ذَاتُ
عَدَسَاتٍ مُقَعَّرَةٍ... إلخ... إلخ، إِضَافَةً إِلَى الْمَغْلَفَاتِ الْمَغْلَقَةِ.
وَقَدْ فَتَحَهَا حُسَيْنُو أَمَامَ أَنْظَارِنَا، فَكَانَتْ مَلَأَى بِصُورٍ عَارِيَّةٍ
تَمَامًا: عَانَاتٌ وَأُنْدَاءٌ، وَمُؤَخَّرَاتٌ لِنِسَاءٍ لَوْ رَأَيْنَ الشَّمَالَ لَسَقَطَ

مَغْشِيًّا عَلَيْهِ. «يا أَللهُ. ما هَذَا حَسِينو؟»، وَتَلَمَّظُ حَسِينو، ثُمَّ
يُحَمِّرُ لِسَانَهُ عَلَى شَفَتَيْهِ، هَامِسًا فِي خُبْرٍ مَرِيحٍ: «سَأَعِيرُكُمْ
بَعْضُهَا إِذَا أَقْسَمْتُكُمْ عَلَى إِعَادَتِهَا سَالِمَةً». وَتَتَسَاءَلُ فِي دَهْشٍ:
«وَلِمَاذَا نَسْتَعِيرُهَا حَسِينو؟ سَيَقْتُلُونَنَا، فِي الْبَيْتِ، إِذَا ضَبَطُوهَا
مَعَنَا». وَبِالطَّبْعِ يَفْهَمُ حَسِينو سَبَبَ رَفْضِنَا لِلْأَسْتِعَارَةِ النَّفِيسَةِ
تِلْكَ: «لَا بَأْسَ. سَتَسْتَجِدُونَهَا مِتِّي بَعْدَ سَنَةٍ»، وَقَدْ أَسْتَجَدَّيْنَاهَا،
حَقًّا، بَعْدَ سَنَةٍ، فَتَمَنَّعَ حَسِينو كَثِيرًا قَبْلَ أَنْ يُعِيرَهَا لَنَا.

بَيَدَ أَنَّنَا لَمْ نَشَأْ كَثِيرًا أَنْ نَكُونَ مِلْكَ مِزَاجِهِ، فَتَحْنُ نَعْرِفُ
الطَّرِيقَ إِلَى دُكَّانِ بَغْدِي الْأَحْدَبِ، وَإِنَّمَا تَوَافَرَتْ نُقُودُ دَهْنِنَا
إِلَيْهِ: «أَلَدَيْكَ شَيْءٌ بَغْدِي؟»، وَيَعْمِرُ بَغْدِي: «أَدْخُلُوا»، ثُمَّ يَرْفَعُ
أَكْوَامًا مِنَ الْمَلَابِيسِ الْمُتَسَحَّخَةِ عَنْ صُنْدُوقِ صَدِيءٍ. يَسْحَبُ
جَوَارِيْرَهُ وَيُعْطِينَا صُورًا قَلِيلَةً مُقَابِلَ نُقُودِنَا الْقَلِيلَةِ. «هَذِهِ لَيْسَتْ
حُلُوةٌ يَا بَغْدِي. أَسْتَبْدِلُهَا»، وَيَنْظُرُ إِلَيْنَا بَغْدِي فِي نَفَادٍ صَبِيرٍ: «لَا
أَسْتَبْدِلُ مَا أَيْعُهُ. هَيَّا». وَتَقْبَلُ بِالْأَمْرِ عَلَى مَضَضٍ.

غَيْرَ أَنَّ الصُّورَ جَمِيلَةً، وَتَسْتَدْرِجُنَا إِلَى أَكْثَرِ الْأَمَاكِنِ غَزَلَةً
لِتَمْتَحِنَ صَبَانًا. يَا لَبَغْدِي الْأَحْدَبِ. رَابِضٌ فِي جُحْرِهِ وَعَلَيْهِ
مَيْدَعَةٌ كَمَيْدَعَةِ الْحَدَّادِ، صَفْرَاءُ مُبَقَّعَةٌ بِالْحُرُوقِ، يَفْعَلُ وَهَجٍ

مَكَوَاتِهِ الصُّخْمَةَ أَلْمَلَأَى بِفَحْمٍ مُشْتَعِلٍ. فَبَغْدِي كَوَّاءٌ. مُعَلَّمٌ
 فِي مِهْنَتِهِ، يَضْعَطُ عَلَى الْمَكْرَافَةِ بِيَدِهِ النَّحِيلَةَ فَتَسْتَحِيلُ طَيِّبَاتُ
 أَلْبَنَاتِ طِيلٍ إِلَى شَفَرَاتٍ. عَلَيْهِ أَنْ يَضْعَطَ إِلَى مَا لَا نِهَائَةَ، لِيَخْتَفِظَ
 الرِّبَائِثُ بِرُؤُوتِ ثِيَابِهِمْ أَطْوَلَ وَقْتٍ مُمَكِّنٍ. عَلَيْهِ أَنْ يَضْعَطَ بِثِقَلِ
 حَزْدَبَتِهِ كُلِّهَا. إِضْعَطُ، إِضْعَطُ يَا بَغْدِي، فَرَبَائِثُكَ لَيْسُوا فِي
 يُسْرِ يُمَكِّنُهُمْ مِنْ إِزْسَالِ ثِيَابِهِمْ إِلَى الْكَفِّ كُلِّ أُسْبُوعٍ. إِضْعَطُ
 يَا بَغْدِي، فَتَمَّتْ مَنْ يَنْتَظِرُ بِنُطَالَةِ الْوَحِيدِ بِسِرْوَالِهِ الدَّاخِلِيِّ فِي
 أَلْبَيْتٍ. إِضْعَطُ حَتَّى تَلْتَصِقَ مَكْرَاثُكَ بِأَعْمَقِ أَعْمَاقِ الْجَحِيمِ.
 إِضْعَطُ طَوِيلًا، لِيَتَبَقَى حَزْدَبُثُكَ فِي الْمُسْتَوَى الْهَلَامِيِّ لِلْحَيَاةِ.
 إِضْعَطُ يَا حَارِسَ الْفَحْمِ وَشَرَارَاتِهِ الْأَنْثَوِيَّةِ. إِضْعَطُ. إِضْعَطُ.

لَكِنْ لِبَغْدِي مِهْنَةٌ أُخْرَى أَيْضًا، مِهْنَةٌ رَهْنِ الْمُنَاسَبَاتِ
 الْوَطَنِيَّةِ، وَمَا أَكْثَرَ الْمُنَاسَبَاتِ الْوَطَنِيَّةِ فِي الشَّمَالِ: أَعْيَادُ
 لِلْهَزَائِمِ، أَعْيَادُ لِلانْتِصَارَاتِ، أَعْيَادُ لِلْحُرُوبِ وَقَعَتْ، وَأُخْرَى لَمْ
 تَقَعْ. أَعْيَادُ لِشُهَدَاءَ مَا يَزَالُ بَعْضُهُمْ أَحْيَاءَ مَنْسِيَيْنَ. أَعْيَادُ
 لِمَجِيءِ «الْانْتِهَازِيِّينَ»، أَعْيَادُ لِدَهَابِ «الْانْتِهَازِيِّينَ». أَعْيَادُ
 لِلشُّجْرِ يَخْلَعُونَ فِيهَا الشُّجَرَ لِنُصْبِ الْأَقْوَاسِ. أَعْيَادُ لِإِبْرَامَ
 الْمُعَاهَدَاتِ وَأَعْيَادُ لِنَقْضِ الْمُعَاهَدَاتِ ذَاتِهَا. أَعْيَادُ لِلْأُمُتَاتِ مَعَ

وَعَظِ كَثِيرَ بَصْرَةٍ شِرَاءِ هَدَايَا لَا تَمْلِكُ ثَمَنَهَا. أَعْيَادُ لِمُعَلِّمِينَ
بَلِيدِينَ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ اخْتِيَارِ الْعِصِيِّ الصَّلْبَةِ. أَعْيَادُ لَا مُنَاسَبَاتِ
لِهَا، نُضَيِّعُ فِيهَا حَقَائِبَنَا الْمَدْرَسِيَّةَ مِنْ كَثَرَةِ الرُّكُضِ وَرَاءَ
مُعَلِّمِينَ يَزْدَادُ وَهْجُ حَنَاجِرِهِمْ كُلَّمَا اقْتَرَبُوا مِنَ الشَّرَايِ. أَعْيَادُ
لِلْأَعْيَادِ، وَمُنَاسَبَاتُ لِلْمُنَاسَبَاتِ. وَفِي كُلِّ هَذِهِ التَّعَاقُبَاتِ
الْمُتَّصِلَةِ يُقَدِّمُ بَغْدِي وَضَلَّةَ مَسْرُحِيَّةٍ، بِمُسَاعَدَةِ شَرِيكِهِ إِبْرَاهِيمَ،
بَائِعِ الثَّقَلِ، (أَيِ بَائِعِ بَذُورِ الْبَطِيخِ، وَفُسْتَقِ الْعَبِيدِ، وَالْفُسْتَقِ
الْحَلْبِيِّ، وَالْحُمُصِ، وَالْبُنْدُقِ، إلخ). وَإِبْرَاهِيمُ يَقِفُ بِعَرْنَتِهِ
الْمُزْرَعَةِ ذَاتِ الْعَجَلَتَيْنِ أَمَامَ دُكَّانِ بَغْدِي مُعْظَمَ أَحْيَانِ النَّهَارِ،
كَأَنَّمَا يَتَدَاوَلَانِ، أَبَدًا، فِي مَسْرَحِهِمَا الَّذِي لَا يَتَعَدَّى دَوْرَيْنِ:
دَوْرِ الْمُسْتَعْمِرِ، وَهُوَ لِلْأَحْدَبِ؛ وَالْمُنَاضِلِ، وَهُوَ لِبَائِعِ الثَّقَلِ.
إِنَّهُمَا يَحْفَظَانِ دَوْرَيْهِمَا الْآبِدِيَيْنِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، لِكِنَّهُمَا
يَتَجَادَلَانِ فِي التَّفَاصِيلِ. يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: «سَنُدْخِلُ بَعْضَ
الْكُومِبَارِسِ فِي مَسْرُحِيَّتِنَا، مِنْ تَلَامِيذَةِ الْمَدَارِسِ». وَيَزُودُ
الْأَحْدَبُ: «نَحْنُ نَكْفِي يَا بَرُو. أَسْتَطِيعُ أَنْ أُؤَدِّيَ دَوْرَ
الْكُومِبَارِسِ أَيْضًا». يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: «أَنْتَ وَاحِدٌ، نُرِيدُ عَشْرَةَ»،
وَيَزُودُ الْأَحْدَبُ: «أَنَا مِثْلُ عَشْرَةٍ، وَأَكْثَرُ». يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: «نُرِيدُ

مَجْمُوعَةً لِتَشِيدَ التَّشِيدَ الْوَطَنِيَّ بَعْدَ شَقِّكَ عَلَى خَشْبَةِ
 الْمَسْرَحِ، وَيَزِدُّ الْأَحْدَبُ: «سَنَجْلُبُ مُسْجَلَةً». يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ:
 «سَيَحْمِلُونَ أَعْلَاماً وَرَقِيَّةً يُلَوِّحُونَ بِهَا». وَيَزِدُّ الْأَحْدَبُ: «فَنَعْلُقُ
 الْأَعْلَامَ عَلَى حَبْلِ طَوِيلٍ، وَفِي الْمَشْهَدِ الْخِتَامِيُّ نَفْثُ الْمِرْوَحَةِ
 الْكَهْرَبَائِيَّةِ فِي آتِجَاهِهَا». يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: «أَيُّهَا الْأَحْمَقُ، نَسْتَطِيعُ
 أَنْ نَسْتَدْرِجَ بَعْضَ الْفَتَيَاتِ كَكُومِبَارِسَ، وَهَذَا يُفِيدُنَا عَلَى...».
 وَيَضْمُتُ الْأَحْدَبُ مُفَكِّراً بِعُمِّي، ثُمَّ يَمِيلُ بِعُنْفِهِ الْغَائِصَةِ فِي
 الْحِزْبِيَّةِ، مُتَسَائِلاً: «وَمَاذَا أَسْتَفِيدُ مِنْ ذَلِكَ يَا بَرُو؟»، وَيَعْبَأُ
 إِبْرَاهِيمُ عَنِ الْإِجَابَةِ، نَاطِراً إِلَى حِزْدَبَتِهِ فِي إِشْفَاقٍ، ثُمَّ يَعُودُ
 الْجَدَلُ مِنْ حَيْثُ بَدَأَ. لَكِنَّهُمَا يَصْعَدَانِ إِلَى الْخَشْبَةِ أَخِيرًا،
 حِينَ تَأْتِي مُنَاسَبَةُ الصُّعُودِ إِلَى الْخَشْبَةِ، فِي مَدْرَسَةٍ أَوْ فِي صَالَةِ
 سِينِمَا، وَيَبْدَأُ الْمَشْهَدُ الْأَزَلِيُّ: يُطْلُ بَائِعُ النُّقْلِ عَلَى الْجُمْهُورِ
 هَاتِفاً: «يَحْيَا الْوَطَنُ» فَتَنْصَرِّجُ الْجُدْرَانُ بِالتَّصْفِيقِ. ثُمَّ يَدْخُلُ
 الْأَحْدَبُ فِي ثَوْبٍ ضَابِطٍ أَجَنِّيٍّ، فَتَنْصَرِّجُ الْجُدْرَانُ بِالصَّفِيرِ.
 يَجْلِسُ الضَّابِطُ الْأَحْدَبُ عَلَى كُرْسِيِّهِ فِي طَرِيقَةٍ تَهْرِيجِيَّةٍ
 وَيَضْرُخُ: «هَاتُوا بِالْمَلْعُونِ. هَاتُوا بِهَذَا الْعَرَبِيِّ»، وَيَأْتِي بَائِعُ النُّقْلِ
 الْمُنَاضِلُ وَخَدَهُ، بِالطَّبْعِ، مِنْ دُونِ أَنْ يَجِيءَ بِهِ أَحَدٌ. يَقِفُ

أَمَامَهُ، ثُمَّ يَوْفَعُ رَأْسَهُ فِي اعْتِرَازٍ وَثَقَةٍ، صَارِحاً بِدَوْرِهِ: «يَجِبُ أَنْ تَزْخُلُوا. أَرْضُ الْعَرَبِ لِلْعَرَبِ. سَنُقَاوُمُ حَتَّى آخِرِ طِفْلِ». يَغْلُو التَّضْفِيقُ، وَتَتَكَسَّرُ الْكَرَاسِي تَحْتَ الْحُضُورِ. وَإِذْ يَهْدَأُ الصُّبْحُ، يُشِيرُ الْأَخْذَبُ بِإِصْبَعِهِ فِي اتِّجَاهِ بَائِعِ الثَّقَلِ: «خُذُووهُ»... وَلَيْسَ هُنَاكَ مِنْ أَحَدٍ لِيَأْخُذَ إِبْرَاهِيمَ، بَلْ يَسْتَدِيرُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَيَمْضِي إِلَى مَا وَرَاءَ السَّتَارَةِ فِي خُطَى وَاثِقَةٍ.

... وَنَحْسُدُ إِبْرَاهِيمَ عَلَى مَوْهَبَتِهِ، بَلْ يَحْسُدُهُ الْكِبَارُ أَكْثَرَ مِمَّا. فَبَائِعُ الثَّقَلِ، بَيْنَ الْمُنَاسَبَةِ وَأُخْتِهَا، سَيُّدُ الشَّارِعِ، تُشِيرُ إِلَيْهِ فَتَيَاتُ الْمَدَارِسِ، وَتَتَهَاوَنَ عَلَيْهِ لِشِرَاءِ حَفَنَاتٍ مِنْ بَزْرِ الْبَطِيخِ، نَاطِرَاتٍ إِلَيْهِ بِطَرَفِ أَعْيُنِهِنَّ فِي خَفَرٍ. أَمَّا الْأَخْذَبُ فَيَرْجِعُ إِلَى جُحْرِهِ، يَبِيعُنَا الصُّورَ الْعَارِيَّةَ، وَيَضْعَطُ بِمَكْوَاتِهِ الْجَحِيمِيَّةِ عَلَى الْهَبَاءِ، بَيْنَمَا يَتَوَهَّجُ نَيْزُكَ مِنَ النَّيَازِ، الَّتِي أَنْفَصَلَتْ عَنِ الْأَرْضِ فِي نَشَاتِهَا الْأُولَى، بَيْنَ كَيْفِيَّةِ الْعَارِيَّتَيْنِ.

«يَا لِلسُّرِّ الْهَشِّ» نَهَمَسُ لِأَنْفُسِنَا. يَا لِمُغْلَفِ ابْنِي مُرَادٍ. أَهَذَا كُلُّ شَيْءٍ يَا بَشِيرٍ؟ أَهَذَا كُلُّ شَيْءٍ يَا حَسِينُ؟ لَا. إِنَّهُمَا يُرِيَانَا أَشْيَاءَ أَشَدَّ صَعْفًا. لَقَدْ كُنَّا أَبَاطِرَةً عَلَى مَمَالِكٍ مِنَ النِّسَاءِ الْعَارِيَّاتِ فَحَسَبُ، لَكِنَّ مَمَالِكَنَا تَنْهَارُ أَمَامَ صُورِ لِرِجَالٍ وَنِسَاءٍ

في غُزِيهِمَا الْأَكْبَرِ، الْعُزَى الْقَنَاصِ، الَّذِي تَتَشَابَكُ فِيهِ الْأَعْضَاءُ
كَمَا تَتَشَابَكُ الْأَيْدِي فِي التَّحِيَّةِ، وَتَلْتَحِمُ فِي ضَرَاوَةِ لَا مَهْزُومٍ
فِيهَا إِلَّا الْوَقْتُ.

هَنِيئاً لَهُمَا. هَنِيئاً لِمَسَاءِئِهِمَا فِي الْقَبْرِ، يُشْعِلَانِ لِلْأَصْدِقَاءِ
سِرَاجَ الْكَازِ فَيَلْعَبُونَ بِالْوَرَقِ حَتَّى الْفَجْرِ، وَإِذْ يَنْتَهَوْنَ - لَا لِأَنَّهُمْ
انْتَهَوْا مِنَ اللَّعِبِ، بَلْ لِأَنَّ مَرَادُو سَيَسْتَيْقِظُ لِمَصَلَةِ الْفَجْرِ -
يَنْفَحُونَنَا لِيَرْتَيْنِ، لِأَنَّا سَهَوْنَا حَرَساً عَلَى دَرَجِ الْمَدْخَلِ حَتَّى لَا
يَفْجَأُوهُمْ أَحَدٌ. لَكُنَّا لَمْ نَكُنْ نَسْلَمُ دَائِماً مِنَ الْمُفَاجَأَةِ.
فَجَدَّتُهُمَا السَّاهِرَةُ أَبَدًا، ذَاتِ الْمِائَةِ وَالْعِشْرِينَ عَامًا، تَتَفَقَّدُ
سَاحَةَ الْبَيْتِ شَبْرًا شَبْرًا بِعَصَاهَا ذَاتِ الرِّينِ الْأَجُوفِ. عَمِيَاءُ
كَالظَّلَامِ. تَعْرِفُ دَجَاجَاتِهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً، وَكَذَلِكَ الْأَذْرَاجُ
الَّتِي تَقُودُ إِلَى الْقَبْرِ، وَمَخَارِجُهُ. لَقَدْ تَسَاوَى اللَّيْلُ عِنْدَهَا
بِالنَّهَارِ. تَبْدَأُ جَوْلَتَهَا الْمُعْتَادَةَ كُلَّمَا أَفَاقَتْ مِنْ نَوْمِهَا الَّذِي لَا
يُشْبِهُ النَّوْمَ. فَهِيَ تَغْفُو وَاقِفَةً، أَوْ جَالِسَةً، أَوْ مُتَكِنَةً عَلَى حَائِطٍ.
لَا زَمَنَ لَهَا. تَتَقَرَّى بِعَصَاهَا السَّمَاءَ كَمَا تَتَقَرَّى الْأَرْضَ،
وَتَكْرَهُ الْعُرَبَاءَ الصِّغَارَ الَّذِينَ يُعَاشِرُونَ أَحْفَادَهَا، وَأَبْنَاءَ أَحْفَادِهَا.
وَخَدَهَا، هَذِهِ الْعَمِيَاءُ الْمُوَحِّشَةُ، كَانَتْ تَضْبُطُنَا فِي لِيَالِي الْقَبْرِ

بَعْضُ الْأَخْيَانِ. تَقِفْ عَلَى أَوَّلِ الدَّرَجِ وَتَهْتِفْ بِصَوْتِهَا الْمَتَهَدِّجِ
 الْمُتَعَبِ: «مَنْ هُنَاكَ؟». إِذْ ذَاكَ تَتَحَوَّلُ إِلَى تَمَائِيلَ مِنَ الظَّلَامِ
 وَالْكِلْسِ، وَتَحِسُ أَنْفَاسَنَا. غَيْرَ أَنَّهَا لَا تُصَدِّقُ الشُّكُونَ الثَّقِيلَ:
 «أَسْمَعْ نَبْضَ قُلُوبِكُمْ يَا أَوْلَادَ الشَّيْطَانِ»، وَتَنْزِلُ الدَّرَجَ، يَسْبِقُهَا
 نَقْرُ الدَّلِيلِ الْحَشَبِيِّ عَلَى الْإِسْمَنْتِ. نَسْتَعِثُ صَوْضَاءَ الْعَصَا
 فَتَنْسَلِقُ سُدَّةٌ تَغْلُو بَيْنَ النَّارِ مُبَاشَرَةً، وَيَرْغَمُ أَنْ لَا نَارَ فِي الْقُرُونِ
 يَظَلُّ مَزِيحُ الْحَصَى وَالْمِلْحِ مُلْتَهَباً عَلَى السُّدَّةِ، وَهُوَ مَزِيحٌ
 يَضْعُونَهُ هُنَاكَ لِأَمْتِصَاصِ وَهْجِ النَّارِ تَحْتَ أَرْضِيَّةِ الْبَيْتِ
 وَالذُّكَّانِ. «يَا لِلْسَّمَوَاتِ» نَهْتِفُ فِي أَعْمَاقِنَا، وَنَشْتُمُ نَشِيشَ
 أَخَذَيْنَا أَلْبَاسِيكِيَّةَ وَهِيَ تُشَوِّى فِي بُطْءٍ.

«أَخْرُجِي» تَجَاوَزْ أَقْدَامَنَا. «أَخْرُجِي، بِاللَّهِ عَلَيْكَ، يَا سَلِيلَةَ
 الْبِغَالِ»، لَكِنَّ الْعَمِيَاءَ تَتَقَرَّى الزَّوَايَا عَلَى مَهَلٍ. تَتَقَرَّى كَوْمَةً
 الْكِلسِ: «أَسْمَعْ نَبْضَ قُلُوبِكُمْ يَا رُؤُوسَ الْبَطِّيخِ».

«أَووه حسينو، لَنْ تَخْرُجَ جَدُّكَ. أَووه. ذَابَتْ مُؤَخَّرَاتُنَا».
 وَتَمْتَمُ حَسِينو: «انْتَظِرُوا قَلِيلاً». وَتَنْتَظِرُ، مُسْتَنَدِينَ عَلَى أَقْدَامِنَا
 أَلَيْسَرَى مَرَّةً، وَعَلَى أَلَيْغَنَى مَرَّةً ثَانِيَةً، كَمَا يَفْعَلُ اللَّفْلَقُ. وَأَخِيرًا
 تَخْرُجُ الْعَمِيَاءُ مُتَوَعَّدَةً: «سَأَنْتَظِرُكُمْ فِي أَعْلَى الدَّرَجِ».

سَأَنْتَظِرُكُمْ سَنَةً فِي أَعْلَى الدَّرَجِ. لَا بُدَّ أَنْ تَخْرُجُوا... هَاهَا»،
ثُمَّ تَمْضِي لِتَجْلِسَ فِي أَعْلَى الدَّرَجِ، شَبْحاً يَخْرُسُ الْكُنُوزَ
الْكِلْسِيَّةَ، وَالْعَجِينَ، وَاللَّهَبَ الَّذِي اسْتَقَرَّ فِي مَزِيجِ الْمِلْحِ
وَالْحَصَى تَحْتَ مُؤَخَّرَاتِنَا.

«أَووه حسينو، لَمْ نَعُدْ نَطِيقُ الْبَقَاءَ»، وَيَهِيْطُ حَسِينُو الشَّدَّةَ
لِيَفْتَحَ لَنَا بَوَابَةَ الْفُرُونِ، وَإِذْ تُحِسُّ الْجَدَّةُ بِالْجَلْبَةِ، وَوَقَعَ الْأَقْدَامِ
الْهَارِيَّةِ، نَكُونُ قَدْ بَلَّغْنَا الشَّارِعَ الْعَامَّ، أَوْ أَمْتَصَّصْنَا الْبُيُوتَ.

وَفِي الصَّبَاحَاتِ الَّتِي تَتَلَوُ مُفَاجَاتٍ لَيْلِيَّةً كَهَذِهِ، تُقْسِمُ
الْعَمِيَاءُ لِلزَّائِحِ وَالْعَادِي أَنَّ هُنَالِكَ لُصُوصاً يَشْتَكَشِفُونَ الْمَنْزِلَ
وَالْفُرُونَ، وَهِيَهَاتِ يُصَدِّقُهَا أَحَدٌ، فَفِي كُلِّ صَبَاحٍ لَدَيْهَا خَبِيرٌ عَنْ
رَاصِدِينَ يَرِضُدُونَ مَمْلَكَتَهَا الْعَارِيَّةَ، وَعَنْ غُرَازَةٍ يُغَيِّرُونَ عَلَى
الدَّجَاجَاتِ وَالْبَيْضِ، لَكِنْ لَمْ يَحْضُلْ أَنْ غَابَتْ دَجَاجَةٌ قَطُّ، أَوْ
أَخْتَفَتْ بَيْضَةً مِنْ صُنْدُوقِ الْبَيْتِ الْمُغْلَقِ.

كَثِيرُونَ مِثْلَ جَدَّةِ حَسِينُو الْعَمِيَاءِ يَخْرُسُونَ مَمَالِكَهُمْ.
كَثِيرُونَ هُمْ حَرَسُ الْهَبَاءِ وَأَشْيَائِهِ السَّاحِرَةِ. لَا، إِنَّنِي أَنْتَقِصُ مِنْ
الْأَمْرِ، فَالْوَاضِحُ - يَقِيناً - أَنَّ كُلَّ شِمَالِي لَدَيْهِ مَا يَخْرُسُهُ. إِنَّهُمْ
حَرَسَ أَبَدِيَّوْنَ اتَّيَمَّنَتْهُمْ أَشْبَاحُ أَعْمَاقِهِمْ عَلَى السَّيْرِ الْخَفِيَّةِ

لِلأَرْضِ، تِلْكَ السَّيْرَةُ الَّتِي لَا مَكَانَ لِتَعَاقِبِ الْحُكُومَاتِ فِيهَا.
لَا مَكَانَ لِقَانُونٍ، أَوْ نِظَامٍ، أَوْ عِلَاقَةٍ أَجْتِمَاعِيَّةٍ. لَا مَكَانَ إِلَّا
لِلْهَاجِسِ، أَوْ لِلدَّلِيلِ الْخَفِيِّ الَّذِي يَقِفُ مُشِيرًا بِكُلِّ يَدٍ إِلَى
جِهَةٍ، فَيَتَّبِعُ نِصْفُ أَعْمَاقِكَ إِشَارَةَ يَدِهِ الْيُمْنَى، وَنِصْفُ أَعْمَاقِكَ
إِشَارَةَ يَدِهِ الْيُسْرَى، وَتَبْقَى أَنْتَ، فِي مَكَانِكَ ذَاتِهِ، أَعْمَى، لَا
تَعْرِفُ غَيْرَ الرِّيحِ الَّتِي تُدَاعِبُ غُرَّتَكَ الطَّوِيلَةَ.

حَرَسَ يَنْتَظِرُونَ مَوَاقِفَ الرُّوحِ الْمَكْتُوبَةِ، لَكِنْ لَا وَرَقَ
لِلرُّوحِ، وَلَا مَحْبَرَةَ. حَرَسَ أَنْتِظَارٍ، وَهُمْ مُؤْتَمِنُونَ عَلَى
أَنْتِظَارِهِمْ. حُلَفَاءُ الْمِيَاهِ وَالْغُبَارِ. حُلَفَاءُ السَّنَابِلِ، وَمُنْظَرُو
الشُّعَاعَاتِ. آ آ آ هـ.

بَلِيرُو يَحْرُسُ جِسْرِي الْمَدِينَةِ، مُتَنَقِّلًا بَيْنَهُمَا. هَكَذَا، قَرَّرَ
وَحْدَهُ أَنْ يَكُونَ حَارِسَ الْجُسُورِ. يُوقِفُ الشَّاحِنَاتِ وَيَصْرُخُ:
«حِمْلُكُمْ ثَقِيلٌ»، فَيُنَاولُونَهُ تَفَاحَةً، أَوْ عُنُقُودَ عِنَبٍ، فَيَتَنَحَّى:
«لَقَدْ خَفَّ الْحِمْلُ. اللَّهُ مَعَكُمْ». يُوقِفُ الْعَابِرِينَ: «لَا تَمْشُوا
عَلَى كُعُوبِكُمْ. الرُّنَيْنُ يُضِرُّ بِالْجِسْرِ»، وَيَمْشِي الْعَابِرُونَ عَلَى
أَمْشَاطٍ أَخَذَتْهُمْ تَكْرِيمًا لِلْكَهْلِ الضَّائِعِ فِي حُبِّهِ الْغَرِيبِ،
فَيَبْتَهِجُ.

وسيفي حارسَةُ الجداولِ ألوهيَّة. تَمْشِي وَسَطَ الإسْفَلَتِ،
وَفَجْأَةً تُشَمِّرُ عَنْ سَاقَيْهَا وَتَقْفِزُ. وَتَفْعُلُ الْأَمْرَ ذَاتَهُ أَمَامَ عَنَابِ
الْبُيُوتِ، وَالِدَّكَائِينَ، وَمَذْخَلَ الْحَدِيقَةِ الْعَامَّةِ، وَسَاحَةِ «السَّبْعِ
بَحْرَاتِ». ثُمَّتْ جَذُولٌ فِي طَرِيقِهَا بَعْدَ كُلِّ خُطْوَتَيْنِ. ثُمَّتْ
جَذُولٌ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ. جَدَاوِلُ فِي الإسْفَلَتِ، وَفِي الْجَذْرَانِ،
وَفِي الْهَوَاءِ، وسيفي تَقْفِزُ مِنْ قُوَّتِهَا، لَا تُعَكِّرُ مِيَاهَهَا قَطُّ، وَلَا
تُقْلِقُ الطَّيْنَ.

عباسي قزو يَنْقُلُ فِي حِزَامِهِ، أَبَدًا، خَطَافَ الْعَتَالِ. خَطَافٌ
ذُو مِقْبَضٍ مَلْفُوفٍ بِسُيُورٍ جِلْدِيَّةٍ مُلَوَّنةٍ، وَبِشَرَابَاتٍ تَتَدَلَّى مِنْهُ.
وَحَيْثُمَا مَرَّ فَنَفِي طَرِيقِهِ أَكْيَاسُ قَمَحٍ لَا تُرَى. يَقِفُ مُسْتَلًّا
خَطَافُهُ، ثُمَّ يَنْحَنِي كَأَنَّمَا يَزْفَعُ كَيْسًا عَنْ الْأَرْضِ، وَيَضَعُهُ فَوْقَ
ظَهْرِهِ. يَمْضِي خُطُوبًا وَيُلْقِي بِالْكَيْسِ عَلَى الْقَارِعَةِ. إِنَّهُ مُوَكَّلٌ
بِرَفْعِ الْأَكْيَاسِ عَنِ الطَّرِيقِ. مُوَكَّلٌ إِلَى مَا لَا نِهَآيَةَ، يَتَسَلَّى
الْأَطْفَالُ بِوَهْمِهِ، فَيُنَادُونَهُ: «عَبَّاسِي، هَذَا كَيْسٌ... هَذَا كَيْسٌ»،
وَيُشِيرُونَ إِلَى مَكَانٍ لَا كَيْسَ فِيهِ، فَيَأْتِي عَبَّاسِي لَاهِثًا؛ يُهْوِي
بِخَطَافِهِ عَلَى الْهَوَاءِ وَيَسْتَدِيرُ فَيَحْمِلُهُ إِلَى مَكَانٍ أَمِينٍ.

داود كُوت يَسُوقُ أَمَامَهُ - حَيْثُمَا مَضَى - قَطِيعًا مِنَ الْغَنَمِ؛

قَطِيعاً مِنْ صَوْفٍ حَلَمِهِ. يُنْطُ هُنَا، وَيُنْطُ هُنَاكَ. يُهْزِلُ، فِي سَيْرِهِ، وَيُطِئُ. يَزْكُضُ وَرَاءَ كَبْشٍ شَارِدٍ، أَوْ خَرُوفٍ نَزِقٍ، وَيُعِيدُهُ إِلَى السَّرْبِ. غَصَاهُ مَرْفُوعَةٌ أَبَدًا: «حاحا»، وبالطَّبْعِ لَيْسَ أَمَامَهُ مِنْ غَمٍّ قَطُّ. إِنَّهُ مُوَكَّلٌ - مِثْلُهُ مِثْلُ أَبْنَاءِ نَوْعِهِ الثُّورَانِيِّ - بِالْحَيَوَانَاتِ الْخَفِيَّةِ. لَكِنَّ عَمَّنَا الصَّوْفِيِّ مُوَكَّلٌ بِسِجِلِّ «الْعَلَامَاتِ الْكَبِيرَةِ»، عَلَامَاتِ الْخَرَابِ الَّذِي يُهَيِّئُهُ الْبَشَرُ السَّاهُونَ.

إِسْمُهُ «الصَّوْفِيُّ»، هَكَذَا عَرَفْنَاهُ، وَنَسِينَا أَسْمَهُ الْحَقِيقِيِّ. لَا تَغْتَرِبِهِ حَتَّى «الْعَلَامَاتِ الْكَبِيرَةِ» إِلَّا فِي الرَّبِيعِ. لِثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ فِي السَّنَةِ يَقْرَأُ السِّجِلَّ الْمَفْتُوحَ وَشِعَ الْأُفُقِ. يَقْرَأُ الْحَيَوَانَاتِ، وَخُطَى الْبَشَرِ، وَالْغُيُومِ، وَمَوَاعِيدَ النُّجْمَةِ الْبَاكِئَةِ قُرْبَ نَجْمَةِ الصَّبَاحِ. «وَكَبِدِي». يَهْمِسُ لِنَفْسِهِ بِصَوْتٍ عَالٍ. «وَكَبِدِي. خِرَافُنَا تَتَكَلَّمُ فِي اللَّيْلِ بِكَلَامِ الْإِنْسَانِ. تَظْهَرُ النُّجْمَةُ الْبَاكِئَةُ وَتَخْتَفِي مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهَا أَحَدٌ. وَكَبِدِي. وَكَبِدِي. يَزْفَعُ النَّاسُ أَكْتَافَهُمُ الْيَمْنَى وَهُمْ يَمْشُونَ. وَكَبِدِي. تَتَعَمَّدُ الدَّجَاجَاتُ أَنْ تَضَعَ زَرْقَهَا عَلَى سَجَادَةِ الصَّلَاةِ. وَكَبِدِي. الصُّغَارُ يَشْتُمُونَ اللَّهَ، وَالْكَبَارُ يُصَلُّونَ مِنْ غَيْرِ وُضوءٍ. وَكَبِدِي. الْإِمَامُ يُخْطِئُ

فِي قِرَاءَةِ آيَاتِ. وَكَبِدِي. الْغُيُومُ تَتَشَكَّلُ عَلَى هَيْئَةِ
 كَلْبٍ...». هَذِهِ عَلَامَاتُهُ الْكَبِيرَةُ؛ عَلَامَاتُ الْخَلْخَلَةِ وَالنَّفِيرِ
 الَّذِي سَيَعْلُو مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِ فَتَتَرَاكُضُ الْقُبُورُ، وَالْأَوْدِيَةُ،
 وَالْبُيُوتُ، وَالنَّبَاتَاتُ، صَوْبَ مِيزَانٍ يَرْفَعُهُ مَلَاكٌ وَاحِدٌ يَزِنُ بِهِ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَمَا يَزِنُ الْبَقَالُ الْبَصَلَ. لِثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، فَقَطُّ،
 يَفْتَحُ السَّجَلُ وَيُخْصِي كَمَّ يُرَاكِمُ الْكَائِنُ فِي مَسَاحَةِ مَوْتِهِ مِنْ
 عَذَابَاتِ. وَإِذْ يَمْضِي الرَّبِيعُ يَوْجِعُ الصُّوفِيَّ إِلَى الْأَرْضِ، غَيْرِ
 ذَاكِرٍ مِنْ سَجَلِهِ إِلَّا نِثَارَاتٍ مُبْهَمَةً.

كَانَتْ نَوْبَاتُ الْحُمَى الرَّبِيعِيَّةُ تُحِيلُهُ كَائِنًا مَرًّا فِي عِلَاقَاتِهِ،
 مُمْتَلِئًا بِالْمَرَارَةِ، كَأَنَّمَا هُوَ النَّذِيرُ الْمُخْتَارُ لِشُعْبٍ لَمْ يُعَدَّ يَلْتَفِتُ
 إِلَى الْمُنْذِرِينَ. يَقْضِي النَّهَارَ بَيْنَ تُجَارِ السُّوقِ، فِي الْبَلَدَةِ، وَيَزِنُ
 الْبَقَالِينَ، نَاصِحًا، مُتَوَعِّدًا؛ بَلْ يَذْهَبُ بِهِ الْأَمْرُ إِلَى الْوُقُوفِ أَمَامَ
 بَابِ الْمَسْجِدِ، وَإِذَا يُطِلُّ الْإِمَامُ يُمَسِّكُ بِهِ مِنْ ذَيْلِ كُمِّهِ الْوَاسِعِ،
 أَمْرًا أَنْ يُخْصِّصَ خُطْبَتَهُ عَنْ نِهَآيَةِ الْأَرْضِ الْوَشِيكَةِ، فَيَعِدُّهُ الْإِمَامُ
 خَيْرًا، وَيَنْسَى. وَفِي الْمَسَاءِ يَوْجِعُ مِنْهُوَكَا، يَأْسًا مِنْ صَلَاحِ
 الْأَنْدَالِ، فَيُقْفَعِي لِجَهَشِ بَيْكَاءِ حَامِضٍ، مُتَمْتِمًا: «لَا فَائِدَةَ
 يَا رَبِّ، لَا فَائِدَةَ».

كُلُّهُمْ يَغْرِفُونَ نَوَابِتِ الصُّوفِيِّ الرَّبِيعِيِّ، يُدَارُونَهُ كَثِيرًا، وَيُخَفِّفُونَ عَنْهُ بِكَلَامِ وَدُودٍ: «إِصْبِرْ أَيُّهَا الصُّوفِيُّ، النَّاسُ يُعِيدُونَ حِسَابَاتِهِمْ آلَانَ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِيمَا تَقُولُ»، فَيُسَرِّي ذَلِكَ عَنْهُ قَلِيلًا. لَكِنَّهُ، فِي الْفُصُولِ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَى، دَاهِيَةٌ حَقًّا، يُشْرِكُ الْكَثِيرِينَ فِي مَشَارِيعِهِ الْخَاصَّةِ بِزِرَاعَةِ الْبَطِّيخِ، أَوْ زِرَاعَةِ الْعَدَسِ، وَإِذَا يُسَلِّمُونَ إِلَيْهِ أَمْوَالَهُمْ يَخْتَفِي، عَابِرًا مِثَاتِ الْقُرَى، وَخَفَّتَةً مِنَ الْبُلْدَاتِ، ثُمَّ يَرْجِعُ صِفْرَ الْيَدَيْنِ، فَيُضْطَرُّ إِخْوَتُهُ إِلَى تَمْوِينِ عَائِلَتِهِ بِمَوْنَةٍ مِنْ أَكْيَاسِ الْقَمْحِ. وَحِينَ يُسَائِلُونَهُ أَئِنَّ كَانَ، يَزُدُّ أَنَّهُ مَضَى لِمُحَاجَجَةٍ مُتَصَوِّفِي الْقُرَى فِي شُؤْنِ الدِّينِ. فَيَضْمُتُ السَّائِلُونَ أَمَامَ خِفَّتِهِ، وَطَرَاةِ مَنْطِقِهِ، عَلَى مَضْضٍ.

لَمْ يَكُنْ مَارِحًا ذَلِكَ الْحَارِسُ الرَّبِيعِيُّ عَلَى سِجْلِ الْقِيَامَةِ، الَّذِي تَرَكَ أَمْرَ إِعَالَةِ أَطْفَالِهِ لِلْآخَرِينَ، وَأَمْضَى سَنَوَاتِهِ بَيْنَ الْحُمَى وَبَيْنَ التَّجْوَالِ. وَلَمْ يَكُنْ تَجْوَالُهُ لِمُنَاطَرَةِ الْمُتَصَوِّفِينَ كَمَا يَدَّعِي، بَلْ لِلتَّعَرُّفِ عَلَيْهِمْ فَحَسْبُ. لَمْ يَبْقَ مَلَا، أَوْ صُوفِيٍّ، أَوْ فَقِيهٍ، أَوْ عَالِمٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ قَرَأُوا كِتَابَيْنِ، إِلَّا عَرَفَهُمْ. تِلْكَ هَوَايَتُهُ. وَلَمْ يَكُنْ يُطِيلُ الْمُكُوثَ عِنْدَ أَحَدٍ. يَسْتَوْدِعُ مُضَيِّفِيهِ، فِي أَبْعَدِ قَرْيَةٍ، لِلذَّهَابِ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَلَا

يَعُودُ. يَقُولُ: «التَّعَبُ نِعْمَةُ الْمُؤْمِنِ»، وَيَلْتَفِعُ بِالظَّلَامِ، وَبِهَذَيَانِ
الظَّلَامِ.

لَقَدْ عَرَفَ الْجَمِيعَ. عَرَفَ الْآبُعْدَيْنِ وَالْأَقْرَبَيْنِ. عَرَفَ
مَسَالِكَ الْقُرَى الْخَفِيَّةَ وَالظَّاهِرَةَ، وَأَشْكَالَ مَسَاجِدِهَا الطَّيِّبَةِ
وَاجِدًا وَاجِدًا، فِي مِسَاحَةِ تَضُمُّ مَلْيُونَ كَائِنٍ، يَتَفَقَّدُهُمْ رَاجِلًا.
وَحِينَ اهْتَدَى إِلَى الْآبُجْدِيَّةِ الْعَرِيقَةِ لِأَعْمَاقِهِ الشَّاسِعَةِ، وَجَدُوهُ
جَالِسًا فِي بَيْتٍ مَنْزِلِهِ، ذَاتَ فَجْرِ، عَلَى غُمَقٍ عَشْرِينَ مِثْرًا، لَا
خَدَشَ فِي جَسَدِهِ، وَلَا أَثَرَ لِنُقُوطٍ؛ جَالِسًا كَجُلُوسِهِ فِي
مَسَاءَتِ الْحُمَى، حِينَ يَوْجِعُ مُمْتَلَأًا بِالْمَرَارَةِ وَيَيْكِي... وَكَانَ
مَيِّتًا.

حَرَسُ الشَّمَالِ هُمْ حَرَسُ مِيرو وَطَلَائِعُهُ الَّتِي تَسْتَكْشِفُ
الْوَقْتَ. نَعْرِفُ ذَلِكَ: جَدَّةُ حَسِينُو، وَبَلِيرو، وَسِيْقِي، وَعَبَاسِي
قَزُو، وَدَاوُد كُوت، وَعَمِّي الصُّوفِي، وَشَكْرُو، وَحَبْسُونُو، وَعَابُو،
وَعَقْدَكِي كَشُومَشُو، وَاصْطِيفُو، وَإِوَزَاتِ بَيْتِ الْحَاجِّ كُوفَرِ الَّتِي
تَنْقُضُ عَلَى الْعَابِرِينَ كَكِلَابٍ مَسْعُورَةٍ، وَكَلْبَةِ هِيلَانَةَ الْيُونَانِيَّةِ،
الْكَلْبَةِ الَّتِي تَطْلُ تَلْتَفُّ حَوْلَ نَفْسِهَا كَأَنَّمَا فَقَدَتِ التَّوَازُنَ، إِلَى
آخِرِ مَا هُنَالِكَ مِنْ كَائِنَاتٍ تُسَمَّى وَلَا تُسَمَّى؛ كُلُّهُمْ طَلَائِعُ

ميرو، الرَّاعِي الَّذِي يَنْتَظِرُ أَنْ يَسْتَتِبَّ الْهَدُوءُ فِي الْأَرْضِ
خَمْسِينَ سَنَةً لِيَفْتَحَهَا بِقُرُونِ أَكْبَاشِهِ. لَكِنْ، مَنْ يَجْزُو عَلَى
الْبُوحِ بِالْأَمْرِ؟ وَمَنْ يَجْزُو عَلَى أَضْطِهَادِ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ؟

غَيْرَ أَنْ أَمَامَنَا الْكَثِيرَ مِمَّا نَضْطَهِدُهُ، عَدَا هَؤُلَاءِ. لَدُنَّا مَنْ لَا
يَمُتُونَ إِلَى مِيرُو الْخُرَافِيِّ بِصِلَةٍ. لَدُنَّا حُقُولُ عَرْدِي الْمَارْدِينِي
لِنَعِيثَ فِيهَا نَهْبًا، رَاكِضِينَ وَرَاءَ عَصَافِيرِ التَّمْنِيمَةِ الصَّغِيرَةِ،
مُقْتَلَعِينَ فِي طَرِيقِنَا شُجَيْرَاتِ آلْبَاذِنْجَانِ، وَعَرَائِشَ الْكُوسَا. لَدُنَّا
مِيكروْفُون قَاسِمُو لِنَقْطَعَ شَرِيطَهُ، وَلَدُنَّا دُكَّانُ أَدِيْبُو لِنَبْتِزَّهُ إِلَى
الْأَقْصَى: «نُرِيدُ غُلْبَةً مُوْجَانٍ يَا أَدِيْبُو»، وَيَتَمَنَّعُ أَدِيْبُو قَلِيلًا فَتَنْهَيَاً
لِلنَّبْثُولِ عَلَى الْوَاجِهَةِ حَتَّى يَزْضَخَ. «نُرِيدُ قُضَامَةً سُكَّرِيَّةً أَدِيْبُو»،
وَيَتَمَنَّعُ أَدِيْبُو، فَتَنْوَعِدُ بِكَشْفِ كُلِّ شَيْءٍ... وَيَزْضَخُ أَدِيْبُو.

وَمَا هُوَ آلِ «كُلِّ شَيْءٍ» الَّذِي نَتَوَعَّدُهُ بِهِ؟ إِنَّهُ أَمْرٌ يَسْتَحِقُّ
الرُّضُوحَ فِعْلًا، وَإِلَّا قَتَلَهُ وَالِدُهُ. فَعَلَى مَبْعَدَةِ مَائَتِي مِثْرٍ مِنَ
الدُّكَّانِ تَسْكُنُ خَانَمُهُ مَعَ ابْنَيْهَا، وَهِيَ أَمْرَأَةٌ مُطْلَقَةٌ فِي
الْخَمْسِينَ، كُرُويَّةُ الشَّكْلِ. وَكُنَّا نَرَى ابْنَهَا الْأَصْغَرَ - وَهُوَ مِنْ
جِيلِنَا - يَتَرَدَّدُ عَلَى الدُّكَّانِ، خَارِجًا مِنْهُ، كُلَّ مَرَّةٍ، حَامِلًا سُكَّرًا
وَتَبْعًا، وَزُجَاجَاتٍ زَيْتٍ. قُلْنَا: «أَدِيْبُو... مَا الَّذِي يَجْرِي؟». فَرَدَّ:

«لا شيء». قلنا: «أديبو... ليس واضحاً أن ابنَ خانمه يدفع لك»، فردَّ: «بلى. أنتم وإهمون». إذ ذاك قررنا مراقبةَ الوضع الطاريء، حتى جاء يومَ لمَحْنَا فيه ابنَ خانمه يُوشِشُ أديبو، ويُطِيلُ في الؤشوشة، فعمدنا إلى التظاهر بالانصراف من أمام الدكان، ومن ثمَّ اجتمعنا وراء سور الحاج شيخو المتهتم لئراقب من هناك. كان الوقت مساءً، بعد الغروب بقليل. أغلق أديبو باب الدكان الحشبي، ودعّمه بقضيب حديدي طويل له فتحة للقفل في آخره، واتّجه صوب بيت خانمه، متلفّثاً في حذر. وحين دلف إلى الرقاق الذي يُفضي إلى البيت مبشرة، ركضنا كديكة لمحت ديكاً غريباً قوب دجاجاتها. وإذ وصلنا الرقاق كان الباب يوصد تَوّاً، ويدور في قفله الصدى، من الداخل، مفتاح ذو أنين.

حينما ظهورنا وهزولنا، في خفة القُط، إلى النافذة الوطيئة. تدافعت رؤوسنا وتراحمت ل ترى. كانت ستارة النافذة قصيرة. ستارة النافذة الوحيدة للبيت الطيني ذي العُرفة الوحيدة. ثلاثة فُرش صَيِّقة في الداخل. هذا ما نراه على ضوء سراج الكاز. وأوان للطبخ على الأرض، وكذلك كُرسِيَّان صغيران من

أَلْقَسُ. يَغْلُو الْحَائِطَ الْمُقَابِلَ لِلتَّافِذَةِ رَأْسَ غَزَالٍ مِنَ الْجَبَسِ،
وَتَحْتَهُ، تَمَاماً، كَانَ أَدِيبُو جَالِساً فِي حُصْنٍ خَانِهِ كَطِفْلٍ. كَانَتْ
تُذَلِّلُهُ. تَضَعُ يَدَهَا فِي شَعْرِهِ أَوَّلَ الْأَمْرِ: «يا ديكى»، ثُمَّ تَرْفَعُ يَدَهُ
مِنْ حُصْنِهِ وَتَضَعُهَا عَلَى صَدْرِهَا «أَيُعْجِبُكَ الْبَطِيخُ؟»، وَأَدِيبُو
يَزْدَادُ أَحْمَرَاراً فِي كُلِّ حَرَكَةٍ. وَحِينَ مَدَّتْ يَدَهَا إِلَى أَزْرَارِ بِنطَالِهِ
ضَمَّ فَحَذَّيْهِ فِي حَرَكَةٍ خَفِيزَةٍ حَيَّيَّةٍ، فَهَمَسَتْ: «لَا تَخَفْ
يا ديكى، لَنْ أَفْتَحَكَ»، وَأَزْدَفَتْ «فَأُرْكَ كَبِيرُ أَدِيبُو. أَوْه. دَغْنِي
أَرَاهُ يا ديكى»، وَأَخْرَجَتْ عُضْوَهُ الْمُتَدَلِّي، وَبَدَأَتْ تُذَلِّكُهُ فِي
تَأْنٍ: «أَوْه. أَوْه. سَتَذُوقُ الْحَلَاوَةَ يا ديكى. إِجْلِسْ إِلَى جَانِبِي». وَنَهَضَ
أَدِيبُو لِيَجْلِسَ قُرْبَهَا. فَتَحَتْ أَزْرَارَ بِنطَالِهِ كُلَّهَا، وَسَحَبَتْ
الْبِنطَالَ حَتَّى عَرَّتْ فَحَذَّيْهِ، وَكَذَلِكَ فَعَلَتْ بِسِرِّوَالِهِ الدَّاخِلِيِّ.

كَانَتْ أَفْوَاهُنَا مُرْتَجِيَّةً، وَشِفَاهُنَا السُّفْلِيَّةُ تَتَدَلَّى حَتَّى
الْأَرْضِ. نُعْمِغُهُمْ لَأَنْفُسِنَا بِكَلَامٍ لَا نَفْهَمُهُ، جَامِدِينَ، لَا يُزَاحِمُ
رَأْسَ رَأْسِ الْآخَرِ، وَالْكُلُّ مُكْتَفٍ أَنْ يَرَى بِإِخْدَى عَيْنَيْهِ، أَوْ
يَطْرُقَ مِنْهَا. «أَوْه يا ديكى» قَالَتْ خَانِمُهُ، وَأَنْزَلَقَتْ بِفَمِهَا عَنْ
بَطْنِهِ حَتَّى لَامَسَتْ فَأَرَ أَدِيبُو. ابْتَلَعَتْهُ تَمَاماً. وَحِينَ تَرَكَتْهُ، بَعْدَ
دَقَائِقَ، كَانَ فَأَرُ أَدِيبُو مُنْتَصِباً أَحْمَرَ مِثْلَ صَوصٍ تَكَسَّرَتْ

بَيْضَتُهُ قَبْلَ الْإِوَانِ. «تَمَدَّدْ يَا دِيكِي» قَالَتْ لَهُ، فَتَمَدَّدَ. شَمَّرَتْ خَانِمَهُ عَنْ ثَوْبِهَا، وَوَضَعَتْ طَرْفَهُ فِي فَمِهَا، فَبَدَأَ يَنْصِفُهَا الشَّفْلِي عَارِيًّا، مُسْتَدِيرًّا، كُتْلَةً مِنَ الْإِسْتِدَارَةِ الْبَيْضَاءِ الَّتِي لَمْ تُلَامِسْهَا شَمْسٌ، وَجَلَسَتْ فَوْقَ فَأْرِهِ.

«لَا تَتَحَرَّكَ يَا دِيكِي، سَأَذِلُّ فَأْرَكَ بِيَدِي» وَتَذِلُّ الْفَأْرَ بِيَدِهَا، صَاعِدَةً هَابِطَةً فِي بُطْنِهِ. «أُوهِ دِيكِي... آه دَجَاجَتِي»... وَأَنْحَنِي أَدِيبُو إِلَى أَمَامِ يَنْصِفِيهِ الْأَعْلَى، دَافِعًا رَأْسَهُ بَيْنَ تَذْيِيبِهَا فِي تَشْنُجٍ، ثُمَّ أَرْتَحِي.

نَهَضَتْ خَانِمَهُ عَنْهُ قَائِلَةً: «لَا تَتَحَرَّكَ»، فَبَدَأَ لَنَا مِنَ التَّافِدَةِ كَمَنْ نَهَضَ مِنْ نَوْمِهِ تَوًّا. وَأُزِدَفَتْ: «يَحْصُلُ الْأَمْرُ سَرِيعًا أَوَّلَ مَرَّةٍ يَا دِيكِي»، ثُمَّ جَاءَتْهُ بِخَرْقَةٍ وَمَسَحَتْ فَأْرَهُ. «أُرِيدُ بَعْضًا مِنْ غُلْبٍ كُنْتُ يَا دِيكِي»، وَكَأَنَّمَا أَفَاقَ أَدِيبُو مِنْ تَحْتِ آخِرِ غِشَاءٍ لِنَشْوَتِهِ الْأُولَى مَعَ أَمْرَاةٍ: «إِلِكُنْتُ غَالٍ، وَالْغُلْبُ مَعْدُودَةٌ. سَأُفْتَضِّحُ يَا خَانِمَهُ إِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ». «أُوهِ يَا دِيكِي، لَمْ أَغْذِ أَسْتَمْتِعْ بِتَبْنِجٍ يَنْبِجُهُ وَالْبَافِرُهُ. أُرْسِلْ إِلَيَّ مَا هُوَ أَفْخَرُ، عَلَى الْأَقْلِّ». وَيُتَمَتِّعُ أَدِيبُو: «سَأُرْسِلُ مَا هُوَ أَفْضَلُ»، وَيَتَفَقَّانِ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ.

حَاوَلَ أَدِيبُو أَنْ يَنْهَضَ، لِيَتَذَبَّرَ أَمْرَ نَفْسِهِ السَّارِحَةِ فِي حَقْلِ
مُشَاهِدَاتِهِ الْأُولَى، فَأَشَارَتْ عَلَيْهِ خاتمه: «إِخْلَعْ ثِيَابَكَ كُلَّهَا».
نَظَرَ أَدِيبُو فِي آسْتِغْرَابٍ، فَتَدَارَكَته: «إِخْلَعْهَا. سَأُرِيكَ الْأَجْمَلَ
يَا دِيكِي»، فَخَلَعَ ثِيَابَهُ كُلَّهَا، وَاتَّكَأَ عَلَى الْوِسَادَةِ مُتَمَدِّدًا.

أَوَّه خاتمه، نَحْنُ نَرَى، هَذَا أَوَّلَ نِصْفٍ لِأَمْرَةٍ، فِي أَعْمَارِنَا
الْمُتَدَلِّجَةِ مِنْ زَهْرِ الْيَقْطِينِ. هَذَا أَوَّلَ نِصْفٍ عَارٍ يُشْهَرُ عَلَى
دِرْعِ أَعْمَارِنَا. خاتمه. مُسْتَدِيرَةٌ فِي الْبَيَاضِ الْمُسْتَدِيرِ. نِصْفُ
أَجْمَلٍ مَا رَأَيْنَا، لِأَنَّنَا لَمْ نَرَ الْأَجْمَلَ. نِصْفُ أَوَّلِ رُؤْيَةٍ. نِصْفُ
لَا شَيْعَارَاتِنَا الْقَاصِرَةِ. أَوَّه خاتمه... وَحَمَلْتُ خاتمه إِلَى أَدِيبُو
كُوبَ شاي: «تَمَتَّعْ يَا دِيكِي، أَنْتِ تَسْتَأْهِلُ». وَاسْتَوَتْ تَتَعَرَّى
بِدَوْرِهَا.

جَلَسَا عَارِيَيْنِ، يُلْقِي أَدِيبُو بِنَظَرَاتٍ فُضُولِيَّةٍ كَثِيرَةٍ عَلَى
جَسَدِهَا، مُزْتَشِفًا الشَّيْءَ، وَهِيَ تُلْقِي يَدَيْهَا كَثِيرًا عَلَى جَسَدِهِ،
تَتَحَسَّسُ الْأَفَقَ الْغَضَّ لِعُمُرِهِ الْغَضِّ أَوْ تَسْتَكْشِفُ الْأُبْهَيَّ -
وَهِيَ الْعَارِفَةُ بِأُبْهَةِ الرِّجَالِ - فِي الْبَلَاغَةِ الْأُولَى لِأَعْضَاءِ صَبِيِّ
لَمْ يَبْلُغِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ بَعْدُ. وَاثْقَةً وَغَيْرَ وَاثْقَةٍ. تَمَتَّحُنُ نَفْسَهَا لَا
أَدِيبُو. تَمَتَّحُنُ مَا مَضَى مِنْ جَسَدِهَا، وَمَا يَأْتِي مِنْ جَسَدِهِ.

وَنَحْنُ... ماذا؟ سِتَارَةٌ قَصِيرَةٌ، وَقَامَاتٌ أَقْصَرُ. رُؤُوسٌ مِثْلُ
 الْعَجُورِ فِي حَقْلِ مِنَ الدُّهُولِ الْمَرْمَرِيِّ: «إِذْبَحْهَا أَدِيبُو.
 أَذْبَحْهَا». نَسِينَا أَنَّنَا قَدِمْنَا لِنَكْتَشِفَ أَدِيبُو. نَسِينَا لُعْبَتَنَا: «أَدْخُلْهَا
 مِنَ الْخَلْفِ أَدِيبُو. أَدْخُلْهَا بِجَسَدِكَ، وَبِدُكَايِكَ، وَبُعْلَبِ تَبِغِكَ،
 وَبِئِبْطَالِكَ، وَبِحِذَائِكَ... أَدْخُلْهَا مِنْ كُلِّ ثَقْبٍ أَدِيبُو».

عَارِيَانِ فِي الْمَهَبِّ الْخَرِيرِيِّ لِقُلُوبِنَا الْمُوتِعِشَةِ. عَارِيَانِ أَمَامَ
 خَرِيطَةِ اللَّهِهَاتِ، يَتَّبِعَانِ بِأَصَابِعِهِمَا الْأَنْهَارَ، وَالْهَضْبَاتِ،
 وَالْجِبَالِ، وَبَأَعْيُنِهِمَا الْقُرَى، وَالْمُدُنَ، وَالشُّدُودَ. عَارِيَانِ كَحَقْلِ
 عَدَسٍ، وَالْمُدَاعِبَاتِ تَتَكَاثَفُ فِي فَضَائِهِمَا الرَّخْصِ ثُمَّ تُمَطِّرُ،
 فَتَقُولُ خَائِمَهُ: «كُنْ مِظْلَتِي يَا دِيكِي»، وَتَشْتَلْقِي، فَيَجْثُو أَدِيبُو
 يَبْنَ عَمُودَيْنِ مِنْ غُيُومٍ وَحَبَقٍ. «إِذْفَعْ سَاقِيكَ إِلَى وِرَاءِ، وَاحْتَضِنِ
 كَتِفَيَّ» تَهْمِسُ خَائِمَهُ، وَتَفْتَحُ الْعَمُودَيْنِ عَلَى وَسْعِهِمَا، ثُمَّ
 تُطَبِّقُهُمَا عَلَى خَاصِرَتِهِ. «إِذْفَعْ... إِذْفَعْ»، وَتَحْتَوِيهِ كُلُّهُ. تَحْتَوِي
 الْمِظْلَةَ، وَالرَّعَاشَاتِ، وَالذُّكَانَ، وَرَأْسَ الْعَزَالِ الْمُعْلَقِ إِلَى
 الْحَائِطِ فَوْقَهُمَا، وَسِرَاجِ الْكَازِ وَالْثَافِذَةِ وَدُهُونَنَا.

فِي الْيَوْمِ التَّالِي نَزَمْتُ أَدِيبُو بِحَسَدٍ وَخُبْثٍ، وَتَقَدَّمُ مِنْ
 الذُّكَانِ وَائْتَمِنَ أَنَّنَا سَنَحْصُلُ عَلَى تَبِغٍ لِأَشْهُرٍ: «هَاتِ غُلْبَةً بَافِرِهِ

أديبو»، وَيَتَمَنَّعُ أديبو: «أَنَا مُسْتَوْدَعٌ تَبِغ؟ حلّوا عتي»، وعندها نَتَصَنِّعُ لَهُجَةً دَلَالٍ: «ولو يا ديكي؟ بافره»، فَيُضَعِّقُ أديبو من كَلِمَةِ «ديكي» لِكُنْهَ يَمُدُّ يَدَهُ فِي حَرَكََةِ آلِيَةِ إِلَى الرَّفِّ، وَيُعْطِنَا مَا نُرِيدُ. وبالطَّبَعِ لَا تُقْتَصِرُ مَطَالِبُنَا عَلَى التَّبِغِ: «هَاتِ ثَمَنَ تَذَاكِرٍ لِلسَّيْنِمَا. هَاتِ قُضَامَةً سُكَّرِيَّةً. هَاتِ عِلْبَةَ سَرْدِينٍ. هَاتِ. هَاتِ. هَاتِ»، وَيَكَادُ أَبُو أديبو يُعْلِنُ إِفْلَاسَهُ بَيْنَ مَطَالِبِنَا وَمَطَالِبِ خَانَمِهِ، فَيَعُودُ إِلَى إِدَارَةِ دُكَّانِهِ بِنَفْسِهِ، مُدْرِكاً أَنَّهُ سَهَا لَوْقَتِ طَوِيلٍ عَنِ تِجَارَتِهِ الصَّغِيرَةِ، بِفِعْلِ أَنْشِغَالِهِ الدَّائِمِ بِزَوْجَتَيْهِ، الْقَدِيمَةِ أُمُّ أديبو، وَالْجَدِيدَةِ الَّتِي لَمْ يَكْتَفِ مِنْهَا بَعْدُ. وَكَانَتَا تَتَاخَرَانِ لَيْلَ نَهَارٍ، يُسَانِدُ الْقَدِيمَةُ أَوْلَادَهَا، وَيُسَانِدُ الزَّوْجُ زَوْجَتَهُ الْجَدِيدَةَ. حَزْبٌ فِي سَاحَةِ الْبَيْتِ تَعِزُّ فِيهَا الْأَخْذِيَّةُ الْمَقْدُوفَةُ، وَنَهْبٌ فِي الدُّكَانِ. بَلْ نَهْبٌ فِي الدَّكَائِنِ كُلِّهَا. الْأَوْلَادُ يَشْرِقُونَ أَبَاءَهُمْ حِينَ يَأْتِمْنُهُمْ هَؤُلَاءِ عَلَى الْبَيْعِ، فِي سَاعَاتٍ ذَهَابِهِمْ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ إِذَا سَافَرُوا؟... وَعَلَى مَضَضٍ يُسَافِرُ مَرَادُو إِلَى الْحَجِّ. إِنَّهُ يَعْرِفُ أَبْنَاءَهُ جَيِّدًا؛ يَعْرِفُهُمْ مِنْ «عَلَّة» الْفَرَنِ الَّتِي كَانَتْ تَتَنَاقَضُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَلَمْ تَنْفَعِ أَحْتِيَاطَاتُهُ، وَتَحَرِّيَاتُهُ، لِزِدْعِهِمْ، حَتَّى أَضْطَرُّ -

كَحْلٍ أَخِيرٍ - أَنْ يَتَّفَقَ مَعَ أَوْلَادِهِ عَلَى حِصَّةٍ يَوْمِيَّةٍ ثَابِتَةٍ مِنْ
 دَخْلِ الْفَرَنِ يُؤَدُّونَهَا لَهُ، وَلَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَزِيحُوا مَا يَقْدِرُونَ
 عَلَى رِبْحِهِ. وَفِعْلًا نَشِطَ الْأَوْلَادُ، وَصَارُوا يَخْبِزُونَ كَيْسِينَ مِنْ
 الطَّحِينِ بَدَلِ كَيْسٍ وَاحِدٍ، وَتَفَنَّنُوا فِي صُنْعِ نَوْعٍ مِنَ الْكَاتَوِ
 لَا يُشْبِهُ الْكَاتَوِ، وَاسْتَأْجَرُوا فِتْيَانًا لِبَيْعِهِ فِي الْحَارَاتِ، يَحْمِلُونَهُ
 عَلَى رُؤُوسِهِمْ فِي صَاجَاتٍ مُرَبَّعَةٍ، تَحْفُ بِهَا هَالَاتٌ نَوْرَانِيَّةٌ
 مِنَ الذُّبَابِ، وَالزَّنَابِيرِ الشَّرِيهَةِ.

لَقَدْ حَلَّ مَرَادُو مُشْكِلَةِ الْفُرَنِ، أَمَّا الدُّكَانُ... آه يَقُولُ
 مَرَادُو. آه. وَسَلَّمَهُمُ الدُّكَانُ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ...»، مُتَوَكِّلًا
 عَلَى اللَّهِ، ثُمَّ مَضَى.

وَوَفَّقَ أَوْلَادُ مَرَادُو بَيْنَ شُغْلِهِمْ فِي الْفَرَنِ وَشُغْلِهِمْ فِي
 الدُّكَانِ. كَانَ يَمْضِي أَحَدُهُمْ بَاكِرًا، وَبِالتَّحْدِيدِ مُحَمَّدٌ، الْأَصْغَرُ
 مِنْ بَشِيرٍ وَحُسَيْنٍ الْفَرَّانَيْنِ، وَيَأْتِي بِالطَّحِينِ عَلَى عَرَبِيَّةٍ،
 وَبِصِنَادِيْقِ الْبَنْدُورَةِ، وَالْكَوسَا، وَالشُّكْرِ، عَلَى عَرَبِيَّةٍ ثَانِيَّةٍ. عَرَبَتَا
 جَرَّ، كُلُّ عَرَبِيَّةٍ يَقُودُهَا رَجُلٌ بَدَلِ الْحِمَارِ. وَقَدْ اتَّفَقَ الْإِخْوَةُ
 عَلَى أَنْ يُدِيرَ مُحَمَّدٌ الدُّكَانَ، وَكَانَ بَشِيرُ يَرْشُونَا لِمُرَاقَبَتِهِ:
 «أَنْتِ» يَهْتِفُ. «أَنْتِ، قِفْ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ، وَأَبْلِغْنِي أَيْنَ يُحْبَىءُ

ما يَسْرِقُ». وَيَرْجِعُ الْمُرَاقِبُ سَرِيعاً: «ثَمَّتْ ثَقْبٌ فِي حِزَامِهِ
 الْعَرِيضِ. يَا أَلَلَّهُ. ثَقْبٌ يَحْشُرُ فِيهِ النُّقُودَ الْوَرَقِيَّةَ بِشِيرِو». وَفِي
 كُلِّ وَشَايَةِ يُغَادِرُ بِشِيرِو الْفَرْنَ، وَيُهَشِّمُ صُنْدُوقاً خَشَبِيّاً عَلَى
 رَأْسِ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ يَعُودُ كَأَنَّ شَيْئاً لَمْ يَكُنْ. وَبَعْدَ كُلِّ صُنْدُوقٍ
 يُعَيِّرُ مُحَمَّدٌ مَحَبَّاً النُّقُودِ. وَمُحَمَّدٌ ضَخْمُ الْجَنَّةِ. كَانَ أَمْهَرُ مَنْ
 يَسْلَخُ الْقِطَاطَ بِسِكِّينِ الْقَصَابِ، وَأَمْهَرُ مُبَدِّدٍ لِنُقُودِهِ الْمَسْرُوقَةِ
 عَلَى أَسْتِئْجَارِ الدَّرَاجَاتِ. لَكِنَّهُ، فِي تَفْتُحَاتِ مُرَاهَقَتِهِ الْآنَ،
 يَدْخِرُ النُّقُودَ لِأَشْيَاءَ أُخْرَى، وَدَلِيلُهُ فِي الْإِنْفَاقِ هُوَ أَدِيبُو نَفْسِهِ.
 أَوْ خَانَمِهِ. بَاتَتْ تَضُمُّ اثْنَيْنِ إِلَى صَدْرِهَا الْعَرِيضِ؛ اثْنَيْنِ أَكْثَرَ
 سَخَاءً، فِي لَحْظَاتِ حَيَاتِهِمَا، مِنْ الْكِبَارِ الَّذِينَ يَدْفَعُونَ لَهَا
 بِمِقْدَارِ مَا يُسَاوِيهِ جَسَدُهَا مِنْ ثَمَنِ. أَمَّا أَبْنَاهَا، فَلَدَيَهُمَا عَرِيزَةٌ
 مُغَادِرَةٌ الْبَيْتِ فِي أَسْتِمْرَارٍ، حِينَ يَطْرُقُ زَيْبُونُ مَا أَلْبَابَ.

يَتَعَرَّى أَدِيبُو وَمُحَمَّدٌ مَعاً، وَتَتَعَرَّى خَانَمُهُ. يَبْدَأُ أَحَدُهُمَا،
 وَيَنْتَظِرُ الْآخَرُ عَلَى كُرْسِيِّ الْقَشِّ. هَذَا مَا يَقُولَانِهِ لَنَا، أَنَّ لَمْ
 يَغْدِ الْأَمْرُ سِرّاً. وَيَتَفَكَّهُ مُحَمَّدٌ ضَاحِكاً: «تَبْدُو مُؤَخَّرَةٌ أَدِيبُو
 كَكُرَةِ قَدَمٍ فِي مَزْمَى خَانَمِهِ. تَزْنِجُ هَكَذَا: طط، طط». وَيَحْتَدُّ
 أَدِيبُو: «لَوْ تَرَى نَفْسَكَ يَا ابْنَ الْبَغْلِ، تَتَبَوَّلُ عَلَى فَخْذِكَ قَبْلَ أَنْ

تَقْتَرِبَ مِنْهَا، وَارِثُكَ كَرِثَةِ الزَّرْبَةِ»، وَتَعَارَكَانِ فِي حُشُونَةٍ. مَا هَمَّ. خَانِمَهُ تَشْتَأْهُلُ خَمْسِينَ صُنْدُوقاً مُهَشَّماً عَلَى رَأْسِ مُحَمَّدٍ، وَثَلَاثَةَ ذَكَائِينَ مَلَأَى بِالنُّقُولَاتِ مِنْ مِثْلِ دُكَانِ أَدِيبٍ. لَكِنَّ الْأُمُورَ تَبَدَّلَتْ بَعْدَ مُعَاوَدَةِ أَبُو أَدِيبٍ دُكَانَهُ، وَبَعْدَ عَوْدَةِ مُرَادٍ مِنَ الْحَجِّ. وَمُذْ ذَاكَ يَحُومُ الْمُرَاهِقَانِ حَوْلَ بَيْتِ خَانِمِهِ فَلَا تَشْتَقِبِلُهُمَا: «يَا لِلْعَاهِرَةِ. دَفَعْنَا لَكَ وَزْنَ مُؤَخَّرَتِكَ الضَّخْمَةِ لِيرَاتٍ وَرَقِيَّةٍ. يَا لِلْعَاهِرَةِ. مَرَّةً وَاحِدَةً بِاللَّهِ عَلَيْكَ»، وَتُوصِدُ خَانِمَهُ الْبَابَ: «رَاجِعَانِي إِذَا خَشَخَشْتَ جُيُوبُكُمَا يَا عُنْزَتِي»، فَيَقْدِفَانِ بَابَهَا بِالْحِجَارَةِ: «سَنُحْرِقُ بَيْتَكَ يَا خَانِمَهُ. سَنَجْعَلُكَ تُغَادِرِينَ الْحَيَّ مِنْ غَيْرِ فَرْجٍ»، ثُمَّ يُخْرِجَانِ غُضُوبَهُمَا وَيَتَبَوَّلَانِ فِي اتِّجَاهِ بَابِهَا.

كَانَتْ عَوْدَةُ مُرَادٍ مِنَ الْحَجِّ حَدَثًا. الرَّجُلُ الصَّلْبُ الْعَصَبِيُّ - بَائِعُ الْبَنْدُورَةِ الْمُعْطَنَةِ، وَالْبَيْضِ الْمَكْسُورِ لِلْقَرَوِيَّاتِ - عَادَ رَصِينًا جِدًّا، يُطَاطِئُ فِي وَرَعٍ لِلْمُهَنْتَيْنِ: «حَجًّا مَبْرُورًا»، وَيَتَبَادَلُ مَعَهُمُ الْقَبْلَ عَلَى الْأَكْتَاغِ، وَهِيَ قُبْلُ التَّوَاضُعِ وَالْاحْتِرَامِ الْجَمِّ. ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ يَدْخُلُ النَّاسُ لِلتَّهْنِئَةِ، وَيَخْرُجُونَ بِالْهَدَايَا مِنْ خَوَاتِمِ الْفِضَّةِ الرَّقِيقَةِ، وَالشُّبُّحاتِ الْمُطْعَمَةِ

بَشَدَرَاتِ الذَّهَبِ، كُلٌّ بِحَسَبِ مَقَامِهِ. وَتِلْكَ عَادَةُ الْعَائِدِينَ مِنْ
الْحَجِّ، يَجْلِبُونَ الْخَوَاتِمَ وَالسُّبُحَاتِ، وَقَوَارِيرَ مِنْ مَاءٍ زَمْزَمَ لَا
يَذُوقُهَا إِلَّا الْخَاصَّةُ، وَسَجَادَاتٍ، مَرَايَا مَرْسُومٍ عَلَى أَقْفَيْتَيْهَا
الْكَعْبَةُ وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ؛ خَزَدَوَاتٍ، وَمَلَائِمَ رَشَادِيَّةً كَانَتْ
زَهِيدَةً الثَّمَنِ آنَ ذَاكَ، هَدَايَا... هَدَايَا. حَتَّى الصَّبِيَّةِ، مِنْ أُمَّثَالِنَا،
لَهُمْ حِصَّتُهُمْ. وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ نَقْدِرُ عَلَى مُجَابَهَةِ مَرَادٍ بِوَقَارٍ
مُتَصَنِّعٍ كَوَقَارِهِ. نُقْبَلُ يَدَهُ تَبَرُّكاً، فَيَنْحَنِي لِيُدَسَّ فِي أَيْدِينَا شَيْئاً
مِنْ مَعَادِينِهِ. وَحِينَ نَخْرُجُ نَتَّقِلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَنَجْمَعُ هَدَايَانَا
كُلَّهَا لِنَبِيعَهَا لَصَائِفِ فِضَّةٍ، مُشْتَرِينَ بِثَمَنِهَا رَغِيفاً عَلَيْهِ خَلَاوَةٌ
حَمَوِيَّةٌ، وَمِنْ ثَمَّ نَقْتَسِمُهُ فِي طَرِيقِنَا إِلَى مُسْتَنْقَعِ قَاسِمُو
لِلسُّبَاخَةِ.

بِالطَّبْعِ، لَمْ يَمُضِ أُسْبُوعَانِ إِلَّا وَعَادَ مَرَادٍ إِلَى طَبِيعَتِهِ
الثَّابِتَةِ. يَطْرُدُنَا مِنَ الْفُرْنِ وَمِنْ أَمَامِ الدُّكَانِ، مُشْتَبِهاً بِنَا أَبَداً.
صَارِخاً هُنَا، صَارِخاً هُنَاكَ: «فَلْتَبْتَغِدِ الْقَرَوِيَّاتِ عَنْ صَنَادِيقِ
الْبَنْدُورَةِ»، وَالْقَرَوِيَّاتِ يَتَجَمَّعْنَ أَمَامَ دُكَّانِهِ كُلِّ ظَهِيرَةٍ، يَشْتَرِينَ
الْبَنْدُورَةَ الْمَمْعُوسَةَ، وَالْبَطِيخَ الْأَضْفَرَ الْمَغْطُوبَ، بِأَسْعَارٍ بَخْسَةٍ،
ثُمَّ يَمْضِينَ إِلَى قُرَاهُنَّ مَشِياً عَلَى الْأَقْدَامِ، بَعْدَ مَا جِئْنَ إِلَى

الْمَدِينَةِ فَجَرَأَ بِأَوْعِيَّتِهِنَّ الْمَعْدِنِيَّةَ الصَّغِيرَةَ لِبَيْعِ اللَّبَنِ، أَوْ
مَا تَمَيَّسَ مِنَ الدَّجَاجَاتِ وَالْبَيْضِ.

... وَمُحَمَّدٌ يَحُومُ حَوْلَ دُكَّانِ وَالِدِهِ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ أُدَيْبُو،
مَنْ غَيْرِ أَنْ تَسْنَحَ لَهُمَا فُرْصَةً قَطُّ. آه خاتمه. العاهرة تَفْتَحُ
الْبَابَ وَتَوْصِدُ الْبَابَ. رَائِخٌ وَغَايِدُ. وَالْمُزَاهِقَانِ يَنْفَجِرَانِ: «بِاللَّهِ
دَعِينَا نَرَى فَحَذِّكَ فَقَطُّ... وَلَوْ؟». لَا فَائِدَةَ. «سَتُعَادِرِينَ الْحَيَّ
مَنْ غَيْرِ فَرْجٍ»، يَتَوَعَّدَانِ.

بَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ ذَلِكَ يَكْسِرَانِ زُجَاجَ النَّافِذَةِ. وَبَعْدَ أَيَّامٍ أُخْرَى
يُلْقِيَانِ بِرُزْمَةٍ مُفَرَّقَاتِ هَائِلَةٍ مِنَ النَّافِذَةِ فَيَحْتَرِقُ فِرَاشُ خاتمه.
وَبَعْدَ شَهْرٍ يَتَحَيَّنَانِ أَنْ يَكُونَ الْبَيْتُ خَالِياً فَيَخْلَعَانِ النَّافِذَةَ
الْحَشِيشِيَّةَ بِحَبْلِ يَجُرُّهُ حِمَارٌ، وَيُلْقِيَانِ إِلَى الدَّخْلِ بُحْثَةً كَلْبٍ...
وَبِمَنْ تَسْتَنْجِدُ خاتمه؟ أَهْلُ الْحَيِّ يَمْقُتُونَهَا، وَلَنْ يُحَرِّكُوا
سَاكِنَاءَ الشُّرْطَةِ؟ لَا. وَتُعَادِرُ إِلَى حَيِّ قَدَرُوا بِكَ فِي شَرْقِيٍّ
الْمَدِينَةِ، حَيْثُ تُؤَسِّسُ وَتُكْرَأُ يَذْهَبُ كَالرَّيْشِ فِي أَوَّلِ مُدَاهِمَةٍ
لِلشُّرْطَةِ؛ وَتُسَجَّنُ، فَلَا نَسْمَعُ عَنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ.

آه خاتمه. سَتَتَانِ أَوْ أَكْثَرُ بَقَلِيلٍ؛ سَتَتَانِ وَيَكْتَشِفُ الْمُزَاهِقُونَ
أَعْمِدَةً كَثِيرَةً مِنَ اللَّحْمِ. يَجْثُونَ وَيَلْهَثُونَ. فَالطَّرِيقُ إِلَى السُّوقِ

الْعُمُومِيَّةُ بَرِيَّةٌ مَكْشُوفَةٌ مِنَ الطَّيْنِ، وَفِي آخِرِهَا تَسْتَوِي حَفْنَةٌ
مِنَ الْبُيُوتِ الْقَدِيمَةِ، مُتَّصِلَةٌ بِوَسَاطَةِ أَهْبَاءٍ مُعْتَمَةٍ رَطْبَةٍ، وَلَهَا
سُقُوفٌ خَشَبِيَّةٌ تَصُرُّ صَرِيرًا تَحْتَ خِصْيَةِ الرِّيحِ. هُنَاكَ
سَيَفْتَتِحُونَ زَوْبَعَتَهُمُ الثَّانِيَةَ يَا خَانِمَهُ، وَلَنْ يُكَلِّفَهُمُ الْأَمْرُ عَشْرَ
مَا كُنْتَ تَأْخُذُ بِهِ. قَدْ لَا تَكُونُ النِّسَاءُ الشَّبَحِيَّاتُ بَيْنِضَاوَاتٍ
مِثْلِكَ تَمَامًا، لَكِنَّهُنَّ مُسْتَدِيرَاتٌ أَيْضًا، يَتَدَلَّى لَحْمُهُنَّ عَلَى
الْأَرْضِ إِذَا جَلَسْنَ عَلَى أَرَائِكِهِنَّ الْمَتَفَسِّخَةِ، وَإِنَّمَا نَهَضْنَ
أَزْتَجَّتْ أَغْضَاؤُهُنَّ كَسَحَلَبٍ كَثِيفٍ عَلَى عَرَبَةٍ تَجْتَازُ مَطَبَاتٍ.
هُنَاكَ، عَلَى مَرْمَى شُعَاعِ غُضُوبِيٍّ، أَوْ سَهْمٍ مِنْ سِهَامِ اللَّهْفَةِ،
تَنْهَضُ مَقْبَرَةُ النِّسَاءِ الشَّبَحِيَّاتِ بِسُقُوفِهَا الْمُنْحَنِيَّةِ، وَأَيْنِهَا الْعَابِقُ
بِالْمَرَاهِمِ الطَّبِيبَةِ، وَالصَّابُونَ الرَّحِيصِ. مَمْلَكَةٌ مُهْمَلَةٌ، يَدْخُلُهَا
الْعَابِرُونَ بِأَسْرَارِهِمْ وَيَثْرُكُونَهَا عَلَى الْأَسِرَّةِ. يَدْخُلُونَهَا مُمَسِّكِينَ
بِصَوْلَجَانَاتِ الْفَرَاغِ، وَيَخْرُجُونَ مُعْتَمِرِينَ تِيْجَانَ الْفَرَاغِ. عَابِرُونَ
يُشِيحُونَ بِوُجُوهِهِمْ، بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ؛ يُحَدِّقُونَ فِي أَخْذِيَّتِهِمْ،
وَإِذَا رَفَعُوهَا فِإِلَى وَجْهِهِ شَبَّحَ يَخْتَارُونَهُ لِإِعْتِرَافِهِمُ الْجَسَدِيَّ.
هُنَاكَ يَا خَانِمَهُ، هُنَاكَ، بَعْدَ سَنَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ قَلِيلًا، سَيَتَبَوَّأُ
الْقَادِمُونَ الصُّغَارَ عَلَى أَجْسَادِهِمْ، وَعَلَى آلِهَتِهِمْ، وَحُكُومَاتِهِمْ،

وَأَهْلِهِمْ، وَقَوَانِينَ أَهْلِهِمْ. سَيَتَوَاطَوْنَ عَلَى الْمَدْرَسَةِ، وَعَلَى
 الْعَصْرِ الَّذِي قَدَّرَ لَهُمْ أَنْ يُولَدُوا فِي هَذَا الْغَرَاءِ الْعَضْبَانِ، وَفِي
 هَذِهِ الْجِهَةِ مِنَ الْأَرْضِ، وَتَحْتَ هَذَا الْحُتْمِ الصَّلْصَالِي، الَّذِي
 يَغْمِسُهُ الْجَاهِلُونَ فِي الرُّعْبِ، وَيَمْهَرُونَ بِهِ صَحَائِفَ الْهَوَاءِ
 وَكَرَارِيسَ دَمِنَا، هُنَاكَ، عَلَى أَسِرَّةٍ غَسَلَهَا جِيلٌ سَابِقٌ بِعَرَقِ
 رَوْحِهِ، سَيَجْثُو جِيلٌ جَدِيدٌ مُحْتَضِناً بِذِرَاعَيْهِ، وَبِأَعْمَقِ أَعْمَاقِهِ،
 كُرَاتٍ حَيَّةً، تَنْبِضُ تَحْتَ قَشْرَةِ سَمِيكَةٍ مِنْ أَخْمَرِ الشَّفَاهِ
 وَالْكُحْلِ؛ كُرَاتٍ تَتَفَتَّحُ فِي كَسَلٍ، وَتُرَبُّتٌ عَلَى مُؤَخَّرَاتِ
 الرِّجَالِ: «نَعِيمًا»، فَيَنْهَضُونَ إِلَى صُنْبُورِ الْمِيَاهِ مُتَقَرِّزِينَ مِنْ
 أَعْضَائِهِمْ. هُنَاكَ، كُلُّ شَيْءٍ يَبْدَأُ مِنْ هُنَاكَ: الضَّرْبَةُ الْأُولَى
 لِلزَّوْجِ، وَالضَّرْبَاتُ الْأَلْفُ لِلْمَصَائِرِ الْحَامِضَةِ كَنَبِيدِ فَايِدِ.
 مَرْحَى جِيلِي... مَرْحَى.

لَا يَدُومُ إِفْلَاسُ مُحَمَّدٍ طَوِيلًا، فَمَرَادُو وَآئِنُهُ الْفَرَّانُ بِشِيرُو
 عَلَى خِصَامٍ. يُحَسُّ بِشِيرُو، آئِنُ الْعِشْرِينَ عَامًا، أَنَّهُ بَاتَ عَلَى
 قَدْرِ مِنَ الثَّقَلِ بِنَفْسِهِ وَيَفُزُّهُ لَا يَسْمَحُ لِيُوسَاوِسَ وَالِدِهِ
 بِزَعْرَعَتِهَا، وَلَا لِلْجَاجَةِ أَنْ تَطْغَى. وَبَاتَ يَكْرَهُ كَرَاهِيَةً غَرِيبَةً
 تَرْدُدُ وَالِدِهِ عَلَى بَابِ الْفُزْنِ، حَيْثُ يُقْرَفُصُ عَلَى مَذْخَلِ الدَّرَجِ

وَقَدْ تَدَلَّتْ خِصْيَتَاهُ الدَّاكِنَتَانِ مِنْ تَحْتِ دُشْدَاشَتِهِ، يُلْقِي
أَوَامِرَهُ، أَوْ يَسْتَوْضِحُ الْأُمُورَ مِنْ دُونِ دَاعٍ. وَحِينَ بَلَغَتْ
الْخُصُومَةُ مَدَاهَا، ضَرَبَهُ بِشِيرُو بِمِجْدَافِ الْفُرُونِ فَانْهَارَ الْأَبُ
مُتَدَخِرِجاً عَلَى الدَّرَجِ إِلَى الْقَبْوِ، وَمِنْ الْيَوْمِ ذَاكَ، تَسَلَّمَ مُحَمَّدٌ
مَكَانَ حُسَيْنٍ، يُرَقِّقُ قِطْعَ الْعَجِينِ؛ وَاسْتَلَّمَ حُسَيْنُ مَكَانَ بِشِيرُو
أَمَامَ الْفُؤْهِمَةِ اللَّهْبِيَّةِ، الَّتِي تَتَفَجَّرُ دَاخِلَهَا، بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ،
فُغْرَانُ ضَالَّةٌ. أَمَّا بِشِيرُو فَقَدْ اَلْتَحَقَ بِفُرُونٍ آخَرَ، قُرْبَ الْجِسْرِ
الْقَدِيمِ فِي شَرْقِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ يَشْتَكِي، طَوَالَ الْوَقْتِ، مِنْ
صَاحِبِ الْفُرُونِ بِاسِيلِ الْأَحُولِ، الَّذِي يَتْرُكُهُ أَثْنَاءَ الْعَمَلِ وَلَا
يَعُودُ، فَيُضْطَرُّ بِشِيرُو أَنْ يَغْجِنُ، وَيُرَقِّقَ الْعَجِينَ، وَيَقْدِفَ بِهِ إِلَى
بَيْتِ النَّارِ، وَيُخْرِجَ الْأَرْغِفَةَ حِينَ تَنْضُجُ، وَفَوْقَ هَذَا كُلِّهِ يَقِفُ
أَمَامَ الْمِيزَانِ الصَّدْيِ ذِي الْكَفَّتَيْنِ الثَّحَاسِيَّتَيْنِ لِيَبْعَ الْخُبْزَ.

يَظَلُّ بِشِيرُو مُشْتَكِيًا، وَيَظَلُّ بِاسِيلُ الْأَحُولِ عَلَى حَالِهِ.
«أَيْنَ يَمْضِي أَتَيْتُ السَّحْلِيَّةَ؟» يَقُولُهَا مُتَدَمِّرًا، «سَأَذُلُّ الْكَازَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَأَمْضِي». لَكِنَّ تَدَمُّرَهُ يَخْفُتُ بَيْنَ الْحَيْنِ
وَالْحَيْنِ، أَنْ تَزُورَهُ زَوْجَةُ صَاحِبِ الْفُرُونِ الشَّابَّةُ، مُبْتَسِمَةً
دَائِمًا، تَحْتَضِنُ طِفْلاً إِلَى صَدْرِهَا، وَتَقُودُ آخَرَ مِنْ يَدِهِ.

«غَابَ كَعَادَتِهِ... هَا؟» تَسْأَلُ بِشِيرُو، فَيُجِيبُهَا بِعَيْنَيْنِ خَفِضَتَيْنِ
 مِلْؤُهُمَا الرِّغْبَةُ: «كَعَادَتِهِ سَيِّدَتِي، كَعَادَتِهِ»، وَيَتَكَلَّفُ حَرَكَاتِ
 سَرِيعَةً بِالْمَجْذَابِ لِإِخْرَاجِ الْأَرْغَفَةِ، حَتَّى تَلْحَظَ عَضَلَاتِ
 زَنْدَيْهِ، وَهِيَ تَلْحَظُهَا بِالطَّبْعِ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَلْفِتَ أَنْتِبَاهَهُ إِلَى
 إِعْجَابِهَا.

كَانَتْ تَزُورُ الْفُرْنَ لِمَامًا، فِي الْأَيَّامِ الْأُولَى لِمَجِيءِ بِشِيرُو،
 لَكِنَّهَا بَاتَتْ تَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ كَثِيرًا، آلَانَ. تُوصِي أَتْنَهَا الْبِكْرَ ذَا
 السَّنَوَاتِ السَّتِّ بِأَخِيهِ، ثُمَّ تُشَمِّرُ كُفَيْهَا لِتَقْطَعَ الْعَجِينَ وَتُرْفَقُهُ.
 وَكُنَّا نُخَفِّفُ عَنْ بِشِيرُو فِي زِيَارَاتِنَا الْمُسْتَدِيمَةِ، فَتَتَوَلَّى الْبَيْعَ،
 مُتَشَمِّمِينَ بُرُوقًا مِنَ الطَّحِينِ الْأَبْيَضِ بَيْنَ الْفَرَانِ الشَّابِّ وَبَيْنَ
 زَوْجَةِ مُعَلِّمِهِ الْمُهْمَلَةِ. وَقَدْ تَقَصَّدْنَا، ذَاتَ مَرَّةٍ، أَنْ نَوْقِفَ سَيْلَ
 تِلْكَ الْبُرُوقِ الْخَفِيفَةِ: «أَيْنَ يَذْهَبُ الْمُعَلِّمُ بِاسِيْلُ يَا سَيِّدَتِي؟»،
 وَكَأَنَّمَا أَفَاقَتْ مِنْ نِعْمَةٍ غِيَابِهِ، فَأَشَارَتْ بِيَدِهَا إِشَارَةً مَنْ يَطْرُدُ
 الْآخَرَ فِي اخْتِقَارٍ: «يَذْهَبُ إِلَى فَوْجِ أُمِّهِ»، فَتَدَارِكُهَا بِشِيرُو
 مُخَفِّفًا: «الْمُعَلِّمُ طَيِّبٌ يَا سَيِّدَتِي، لَكِنَّ هَذِهِ الْعَادَةُ...»،
 فَقَاطَعَتْهُ كَمَنْ يُبَرِّزُ لِنَفْسِهِ أَمْرًا مُبَيَّنًّا يَتَرَاى فِي الْأُفُقِ:
 «سَيَقَامُ بِالْفُرْنِ كُلِّهِ، وَقَدْ يَأْتِي دَوْرِي لِيقَامِ عَلَيَّ. شَرُّهُ أَحَوْلُ

كَعَيْنِهِ الْحَوْلَاءِ»، وَضَرَبَتْ بِقِطْعَةٍ عَجِينٍ عَلَى الْمِنْضَدَةِ
الْخَشَبِيَّةِ فَتَطَايَرَ الطَّحِينَ الْحَفِيفُ.

هَكَذَا بِاسِيلُ؟ هَكَذَا إِذَنْ؟ تَأْخُذُ غَلَّةَ الْفُرُونِ مِنْ بَشِيرٍ
صَبَاحاً وَتَمْضِي إِلَى قَرَاةِ السِّيَّارَاتِ، وَهُنَاكَ تَجْتَمِعُ بِأَصْحَابِكَ
حَوْلَ طَاوِلَةٍ مُلَوَّثَةٍ بِالشَّحْمِ وَبِبُرَادَةِ الْحَدِيدِ، حَيْثُ يَتَنَاوَبُ
الْمَهْزُومُونَ عَلَى هَزَائِمِهِمْ، وَشَطَّ أَكْوَامٍ مِنَ الدَّوَالِبِ الْمَطَاطِيَّةِ
أَبَالِيَةٍ، وَالْمُحَرِّكَاتِ الْمَكْسُورَةِ، وَالْبَرَاغِي الْمُتَفَاوِتَةِ الْأَحْجَامِ،
وَالْمَطَارِقِ الَّتِي تَهْوِي بِهَا أَيْدِي الْعَمَالِ عَلَى قُضْبَانٍ مُلْتَوِيَةٍ. لَا
أَحَدَ يَسْمَعُ شَيْئاً. ضَجِيجٌ فِي الْحَنَاجِرِ وَضَجِيجٌ فِي الْحَدِيدِ.
الْعُيُونُ، وَخَدَهَا، تَتَقَرَّى الْعُيُونُ وَالْوَرَقَ الْمُسْتَطِيلَ الصَّغِيرَ.
هَكَذَا إِذَنْ؟!

... وَالزَّوْجَةُ الشَّابَّةُ تَحْتَدِمُ: «الْأَحْوَلُ يَرَى الْوَرَقَةَ وَرَقَتَيْنِ،
فَكَيْفَ لَا يَخْسِرُ فِي آسِئْمَارٍ؟». آه لِلْبُرُوقِ. آه لِلْبُرُوقِ الطَّحِينِ.
إِنَّهَا تَتَعَمَّدُ أَنْ تَدُورَ نِصْفَ دَوْرَةٍ مِنْ حَوْلِ مِنْضَدَتِهَا إِلَى الْفُوْهَةِ
الْلَّهَبِيَّةِ، حَيْثُ يَكُونُ بَشِيرٌ مُنْحَنِياً قَلِيلاً يُرَاقِبُ الْأَرْغِفَةَ،
فَتَنْحَنِي بِدَوْرِهَا، لِتَدُلَّهُ، أَمْرَةً فِي تَوَدُّدٍ: «ذَاكَ الرَّغِيفُ... بَلْ
ذَاكَ، يَكَاذُ يَحْتَرِقُ»، وَهِيَ لَا تَنْحَنِي إِلَّا لَتَشَمَّ ظَهْرَهُ الْعَارِي، أَوْ

إِبْطَهُ، نَشَوَى بِنُشَارَاتِ الْعَجِينِ الصَّغِيرَةِ الْمُلْتَصِقَةِ بِشَعْرِ يَدَيْهِ.
 آه لِلْبُرُوقِ. آه لِلْبُرُوقِ الطَّحِينِ، فَالَّذِي لَا يَكْتَمِلُ أَمَامَ عُيُونِنَا
 يَنْقُلُهُ لَنَا بِشِيرُو: «لَقَدْ أَنْهَارَتْ عَلَيَّ بِثِقَلِ لَحْمِهَا». يَقُولُ ذَلِكَ
 بَعْدَمَا تَرَكَ الْفِرَانَ الْمُقَامِرَ، وَصَالَحَ أَبَاهُ فَعَادَ إِلَى فُرْزِهِ الْخَاصِّ:
 «حَصَلَ ذَاتَ فَجْرٍ. جَاءَ بَاسِيلُ، أَخَذَ الْعَلَّةَ وَمَضَى. كُنْتُ مُنْكَبًّا
 عَلَى الْمَعْجَنِ، وَقَدْ غَاصَتْ يَدَايَ فِي الْعَجِينِ حَتَّى الْمِرْفَقَيْنِ.
 وَكَانَ بَابُ الْفُرْنِ الشَّيْكِ مَرْفُوعاً إِلَى نِصْفِهِ فَقَطُّ، فَدَخَلْتُ لَامُو
 مِنْ تَحْتِهِ مُنْحِنِيَّةً، ثُمَّ أَسْدَلْتُهُ وَرَاءَهَا، وَسَدَّتهُ بِالسَّائِرِ الْخَشْبِيِّ
 مِنَ الدَّاخِلِ. فَهَمْتُ حَرَكَتَهَا، لَكِنِّي تَحَاشَيْتُ أَنْ أَبَادِرَ، بَلْ
 تَصَنَّعْتُ تَأْفُفِي الْمَعْتَادَ مِنْ زَوْجِهَا وَمِنْ فُرْزِهِ. لَمْ تَرُدَّ عَلَيَّ.
 تَقَدَّمْتُ وَطَوَّقْتُ خَاصِرَتَيَّ مِنْ وَرَاءِ. هَمَسْتُ: لَامُو، مَاذَا
 تَفْعَلِينَ؟ كَانَتْ تَزْتَجِفُ. شَدْتُ شَعْرِي بِقُوَّةٍ إِلَى الْخَلْفِ،
 وَأَهْوَيْتُ بِفِيهَا عَلَى فَمِي. لَامُو، الْعَجِينُ... يَدَايَ... الْعَجِينُ.
 كَانَتْ تَزْتَجِفُ وَتَلْهَثُ. سَقَطْنَا مَعاً عَلَى كَيْسِ طَحِينِ فُرْزِ
 الْمَعْجَنِ. قُلْتُ لِنَفْسِي: مَا لَكَ يَا وَلَدٌ؟! وَطَوَّقْتُهَا بِذِرَاعِي
 الْمُخَضَّبَتَيْنِ بِالْعَجِينِ. طَوَّقْتُ شَعْرَهَا، وَخَصَرَهَا، وَفَخَذَيْهَا،
 مُتَنَقِّلاً بِفَمِي بَيْنَ وَجْهِهَا وَقَدَمَيْهَا يَا شَبَابَ. فَوْقَ ثَوْبِهَا وَتَحْتَ

ثَوْبِهَا. صِرْنَا كَرِغِيْفٍ حَلْبِيٍّ. جَثَّتْ هَاتِفَةٌ: مِنْ وَرَاءَ... خُذْ
شَرَفَ الْأَحْوَلِ. آه يَا شَبَابُ. أَرْبَعَ مَرَّاتٍ قَبْلَ أَنْ نَسْمَعَ خُطَوَاتِ
أَوَّلِ زَبُونٍ. أَرْبَعَ مَرَّاتٍ يَا شَبَابُ وَهِيَ تَعْنُ وَتَيْئُ، وَتُعَقِّبُ نَحْنُ
عَلَى كَلَامِهِ: «حَلُو أَبُو الْبِشْرِ... حَلُو».

كَانَ الْفَضْلُ خَرِيفاً حِينَ تَرَكَ بِشِيرُو مُعَلِّمَهُ الْأَحْوَلِ. وَلَمَّا
جَاءَ الشِّتَاءُ مَوْجَةً مَوْجَةً مِنْ طَحِينِ سَمَاوِيٍّ أَبْيَضَ، وَبُرُوقاً
شَارِدَةً مِنْ فُوْهَةِ الْفُرُونِ الَّذِي يَغْلُو الْغُيُومَ، سَرَتْ قِصَصُ مُنَلَّجَةٍ
عَنْ بَاسِيْلَ الْأَحْوَلِ «غَادَرَ الْفُرُونُ قَبْلَ شَهْرَيْنِ، وَلَمْ يَعُدْ بَعْدُ».
«رَأَوْهُ أَخيراً، رَأَوْا جُثَّتَهُ». أَوَّه. «لَا رَأْسَ لَهَا. عَرَفُوهُ مِنْ ثِيَابِهِ،
وَمِنْ نُذْبَةِ الْجُدْرِيِّ الْكَبِيرَةِ عَلَى عَضْدِهِ». آه. «عَثَرُوا عَلَى الرَّأْسِ
الْمَقْطُوعِ عَلَى مَبْعَدَةِ مَائَتِي مِثْرٍ مِنَ الْجُثَّةِ». هَا. «تَلَجَّ أَحْمَرُ فِي
دَائِرَةِ قُطْرُهَا أَرْبَعُونَ مِثْراً حَوْلَ الْجُثَّةِ». مِنْ أَيْنَ كُلُّ ذَلِكَ الدَّمُ؟
«الرَّأْسُ مُهَشَّمٌ بِمِطْرَقَةٍ». أَوْلَادُ «قَدَّورِ بَكِ» وَخَدَهُمْ يَسْتَطِيعُونَ
فِعْلَ ذَلِكَ. أَوْلَادُ حَارَةِ قَدَّورِ بَكِ، أَلَا كَثُرَ نَهْباً لِلْمَقَابِرِ فِي
الْأَرْضِ. وَنَهَزُ رُؤُوسَنَا. نَحْنُ نَعْرِفُهُمْ. وَخَدَهُمْ يَسْتَطِيعُونَ فِعْلَ
ذَلِكَ بِبَاسِيْلَ الْأَحْوَلِ. فَمِنْ أَجْلِ خَاتَمٍ، أَوْ ثَوْبٍ، يَنْبِشُونَ أَرْبَعِينَ
قَبْراً قَدِيماً وَجَدِيداً فِي اللَّيْلَةِ الْوَاحِدَةِ، وَلَا يَزْدُمُونَهَا. وَضَعَتْ

الْحُكُومَةُ حَارِسِينَ عَلَى الْمَقْبَرَةِ وَلَمْ تَسْلَمْ الْقُبُورُ. يَأْتُونَ كَبَنَاتٍ
 آوَى إِلَى مَقْبَرَةِ الرُّومِ إِذَا سَمِعُوا بَدْفِنٍ جَدِيدٍ، وَقَدْ وَاكَبْنَاهُمْ
 مَرَّتَيْنِ، لِنُغْلِبَنَّ لَهُمْ أَنَّ أَوْلَادَ الْحَيِّ الْعَرَبِيِّ لَا يَخَافُونَ. وَاكَبْنَاهُمْ
 بِرُغْمِ الْخُصُومَةِ الَّتِي لَا تَنْتَهِي بَيْنَنَا. نَحْنُ، أَوْلَادُ الْحَيِّ الْعَرَبِيِّ،
 نَقُولُ لَهُمْ، أَوْلَادُ أَغْوَاتٍ وَمَلَالِي وَتُجَارٍ قَمَحٍ، لَسْنَا وَادِعِينَ قَطً.

فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى نَبَشُوا قَبْرَيْنِ لَمْ يَكُنَا الْمَقْصُودَيْنِ. فَاحْتِ
 رَوَائِحُ غَرِيبَةً، وَهَاجَتْ أَشْبَاحُ اخْتَلَطَتْ بِضَرَاحِ الْحَارِسِينَ
 فَهَرَبْنَا. وَفِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ أَخْرَجُوا جُثَّةَ فَتَاةٍ فِي الثَّلَاثَةِ عَشْرَةِ،
 طَارَاجَةً، لَمْ تَنْفُخْ فِيهَا الْأَرْضُ مِنْ رُوحِ خَشَاشِهَا بَعْدُ. عَزَّوْهَا -
 أَوْلَادُ قَدُورِ بَك - وَمَثَلُوا أَمَامَ أَغْيِينَا اللَّيْلِيَّةِ فَضَلَّ آغْتِصَابِ
 مُدْمِرٍ. قُلْنَا لَهُمْ - بَعْدَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ - لَا تَسْتَهْوِينَا الْمَقَابِرُ. تَعَالَوْا
 مَعَنَا - إِذَا كُنْتُمْ جَرِيئِينَ - إِلَى غَايَةِ الْهَلَالِيَّةِ لَيْلًا، لِكِنَّهُمْ أَبَوْا أَنْ
 يَنْجَرَّوْا إِلَى «الْفَخِّ» بِحَسَبِ مَا سَمَى عُقْلَاؤُهُمْ دَعْوَتَنَا. وَاقْتَرَفْنَا.
 بَعْدَ أَنْ أَوْلَادُ قَدُورِ بَكِ اسْتَمَرَّوْا فِي نَبَشِ الْقُبُورِ بِالرُّغْمِ مِنْ
 حُرَّاسِ الْحُكُومَةِ، وَحِينَ اسْتَفْحَلَ الْأَمْرُ شَدَّتِ الْبَلَدِيَّةُ سُورًا
 صَحْمًا حَوْلَ الْمَقْبَرَةِ، فَحَفَرَ أَوْلَادُ قَدُورِ بَكِ أَسَاسَاتِ السُّورِ
 وَعَبَرُوهُ. إِذْ ذَاكَ اسْتَسْلَمَتِ الْحُكُومَةُ، وَالْبَلَدِيَّةُ، وَالْمَقْبَرَةُ، لِأَمْرِ

لا رَادَّ لَهُ؛ لِأَمْرِ كَأَلْقَدَرٍ، وَكَأَلشُّمَالِ الَّذِي خَلَقْتُهُ أَلَّاهَةً،
مُصَادَفَةً، مِنْ ضَجْرِهَا.

نَعَمْ. أَوْلَادُ قَدَّورِ بَكَ قَطَعُوا رَأْسَ بَاسِيلَ الْأُخُولِ، نَقُولُ
لِبَشِيرُو، فَيَنْظُرُ إِلَيْنَا فِي اسْتِخْفَافٍ: «لا. أَصْحَابُهُ الْمُقَامِرُونَ
يَا بُلَهَاءُ. أَصْحَابُهُ فَعَلُوا ذَلِكَ». وَنَزِنُ الْأَمْرَ فِي رُؤُوسِنَا فَتَرَاهُ عَلَى
حَقٍّ. غَيْرَ أَنَّ بَاسِيلَ عَادَ حَيًّا بِشَحْمِهِ وَلَحْمِهِ. بِجَذْعِهِ وَرَأْسِهِ
مَعًا، يَتَكَلَّمُ وَيَشْتَعِلُ فِي الْفُرُونِ كَسَابِقِ عَهْدِهِ، وَ... أُخُولُ. هَرَبَ
مَنْ دُيُونَهُ إِلَى الْعَاصِمَةِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، وَعَادَ فَسَدَّدَهَا. يَا لِلْحِكَايَةِ.
لَكِنَّ جَدَّ عَزَّو شَغَلْنَا بِمَوْتِهِ، فَتَسِينَا بِبَاسِيلَ.

فَفِي يَوْمٍ لَمْ نَكَدْ نُفِيْقُ فِيهِ مِنَ الضَّحِكِ جَاءَنَا الْخَبَرُ. كُنَّا
نَضْحَكُ مِلَاءَ رِثَاتِنَا. نَضْحَكُ وَنَتَلَوَّى مِنْ وَجَعِ الضَّحِكِ.
نَضْحَكُ وَنَتَمَرَّغُ عَلَى الثَّرَابِ الرَّمَادِيِّ، رَافِعِينَ سِيقَانَنَا فِي
أَلْهَوَاءِ كَزِيرِ مَقْلُوبٍ عَلَى ظَهْرِهِ. نَضْحَكُ مِنْ أَبِي زُرْزِي الَّذِي
أَبْتَلَعَ عُصْفُورًا حَيًّا بِكَامِلِ رِيْشِهِ فَحَمَلُوهُ عَلَى نَقَالَةٍ إِلَى
الْمُسْتَشْفَى. وَأَبْنُ زُرْزِي أَقْرَبُ إِلَى الْبَلَاهَةِ مِنْهُ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ
آخَرَ. كُنَّا نُحَادِّثُهُ - أَنْ أَبْتَلَعَ الْعُصْفُورَ - عَنْ مَغَاوِيرِ الْجَيْشِ:
«يَأْكُلُونَ الْأَفَاعِي الْحَيَّةَ. آه. يَأْكُلُونَ الْكِلَابَ وَالْعَقَارِبَ يَا أَبْنُ

زرزي». وَيُجِيبُنَا فِي حِمَاسَةٍ وَتَهَوُّرٍ: «أَنَا أَكُلُ الْحَيَّةَ. هَاتُوا
 الْحَيَّةَ». وَيَغْمِزُ بَعْضُنَا بَعْضًا: «يَأْكُلُونَ الْكِلابَ»، فَيَنْتَفِخُ:
 «هَاتُوا كَلْبًا. أَنَا أَكُلُ الْكِلابَ». كُنَّا نَسْخَرُ مِنْهُ، لَكِنَّ إِعْجَابَنَا
 بِالْمَغَاوِيرِ إِعْجَابٌ رَصِينٌ. نَحْنُ، حَرَسَ الْبُطُولَةِ فِي ذَلِكَ الْغَرَاءِ،
 تَسْتَهْوِينَا الْبُطُولَةُ، وَكُلُّنَا قَادِرٌ - إِذَا جَرَّهُ التَّحْدِي - عَلَى الْتِيهَامِ
 بَقَرَةٍ حَيَّةٍ، وَقَدْ نَعَضُّهَا - أَوَّلَ مَا نَعَضُّ - مِنْ قَرْنَيْهَا إِذَا لَزِمَ
 الْأَمْرَ. غَيْرَ أَنَّنَا وَجَدْنَا، فِي غِيَابِ أَيِّ تَحَدٍّ، مَنْ نَتَفَكَّهُ عَلَيْهِ
 أَكْثَرَ مِنْ أَنْفُسِنَا. «الْمَغَاوِيرُ يَأْكُلُونَ الْقِطَطَ»، وَيَصْرُخُ آبَنُ
 زُرْزِي: «أَنَا أَكُلُ الْقِطَطَ. هَاتُوا قِطَّةً». وَمِنْ أَيْنَ نَأْتِي لِآبَنِ
 زُرْزِي بِقِطَّةٍ؟ آه، يَهْتِفُ أَحَدُنَا، سَنَأْتِيكَ بِغُصْفُورٍ. «أَنَا أَكُلُ
 الْعَصَافِيرَ» يَزِدُّ آبَنُ زُرْزِي.

نَصْعَدُ إِلَى سَطْحِ أَحَدِ الْبُيُوتِ، وَنَمُدُّ أَيْدِينَا إِلَى أَوْكَارِ
 الْعَصَافِيرِ. وَبَعْدَ تَهْدِيمِ الْكَثِيرِ مِنَ الْأَعْشَاشِ، وَكَسْرِ الْكَثِيرِ مِنْ
 الْبَيْضِ الصَّغِيرِ، نَعْتَرُّ عَلَى فَرْخٍ عَلَى أَهْبَةٍ أَنْ يَغْدُو غُصْفُورًا
 كَامِلًا، إِذْ لَا تَزَالُ تُحِيطُ بِمِنْقَارِهِ هَالَةً صَفْرَاءَ لَيِّنَةٍ. «خُذْ
 يَا آبَنُ زُرْزِي». وَيَنْظُرُ آبَنُ زُرْزِي إِلَى الْغُصْفُورِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ،
 ثُمَّ لَا يَلْبِثُ أَنْ تَنْتَفِخَ أَوْدَاجُهُ، كَمَنْ يَسْتَذْكِرُ عِدَاوَةً قَدِيمَةً،

وَيَحْشُرُ الْفَرْخَ فِي فَمِهِ. يَمْضَعُهُ مَرَّتَيْنِ فَتَخْرُجُ زُقَزُقَةً أَلِيْمَةً مِنْ
أُذُنَيْهِ. لَا يَغْبَأُ بِنَفْسِهِ. يَرْفَعُ يَدَيْهِ عَالِيًا فِي حِمَاسَةِ الْمُنْتَصِرِ:
«ح ح ح م. بوووو» وَيَزْدَرِدُ الْفَرْخَ كَامِلًا، ثُمَّ تَتَابَعُهُ نَوْبَةُ
غَثَيَانٍ، فَيَحَاوِلُ أَنْ يَتَقَيَّأَ وَلَا يَسْتَطِيعُ. يَتَشَنَّجُ لِسَاعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ
تَصِلَ سَيَارَةُ الْإِسْعَافِ إِلَى الْبُيْئَةِ.

ضَحِكْنَا، لِيَوْمَيْنِ، مَا يَغْدِلُ ضَحِكَ أَهْلِ الشِّمَالِ، كُلِّهِمْ،
مَدَى سَنَةٍ، حَتَّى جَاءَنَا خَبَرُ مَوْتِ جَدِّ عَزَّو.

كَانَ أَحَدُهُمْ يَزُكُّضُ لَاهِثًا، وَحِينَ جَاوَرْنَا - نَحْنُ حَفَنَةً
الصَّبِيَّةِ الضَّاحِكِينَ - صَرَخَ: «أُبْلِغُوهُمْ أَنَّهُ تَحْتَ الرِّدْمِ». جَاءَ
كَلَامُهُ غَامِضًا، مُبَلَّلًا بِالنَّشِيجِ. قُلْنَا: «مَنْ تَحْتَ الرِّدْمِ؟»، فَحَاوَلَ
أَنْ يَتِمَّالِكَ لِهَائِهِ: «جَدِّ... جَدِّ عَزَّو. إِنِّهَارَ الْمَقْلَعِ». وَسَأَلْنَاهُ فِي
فُضُولٍ: «أَمَاتَ؟»، صَرَخَ بِنَا: «أُبْلِغُوهُمْ... مَاتَ»، وَعَادَ أَذْرَاجُهُ
رَاكِضًا مِثْلَمَا جَاءَ.

كُلُّ أَبْنَاءِ الْجَدِّ يَعِيشُونَ فِي مَنْزِلٍ وَاحِدٍ، مُقَسَّمٍ مِنَ الدَّاحِلِ
إِلَى غُرْفٍ مُتَقَابِلَةٍ، يَفْصِلُهَا مَمَرٌ يَقُودُ إِلَى زُرِّيَّةِ الْبَقَرِ وَالْبِغَالِ.
أَبُو عَزَّو أَكْبَرُهُمْ، وَالْآخَرُونَ حَدِيثُ زَوَاجٍ.

عَبَرْنَا الْبَوَابَةَ الْمَفْتُوحَةَ إِلَى الْمَمَرِّ مُبَاشَرَةً، فَتَطَايَرَتْ مِنْ

تَحَتِ أَقْدَامِنَا الدَّجَاجَاتُ مَذْعُورَةً، وَتَنَحَّيَ الْبَقَرَاتُ الْمُدَلَّلَةَ.
أَمَّا الْبِغَالُ فَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ، لِأَنَّهَا كَانَتْ، فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، لَا
تَزَالُ مَرْبُوطَةً إِلَى عَرَبَةِ الْجَدِّ وَاحِدِ أَبْنَائِهِ، فِي مَقْلَعِ الثَّرَابِ.
صَرَخْنَا: «مَاتَ الْجَدُّ»، فَفَرَّقَتِ الْأَبْوَابُ الْكَثِيرَةُ الْمُتَقَابِلَةُ،
وَخَرَجَ سَيْلٌ مِنَ الْبَشَرِ. رِجَالٌ، وَنِسَاءٌ، وَدَجَاجَاتٌ، وَأَطْفَالٌ
ثَمَانِيَةٌ هُمْ إِخْوَةُ عَزَّو. أَشْرْنَا بِأَصَابِعِنَا «هُنَاكَ... الْمَقْلَعُ». لَمْ
يَنْتَظِرُوا أَنْ نُكْمِلَ، تَدَخَّرُوا إِلَى الطَّرِيقِ، ثُمَّ تَسَابَقُوا فِي اتِّجَاهِ
مُسْتَنْقَعٍ قَاسِمٍ. فَعَلَى خَوَافٍ ذَلِكَ الْمُسْتَنْقَعِ تَتَجَاوَرُ حُفَرٌ
صَخْمَةٌ عَمِيقَةٌ، تَتَخَلَّلُهَا مَمَرَاتٌ وَمَسَالِكٌ مُنْحَدِرَةٌ لِدُخُولِ
وُخُورِ الْعَرَبَاتِ.

كَانَ جَدُّ عَزَّو، وَآخَرُونَ كَثِيرُونَ، يَكْسِبُونَ رِزْقَهُمْ مِنْ بَيْعِ
الثَّرَابِ الْأَحْمَرِ، وَالرَّمَادِيِّ، بِحَسَبِ الطَّلَبِ. الْأَحْمَرُ لِيُصْنَعَ
طُوبُ الْبِنَاءِ، وَالرَّمَادِيُّ كِمِلَاطٍ لِلتَّمْلِيسِ. يَأْتُونَ بِعَرَبَاتِهِمُ الَّتِي
تَجْرُهَا الْبِغَالُ، ثُمَّ يَنْحَدِرُونَ إِلَى أَعْمَاقِ تِلْكَ الْحُفَرِ فَيَنْبِشُونَ
الثَّرَابَ بِمَعَاوِلِهِمُ الْمُدَبَّبَةِ. وَفِي أَثْنَاءِ تَحْمِيلِ الْعَرَبَاتِ، يَقُومُ
الصَّبِيُّ، الَّذِي يُرَافِقُونَ هَؤُلَاءِ الْحَقَّارِينَ الْأَقْوِيَاءَ، بِفِكِّ الْبِغَالِ،
وَقِيَادَتِهَا إِلَى نَهْرِ الْهَلَالِيَّةِ الْقَرِيبِ. يَغْسِلُونَهَا، وَيَلْهَوْنَ بِرُكُوبِهَا،

وَيَكْفِي أَنْ يُنَادِيَهُمْ مُنَادٍ لِيَعُودُوا. وَعَزَّو يُرَافِقُ جَدَّهُ عَادَةً. وَكَانَ
أَنْ رَافَقَهُ لِلْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ فَرَأَى كَيْفَ دُفِنَ الشَّيْخُ مَرَّتَيْنِ.

تَبِعْنَا الْجَمْعَ الرَّائِضَ حَتَّى مُسْتَنْقَعٍ قَاسَمُوا، وَمِنْ الْحَافَاتِ
الْعَالِيَةِ اسْتَعْرِضْنَا الْإِتِهَارَ الْمُرَوَّعَ: ثَمَّتْ عَرَبَةٌ مُهَشَّمَةٌ فِي الْقَاعِ،
تَدْخُرُجَتْ بِفِعْلِ الْإِتْجَارِ الْثَّرَابِيِّ مِنَ الْأَعْلَى، وَكَذَلِكَ أَحَدُ
الْبِغَالِ، وَكَانَ مُوَهَّنًا، يَغْرُجُ فِي مِشْيَتِهِ، أَمَّا الرِّجَالُ فَمُنْهَمِكُونَ
عَلَى الرُّدَمِ، يُبَدِّدُونَهُ بِرُفُوشِهِمْ لِيَعْتَثُوا عَلَى الْجَدِّ.

أَوْهَ عَزَّو، كُنْتُ تَرْتَجِفُ كَنَبْتَةِ الْخَزْنُوبِ. وَكُنَّا نَرْتَجِفُ
أَيْضًا. عَوِيلٌ وَرَنِينٌ، وَشُرُودٌ أُخْرَسُ لِبِغَالٍ خَرَسَاءَ تَقْتَرِبُ،
يَدُورُهَا، لِيَتَرَى. وَأَخِيرًا بَانَ قِسْمٌ مِنْ دَسْدَاشَتِهِ. جَزَّوْهَا فَتَمَزَّقَتْ،
كَأَنَّمَا أَلْتَصَقَتْ الْجُثَّةُ بِالْأَرْضِ. رَمَوْا الرُّفُوشَ وَحَفَرُوا حَوْلَ
الْجُثَّةِ بِالْأَيْدِي. أَوْ عَزَّو، كَانَ الطَّرْفُ الْمُدَبَّبُ لِلْمِغُولِ غَائِصًا
بِتَمَامِهِ فِي خَاصِرَةِ الْجَدِّ. إِنْتَزَعُوا الْمِغُولَ وَلَقُوا الْجُثَّةَ بِغِطَاءٍ
أَصْفَرَ مَا لَبِثَ أَنْ تَبَقَّعَ مِنْ جِهَاتِهِ كُلُّهَا بِالْدَمِ. وَضَعُوهَا فِي
عَرَبَةٍ يَقُودُهَا بَغْلٌ حَزِينٌ، وَتَبِعْنَا الْعَرَبَةَ حَتَّى مُعَسْكَرِ أَبْنَائِهِ،
وَدَجَاجَاتِ أَبْنَائِهِ، وَبَقَرَاتِهِمْ. وَبِالطَّبْعِ ظَلَّلْنَا وَاقْفَيْنَ وَسَطَ
الْحُشُودِ، فِي الْمَمَرِ، حَتَّى تَكْتَمِلَ فُصُولُ الْمَوْتِ.

ذَهَبُوا بِالْجُنَّةِ إِلَى الْمَسْجِدِ. غَسَلُوهَا وَصَلُّوا عَلَيْهَا، ثُمَّ
 أَعَادُوهَا إِلَى عَرَبَةٍ مِنْ عَرَبَاتِهِمْ، مُتَّجِهِينَ بِهَا صُوبَ قَرْيَةِ ثُوْبَزْ،
 مَشْقِطِ رَأْسِ الْجَدِّ. وَثُوْبَزْ عَلَى مَبْعَدَةِ عَشْرَةِ كِيلُومِتْرَاتٍ مِنَ
 الْمَدِينَةِ. سَبَاقَ بَيْتِنَا وَبَيْنَ الْبِغَالِ، وَالْمُشْيِعُونَ يَتَنَازَلُونَ
 مَقَاعِدَهُمْ فِي الْعَرَبَاتِ مَعَ الرَّاجِلِينَ.

فَرَّخَ حَقِيقِي أَنْ نَرْكَبَ الْعَرَبَاتِ. فَرَّخَ صَرِيرُ عَجَلَاتِهَا عَلَى
 الْأَسْفَلِ، وَقَعَقَةُ أَحْشَائِهَا. وَجَلَالُ الْمَوْتِ لَا يَمْحُو اللَّهْوَ، إِذْ
 نَقْتَلِعُ فِي الطَّرِيقِ جُذُورَ الْحَرْشُوفِ الْخُلُوفِ لِنَأْكُلَهَا، أَوْ نَنْشِشُ
 جُحُورَ عَنَاكِبِ الثَّرَابِ، تِلْكَ الْجُحُورُ الصُّخْلَةُ، الْمَكْشُوفَةُ،
 الَّتِي تَتَرَاءَى وَاضِحَةً فِي أَعْرَاءِ كِبْرَاكِينَ صَغِيرَةٍ جَدًّا. أَمَّا
 الْعَنَاكِبُ، هَذِهِ، فَبَطِيئَةٌ طَرِيفَةٌ، نَضَعُهَا فَوْقَ حَفْنَةِ الثَّرَابِ فِي
 أَيْدِينَا فَتَدُورُ عَلَى نَفْسِهَا قَلِيلًا، ثُمَّ تَذْفَعُ الثَّرَابَ مَرَّةً إِلَى أَمَامِ،
 وَمَرَّةً إِلَى وَرَاءِ، حَتَّى تَحْتَفِيَ تَحْتَ قَشْرَةِ هَيْئَةٍ مِنْهَا. وَتَكْفِي
 قَطْرَةً مَاءٍ لِيَخْرُجَ مِنَ الْجُحْرِ، وَحِينَ لَا نَجِدُ الْمَاءَ نَبْصُقُ فِيهَا،
 وَسَيَّانٍ عِنْدَهَا الْمَاءُ وَالْثُّفْلُ.

أَهْ عَزَّوْ، هَذِهِ هِيَ ثُوْبَزْ إِذَنْ؟ لَقَدْ أَنْحَرَفْنَا عَنِ الطَّرِيقِ
 الْأَسْفَلِي إِلَى مَسَالِكِ تُرَابِيَّةٍ رَسَمَتْهَا الْعَرَبَاتُ وَأُظْلَفُ الْأَغْنَامِ،

وَعَصْرًا أَلْفَيْنَا أَنْفُسَنَا أَمَامَ أَشْبَاحِ كَهَلَةٍ لَا لَوْنَ لَهَا؛ أَشْبَاحِ مَنَازِلَ
لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا أَحَدٌ لِيَرَى الْمَوَكِبَ. مَا هَمَّ يَا تُوبِزُ، الدِّيَكَةُ
وَحَدَهَا مَدَّتْ أَغْنَقَهَا فِي فُضُولٍ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَحْثِهَا الْآزَلِيِّ
عَنْ بَذَرَةٍ ضَائِعَةٍ.

مَرَّ الْمَوَكِبُ بِمُحَاذَاةِ الْقَرْيَةِ. جَاوَزَهَا قَلِيلًا لِيَقِفَ فِي
مُوَاجَهَةِ الْمَقْبَرَةِ تَمَامًا. مَخْضُ كُتْلٍ مُسْتَطِيلَةٍ مِنَ الثَّرَابِ تَكَادُ
تَنْدَثِرُ. لَا سَوَاهِدَ حَجَرِيَّةً، لَا رَقَائِقَ مِنَ الْآجُرِّ أَوْ الْخَرْزِفِ.
ثُرَابٌ مُخْدُودٌ يَكَادُ يَسْتَسْلِمُ لِآخِرِ فُكَاهَةٍ تُطْلِقُهَا الرِّيحُ.
ثُرَابٌ سَيَتَفَجَّرُ بِالْفَهْقَةِ وَيَمْضِي، وَسَتَبِينُ الْهُوَّةُ الْعَمِيَاءُ تَحْتَ
أَسَاسَاتِ تُوبِزِ الرَّخْوَةِ، حَيْثُ يَجْلِسُ الْمَوْتَى، مُنْذُ آلَافِ
السِّنِينَ، حَوْلَ قِدْرِ يَغْلِي عَلَى نَارٍ خَفِيفَةٍ، وَفِي أَيْدِيهِمْ صُحُوفٌ
مِنَ التَّوْتِيَاءِ، وَأَرْغَفَةٌ مِنْ دَفِيقِ الشُّوفَانِ، وَقُرْبُ ظِلَالِهِمْ
الْمُسْتَطِيلَةُ تَجُثُّ بِغَالٍ لَمْ يَنْقُ مِنْهَا إِلَّا هِيَائِلُ مُضِيئَةٍ، تَمْضَغُ
مَنَادِيلَ الْآلِهَةِ وَأَذْيَالَ عِبَائِهَا.

الْحُفْرَةُ جَاهِزَةٌ. ثَمَّتْ مَنْ سَبَقْنَا وَأَعَدَّ الْمَرْقَدَ. أَنْزَلُوا الْجُثَّةَ
الْمُكَفَّنَةَ فِي جَلَالٍ. «وَسَّعُوا قَلِيلًا يَزَحْمُكُمُ اللَّهُ»، وَالرُّؤُوسُ
الْفُضُولِيَّةُ تَتَدَاغُ مِنْ فَوْقِ الْأَكْتَابِ، أَمَّا الْأَرْجُلُ فَكَانَتْ تَطَأُ

التُّرَابِ الرُّطْبِ عَلَى حَوَافِّ الْحُفْرَةِ، وَتُبْعِثُ ثُلَّةٌ مِنَ الْعِظَامِ، إِذْ
 بَدَا وَاضِحاً أَنَّهُمْ حَفَرُوا مَكَانَ قَبْرِ قَدِيمٍ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يُكَلِّفُوا
 أَنْفُسَهُمْ - بَعْدَ غِنَاءِ الْحَفْرِ - تَوَكُّ الضَّيْفِ الْعَظِيمِ فَأَقْلَقُوهُ. رَمَوْهُ
 مَعَ التُّرَابِ خَارِجاً: «وَسَعُوا لِلْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يَرْحَمُكُمُ اللَّهُ». وَهِيَ
 نَحْمِلُ جُمُجْمَةَ الْكَائِنِ الَّذِي لَا اسْمَ لَهُ. جُمُجْمَةُ مُهْتَرَّةٍ
 ضَاعَ صَفٌّ مِنْ أَسْنَانِهَا. وَحِينَ أَهَالُوا التُّرَابَ عَلَى الْحُفْرَةِ
 لَمْحَوْهَا بَيْنَ أَيْدِينَا، فَصَرَخُوا: «هَاتُوهَا. هَاتُوا كُلَّ عَظْمَةٍ تَرَوْنَهَا
 خَارِجاً لِنَدْفِنَهَا مِنْ جَدِيدٍ»، فَانْحَنَيْنَا عَلَى الْأَرْضِ فِي بَحْثٍ
 مَحْمُومٍ عَنِ الْعِظَامِ، حَتَّى جَمَعْنَا قَدراً هَائِلاً اخْتَلَطَ فِيهِ عَظْمُ
 الْمَيِّتِ بِعَظْمِ الدَّجَاجِ، وَالْخِرَافِ، وَحَيَوَانَاتٍ أُخْرَى جَرَّتْهَا
 الْكِلَابُ إِلَى الْمَقْبَرَةِ. لَمْ يُعَايِنَهَا أَحَدٌ. رَمَوْهَا فِي الْحُفْرَةِ،
 بَدَوْرَهَا، وَطَمَرُوهَا. «تَعَمَّدَكُمُ اللَّهُ...»، ثُمَّ جَلَسَ الْمُشَيِّعُونَ فِي
 حُلُقَةٍ كَبِيرَةٍ حَوْلَ الْقَبْرِ، وَبَدَأَ التَّوَاحُّ وَالتَّدْبُّ. وَبَعْدَ سَاعَةٍ مِنْ
 أَدَاءِ الْجَوْقَةِ فَتَحَ أَعْمَامُ عَزْوِ صَفِيحَةِ الْحِلَاوَةِ، نَثَرُوهَا عَلَى
 أَرْغِفَةِ التَّنُورِ وَقَسَمُوا الْأَرْغِفَةَ بَيْنَ الْمُشَيِّعِينَ: «كُلُوا عَنْ
 رَوْحِهِ...». وَأَكَلَ الْجَمِيعُ، حَتَّى أَوْلَيْكَ الْأَكْثَرُ حُزْناً لِفَقْدِ
 الْجَدِّ. «عَنْ رَوْحِهِ. عَنْ رَوْحِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ. كُلُوا لِيَهْدَأَ».

كَانَ الْمَغِيبُ يَسْتَلُّ ظِلَالَهُ الْبَارِدَةَ مِنْ غَمْدِهَا الْأَرْضِيَّ، وَيَنْثُرُ
الْوَحْشَةَ. هُرِغْنَا إِلَى الْعَرَبَاتِ، أَوْ مَشْيَاً وَرَاءَهَا، وَغَدْنَا، بَيْنَمَا
بَقِيَ اثْنَانِ مِنْ أَوْلَادِ الْجَدِّ جَالِسَيْنِ قُرْبَ الْقَبْرِ لِمُؤَانَسَةِ جَدِّهِمْ.
هَكَذَا تَقْضِي الْعَادَةُ، فَالْقَبْرُ مَوْحِشٌ، وَعَلَى بَعْضِ الْأَحْيَاءِ أَنْ
يُؤَاوِرُوا الْمَيِّتَ فِي سَاعَاتِ دَفْنِهِ الْأُولَى، إِذْ يَأْتِي الْمَلَكُانِ،
مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، يَحْمِلَانِ مِطْرَقَتَيْنِ وَحَفَنَةً مِنَ الْأَسْئَلَةِ، كُلَّمَا
أَخْطَأَ الْمَيِّتُ فِي الْإِجَابَةِ عَلَيْهَا دَفَعُوهُ إِلَى الْأَعْمَاقِ، بِضَرْبَةِ
وَاحِدَةٍ، أَلْفَ ذِرَاعٍ، أَوْ ضَيَّقُوا عَلَيْهِ الْحُفْرَةَ حَتَّى تَخْتَنِقَ رَوْحُهُ
أَلْفَ مَرَّةٍ. وَإِنْ أَصَابَ فِي الْإِجَابَةِ نَفَحُوهُ بَعْضَ طَعَامِ الْجَنَّةِ،
وَوَسَّعُوا عَلَيْهِ الْحُفْرَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَوُجُودُ أَحْيَاءٍ حَوْلَ الْقَبْرِ
يُسَعِّفُ الْمَيِّتَ فِي تَمَالُكِ أَغْصَانِهِ لِاجْتِيَازِ الْأَمْتِحَانِ.

وَالشُّمَالُ أَمْتِحَانٌ. جِهَةُ الصُّنْجَرِ الْكَبِيرَةِ سَيِّدَةُ الْجِهَاتِ فِي
أَمْتِحَانِهَا. تَأْخُذُ كُلَّ شَيْءٍ لِتُعْطِيكَ الْبَسَالَهَ وَالتَّهَوُّرَ. وَفِي
أَضْعَفِ حَالٍ تَجْعَلُكَ وَكَيْلًا عَلَى مِلْكٍ لَا يُرَى، أَوْ حَارِسًا
لِلْهَوَاءِ. لَكِنَّ أَتَانَ حَجِي كَفَرٍ وَكَيْلُ الصُّنْجَرِ فِي الْأَرْضِ، لَمْ
يَنْقَطِعْ عَنْ ذَلِكَ فِي أَثْنَاءِ عَزْدَتِنَا مِنْ جَنَازَةِ جَدِّ عَزَّو. وَلَمْ
يَنْقَطِعْ قَبْلَ ذَلِكَ بِالطَّبْعِ. يُؤَبِّخُونَهُ فَيَضْحَكُ. يَضْرِبُونَهُ

فَيَضْحَكُ. يَشْجُونَ رَأْسَهُ، أَوْ يَكْسِرُونَ سَاقَهُ، فَيَضْحَكُ. لَيْسَ
أَبْلَهُ قَطُّ، لَكِنْ مَنْ يَرَاهُ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى لَا يَشْكُ فِي بِلَاهِيَتِهِ:
أَيْسَامَةٌ عَرِيضَةٌ فِي وَجْهِ عَرِيضٍ، تَحْتَ عَيْنَيْنِ لَا تَنْتَبِهُنِ عَلَى
شَيْءٍ، دَائِمَتِي الْحَرَكَةِ كَنَوَاسِ السَّاعَةِ.

إِسْمُهُ أَمِينٌ، وَنُسَمِيهِ أَبْنَ حَجِي كَفَرٍ، أَيِ أَبْنَ الْحَاجِّ حَجَرٍ،
لِأَنَّ وَالِدَهُ لَا يُخْطِئُ فِي رَمِي الْحَجَرِ. يَزْمِي دَجَاجَاتِ الْجِيرَانِ
إِذَا اقْتَرَبَتْ مِنْ حَقْلِ الْبَصْلِ وَالرَّشَادِ فَتَهْوِي. وَحَقْلُهُ لَا يَتَعَدَّى
خَمْسَةَ أَمْتَارٍ مُرَبَّعَةٍ... خُصُومَةٌ أَبَدِيَّةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدَّجَاجِ،
وْخُصُومَةٌ الدَّجَاجِ تَجُرُّ عَلَيْهِ خُصُومَةٌ جِيرَانِهِ. خِصَامٌ فِي خِصَامٍ،
وَالْحَاجُّ يَحُومُ كَدِيكٍ فِي عِبَاءَتِهِ الصَّيْفِيَّةِ الْمَقْصَبَةِ: «يَا ابْنَةَ
الْكَلْبِ»، وَيَزْمِي بِحَجَرٍ. «يَا ابْنَةَ الْبَوْلِ»، وَيَزْمِي بِحَجَرٍ. وَتُضْطَرُّ
الدَّجَاجَاتُ أَنْ تُرَاقِبَ حَقْلَهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَفِي وُدِّهَا أَنْ تَنْقَرِضَ
الْحِجَارَةُ لِيَتَكَافَأَ الصَّرَاغُ.

كُنَّا نُمْضِي اللَّيَالِي الْخَمْسَ الْأَخِيرَةَ مِنْ رَمَضَانَ فِي
الْمَسْجِدِ، بَدْءاً مِنَ الْغُرُوبِ حَتَّى السَّحَرِ، نَتَلَمَّسُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ
غَيْرَ الْمَعْلُومَةِ، عَسَى تَمْتَلِيءُ خَزَائِنُ بُيُوتِنَا الْفَارِعَةُ بِالسُّنَنِ أَوْ
بِالذَّهَبِ. وَفِي صِبَانَا ذَاكَ، لَمْ نَعُدْ مُقْتَنِعِينَ بِالْأَمْرِ، لَا أَحَدٌ

أَخْبَرْنَا، ذَاتَ صَبَاحٍ، أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ نَشَرَتْ عَلَى بَيْتِهِ شَذَرَاتٍ
مِنْ قَشْرِ الْعَدَسِ، أَوْ مِنَ الطَّيْنِ. لَكِنَّ الْمَسْجِدَ تَحَوَّلَ إِلَى
مَكَانٍ مُؤَانَسَةٍ خَفِيٍّ، وَاجْتِمَاعَاتٍ لَيْلِيَّةٍ قَانُونِيَّةٍ كَانَ يَحْظُرُهَا
آبَاؤُنَا عَلَيْنَا فِي الْأَيَّامِ الْعَادِيَّةِ مِنَ السَّنَةِ. وَنَحْنُ نَعْرِفُ كَيْفَ
سَيَتَصَرَّفُ الْكِبَارُ سَلَفًا، وَكَيْفَ سَيُخْلَوْنَ لَنَا السَّاحَةُ. ففِي
الشُّوْطِ الْأَوَّلِ مِنَ اللَّيْلِ يَأْتُونَ خَاشِعِينَ، وَنَتَصَنَّعُ الْخُشُوعَ
مَعَهُمْ. يَتَشَاءِبُونَ، بَعْدَ ذَلِكَ، وَيُنْسَلُونَ، وَاحِدًا وَرَاءَ الْآخَرِ،
فَنَبْقَى نَحْنُ. وَإِذْ يَنْقَضُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ تَتَزَاحَمُ شَيَاطِينُنَا.
نَضَعُ فَنُقَلِّدُ الْإِمَامَ. أَمَّا أَبْنُ حَجِي كَفَرٍ فَيُقَلِّدُ قَاسِمُو فِي
الْأَذَانِ. وَيُلْعِغُ صَوْتُهُ الْحَادُّ: «حَيَّ عَلَى..»، وَقَبْلَ أَنْ يُكْمَلَ
تَفْجُؤُهُ الْقَهْقَهَةُ «هَا هَا... عَلَى بَلَدِي الْمَحْبُوبِ». يَنْقَلِبُ
الْأَذَانُ إِلَى غِنَاءٍ. لَا يُكْمَلُ أَمِينُ شَيْئًا. الْقَهْقَهَةُ كُلُّ ثَانِيَتَيْنِ.
فَهَقَهَةُ تُرَدِّدُهَا الْجُدْرَانُ الْإِسْمَئِيلِيَّةُ الْعَالِيَّةُ، قَبْلَ أَنْ تَتَدَحَّرَجَ عَلَى
الْحُضُرِ وَالسَّجَاجِيدِ، وَتَزَيِّطَ بِالْأَخْذِيَّةِ الْمَصْفُوفَةِ أَمَامَ الْبَوَابِ.
وَنَسْأَلُ أَنْفُسَنَا: مَنْ الَّذِي صَحِكَ، أَوَّلَ مَرَّةٍ، أَنَّ وُلِدَتْ الْأَرْضُ؟
أَيُّ دَعَابَةٍ، فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ الْمَوْحِشِ، جَعَلَتْ شَفَتَيْهِ تَفْتَرَانِ عَنْ
أَسْنَانِهِ، وَصَعِدَتْ مِنْ حَنْجَرَتِهِ الْقَهْقَهَةُ؟ سَنَظْلُ نَسْأَلُ عَنِ النَّشْرِ

الْأَوَّلِ لِلْأُمُورِ، إِلَهِي. سُرِّدُودُ: أَيُّ آتِنِ قَحْبَةِ عَرَفَ الْبَصَلِ، مَثَلًا؟
 وَأَيُّ آتِنِ جَرَادَةَ عَرَفَ التَّبْعَ؟ مَنْ تَذَوَّقَ الْإِجَاصَ، وَنَهْنَهَهُ
 الْبُكَاءُ؟ لِماذا نَتَكَهَّنُ بِالْمَصَادِرِ الْأُولَى، إِلَهِي؟ كَانَ حَرِيًّا بِالَّذِينَ
 عَرَفُوا جُذُورَ سُؤالاتِهِمْ أَنْ يَكْتُبُوهَا. كَانَ حَرِيًّا بِكَ، إِلَهِي، أَنْ
 تُلْهِمَ آتِنِ الْعَاهِرَةَ الْأَوَّلَ، الَّذِي ضَحِكَ عَقِبَ تَوَاجُدِهِ فِي
 الْأَرْضِ، أَنْ يَشْرَحَ عَلَى وَرَقَةٍ، أَوْ حَجَرٍ، هَذَا الْإِنْفِعَالِ، وَلِمَاذَا
 هُوَ تَغْيِيرٌ عَنْ تَرْفِيهِ، أَوْ تَغْيِيرٌ عَنِ الشَّطْرِ الْمُهَرِّجِ مِنْ رُوحِهِ؟
 وَمَا الَّذِي جَرَى لِیَضْحَكَ؟ كَانَ حَرِيًّا بِكَ، إِلَهِي، أَنْ تُلْهِمَ
 الْجَمْعَ الْأَوَّلَ كَيْفَ يَكْتُبُ سَبَبَ الرُّقُصِ، وَالرُّغْبِ، وَأَنْشِغَالِ
 الْآبَاءِ بِالْأَبْنَاءِ، وَالْمَلِكِيَّةِ، وَإِيمَانِهِمْ بِكَ أَنْتَ. فَتَحْنُ الْقَرِيبِينَ
 مِنْ عَصْرِ أَنْبِجَاسِ الْكَائِنِ كَنَافُورَةٍ مُعْتِمَةٍ فِي الظَّلَامِ نَتَكَهَّنُ
 بِكُلِّ ذَلِكَ. نَتَكَهَّنُ فَحَسْبُ. نُحَمِّنُ، وَنُقَلِّبُ الْأُمُورَ عَلَى
 وَجْهِهَا حَتَّى تَمَّحِيَ الْوُجُوهُ، فَكَيْفَ بِالْبَعِيدِينَ، الْمُقْبِلِينَ مِنْ
 عُصُورٍ، فِي الْمُسْتَقْبَلِ، أَكْثَرَ بُعْدًا مِمَّا يُصِيبُهُ الظَّنُّ؟
 سَيَتَكَهَّنُونَ. سَتَزْدَادُ كَهَانَتُهُمْ وَتَحْمِينُهُمْ، وَسَيَكُونُونَ أَقْلًا يَقِينًا
 مِنَّا، وَمَنْ يَقِلُّ يَقِينُهُ يَتَسَلَّى بِاخْتِرَاعِ الْيَقِينِ. لَكُنَّا نَعْلَمُ، سَلَفًا،
 أَنَّ جُنُونَهُمْ سَيُجَاوِزُ جُنُونَنَا، وَلَنْ يَقِفُوا عِنْدَ حُدُودِ عِظَامِ جَدِّ

عزو وأساسات تُوزن التي ستندثر. لَنْ يُحاولوا معرفة شيء عَنَّا،
فَنَحْنُ وَضَلَّةٌ مُهْمَلَةٌ لَا يُؤْبَهُ لَهَا فِي تَارِيخٍ مُهْمَلٍ بِرُمَّتِهِ، لَكِنَّهُمْ
سَيَقِفُونَ طَوِيلًا عِنْدَ ضِحْكَةِ ابْنِ حَجِي كَفَرٍ، وَسَيُحْلَلُونَ -
عَبْرَهَا - الْبُنَى، وَالْهَنْدَسَةَ وَالْخُسُوفَ، وَالْكَسُوفَ، وَالْكِتَابَةَ
الْحَقِيقَاءَ، وَالْمُضَادَّةَ الَّتِي خَلَقَتِ الشُّمَالَ كُلَّهُ. ضِحْكَةٌ تَفْتَحُ
التَّارِيخَ عَلَى مِضْرَاعِيهِ لِآلَاتِ الْمُسْتَقْبَلِ الْكَلْبِ، وَتَجْعَلُ رُؤُوسَ
كَائِنَاتِهِ تَتَدَافَعُ مِنْ أَلْبَابٍ لِتُلْقِيَ نَظْرَةً عَلَى بَغَائِنَا الْمُضْيِيَّةِ.

أَمِينُ... أَمِينُ... ابْنِ حَجِي كَفَرٍ، أَوْقِفْ ضِحْكَكَ كَيْ لَا
تَوْقِظَ مِيرُو وَأَكْبَاشُهُ، كَيْ لَا تَوْقِظَ الْحُكُومَةَ، وَمُوظَّفِي مَسْحِ
الْأَرَاضِي. لَكِنْ، هَيْهَاتَ، الضَّحِكُ سَمَادُ أَمِينٍ، سَمَادُ خَلَايَاهُ،
وَهُوَ آلَانْ أَشَدُّ صَحْبًا. فَالْيَوْمَ غُرُسٌ. وَنَقُولُ لَهُ: «سَيَفْصَلُ دَرِيحٌ
قُبْعَةً لِأَخْتِكَ، وَقُبْعَةً لَكَ»، فَلَا يَزْدَادُ إِلَّا ضِحْكَاً.

إِنَّهُ غُرُسٌ بِنْتُ حَجِي كَفَرٍ أُخْتُ أَمِينٍ، الْفَتَاةُ الضَّخْمَةُ الَّتِي
لَا تُجَاوِزُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ. وَدَرِيحٌ هُوَ خَطِيبُهَا، فِي الْعَقْدِ
الْخَامِسِ مِنْ عُمْرِهِ. لَهُ زَوْجَةٌ وَسِتَّةُ أَوْلَادٍ، وَأَخْتُ أَمِينٍ سَتَكُونُ
الثَّانِيَّةَ، بَعْدَمَا دَفَعَ مَهْرًا مُجْزِيًا. «سَيَصْنَعُ قُبْعَةً لَكَ يَا أَمِينُ»،
نَقُولُهَا، وَنَحْنُ مِنْ حَوْلِهِ، وَالْمَعْنَى الْخَفِيُّ لِلْعِبَارَةِ الشَّائِعَةِ،

هَذِهِ، أَنَّ الْعَرِيسَ سَيَجْعَلُ مِنْ غِشَاءِ الْبَكَارَةِ قُبْعَةً لِعُضْوِهِ.
وَأَمِينُ يَضْحَكُ، أَمَا أُخْتُهُ فَتَنْصَنَعُ الْوَقَارَ وَالْحُزْنَ - مِثْلَمَا دَرَبَهَا
أَهْلُهَا - وَسَطَ حَلَقَاتِ النِّسَاءِ الْمُحِيطَاتِ بِهَا، وَوَسَطَ أَغَانِ
تَقْضُمِ الْمُغَنِّيَاتِ نِصْفَ كَلِمَاتِهَا، فَالْصَّحْبُ هُوَ الْمُرَادُ، لِذَلِكَ
لَا يَأْبَهُنَّ لِلْمَعَانِي.

وَقُرْبَ الْجَمْعِ الْمُغَنِّي ذَاكَ، كَانَتْ زَوْجَةُ دَرِيحِ الْأُولَى
تَحُومُ كِبَاشِي، تَهْجُمُ عَلَى الْمُعْرِسِينَ فَتَتَطَايَرُ أُسْرَابٌ مِنْ
مَنَادِيلِ النِّسَاءِ قَبْلَ أَنْ يَزْدُدْنَهَا. وَبَعْدَ اسْتِرَاحَةٍ قَصِيرَةٍ مُزْبَدَةٍ تُعِيدُ
الْكُرَّةَ، فَتَتَطَايَرُ أُسْرَابٌ مِنَ الْأَوْشَحَةِ، وَتَتَنَائَرُ عُقُودٌ مِنْ حَرَزِ.
وَحِينَ تَنْكَفِيءُ تَصْرُخُ: «حَجِي كَفَر، أَنَا سَافُضُ آبْنَتَكَ، لَا
دَرِيحَ»، وَيُشِيخُ حَجِي بَوَجْهِهِ عَنْهَا، نَابِحاً: «أُبْعِدُوا الْمَشْعُورَةَ،
بِاللَّهِ عَلَيْكُمْ».

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَفِي غُرْفَةِ الزَّوْجَةِ الْأُولَى ذَاتِهَا، دَخَلَ دَرِيحٌ
عَلَى عَرُوسِهِ. وَدَرِيحٌ لَا يَمْلِكُ إِلَّا هَذَا الْبَيْتَ بَعْرُفِهِ الثَّلَاثَةِ،
وَعَلَى عِيَالِهِ أَنْ يَنَامُوا فِي غُرْفَةٍ ثَانِيَةٍ بَعْدَ الْآنَ. لَكِنَّ الزَّوْجَةَ
الْأُولَى ظَلَّتْ فِي أَلْبَاحَةٍ، تَهْجُمُ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ عَلَى التَّافِذَةِ
الْمُضِيعَةِ: «أَيُّهَا الْمُتَهَدِّلُ، بِأَيِّ شَيْءٍ سَتَفْتَضُّهَا؟ خُذْ مَعَكَ

الْمِكْنَسَةَ يَا عَيْنُ». وَلَمْ يَطْلُ مُكُوْتُ دَرِيحٍ فِي الدَّاحِلِ. خَرَجَ
 مُرْتَعِدًا: «إِنِّهَا كَالْمَذْبُوحِ». وَهَرِغَ بَعْضُ النِّسَاءِ إِلَى الدَّاحِلِ:
 «يَا اللَّهُ!! هَاتُوا سَيَّارَةً». جَاءَتِ السَّيَّارَةُ لَتَتَوَجَّهَ بِالْعُرُوسِ إِلَى
 الْمُسْتَشْفَى. «مَرْفَعَهَا»، تَهْمِسُ النِّسَاءُ فِي شَبَقِ خَفِيِّ. «دَرِيحِ
 حِصَانِ ابْنِ حِصَانٍ». وَلَمْ يَطْلُ الْأَمْرُ بِدَرِيحٍ مَعَ عُرُوسِهِ بَعْدَ
 ذَلِكَ. سِتَّةَ أَشْهُرٍ فَقَطْ، وَعَادَتْ أُخْتُ أَمِينٍ إِلَى بَيْتِ أَبِيهَا،
 وَالسُّرَّ عِنْدَ اللَّهِ. أَمَّا أَمِينٌ فَيَضْحَكُ. «أَخَذُوا أَخَاكَ الْأَكْبَرَ إِلَى
 السَّجْنِ»، وَيَضْحَكُ. «هَجَمَ أَخُوكَ لَيْلًا عَلَى جَارَتِهِ الْبَدَوِيَّةِ
 الْمَوْشُومَةِ»، وَيَضْحَكُ. «كَانَ عَشِيقَهَا لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، فَلِمَاذَا
 صَرَخْتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ؟»، وَيَضْحَكُ. «أَخُوكَ الْمَتَانَّقُ، الَّذِي لَا
 يُسَلِّمُ عَلَى أَحَدٍ، كَأَنَّهُ مِنْ عَالَمٍ آخَرَ. أَخُوكَ الْمُتَرَفُّعُ الَّذِي
 تَضَحُّبُهُ حَقِيبَتُهُ دَائِمًا. أَخُوكَ الَّذِي آخَتَلَسَ أَلْفَ لِيرَةٍ مِنْ
 صُنْدُوقِ عَمَلِهِ، يَدْخُلُ السَّجْنَ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ»، وَيَضْحَكُ.
 «أَخُوكَ... أَخُوكَ» وَيَضْحَكُ أَمِينٌ. يَا لِلْإِلَهَةِ. وَلَتَحْرُسِ
 الْحِجَارَةُ حَقْلَ حَجِي كَفَرٍ.

النَّفير الثاني

لَيْسَ سُقُوطَ حُكُومَةٍ مَا نَرَاهُ؛ لَا، لَيْسَ صُعودَ حُكُومَةٍ. بَلِ
الْبَدُو يَهْجُمُونَ عَلَى سِينَمَا شَهْرَزَاد. كَانَ الْبَدُو يَفْتَحِمُونَ
الْمَدِينَةَ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ. بَدُو رَاجِلُونَ، وَبَدُو فِي عَرَبَاتِ
تَجْرِهَا الْبِغَالُ، وَبَدُو عَلَى الْحَمِيرِ، وَبَدُو فِي شَاحِنَاتِ كَبِيرَةٍ.
بَدُو إِذْ يَنْفُضُونَ الْعُبَارَ عَنْ ثِيَابِهِمْ تَغْلُو غَيْمَةً صَفْرَاءَ عَلَى طُولِ
الطَّرِيقِ وَعَرَضِهَا، وَلَرُبَّمَا غَطَّتِ الْمَدِينَةَ لَيُومَيْنِ. مُعْظَمُهُمْ خُفَاءَ،
وَأَخْرُونَ يَوْتَدُونَ نِعَالاً مِنْ مَطَّاطٍ، مَشْدُودَةً إِلَى سِيقَانِهِمْ بِخُيُوطِ
الْقِنَبِ. يَفْدُونَ فَوْجاً فَوْجاً، وَيَقْتَعِدُونَ الْأَرَصِفَةَ، أَوْ يَفْتَرِشُونَهَا،
وَكُلُّ خَمْسَةٍ، أَوْ أَكْثَرُ، يَتَوَزَّعُونَ الْبَطِيخَ الْمُهَشَّمِ بِالْأَيْدِي،
حَيْثُ تَسِيلُ الْعَصَارَةُ الْحَمْرَاءَ عَلَى ذُقُونِهِمْ وَصُدُورِهِمْ، وَإِذْ
يَنْتَهَوْنَ يَمْسَحُونَ أَفْوَاهَهُمْ بِأُزْدَانِ دَشْدَاشَاتِهِمْ، ثُمَّ يَتَجَشَّوْنَ
وَيَسْتَلْقُونَ.

فِي الْفَصْلِ الرَّابِعِ مِنَ السَّنَةِ، حِينَ تَتَهَدَّلُ السَّمَاءُ كَأَثْدَاءِ

الْكَلْبَةِ الْمُوضِعِ، وَتَغْلِي الظَّلَالَ، تَفْتَحُ دَارَ السَّيْمَا الصَّيْفِيَّةِ
أَبْوَابَهَا - سَيَمَا شَهْرَزَاد، ذَاتِ الْمَقَاعِدِ الْحَشِيبَةِ الطَّوِيلَةِ،
الْمُبْتَلَّةِ أَبَدًا بِالْمَاءِ الَّذِي يَرُسُّونَهُ عَلَى أَرْضِيَّتِهَا، عَصْرًا،
لِلتَّخْفِيفِ مِنْ وَهَجِ الْإِسْمَنْتِ. سَيَمَا شَهْرَزَادِ الَّتِي نَسْتَطِيعُ أَنْ
نُشَاهِدَ غُرُوضَهَا مِنَ الثَّلَالِ الْوَاقِعَةِ فِي شِمَالِ الْمَدِينَةِ. وَكَانَ
الْبَدْوُ يَصْعَدُونَ تِلْكَ الثَّلَالَ أَيْضًا، بَيْنَ الْعَرُوضِ وَالْعَرِضِ، فِي
أَنْتِظَارِ دَوْرِهِمْ لِلدُّخُولِ إِلَى فَيْلَمِ عُنْتَرَةِ بَنِ شَدَادِ، الَّذِي اسْتَمَرَّ
عَرَضُهُ صَيْفًا كَامِلًا، وَبَعْضًا مِنْ أَيَّامِ الْخَرِيفِ.

الْبَدْوُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلِلرَّصِيفِ الَّذِي يُفْضِي إِلَى السَّيْمَا
حُظْلُهُ الْأَوْفَرُ مِنْهُمْ. يَأْتُونَ فِي الصَّبَاحَاتِ وَيَنْتَظِرُونَ حَتَّى
الْمَسَاءِ، حَيْثُ تَسْتَقْبِلُ السَّيْمَا الَّتِي لَا سَقْفَ لَهَا أَوَّلَ
الدَّاحِلِينَ. وَإِذَا يَخْرُجُونَ يَنَامُونَ عَلَى الْأَرْضِ صَفَةً، لِيَمْضُوا فِي
الصَّبَاحِ إِلَى قُرَاهِمُ الْبَعِيدَةِ. لَا نَعْرِفُ مَنْ دَلَّهِمْ عَلَى هَذَا الْفَيْلَمِ،
لَكِنَّهُمْ أَتَوْا. وَمِنْهُمْ مَنْ شَاهَدَهُ عَشْرَ مَرَّاتٍ. كَانُوا مَبْهُورِينَ
بِعُنْتَرَةِ. يَصِلُ صُرَاخُهُمْ إِلَى أَقْصَى الْمَدِينَةِ فِي لَحَظَاتِ
حِمَاسَتِهِمْ: «هَـيْ هَـيْ، أَنْتَبِهْ يَا عُنْتَرَةُ. هَـيْ هَـيْ، أَنْتَبِهِي
يَا عَبْلَةَ»، وَقَدْ يَسْتَلُونَ خَنَاجِرَهُمُ الْمُحَبَّاءَ تَحْتَ الشُّرَاتِ،

كَأَنَّهُمْ فِي طَرَادٍ حَقِيقِيٍّ يُحَاوِلُونَ حَمْلَ جُزْءٍ مِنْ ثِقَلِ الْحُرُوبِ
عَنْ كَاهِلِ مَعْبُودِهِمُ الْأَسْوَدِ. لَكِنْ حُرُوباً صَغِيرَةً حَقِيقَةً كَانَتْ
تَنْتَظِرُهُمْ، دَائِماً، أَمَامَ بَوَابَةِ السَّيْنَمَا، إِذْ يَنْخَرِطُ النَّشَالُونَ الصَّغَارُ
فِي جَمَهَرَاتِهِمْ، وَبَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ تَغْلُو الْمُنْدَبَةُ: «سَرَقُونِي
يَا إِي»، وَتَلْحَقُ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ بِشَخْصٍ رَاكِبٍ، سَرَّعَانَ مَا يَخْتَفِي
فِي أَرْقَةِ سَوَاقِ الْخُضَارِ. غَيْرَ أَنَّ نَشَالِينَ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ كَانُوا
يَنْضَبُونَ لِهَوْلَاءِ السَّدَجِ أَحَابِيلَ مُرَّةً، وَهُمْ لَا عِبْرَةَ الْكُشْتَبَانِ،
وَالْوَرَقَاتِ الثَّلَاثِ، وَيَانْصِيبُ الْعَشْرَةَ قُرُوشٍ. يَأْتُونَ مَعَ
شُرَكَائِهِمْ، فَيَلَاعِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فِي طَرِيقَةِ تَجْعَلُ الرُّبْحَ
سَهْلاً، أَمَامَ أَعْيُنِ الْبَدْوِ، وَإِذْ تَنْطَلِي اللَّعْنَةُ عَلَيْهِمْ يَكُونُ قَدْ فَاتَ
الْأَوَانُ. يَنْوَحُونَ وَيَنْدُبُونَ، بَيْنَمَا يَنْسَلُ أَوْلَادُ الْكُشْتَبَانِ فِي
هُدُوءٍ، بَخْتاً عَنْ قَرَائِسٍ أُخْرَى.

مَوْسِمُ الْبَدْوِ مَوْسِمُ يَقْظَةِ الْحَيْلِ وَالْأَحَابِيلِ. يَرْبُطُ الْأَطْفَالُ
السَّكَاكِينَ إِلَى خُيُوطٍ رَفِيعَةٍ، وَيُلْقُونَ بِهَا فِي طَرِيقِ الْبَدْوِ ثُمَّ
يَحْتَبِئُونَ، وَإِذْ يَنْحَنِي هَوْلَاءِ لَأَلْتَقَاطِهَا يَجُرُّ الْأَطْفَالُ الْخُيُوطَ
فَيَرْكُضُ الْبَدْوُ وَرَاءَهَا. وَالصَّبِيَّةُ الرَّاشِدُونَ يَذَلُّونَهُمْ عَلَى طَرِيقِ
السَّوْقِ الْعُمُومِيَّةِ، فَتَنْتَهَبُهُمُ الْعَاهِرَاتُ وَالْقَوَادُونَ. يَأْخُذُونَ مِنْهُمْ

الْأَسْعَارَ مُضَاعَفَةً، وَقَدْ تَكْتَفِي عَاهِرَةٌ مَا أَنْ تُرَى الْبَدْوِيُّ فَخَذَهَا،
أَوْ تَذِيهَا مُقَابِلَ مَا يَذْفَعُ. أَوْ قَدْ يَكْتَفِي الْبَدْوِيُّ بِبَعْضِ الْمُدَاعِبَاتِ
الشَّفَهِيَّةِ، بَلْ يَكْتَفِي آخَرُونَ مِنْهُمْ بِقُبْلَةٍ، وَيَنْتَهِي الْأَمْرُ. وَهُمْ
يَعُودُونَ مِنَ السُّوقِ الْعُمُومِيَّةِ مُبْتَهَجِينَ، عَلَى آيَةٍ حَالٍ.
«يَا لِلشَّفَاهِ الْحَمَرَاءِ وَالرَّقَابِ الْبَيْضَةِ»، وَالْحَقُّ مَعَهُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ
لَا يَغْتَسِلْنَ قَطُّ، دَاكِنَاتُ الْجُلُودِ، وَعَلَيْهِنَّ طَبَقَةٌ مِنَ الصَّدَأِ فِي
سَمَاكَةِ ثِيَابِهِنَّ. «جوجو... آه جوجو»، يَلْفُظُونَ الْأَسْمَاءَ فِي
بَهْجَةٍ تَعْدِلُ أَكْشَافَ كَوَكَبٍ؛ «زوزيكا». يَا لَعَنَتَرَةَ الْعَبَسِيِّ.

وَيَنْتَهِي الصَّيْفُ وَالزَّحَامُ عَلَى أَشَدِّهِ أَمَامَ دَارِ السَّيْنِمَا. تَأْتِي
الْغُيُومُ الْأُولَى بِقَطَرَاتِهَا وَالْبَدْوُ لَا يُعَادِرُونَ الْمَقَاعِدَ الْحَشَبِيَّةَ.
يَنْهَمِرُ الْمَطَرُ فَيَجْلِسُ الْبَدْوُ تَحْتَ الْمَقَاعِدِ. تُغْلِقُ السَّيْنِمَا
أَبْوَابَهَا وَبَعْضُهُمْ يَنْتَظِرُ الدُّخُولَ.

وَفِي الصَّيْفِ الثَّانِي أَفْتَتَحَتِ الدَّارُ مُوسِمَهَا بِالْفِيلِمِ ذَاتِهِ،
لَكِنَّ اللَّعْبَةَ لَمْ تَنْطَلِ عَلَى الْبَدْوِ. كَانُوا يَخْرُجُونَ وَيَهْتَفُونَ
بِالْآخَرِينَ: «شَاخَ عَنْتَرَةُ يَا إِخْوَانُ، هُوَ لَا يَصْرُخُ جَيِّدًا هَذِهِ
السَّنَةُ». وَفِعْلًا، أَنْفَضَ الْبَدْوُ وَلَمْ يَزْجِعُوا قَطُّ، فَاسْتَبَدَلَتِ الدَّارُ
الْفِيلِمَ بِفِيلِمٍ آخَرَ، فِي الْأُسْبُوعِ الثَّانِي مِنْ عَرْضِهِ.

كَانَ فِي الْمَدِينَةِ دَارَانِ صَيِّفَتَانِ. سَيِّمَا شَهْرَزَادَ، وَسَيِّمَا
كَرَبِيسَ. أَعْلَقَتِ الثَّانِيَةُ أَبْوَابَهَا نِهَائِيًّا، حِينَ شُيِّدَتِ الْعِمَارَاتُ
الَّتِي بَنِيَتْ مِنْ حَوْلِهَا، إِذْ كَانَتْ شَاسَتْهَا وَطِيقَتْ، يَسْتَطِيعُ النَّاسُ
مُشَاهَدَةَ غُرُوضِهَا مِنْ أَيِّ مَا سَطَحَ. وَقَدْ عَمَدَ سُكَّانُ الْبُيُوتِ
الْمُقَابِلَةِ لِلشَّاسَةِ إِلَى تَأْجِيرِ الْأَسْطِخَةِ لِلصَّبِيَّةِ مُقَابِلَ قُرُوشٍ قَلِيلَةٍ
عَنْ كُلِّ عَرُوضٍ، حَتَّى كَادَتِ الصَّالَةُ أَنْ تَخْلُوَ إِلَّا مِنْ عَدَدٍ
هَينٍ. وَقَدْ آتَيْنَا حُزْنَ حَقِيقِيٍّ عَلَى سَيِّمَا كَرَبِيسَ، ذَاتِ
الْأَرْضِيَّةِ الْخَصُوصِيَّةِ، وَالْكَرَاسِي الْمُنْفَصِلَةِ، حَيْثُ تَقْدِرُ أَنْ تَأْخُذَ
كُرْسِيكَ إِلَى أَيِّ رُكْنٍ تَشَاءُ، وَأَنْ تَجْلِسَ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي تَشَاءُ،
وَتَأْكُلَ حَبَّةً مِنَ الْبَطِيخِ غَيْرَ خَائِفٍ مِنْ أَحَدٍ.

لَا بَدْوَ فِي الْمَدِينَةِ الْآنَ. لَمْ يَغْدُ مِنْ بَدْوٍ، لَا عِبُو الْكُشْتَبَانِ
لَا يَسْتَدْرِجُونَ إِلَّا ضَيْفًا طَارِئًا. وَأَمَامَ الْجَذْبِ الْمُخْدِقِ يُغِيرُ
بَعْضُ هَؤُلَاءِ عَلَى أَشْوَاقِ الصَّاعَةِ قُوبَ الْحَيِّ الْيَهُودِيِّ، لَكِنَّهُمْ
يَنْكَشِفُونَ عَاجِلًا، لَا مِنْ دَلِيلٍ ثَابِتٍ، أَوْ وَشَايَةٍ، بَلْ مِنَ الرَّائِحَةِ
الَّتِي تَغْلُقُ بِأَجْسَادِهِمْ. فَالشُّرُطَةُ تَجْمَعُ الْمُسْتَبْتَبَةَ بِهِمْ. وَتَشْمُهُمْ
فَقَطُّ، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَكُرُّ الْأَعْتِرَافَاتُ.

لَا رَائِحَةُ تُشْبِهُ رَائِحَةَ دُكَاكِينِ الْعَطَارِينَ فِي الْحَيِّ

الْيَهُودِيِّ. مَزِيخٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالتَّوَابِلِ، وَأَزَاهِيرِ الْخَاتُونِ
 وَالْأَفْعُوَانِ الْمُجَفَّفَةِ، وَالْكُحْلِ الرُّطْبِ، وَالنَّشَارَةِ، وَالشَّمَاقِ،
 وَالصَّنْدَلِ، وَالْمُرِّ، وَاللَّبَانِ، وَعِزْقِ السَّوسِ، وَالتَّمْرِ الْهِنْدِيِّ،
 وَالْعَنْبَرِ، وَكَفَشِ الْعَجُوزِ، وَمَكَاحِلَ مُطَيَّبَةٍ مِنْ عِظَامِ الْهَذْهَدِ،
 وَدَقِيقِ الْجَفِيتِ الْأَحْمَرِ الَّذِي يُلَوَّنُونَ بِهِ بُطُونَ الْأَكْبَاشِ أَوْ أَنَّ
 السِّفَادِ، وَصَابُونَ الْغَارِ، وَالْهَلِيُونَ، وَالصَّغْتَرِ، وَحَجَرِ الْفُسَاءِ،
 وَدُبْسِ الْعِنَبِ، وَقُشُورِ الرُّمَّانِ، وَالْجِلْدِ، وَأَشْيَاءَ أُخْرَى لَا يَغْلُمُهَا
 إِلَّا اللَّهُ وَالنِّسَاءُ، إِضَافَةً إِلَى الضُّوْعِ الْغَامِضِ لِلْخَوْفِ -
 خَوْفُنَا مِنَ الْبُيُوتِ الْمُتَرَاصَّةِ الرُّطْبَةِ، حَيْثُ نَسْمَعُ الْآنِينَ
 الْأَبَدِيِّ لِطِفْلِ فِي سَرِيرِ الْإِبْرِ، يَجْمَعُ آلِيَهُودَ دَمَهُ مِنْ أَجْلِ
 كَعْكَةِ الْفِصْحِ.

نَعَمْ. تَعْرِفُ الشُّرْطَةَ مَنْ مَرَّ بِالْحَيِّ مِنْ رَائِحَتِهِ. فَلْيَحْذَرْ
 الشَّارِقُونَ، وَلْتَذُمَّ تِلْكَ الرَّائِحَةُ الَّتِي تَحْرُسُ سَوْقَ الصَّاعَةِ حِينَ
 يَنَامُ حَرَسُ الْمَدِينَةِ. غَيْرَ أَنَّنا لَشْنَا سَارِقِينَ لِنَخَافَ الرَّائِحَةَ، بَلْ
 قِيلَ لَنَا: أَحْذَرُوا سَرِيرَ الْإِبْرِ فَتَمَلَّكْنَا الْخَوْفُ مِنْ ظَلَامِ الْحَيِّ
 ذَاكَ، وَمِنْ رُطُوبَةِ الْمَدَاخِلِ الْمُعْتَمَةِ لِبُيُوتِ تَخَافُ مِنَّا.

فَلْنَهْذَأْ قَلِيلًا: كُلُّ فِتَاةٍ تَجْمَعُ شَعْرَهَا فِي جَدِيدَةٍ وَاحِدَةٍ

تَتَدَلَّى حَتَّى الرَّدْفَيْنِ. يَلْكَ هُنَّ الْيَهُودِيَّاتُ. فَلْنَهْدَأْ قَلِيلًا:
جَمِيلَاتٌ هُنَّ وَلَعُوبَاتٌ كَبَنَاتِ حَارَةِ قَدُورِ بَكْ، وَأَجْمَلُهُنَّ بِنْتُ
عَزْرَا الْعَطَّارِ، حَتَّى لَيْكَادُ يَكُونُ شَارِعُ بَيْتِهَا مَزَارًا يَرْفَعُ
الْمُراهِقُونَ فِيهِ بَرَاعِمَ فُحُولَتِهِمُ الْعَتِيدَةِ، مِنْ دُونِ أَنْ تُفَارِقَ زَوَايَا
أَقْوَاهِمُ لُفَافَاتٍ مُشْتَعِلَةً، كَأَنَّمَا يُنَافِسُونَ الْكِبَارَ. آهْ بِنْتُ عَزْرَا،
فَهَمْنَا تَرْفُغُكِ فِيمَا بَعْدُ. فَهَمْنَا لِمَاذَا كُنْتَ تَرُدُّنَا - نَحْنُ
الصَّبِيَّةُ - بِالْهَدَايَا الَّتِي يُكَلِّفُنَا الْمُراهِقُونَ بِتَقْلِيلِهَا. هَذَا يَبْعَثُ
بِرِسَالَةٍ، وَذَلِكَ بِمَنْدِيلٍ مُعَطَّرٍ، وَثَالِثٌ بِمِكَحَلَةٍ. فَهَمْنَا كُلُّ ذَلِكَ
حِينَ هَرَبْتَ مَعَ بَرُو آتَنِ عَمَشَهُ؛ هَرَبْتَ مَعَ نَاصِجِ فَحْلٍ،
وَتَرَكْتَ هَؤُلَاءِ الْمُهَرَّجِينَ ذَوِي الثِّيَابِ الْمُضْجَكَةِ حَيَارَى،
يَنْظُرُونَ بَرَاعِمَ فُحُولَتِهِمْ تَتَفَتَّحُ، مِنْ شَارِعٍ إِلَى شَارِعٍ، فِي
طَفْطَقَةٍ صَاحِبَةٍ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَلْتَفِتَ أَنتِ إِلَى الْأَرِيحِ.

... وَمَا هَمٌّ، سَتَظَلُّ ابْنَةُ عَزْرَا فِي هَذِهِ اللَّامَدِينَةِ عَلَى الْأَقْلِّ،
بَيْنَمَا الْأَخْرِيَّاتُ يَمْضِينَ أَبْعَدَ. فَفِي كُلِّ شَهْرِ تَحْتَفِي فِتْنَةً، بَلْ
تَحْتَفِي عَائِلَةً بِأَكْمَلِهَا. يَعْبُرُونَ الْخُدُودَ خِلْمَةً، أَوْ تَوَاطُؤًا، إِلَى
تُرْكِيَا، وَمِنْ ثَمَّ يَنْتَهِي الْمَطَافُ بِهِمْ فِي فِلَسْطِينَ. وَبَنَقَى، نَحْنُ
الصَّبِيَّةُ حَامِلِي رَسَائِلِ الْمُراهِقِينَ، مَشْدُودِينَ إِلَى الشَّارِعِ ذَاتِهِ

الَّذِي يَبْدَأُ بِسُوقِ الدَّجَاجِ، مُروراً بِالْكَنِيسِ الْيَهُودِيِّ، وَانْتِهَاءً
بِسُوقِ الْعَطَّارِينَ؛ مَشْدُودِينَ إِلَى الرَّائِحَةِ، وَإِلَى شُرْطَةِ الرَّائِحَةِ،
وَإِلَى الْحَيِّ الْمَلَاصِقِ لِلْحَيِّ الْيَهُودِيِّ شَرْقاً، حَيْثُ تَحْفُ
بِالْبُيُوتِ أَسْوَازَ ضَيِّقَةٍ مِنْ مُكَعَّبَاتِ الرُّوثِ الْمَجْفَفِ. وَنَعَجِبُ
حَقّاً، مِنْ هَنْدَسَةِ الرُّوثِ هَذِهِ. فِي الْحَيِّ الْعَرَبِيِّ أَسْوَازٌ مِنَ
الرُّوثِ أَيْضاً، لَكِنَّهُمْ يَصْنَعُونَهُ دَائِرِيّاً، مُسْتَخْدِمِينَ إِطَارَ الْغُرْبَالِ
كَقَالِبٍ يَصُبُّونَ فِيهِ الرُّوثَ الْمَائِعَ، ثُمَّ يَثْرُكُونَهُ حَتَّى يَجِفَّ.
وَأَسْطُوانَاتُ الرُّوثِ، هَذِهِ، هِيَ وَقُودُ الشُّتَاءِ فِي الْمَدَائِفِ،
وَوَقُودُ التَّنُورِ فِي الْفُصُولِ كُلِّهَا. لَكِنَّ الْهَنْدَسَةَ التَّكْعِييَّةَ الَّتِي
يُمَارِسُهَا سُكَّانُ الْحَيِّ الْمَلَاصِقِ لِلْحَيِّ الْيَهُودِيِّ تُدْهَشُنَا:
«الرُّوثُ أَجْمَلُ هُنَا. مَحْظُوظُونَ هَؤُلَاءِ بِمُكَعَّبَاتِهِمْ». غَيْرَ أَنَّ
أَضْحَمَ سُورٍ مِنَ الرُّوثِ، فِي هَذِهِ الَّلَامَدِينَةِ، يَمْلِكُهُ يَعْقُوبُ
مِصَارُو. سُورٌ يَسْتَدِيرُ مِنْ حَوْلِ الْبَيْتِ، فِي غُلُوِّ ثَلَاثَةِ أَمْتَارٍ
صَافِئاً، ثُمَّ يَخْتَفِي فِي الْفُصُولِ الْأُخْرَى، إِذْ يَنْقُلُونَهُ، بِرُمَّتِهِ إِلَى
الدَّاخِلِ. وَلَمْ نَعْرِفْ حَتَّى الْآنَ كَيْفَ يَتَسَّعُ مَنْزِلُ يَعْقُوبَ،
بُغْرِفَتِهِ الْوَحِيدَةِ، لِلسُّورِ كُلِّهِ، وَلَهُ، وَلِزَوْجَتِهِ، وَلِأَبْنَيْهِ، وَلِدَرَجَاتِهِ
ذَاتِ الْمَقْعَدِ وَالذَّوَالِبِ الثَّلَاثَةِ، الَّتِي يَقُودُهَا بِيَدَيْهِ، لَا بِرِجْلَيْهِ.

ويعقوبو مَشْلُولٌ مُقْعَدٌ. نِصْفُهُ السُّفْلِيُّ ضَامِرٌ بِتَمَامِهِ أَوْ يَكَادُ،
وَكَذَلِكَ لِسَانُهُ الَّذِي لَا يَنْطِقُ إِلَّا فَأْفَاءَةً. غَيْرُ أَنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ
عَمَلِهِ قَطُّ. يَزِيدُ طَرَبُوشَهُ الْأَحْمَرَ ذَا الشَّرَارِيبِ، وَيَزِيدُ سُتْرَةَ
فَوْقَ بِنطَالٍ لَهُ مُؤَخَّرَةٌ مِنَ الْأَمْطَاطِ السَّمِيكِ لِلزَّخْفِ، ثُمَّ تَحْمِلُهُ
زَوْجُهُ إِلَى دَرَجَتِهِ، فَيَقْوُذُهَا بِيَدَيْهِ بِوَسَاطَةِ مِقْوَدِ ذِي مِقْبَضَيْنِ.

شَحَاذٌ لَيْسَ كَالشَّحَاذِ. حَسْبُهُ أَنْ يَمُرَّ بِأَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ حَتَّى
تَنْهَالَ عَلَيْهِ الْقَطْعُ الْمَعْدِنِيُّ. ذُقْنُهُ مُتَكَيِّفَةً عَلَى صَدْرِهِ، وَعَيْنَاهُ
تَتَفَرَّسَانِ الْعَابِرِينَ فِي كَسَلٍ سَاجِقٍ. وَإِذَا يَتَعَبُ مِنَ الْقِيَادَةِ يَنْزِلُ
عَنْ دَرَجَتِهِ مُتَدَحْرِجاً، ثُمَّ يَزْخَفُ عَلَى مُؤَخَّرَتِهِ الْأَمْطَاطِيَّةِ
لِيَتَكَيَّأَ بظَهْرِهِ إِلَى حَائِطٍ ظَلِيلٍ. بَيَدُ أَنْ أَبْنَهُ يُرَافِقُهُ فِي مُعْظَمِ
الْأَحْيَانِ إِلَى كَدِّهِ الْيَوْمِيِّ، دَافِعاً دَرَجَةَ أَبِيهِ مِنْ أَمَامِهِ، لَاهِئاً فِي
الْمُرْتَفَعَاتِ الْهَيْئَةَ مِنَ الطَّرِيقِ، مُسْتَرِيحاً فِي الْمُنْحَدَرَاتِ، إِذْ
تَجْرِي الدَّرَاجَةُ وَحْدَهَا. هَذَا دَأْبُهُمَا. وَيَزْعُمُ الْكَثِيرُونَ أَنَّهُ
يَحْتَفِظُ فِي أَرْضِيَّةِ بَيْتِهِ بِصَنَادِيقٍ مُقْفَلَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، غَيْرَ أَنَّ
لِلْمَزَاعِمِ عَنْ غُضْوِهِ الصَّخْمِ مُبَالِغَاتُهَا الْأَكْثَرُ رَنِيناً مِنْ ذَهَبِهِ
الْحَبِيِّءِ: «يَلْفُهُ مَرَّتَيْنِ عَلَى وَسْطِهِ... مَرَّتَيْنِ». وَيَسْتَرْسِلُون: «قَتَلَ
زَوْجَتَهُ الْأُولَى. دَفَعَهُ فِي أَسْفَلِهَا فَخَرَجَ مِنَ الْأَعْلَى». وَهُمْ لَا

يَشْرَحُونَ الْأَمْرَ سَرَدًا، بَلْ يُضَيِّفُونَ إِلَيْهِ رَغَوَةً أَعْمَاقِهِمْ، وَطَفَرَاتِ
الْحَنِينِ إِلَى آغْتِصَابِ غَايِرٍ. وَإِذْ نَسَأُلُ: «لِمَاذَا لَمْ تَمُتْ زَوْجَتُهُ
الثَّانِيَةُ؟» يُجِيبُونَ: «إِنَّهَا تَعْقِدُ لَهُ عُقْدَةً فَوْقَ الْقَضِيبِ لَا تَسْمَحُ
بُدْخُولِ أَكْثَرِ مِمَّا هُوَ مُرَادٌّ. هَايَ يَعْقُبُو. نَمُرُّ بِبَيْتِهِ الْمُنْعَزِلِ
فِي شِمَالِ الْمَدِينَةِ، وَنَهْتِفُ: «هَايَ يَعْقُبُو مَصَارُو. عَلَتْ غُضُوكَ
إِلَى السَّقْفِ يَعْقُبُو»، فَتَخْرُجُ أَمْرَاتُهُ وَهِيَ تُحْطِرُنَا بِوَابِلٍ مِنَ
الشَّتَائِمِ. نَبْتَغِدُ عَنْهَا قَلِيلًا، وَنَرْفَعُ خَيْزُرَانَاتِنَا فِي الْهَوَاءِ: «أَيُّهَا
أَطْوَلُ يَا زَوْجَةَ يَعْقُبُو، غُضُوهُ أَمْ الْخَيْزُرَانَاثُ؟»، فَيَنْتَابُهَا
الْجُنُونُ: «أَدْخِلُوهَا فِي أُمَّهَاتِكُمْ». وَخَيْزُرَانَاتُنَا خَيْزُرَانَاثَ حَرْبٍ،
ثَوَاكِبُنَا إِلَى الْحُقُولِ الْقَرِيبَةِ، حَيْثُ يَزْتَفِعُ نَوْعٌ مِنَ الْأَرْضِي
شَوْكِي، مِقْدَارَ مِثْرٍ، عَلَى أَسْوَاقٍ نَحِيلَةٍ. نَضْرِبُ رُؤُوسَهَا
فَتَنْطَايِرُ. نَضْرِبُ حَتَّى الْإِعْيَاءِ، وَحَتَّى تَسْتَحِيلَ الْخَيْزُرَانَاثُ
خَضِرَاءَ مِنْ غُصَاوَةِ الثَّبَاتِ الْقَتِيلِ. هَذَا لَهُؤُنَا، غَيْرَ أَنَّ لِزَوَاجَاتِ
الْفُقَرَاءِ، وَبَنَاتِهِمْ، لَهُوًّا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ فِي الْحُقُولِ ذَاتِهَا أَلَّتِي
تَشْهَدُ حُرُوبَنَا، وَمِنْهُنَّ - بِالطَّلَعِ - زَوْجَةُ يَعْقُبُو.

إِنَّهِنَّ يَتَّبَعْنَ الْبَقَرَ شِبْرًا شِبْرًا، حَامِلَاتٍ صَفَائِحَ فَارِغَةً، أَوْ
أَكْيَاسًا مِنَ الْخَيْشِ، يَجْمَعْنَ فِيهَا الرُّوثَ. يُسْرِغْنَ حِينًا، وَيُبْطِئْنَ

حيناً، يَتَصَادَمَنَّ إِذْ يَنْحَنِينَ، فِي اللَّحْظَةِ ذَاتِهَا، عَلَى كُرَاتٍ
 سَقَطَتْ تَوّاً مِنْ مُؤَخَّرَةِ بَقَرَةٍ. فَإِنْ كُنَّسْنَ بِأَيْدِيهِنَّ الْحَقْلَ كُلَّهُ
 أَنْتَظَرْنَ، وَهِنَّ يُسَيِّدْنَ الصَّفَائِحَ إِلَى مُؤَخَّرَاتِ الْحَيَوَانَاتِ، وَلَرُبَّمَا
 مَضَتْ سَاعَةٌ عَلَى حَالِهِنَّ تِلْكَ قَبْلَ أَنْ تَجُودَ بَقَرَةٌ بِحَفْنَةٍ مِنْ
 الْعَجِينَةِ الدَّاكِنَةِ، وَالْأَمْرُ لَا يَنْتَهِي دَائِماً بِعَوْدَتِيهِنَّ ضاحِكَاتٍ
 مِثْلَمَا ذَهَبْنَ، فَقَدْ يُنْشِئْنَ أَصَابِعُهُنَّ الْمُحْتَاةَ بِمُصَارَةِ الرُّوْثِ
 بَعْضُهُنَّ فِي شُعُورِ بَعْضٍ. هَذِهِ تَتَّهَمُ تِلْكَ بِمُغَافَلَتِهَا، وَهِيَكَ
 تَتَّهَمُ تَيْكَ بِالسَّرِقَةِ، وَذُنُكَ تَتَّهَمُ تَنُكَ بِوَضْعِ حَصِيٍّ فِي
 صَفِيحَتِهَا... إِلَى آخِرِهِ. وَقَدْ تَرَفُّسَ إِحْدَاهُنَّ صَفِيحَةً الْأُخْرَى،
 أَوْ تُفْرِغُ كَيْسَ الْخَيْشِ عَلَى بَكْرَتِهِ... إِلَى آخِرِهِ، أَوْ يَتَشَاتَمَنَّ
 فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ، وَمَنْ لَا يَسْمَعُهُنَّ لَنْ يَشُكَّ فِي أَنَّهِنَّ يَتَجَادَبْنَ
 الْحَدِيثَ، لَا الشَّتَائِمَ... إِلَى آخِرِهِ.

لَهُوَ كُلُّهُوَ سَاكِنِي الْعَرَاءِ الْأَوَّلِ. جِرَاءً، وَفِرَافُخٌ تَنْقُرُ الْفِرَافُخَ
 تَحْتَ الْقِشْرَةِ الْقَاسِيَةِ لِلْأَبَدِ السَّاكِنِ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ يَحْفَلُ
 بِالْوَقْتِ إِلَّا الدَّيْكَهُ. وَمَعَ أَوَّلِ صِيَاكِ بَارِدٍ تَنْهَضُ زَوْجَةُ
 شَيْخُمُوسَ، آبَنَ طَمْبُورْفَانَ. تَحْمِلُ صَفِيحَتَهَا وَتَمْضِي. غَيْرَ أَنَّهَا
 لَا تَتَّجِحُ إِلَى الْحُقُولِ الشَّمَالِيَّةِ لِجَمْعِ الرُّوْثِ، بَلْ تُوْغِلُ جُنُوباً

حَتَّى تُخَوِّمَ قَرْيَةً حَلَكُوا، حَيْثُ مُسْتَنْقَعَاتُ الْقَصَبِ الْمُحِيطَةُ
بِالنَّهْرِ، وَأَسْرَابُ الْجَوَامِيسِ كَأَنَّهَا أَنْحَدَرَتْ تَوًّا مِنْ سَفْحِ حُلْمٍ
وَحَشِيٍّ لَيْسَ فِيهِ غَيْرُ وَقِعِ الْحَوَافِرِ، وَصَرَخَاتِ حَيَوَانٍ فَقَدْ
وَلِيدَهُ. وَمَعَ الصِّيَاحِ الْبَارِدِ، أَيْضًا، يَتَّبِعُهَا شَبَّحٌ، مُتَسَرِّيًا بِأَحَادِيدِ
الْأَرْضِ الطَّوِيلَةِ هُنَاكَ، ثُمَّ يَلْتَقِيَانِ وَسَطَ حَقْلٍ وَيَخْتَفِيَانِ.

مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ لَشِيخْمُوسَ زَوْجَةً؟ إِنَّهُ صَبِيٌّ مِثْلُنَا، وَقَدْ دَرَجَتْ
عَادَاتُ عَلَى عَقْدِ خُطُوبَةٍ صَبِيٍّ عَلَى صَبِيَّةٍ فِي ذَلِكَ الْعُمْرِ، لَكِنَّ
الزَّوْاجَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بَعْدَ الْبُلُوغِ. غَيْرَ أَنَّ شِيخْمُوسَ تَزَوَّجَ، وَأَنْجَبَ
أَبْنَةً... يَا أَلَلَّهُ. كُلُّنَا نَعْرِفُ أَبْنَةَ مَنْ هِيَ، إِلَّا شِيخْمُوسَ. إِنَّهُ يَنَامُ
فِي فِرَاشِ زَوْجَتِهِ، وَيَظُنُّ الْأَمْرَ كَافِيًا لِإِنْجَابِ طِفْلٍ... يَا أَلَلَّهُ. «أَرِنَا
غُضُوكَ شِيخْمُوسَ»، نَقُولُ لَهُ فَيَكَاذُ يَبْكِي. «لَوْ وَضَعْتَهُ فِي أُذُنِ
زَوْجَتِكَ مَا أَحَسَّتْ بِهِ» نُضِيفُ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَوِرُهُ شَكٌّ فِي دَمِ
أَبْنَتِهِ.

لَا بَأْسَ. فِي اللَّيْلَةِ الْأُولَى لِزَوَاجِ شِيخْمُوسَ دَخَلَ عَلَيْهِ وَالِدُهُ
وَوَالِدَتُهُ. قَالَا لَهُ: «أُخْرِجْ حَتَّى نَسْتَدْعِيكَ، فَالْعَرُوسُ فِي حَاجَةٍ
إِلَى بَعْضِ الْإِرْشَادَاتِ». خَرَجَ شِيخْمُوسَ وَأَوْصَدَ وَرَاءَهُ أَلْبَابَ.
سَأَلَهُ الْمُخْتَفِلُونَ خَارِجًا: «مَا بِكَ؟». أَجَابَ: «يُسَوِّيَانِ الْأَمْرَ مَعَ

العروس، ويُعلّمانها». وفي اللَّحْظَاتِ الَّتِي بَاتَ يَرُدُّ فِيهَا عَلَى
 آسِيفَسَارَاتِ الْآخَرِينَ، كَانَتْ أُمُّهُ تَحْشُرُ مِنْدِيلًا فِي فَمِ
 الْعُرُوسِ، وَتُمْسِكُ بِيَدَيْهَا، بَيْنَمَا يُعَرِّبُهَا وَالِدُهُ فِي نَصْفِهَا
 الْأَسْفَلِ، وَيَحْتَزِّقُهَا حَتَّى أَحْشَائِهَا. لَقَدْ انْتَقَمَ الْوَالِدَانِ مِنَ وَالِدِ
 الْعُرُوسِ الْمَدِينِ لَهُمَا، وَالَّذِي لَمْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَدْفَعَ إِلَّا ابْنَتَهُ
 كَعُزٍّ مِنَ الدِّينِ. وَحِينَ خَرَجَا نَادِيَاهُ: «أَدْخُلِ الْآنَ»، فَدَخَلَ
 إِلَى ظِلَامِ الْغُرْفَةِ، مُتَلَمِّسًا الْفِرَاشَ، ثُمَّ نَامَ إِلَى جَوَارِهَا حَتَّى
 الصَّبَاحِ، مُتَقَلِّبًا بِجَلْبَابِهِ فَوْقَ بُرُكَةِ الدَّمِ.

الْكُلُّ يَعْرِفُونَ، إِذَا، إِلَّا شِيخْمُوسُ. وَالزَّوْجَةُ تَنْتَقِمُ عَلَى
 طَرِيقَتِهَا. فَالَّتِي تُنْجِبُ مَرَّةً تَسْتَطِيعُ أَنْ تُنْجِبَ مَرَّاتٍ. وَفِي
 مَدَى ثَلَاثِ سِنِينَ، بَعْدَ ذَلِكَ، كَانَ طِفْلَانِ آخَرَانِ يَعْبَثَانِ
 بِهُدُوءِ الْبَيْتِ، وَالْكُلُّ يَعْرِفُونَ طِفْلًا مِنْهُمَا، إِلَّا شِيخْمُوسُ.
 لَكِنَّهُمَا لَيْسَا مِنْ صُلْبِ أَبِيهِ كَالطِّفْلِ الْأَوَّلِ، بَلْ مِنْ صُلْبِ
 الشَّيْخِ الَّذِي يَتَّبِعُ الزَّوْجَةَ إِلَى تَخُومِ حَلْكَو، وَمَا مِنْ شَاهِدٍ غَيْرِ
 الْجَوَامِيسِ.

إِذَنْ، تَنْهَضُ زَوْجَةُ شِيخْمُوسَ مَعَ الصَّبَاحِ الْبَارِدِ لِلدَّيْكَةِ،
 وَتَمْضِي حَامِلَةً صَفِيحَتَهَا. وَعَلَى مَقَرَّبَةٍ مِنَ الْمُسْتَنْقَعَاتِ، حَيْثُ

يَنْسِدِلُ حِجَابٌ كَثِيفٌ مِنَ السَّنَابِلِ، يُدْرِكُهَا الشَّبَحُ. وَهُوَ عَجُولٌ
 لَاهِتٌ، يَرْفَعُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ كِطْفَلَةً، ثُمَّ يَنْحَنِي أَنْحِنَاءَ الْمُقْتَدِرِ،
 فَتَكُلُّ الْمَرْأَةُ أَنْحِنَاءَ تَهٍ بِبِرَاعِمِ الْعَرَقِ، وَتُطَوِّقُهُ كَمَا يُطَوِّقُ
 الْكَشَافُ الصَّارِيَةَ بِسَاقِيهِ، مُسْتَشْرِفًا الْمَدَى الْأَبْعَدَ فِي حُلْمِ
 الْبَحْرِ. وَإِنَّمَا أَنْتَهَيَا مِنْ كَشْفٍ عَادَا إِلَى الْبَحْثِ عَنْ كَشْفٍ. شَبَحَ
 وَأَمْرَأَةً، وَسَنَابِلُ يَقْطِي كَالْخَرَسِ فَوْقَ كَنْزِ الْجَسَدَيْنِ، غَيْرَ أَنَّ
 السَّاعَاتِ الْأُولَى لِلصَّبَاحِ تُشْرِدُ الشَّبَحَ، فَيَعُودُ أَذْرَاجُهُ - كَمَا
 جَاءَ - مُتَسَتِّرًا بِأَخَادِيدِ الْأَرْضِ. أَمَّا الْمَرْأَةُ فَتَبْدَأُ حَصَادَهَا بَيْنَ
 سِرَبٍ مِنَ النَّسَاءِ سَبَقَتْهَا إِلَى الْمُسْتَنْقَعِ، حَيْثُ يَرْفَعْنَ، جَمِيعًا،
 أَثْوَابَهُنَّ حَتَّى الْخُصُورِ، وَيَخْضُنَ الْمَاءَ الْأَخْضَرَ الَّذِي تَطْفُو مِنْ
 فَوْقِهِ كُرَاتٌ مُلْتَمِعَةٌ مِنْ رُوثِ الْجَوَامِيسِ.

.... يَا لِلْمُسْتَنْقَعِ الْجَمِيلِ. كُنَّا نَأْتِيهِ فِي السَّنَوَاتِ الْأُولَى
 لِنَتَفَتَّحَ خِمَائِرِنَا. نَسْتَلْقِي عَلَى عُشْبِ الرَّابِيَةِ مُتَلَصِّصِينَ عَلَى
 حَاصِدَاتِ الرُّوثِ. وَمُعْظَمُهُنَّ صَبَايَا، تَلْتَمِعُ أَفْخَاذُهُنَّ فِي الْمَاءِ
 كَقَهْقَهَةٍ أَطْلَقَتْهَا النُّعْمَةُ. لَكِنَّ الرِّيَاضِيِّينَ، الَّذِينَ يَسْتَعْرِضُونَ
 أَجْسَادَهُمْ فِي قُمْصَانِهِمُ الْمَفْتُوحَةِ، سَتَتُوا الْحَاصِدَاتِ بِتَرْدُدِهِمْ
 عَلَى الْمَكَانِ.

جاءَ واحدٌ مِنْهُم مُصَادَفَةً، ثُمَّ جاءَ اثنانِ، ثُمَّ تَكَاثَرُوا:
أَجْلَافٌ. كُلُّ رِياضِيٍّ، هُنا، جِلْفٌ بِالضَّرورةِ. لا يَفْقَهُونَ أَيَّ
جانِبٍ صَحِيٍّ في تَدْرِيباتِهِم، ولا يَدْخُلُونَ نادِياً إِلَّا شَعْفاً
بِالْعِراكِ. هَكَذا هُم، هَكَذا هُوَ الشِّمالُ.

كانوا، في بادِئِ الأمرِ، لا يَقْتَرِبُونَ مِنَ الْمُسْتَنقِعِ، بَلْ
يَبْقَوْنَ عَلَى مَبْعَدَةٍ مائَتَيْ مِثْرٍ، يَشَبَحُونَ في النِّهْرِ، وَيَسْتَعْرِضُ
بَعْضُهُم بَعْضاً، ثُمَّ تَدِبُ فِيهِمُ الْحِمِيَّةُ فَيَتَنَصَّارِعُونَ، وَدِيّاً،
وما تَلَبُّثُ الْمُصارَعَةُ الْوُدِّيَّةُ أَنْ تَتَحَوَّلَ إلى لَكَماتٍ، وَرَكْلِ،
وَطَفْطِقةِ عِظامٍ. كانوا يَظُنُّونَ أَنَّهم يَلْفِتُونَ آتِباةَ حاصِداَتِ
الرَّوْثِ إِلَيْهِم، لَكِنَّهُنَّ لَمْ يَأْبَهُنَّ قَطُّ. فَأَمَعَنُوا اقْتِرَاباً. جالِبِينَ
مَعَهُم كُرَاتٍ يَقْدِفُونَهَا، قَصِداً، صَوْبَ الْمُسْتَنقِعِ، ثُمَّ يَزُكُّضُونَ
لِلاتِّقَاطِها، وَهَذا ما أَجْفَلَهُنَّ تَمَاماً، فَتَأَيَّنَ إلى أَمَكانٍ أُخْرى، أو
بَدَّلْنَ أَوْقاتَ حِصَادِهِنَّ.

أَجْلَافٌ. وَنَحْنُ مُعْجَبُونَ بِهِم، مُعْجَبُونَ بِالشَّرِّ الْمُتَفَتِّحِ بَيْنَ
الْعَصَلِ. وَفي اللَّامِديَنَةِ هَذِهِ نادِيانِ لَتَخْرِيجِ أَباطِرَةِ الشَّارِعِ
وَقَبْضايَاتِهِ: «نادي إسْكَندَرِ نِيسانِه»، و«نادي الْحَلَبِيِّ»، الَّذِي
يُشْرِفُ عَلَيْهِ قُورا سَليلُ التَّوَرِ. وَقَدْ اسْتَفْحَلَ العِدااءُ بَيْنَ رِياضِيَّتِي

النَّادِيَيْنِ، حِينَ حَاوَلَ كُلُّ طَرَفٍ الْأَسْتِثْنَاءَ بِحَتَا اللَّوْطِيِّ. وَحَتَا فِي الْعَقْدِ الرَّابِعِ، مَاسِيحٌ أَخَذِيَّةٌ مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ، مَا تَكَادُ تَصْعُقُ قَدَمَكَ عَلَى صُنْدُوقِهِ حَتَّى يُبَادِرَكَ بِإِشَارَةٍ مُقْتَضِبَةٍ مِنْ تَحْتِ قُبْعَتِهِ الْأَمْرِيكِيَّةِ: «أَهْوُ كَبِيرٌ، يَا هُو؟». وَجُمْلَتُهُ هَذِهِ، مَدَارُ سُخْرِيَّةٍ عَلَى أَلْسِنَةِ الصَّبِيِّ حِينَ يَمُرُّونَ بِهِ: «حَتَا... كَبِير يَا هُو». «حَتَا... هَذَا عُضْوُهُ كَبِيرٌ يَا هُو»، وَيَتَوَقَّفُ حَتَا مُنْتَظِرًا أَنْ يَفُكَّ أَحَدٌ مَا أَزْرَارَ بِنَطَالِهِ، فَهُوَ يَتَمَتَّعُ بِأَسْتِعْدَادِ أَبَدِيٍّ لِأَنْ يُعْرِيَ مُؤَخَّرَتَهُ لِأَيِّ كَانَ، وَفِي أَقْرَبِ زَاوِيَةٍ أَوْ حَقْلٍ، وَهُوَ عَلَى أَسْتِعْدَادٍ لِأَنْ يُكَافِيَءَ مُقَابِلَ ذَلِكَ، فَيَمْسَحَ حِذَاءَكَ مَجَانًا مَدَى شَهْرَيْنِ.

لَقَدْ اتَّفَقَ بَعْضُ الرِّيَاضِيِّينَ مِنْ نَادِي الْحَلْبِيِّ عَلَى مَوْعِدٍ مَعَهُ، فَالْتَقَوْهُ قُرْبَ سَوْرِ الْمَلْعَبِ الْبَلَدِيِّ الَّذِي يُطِلُّ جُنُوبًا عَلَى مَقْبَرَةِ الشُّرَيَّانِ. وَالْمَكَانُ مُنْعَزِلٌ هُنَاكَ. خَالٍ مِنَ الْبُيُوتِ. وَفِي الْمَوْعِدِ الْمَحْدَدِ لِلِقَاءِ دَاهَمَهُمْ بَعْضُ رِيَاضِيِّي نَادِي إِسْكَندَرِ نَيْسَانِهِ، وَعَلَا الْجِدَالَ. هَؤُلَاءِ يُرِيدُونَ الدَّوْرَ أَوَّلًا، وَأُولَئِكَ يُرِيدُونَ الدَّوْرَ أَوَّلًا. وَكَانَ فِي وُدِّ حَتَا إِقْنَاعُهُمْ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تَلْيِيهِهِمْ جَمِيعًا، لِكِنَّهُمْ أَنَانِيُونَ. يَا لِحَتَا، يَا لِلْخَاسِرِ الْأَوْحَدِ:

اَزْتَفَعَتِ الْقَبَضَاتُ الصَّلْبَةَ وَصَرَّتِ الْأَسْنَانُ. سَقَطَ الْبَغْضُ تَحْتَ
 الْأَرْجُلِ، وَازْتَفَعَ آخَرُونَ فِي الْهَوَاءِ. وَخَذَهُ حَتَّى يَزُكُضَ مِنْ جِهَةٍ
 إِلَى جِهَةٍ مُتَوَسِّلًا: «كفى يا هُوَ. أنا لكم يا هُوَ». وَلَمْ يَتَفَرَّقُوا
 إِلَّا بَعْدَمَا نَالَهُمُ التَّعَبُ، وَأَزْهَقَتْهُمْ الرُّضُوضُ. «سَتَرُونَ» قَالَ
 أَوْلَيْكَ لِهَؤُلَاءِ. «سَتَرُونَ» قَالَ هَؤُلَاءِ لِأَوْلَيْكَ. وَبَقِيَ مَاسِيحُ
 الْأَحْذِيَةِ الَّذِي لَا يَرَى مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا مَا يُشْبِهُ قَضِيبًا أَوْ
 خِصِيَّةً.

وَلَا يُشْبِهُ حَتَّى، فِي سُهولةِ الثَّلِيلِ، إِلَّا بَنَاتُ أَبِي سَامِي، حَفَّارِ
 الْمَجَارِيرِ. أُعْطِيَهُنَّ نِصْفَ لِيرَةٍ، أَوْ رُبْعَ لِيرَةٍ، أَوْ ثِفَاحَةً، أَوْ
 شُكْرَةً، وَسِيَذِخْلَنَكَ إِلَى بَيْتَيْهِنَّ حَالَمَا يُغَادِرُ الْأَبُ إِلَى
 مَجَارِيرِهِ، وَالْأُمُّ إِلَى يَبْعِ مَكَانِسِ الْقَشِّ بَيْنَ الْحَارَاتِ.

ثَلَاثُ بَنَاتٍ. كُبْرَاهُنَّ فِي الثَّالِثَةِ عَشْرَةَ. وَبِالرُّغْمِ مِنْ صَغَرِنَا
 كَانَ الْأَمْرُ مُمْتِعًا حَقًّا. وَفِي مُكْنَةِ الْوَاحِدِ مِنَّا أَنْ يَظْفَرَ بِالثَّلَاثِ
 مَعًا. يُعْرَى نِصْفُهُنَّ الشَّفْلِيِّ وَيَلْتَصِقُ بِهِنَّ بِلَا جِرَاكِ. نِصْفُ
 سَاعَةٍ. سَاعَةٌ كَامِلَةٌ. سَاعَتَيْنِ. الْحَبْلُ عَلَى الْغَارِبِ مَا دَامَتْ
 الْأُمُورُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ. لِكِنَّهُنَّ - إِذْ كَبِرْنَ قَلِيلًا - صِرْنَ يَتَمَنَّعْنَ
 عَلَيْنَا... فَلْتَقْضِبِ الْمَجَارِيرُ عَلَيْهِنَّ إِذْنَ وَلْتَحْتَرِقْ مَكَانِسُ الْقَشِّ.

«لَنْ نَسْكُتَ عَلَى الْأَمْرِ يَا مَرَا حِيضُ»، قُلْنَا لَهُنَّ، فَلَمْ يَأْبَهُنَّ
لِوَعِيدِنَا. إِشْتَدَرَجْنَا أَبْنَ بِيرِي الْأَكْثَرَ رَشَاقَةً فِي السَّرِيقَةِ،
مُتَوَعِّدَيْنَهُ بِكَشْفِ مَا نَعْرِفُ مِنْ غَزَوَاتِهِ، وَمُؤْمِّلَيْنَهُ بِكَيْسِ مِنْ
كُرَاتِ اللَّعِبِ الرَّجَاجِيَّةِ، مُقَابِلَ أَنْ يَسْرِقَ دَجَاجَتِي أَبِي سَامِي.
وَقَدْ سَرَقَهُمَا فِعْلًا. فَتَنَقْنَا رِيَشَهُمَا وَرَاءَ الْبُيُوتِ، وَأَخَذْنَاهُمَا إِلَى
فُزْنٍ مَرَادُو، حَيْثُ أَقَمْنَا وَلِيمَةً دَسَمَةً مِنَ اللَّحْمِ الْمَشْوِيِّ، فِي
صَاحٍ مُخَصَّصٍ لِصُنْعِ الْكَعْكَ.

أِهْ أَبْنَ بِيرِي. يَدْخُلُ سِجْنَ الْأَحْدَاثِ بِضَعَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ
شَهْرٍ. وَالَّذُهُ عَتَالُ قَمْحٍ، وَأُمُّهُ مُتَفَرِّغَةٌ لِرَسْمِ الْخَطِّ لَاتِبِهَا،
وَتَحْمِيهِ إِذَا اتَّهَمَهُ أَحَدٌ. بِذِيْفَةٍ، وَقَبْقَابِهَا فِي يَدِهَا أَبَدًا. أِهْ أَبْنَ
بِيرِي. يَسْرِقُ أَبَارِيقَ الْوُضُوءِ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَأَخِذِيَّةَ الْمُصَلِّينَ،
يَسْرِقُ دِلَاءَ آلَابَارٍ، وَالْذَّجَاجِ، وَالْبَطِيخِ مِنَ الْعَرَبَاتِ. يَسْرِقُ
الدَّرَاجَاتِ، وَالْحَقُولَ، وَإِسْفَلَتِ الطُّرُقِ، وَالثَّرَابَ، وَالْهَوَاءَ.
أَشْقَرُ، لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنْ أَئِنَّ جَاءَ بِشَقَرَتِهِ، بَلْ نَزْعُمُ أَنَّهُ سَرَقَ
ذَلِكَ اللَّوْنِ مِنْ عَائِرٍ مَا. لَا يُخَالِطُنَا إِلَّا لِمَامًا. مَهْمُومٌ لِأَنَّ اللَّهَ
لَمْ يُعْطِهِ مَائَةً يَدٍ. مَهْمُومٌ إِذْ يَرَى الْكَوْنَ غَيْرَ قَابِلٍ لِلْسَّرِيقَةِ دُفْعَةً
وَاحِدَةً. لَكِنَّهُ مُلْجَأُنَا إِذْ تَضِيقُ سُبُلُ الْحُصُولِ عَلَى تَذَكْرَةٍ

للسَّيِّمَا، أَوْ يَنْقُذُ تَبْعُنَا: «تَعَالَ أَبْنُ بِيرِي» فَيَأْتِي. نَحْنُ قُصَاةٌ
 مَعَهُ، وَطَبَعُهُ جَبَانٌ بِرُغْمِ جَسَارَتِهِ فِي السَّرِقَةِ. «ابْنُ بِيرِي...
 نَحْنُ مُفْلِسُونَ»، وَيَتَبَاكِي: «وَاللَّهِ لَا أَمْلِكُ شَيْئًا». وَنَحْتَدِمُ: «لَا
 نُرِيدُ مِنْكَ نُقُودًا يَا أَبْنُ الْهَرَّةِ. نَعْرِفُ أَنَّ أَمْلَكَ تَأْخُذُ مِنْكَ حَتَّى
 آخِرِ قَرَشٍ لَتُخَبِّئَهُ فِي سِرِّوَالِهَا»، فَيَفْهَمُ قَصْدَنَا، وَيَرُدُّ مُتَبَاكِيًا
 مِنْ جَدِيدٍ: «وَاللَّهِ لَمْ أَعُدْ أَسْرِقْ. لَقَدْ تُبْتُ»، فَتَأْخُذُهُ مِنْ
 خِنَاقِهِ: «مَنْ سَرَقَ إِبْرِيْقَ بَيْتِ حَجَّو؟ هَا؟ الْبَارِحَةَ ضَاعَ الْإِبْرِيْقُ،
 وَالْبَارِحَةَ آخَتَفَى جَرَسُ بَقَرَةٍ حَسَوِ الْمَحَلِّمِي... هَا؟». وَيَذِرُفُ
 أَبْنُ بِيرِي دُمُوعًا بَارِدَةً بِقُدْرَةِ قَادِرٍ، فَلَا تَنْزُكُهُ: «إِسْمَعْ. الْبَاخَةُ
 الْخَلْفِيَّةُ لِمَحْطَّةِ إِسْوِ مَلَأَى بِصَفَائِحِ الْبَنْزِينَ الْفَارِغَةِ...»، وَلَا
 نُضْطَرُّ لِإِكْمَالِ الْجُمْلَةِ، إِذْ يَنْسَابُ أَبْنُ بِيرِي أَمَامَنَا خَفِيفًا
 مُبْتَسِمًا بِقُدْرَةِ قَادِرٍ، أَيْضًا. وَحِينَ نَصِلُ إِلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ
 الشَّجَرَاتِ الْمُحِيطَةِ بِمَحْطَّةِ إِسْوِ، نَوْهَمُ مَنْ يَرَانَا أَنَّنا نَتَصَيَّدُ
 الْعَصَافِيرَ بِنُقُيْفَاتِنَا، بَيْنَمَا يَصْعَدُ السَّارِقُ الْأَشَقَرُ إِحْدَى
 الشَّجَرَاتِ، وَمِنْهَا إِلَى السُّورِ، ثُمَّ يُنَاوِلُنَا الصَّفَائِحَ وَاحِدَةً إِثْرَ
 أُخْرَى. وَتَكْفِينَا خَمْسَ مِنْهَا، نَبِيعُهَا لِأَصْحَابِ مَحْطَاتِ أُخْرَى
 يَنْصِفُ لِيرَةً لِلوَاحِدَةِ، بَلْ بِخَمْسَةِ وَسَبْعِينَ قَرَشًا أحيانًا، وَالْمَبْلُغُ

كافٍ لدُخُولِ أَرْبَعَةِ صَبِيَّةٍ إِلَى السَّيْنِمَا، وَمَعَهُمْ غُلْبَةٌ مِنْ تَبَغٍ
«مرجان».

وَلَا نُنَا هَكَذَا. لَأَنَّنَا جُزْءٌ مِنْ لُهَاثِ الشُّمَالِ الْأَبَدِيِّ، وَأَبْنَاءُ
آبَاءٍ أَنْحَسَرَتْ جِبَاهُهُمْ تَحْتَ مَطَارِقِ الْحُكُومَاتِ فَلَمْ يَعُودُوا
يَأْبَهُونَ أَنْ يَزُونَا هَكَذَا؛ وَلَا نُنَا، مِثْلَ آبَائِنَا أَيْضًا، مَحْزُومُونَ
حُزْمَةً وَاحِدَةً بِحَبْلِ مِنَ الْعَضْبِ عَلَى لَا أَحَدٍ، بَلْ عَلَيْنَا وَعَلَى
الْأَلَا أَحَدٍ، بَلْ عَلَى الْغُيُومِ وَالْحُقُولِ وَالسَّنَابِلِ الَّتِي تَنْمُو أَمَامَ
أَعْيُنِنَا ثُمَّ تَحْتَفِي... لَأَنَّنَا هَكَذَا، يَتَرَفَّعُ عَلَيْنَا الْمُوظَّفُونَ الَّذِينَ
تَتَدَبُّهُمْ الْحُكُومَاتُ عَلَى أُمُورِ الشُّمَالِ، وَيَتَرَفَّعُ عَلَيْنَا سُكَّانُ
الْمُدُنِ الْوَافِدُونَ عَلَى هَذِهِ الَّلَامَدِينَةِ، آتِبِغَاءَ التَّجَارَةِ الْعَابِرَةِ أَوْ
الدَّائِمَةِ؛ فَالْمَكَانُ خَضِبَ إِلَّا عَلَيْنَا. يَبْعَثُونَ بِأَوْلَادِهِمْ إِلَى
الْمَدَارِسِ فَيَتَجَنَّبُونَنَا، وَيَلْهَوْنَ فِي زُمْرٍ مُتَفَرِّدَةٍ. أَوْلَادٌ نَظِيفُونَ،
يَحْمِلُونَ فِي جُوبِهِمْ مَنَادِيلَ بَيْضَاءَ. أَوْلَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، يُحِبُّهُمْ
الْمُدِيرُ وَالْمُعَلِّمُونَ، وَيُحِبُّونَ أُمَّهُاتِهِمْ وَأَخَوَاتِهِمُ النَّصِرَاتِ.
يَبْعَثُونَ إِلَى آبَائِهِمْ بِرَسَائِلِ التَّقْدِيرِ عَنْ نَجَايَةِ أَبْنَائِهِمْ، فَتَكُونُ
الرَّسَائِلُ مَدْخَلًا إِلَى الْبُيُوتِ النَّظِيفَةِ، وَالْآبَتَسَامَاتِ الْعَائِلِيَّةِ الرُّطَبَةِ
الشَّقِيَّةِ. لَكِنَّ مَهْدِي دِرْبَاسٍ طَائِرٌ خَارِجٌ سِرِّيهِ. ابْنُ مُسَاعِدٍ أَوَّلَ

مَسْؤُولٍ عَنِ السَّجْنِ الْمَدَنِيِّ، تَجْرِي فِي عُروْفِهِ دِمَاءُ كُرْدِيَّةٍ لَا تُفْصِحُ عَنْهَا أَعَائِلُهُ الَّتِي تَتَكَلَّمُ الْعَرَبِيَّةَ بِلُكْنَةِ الْمُدُنِ الْكَبِيرَةِ.

مَهْدِي كَالسَّيْلِ. مَهْدِي أُلُوعِبْتُنَا، كَأَنَّمَا نَنْتَقِمُ عَبرَهُ مِنْ
الْأَوْلَادِ النَّظِيفِينَ جَمِيعًا. وَبِالرَّغْمِ مِنْ فِظَاطَةِ صِدَاقَتِنَا لَا يُفَارِقُنَا
قَطُّ. نَحْبُهُ لِأَنَّهُ مِثْلُنَا، وَنَحْقِدُ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ أَبْنُ أَمْرَأَةٍ أُنِيقَةٍ تَنْظُرُ إِلَيْنَا
مِنْ بَابِهَا شَرْرًا. وَتُنَادِيهِ كُلَّمَا رَأَتْهُ مَعَنَا: «هَؤُلَاءِ بِجَمِّ. أَذْخُلُ إِلَى
أَبَيْتِ». وَنَلْتَفِتُ إِلَى أُمِّهِ صَارِخِينَ: «لَمْ نَطْلُبْ مِنْهُ مُصَاحَبَتَنَا
يَا سَيِّدَةً»، ثُمَّ نَحْدِجُ مَهْدِي: «إِذْهَبْ يَا أَبْنَى أَلَمَامَا»، وَنَعْرِفُ
كَمْ يُؤْلِمُهُ ذَلِكَ. غَيْرَ أَنَّهُ يُحَاوِلُ، مِرَارًا، أَنْ يَكْسِبَ وَدُنَا،
مُتَشَبِّهًا بِنَا - أَبْنَى الْمَدِينَةِ الْغَضُّ - فَيَقْفِزُ مِنْ فَوْقِ سَوْرِ عَالٍ،
وَيَلْعَبُ كُرَّةَ الْقَدَمِ بِحَجَرٍ، لَا بِكُرَّةِ مَطَاطٍ أَوْ جِلْدٍ، مِثْلُنَا،
وَيَرْجِعُ آخِرَ النَّهَارِ مَشْرُومَ الْجِذَاءِ فَتَعَنَّفُهُ أُمُّهُ.

لَكِنْ مَهْدِي رَضَخَ لِقَطِيعَتِنَا آخِرَ الْأَمْرِ، وَلَمْ تَكُنِ الْقَطِيعَةُ
نَابِعَةً مِنَّا، بَلْ مِنَ التَّهْدِيدَاتِ الْجَادَّةِ الَّتِي مَلَأَتْ وَالِدَتُهُ بِهَا
بُيُوتَنَا.

فَالْأُنِيقَةُ تِلْكَ، زَوْجَةُ آمِرِ السَّجْنِ الْمَدَنِيِّ، حِينَ كَلَّتْ مِنْ
تَقْرِيعِهَا لَنَا، وَمِنْ تَهْدِيدِهَا، فَصَدَتْ بُيُوتُنَا وَاحِدًا وَاحِدًا. قَالَتْ

لَأُمّهَاتِنَا: «سَيَتَدَبِّرُ أَبُو مَهْدِي أَمْرَ أَزْوَاجِكُنَّ»، وَأُمّهَاتُنَا يُجْفِلْنَ مِنْ ذِكْرِ الْعَسْكَرِ فَقَالُوا لَنَا: «أَتُرِيدُونَ أَنْ نَذْهَبَ إِلَى السَّجْنِ؟» فَأَجْبَلْنَا: «لا»، لِيَذْهَبَ مَهْدِي وَأُمُّهُ إِلَى الشَّيْطَانِ. وَهَكَذَا اجْتَمَعَ مَجْلِسُنَا - نَحْنُ الصَّبِيَّةُ - تَحْتَ هَاجِسٍ أَنْ نَرَى آبَاءَنَا الْمُتَعَبِينَ تُعْنَفُهُمُ الشُّرْطَةُ فَيَضْرِبُونَ الشُّرْطَةَ حَتَّى تَتَطَايَرَ قُبُعَاتُهُمْ. وَنَعْرِفُ مَاذَا يَعْنِي سَقُوطُ قُبْعَةِ الشُّرْطِيِّ: السَّجْنُ سَنَةً كَامِلَةً... «لا» قُلْنَا فِي مَجْلِسِنَا، لَا لِمَهْدِي بَعْدَ الْيَوْمِ. وَتَرَفَّقَتِ السَّمَاءُ بِمَهْدِي الْخَاسِرِ، إِذْ آتَيْنَا الدُّهْ إِلَى سَجْنِ مَدِينَةِ أُخْرَى، فَانْتَقَلَتِ الْعَائِلَةُ كُلُّهَا.

كَانَ حُزْنُنَا عَلَى مَهْدِي يَغْدِلُ حُزْنُنَا عَلَى فِرَاقِ جَعْفَرِ الْأَعْرَجِ، صَاحِبِ سِيَّجَارَاتٍ يَنْبِجُهُ بِعَشْرَةِ قُرُوشٍ. مَاتَ مِنْ دُونِ مُقَدَّمَاتٍ. أَرْتَفَعَ صَوْتُ قَاسِمٍ فِي مُكَبِّرِ الْمَسْجِدِ: «فَلْيَأْتِ الْمُؤْمِنُونَ لِلصَّلَاةِ عَلَى جَعْفَرٍ»، وَتَوَافَدَ الْمُصَلِّونَ. لَقَدْ غَادَرَهُمْ كَمَا غَادَرْنَا، وَسَيَفْتَقِدُونَ ذَلِكَ الَّذِي يُصَلِّي جَالِساً وَسَطَ الْأَوَاقِفِينَ، وَقَدْ آمَنَدْتُ سَاقَهُ الْمُتَصَلِّبَةُ أَمَامَهُ كَعَمُودٍ خَشَبِيٍّ.

مَاتَ جَعْفَرُ. مَاتَ مِنْ دُونِ تَارِيخٍ وَرَاءَهُ أَوْ أَمَامَهُ. لَنْ يَغْرِفَكَ أَحَدٌ جَعْفَرُ، وَلَيْسَ لَدَيْكَ مَالٌ يُغْرِي بِالْمَعْرِفَةِ.

لا نَسَلْ، لا نَسَب. عاديّ كالصَّنْفِ الْعَادِيّ، وما مِنْ حَادِثَةٍ فِي
حَيَاتِكَ تَجْعَلُ شَخْصاً مَا يَهْتِفُ: «فَعَلَ جَعْفَرُو كَذَا، أَوْ كَذَا»،
لا. حَتَّى مَوْتِكَ لَيْسَ بِحَادِثَةٍ. كَلَّفَتْهُمْ عَشْرَ دَقَائِقَ لِلصَّلَاةِ
عَلَيْكَ، ثُمَّ انْفَضُّوا. وَضَعَكَ أَحَدُ أَعْمَامِ عَزْوٍ فِي عَرَبَةٍ يَقُودُهَا
بَغْلٌ كَسُولٌ، وَلَمْ يَتَّبِعِ الْعَرَبَةَ إِلَّا حَفَّارٌ تَبَرَّعَ بِجُهْدِهِ لِلْآخِرَةِ.

وَلِمَاذَا لَمْ تُسَجِّلْ لِنَفْسِكَ حَادِثَةً تُؤَجِّجُ الْمَدِيحَ، أَوِ الشَّمَمَ،
جَعْفَرُو؟ لِمَاذَا لَمْ تَتَوَاطَأْ عَلَى شَأْنِكَ الْعَادِيّ؟ كَانَ فِي مُكْنَتِكَ
أَنْ تُحْرِقَ بَيْدِراً، أَوْ تَعْتَصِبَ طِفْلاً تَشْتَرِي مِنْكَ السَّكَائِرَ.
كَانَ فِي مُكْنَتِكَ أَنْ تَتَّخِذَ الْاِثْنَانَ زَوْجَةً، أَنْتِ الْعَرَبُ، وَأَنْ
تَشْتَرِيَ ثَوْرًا فَخْلاً لِلْإِخْصَابِ. لَقَدْ مِتَّ الْآنَ، وَبَقِيَ بَابُ
بَسْطَلَتِكَ مَفْتُوحاً، يَحَارُ الْجِيرَانُ أَيْغَلِقُونَهُ أَمْ يَتَرُكُونَهُ وَشَأْنَهُ.

مَاتَ جَعْفَرُو. مَاتَ أَهْلُهَا الْكِلاَبُ. مَاتَ، مَاتَ، مَاتَ مَاتَ
مااااات.

... وَغَدًا يَمُوتُ الْآخَرُونَ أَيْضاً، تَبَاعاً أَوْ مُجْتَمِعِينَ،
وَسَيَكُونُ أَوَّلُهُمْ شاور الْكِلدَانِيّ، الْجُثَّةُ الْوَاقِفَةُ أَمَامَ أَبْوَابِ
السَّيْنَمَا، مُلتَصِقَةً الظَّهْرِ بِالْبَطْنِ.

شاور، بَطْلُ يَانَصِيبِ الْعَشْرَةِ قُرُوشٍ، يُقَامِرُ عَلَى غُلْبَةِ لوكي،

أَوْ كُنْتُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيحَهَا مِنْهُ أَحَدٌ، إِذْ لَيْسَ مِنْ رَقَمٍ رَابِعٍ
تَحْتَ الْبَقْعَةِ السُّودَاءِ. يَمْحُوهَا. وَمَنْ يَزِيحُ رَقَمًا غَيْرَ مَوْجُودٍ؟
لَا يَزِيحُ أَحَدٌ، وَلَا يَزِيحُ شَاوَرٌ مِنْ أَحَدٍ.

الْكُلُّ يَعْرِفُونَ وَرَقَاتٍ يَانْصِبِيهِ الْمَغْشُوشَةِ. وَمَعَ ذَلِكَ
يَقِفُ الشَّبَّاحُ صَبَاحَ مَسَاءٍ عَلَى أَبْوَابِ الشَّيْنِمَا مُتَرَنِّحًا. تَتَلَأَلَأُ
فُوْهَةُ بَطْحَةِ الْعَرِيقِ فِي جَيْبِ بَنْطَالِهِ الْخَلْفِيِّ. «يَلَّا
يَا شَبَابَ. اللُّوكِي بَعْشَرَةَ قُرُوشٍ. يَلَّا»، وَيَسْرُدُ عَبْرَ فَكِّهِ
الْمُوتَخِيَةِ أَنَّهُ كَانَ ضَابِطًا فِي جَيْشِ نوري السَّعِيدِ... يَلَّا، ثُمَّ
يُؤَدِّي التَّحِيَّةَ لِلدُّورِيَّةِ الشُّرْطَةِ الَّتِي تَبْحَثُ عَنِ الْمُقَامِرِينَ، وَهُوَ
مُتَّكِيٌّ عَلَى عَرَبَةٍ لِبَيْعِ أَلْمِيَاهِ الْغَارِيَّةِ... يَلَّا، وَتَضْحَكُ
الشُّرْطَةُ الْأَبْيَقَةُ.

سَيَمُوتُ شَاوَرٌ. نَعَمْ، سَيَمُوتُ مُهْمَلًا كَهَذَا الْجَنِينِ الْمُلْقَى
فِي حُفْرَةِ قُرْبِ مَدْرَسَتِنَا. جَنِينٌ مَكْسُورُ الْجُمْجُمَةِ، يَتَدَلَّى مِنْ
بَطْنِهِ حَبْلُهُ الشَّرِيٌّ كَأَفْعَى. عَارٍ تَمَامًا، لَمْ يُكَلِّفْ مَنْ رَمَوْهُ
أَنْفُسَهُمْ مَشَقَّةَ لَفِّهِ بِكَيْسٍ وَرَقِيٍّ. عَارٍ، مَفْتُوحُ الْقَمِ. عَارٍ أَرْزَقُ
كَأَنَّمَا مَاتَ بَرْدًا بَعْدَ رَمِيهِ. مَا هُمْ، سَيَمُوتُونَ جَمِيعًا. سَتَمُوتُ
الْمَدْرَسَةُ، وَسَتَأْتِي أَشْبَاخُنَا لِتَسْرَحَ بَيْنَ خَرَائِبِهَا غَيْرَ خَائِفَةٍ مِنْ

أَحَدٍ. لَكُنَّا سَنَحْتَفِلُ بِأَشْبَا حِنَا الْحَيَّةِ قَبْلَ الْمَوْتِ. سَنَحْتَفِلُ
وَسَطَ الظَّلَامِ وَأُرُوجِهِ كَالْقَدِيسِ الْفِضِّيِّ سَانَتُو.

فَجَاءَ هَبَطَ عَلَيْنَا سَانَتُو. هَبَطَ فِي دَارِ سَيْنَمَا حَدَادَ،
بَطَلُ أَفْلَامِ مَكْسِيكِيَّةِ رَدِيعَةِ، مُصَارِغُ يَزَوْدِي قِنَاعاً
وَيُطَارِدُ مَصَاصِي الدَّمَاءِ، وَالْمَوْتَى الْمُتَسَلِّلِينَ إِلَى الْحَيَاةِ. فَلَنُكُنْ
سَانَتُو.

كُنَّا نَشْرِقُ الْمَلَاءَاتِ. نَشْرِقُ أُكْيَاسَ الطَّحِينِ الْفَارِغَةِ مِنْ
فُزْنٍ مَرَادُو، وَنَصْنَعُ الْأَقْنِعَةَ. بَدَأَ الْأَمْرُ لَهَوًا، وَانْتَهَى بِأَنْ صَارَ
لِكُلِّ حَيٍّ مِنْ الْأَحْيَاءِ قِنَاعُهُ.

أَنَا الَّذِي بَدَأْتُ. فِي بَيْتِ أُخْتِي آلَةَ خِيَاطَةِ مِنْ نَوْعِ سِنْجَرٍ،
تُدَارُ بِوَسَاطَةِ الْقَدَمِ، وَكُنْتُ مَاهِرًا فِي خِيَاطَةِ الْقُبْعَاتِ الثُّرُكِيَّةِ،
وَسُرَوَائِلِ السَّبَاحَةِ، مِنَ الْقِمَاشِ، وَمِنَ الْحَيْشِ، أَوْ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ
يُمْكِنُ أَنْ يُزَوَّدَى. فِي بَيْتِ أُخْتِي صَنَعْتُ أَوَّلَ قِنَاعٍ. ثُمَّ
اسْتَعَزْتُ عَبَاءَةً أُمِّي خِلْسَةً، وَتَرَصَّدْتُ الْعَابِرِينَ، لَيْلًا، فِي الْعَرَاءِ
الَّذِي يَلِي الْبَيْتَ جُنُوبًا.

هَاجَمْتُ الْفَرَايِسَ تَبَاعًا. وَلَوْلَتِ امْرَأَةٌ، وَوَلَّى رَجُلٌ كَهْلٌ
الْأَذْبَارَ. صَرَخَ طِفْلٌ مِنْ هُنَاكَ، وَعَوَى كَلْبٌ مِنْ هُنَا. كُنْتُ

تَوَأَّمِ الظُّلَامِ وَرَاءَ الْقِنَاعِ، تَوَأَّمِ الْخَوْفِ ذَاتِهِ. قُلْتُ لِنَفْسِي:
«سَأَجْعَلُهُمْ يُجْتَنُونَ». وَصَدَّقْتُ الْأَمْرَ. صِرْتُ أَرْكُضُ بَيْنَ
الْحُقُولِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ لِتَطَّأَهَا أَقْدَامُنَا لَيْلًا. دُرْتُ وَسَطَ
الْبُيُوتِ الْمَغْزُولَةِ صَارِخًا مِنْ شَبَابِيكِهَا فَيُجْفِلُ السَّاكِنُونَ، وَلَا
يَلْحَقُونَ بِي. «أَنَا الْخَوْفُ» قُلْتُ لِنَفْسِي، وَصَدَّقْتُ. هَاجَمْتُ
الْكِلَابَ أَيْضًا، وَكُنَّا لَا نَجْرُؤُ عَلَى الْاِقْتِرَابِ مِنْهَا. وَرَفَعْتُ
عَقِيرَتِي كَأَنِّي آوِي: «هُوَوُو». وَسَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ، مِنْ ذَلِكَ
الْمَسَاءِ، بَدَأَ النَّاسُ يَتَجَمَّهَرُونَ. يَصْرُخُونَ فِي فَرْعِ ظَاهِرٍ: «مَنْ
هُنَاكَ؟»، وَأَرَدْتُ: «هُوَوُو». وَأَخِيرًا أَخْبَرَهُمْ أَخِي الْأَصْغَرُ حَقِيقَةَ
اللُّغْبَةِ. هَجَمَ الصَّبِيَّةُ عَلَيَّ فِي فَرْحٍ لَا يُعَادِلُهُ فَرْحٌ، أَمَّا الْكِبَارُ
فَشَتَمُونِي بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ، وَأَنْصَرَفُوا.

فِي الْيَوْمِ التَّالِي كَانَ كُلُّ صَبِيٍّ يَحْمِلُ قِنَاعًا مُحَيَّطًا بِالْيَدِ فِي
جَنِبِهِ.

فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ كَانَ لِكُلِّ حَيٍّ نَوْعٌ خَاصٌّ بِهِ مِنَ الْأَفْنِيعَةِ.
مِنْهُمْ مَنْ أَضَافَ إِلَيْهَا آذَانًا كَأَذَانِ الْقِطْطِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَلْصَقَ بِهَا
الرِّيشَ، وَمِنْهُمْ مَنْ طَوَّرَهَا فَجَعَلَهَا مِنْ الْجِلْدِ الْمُخَيَّطِ بِالسُّيُورِ.
أَفْنِيعَةٌ... أَفْنِيعَةٌ... أَفْنِيعَةٌ لَا تُضَيِّفُ شَيْئًا إِلَى قِنَاعِ الْأَرْضِ

الْكَبِيرِ: الشُّمَالِ. أَقْنَعَةُ لَا تَعْدِلُ قِنَاعَ مِيرُو الْحَقِيقِيِّ؛ قِنَاعٌ وَقُوفِهِ
 هُنَاكَ، عَلَى الثُّخُومِ الْخَفِيَّةِ لِلْأَمْدِينَةِ، وَسَطَ أَكْبَاشِهِ. يَتَحَيَّنُ
 سُكُونًا غَامِرًا لِيَبْدَدَ السُّكُونَ. وَمِنْ أَثْنِ لَنَا بِالسُّكُونِ مِيرُو؟ لَوْ
 لَمْ نَجِدْ مَدِينَةَ أَمْلَاهِي الَّتِي هَدَمْنَاهَا لَهَدَمَ الْعَتَالُونَ الْمَدِينَةَ.
 عَاطِلُونَ عَنِ الْعَمَلِ، هَؤُلَاءِ، مِيرُو. يَشْرَبُونَ الشَّايَ بِالذِّئْنِ فِي
 مَقَاهِي سَوْقِ الثُّجَارِ، وَيَعْدُونَ أَصْحَابَهَا بِسَدَادِ الذِّئْنِ حِينَ تُقْبَلُ
 أَوَّلُ شَاحِنَةٍ، وَمِنْ شَاحِنَةٍ تَجِيءُ مِيرُو. الْحُكُومَةُ أَكَلَتِ
 الشَّاحِنَاتِ. الْحُكُومَةُ أَكَلَتِ الْقَمْحَ. الْحُكُومَةُ أَكَلَتِ الْمَطَرِ
 وَالرِّيَّاحَ وَالْبُرُوقَ. الْحُكُومَةُ أَكَلَتِ الثُّجُومَ. أَوْ رَضَعَتْ بِهَا
 أَكْتَفَ ضَبَّاطُهَا. الْحُكُومَةُ أَكَلَتِ الْحُكُومَةَ مِيرُو... وَالشُّمَالُ
 يَأْكُلُ أَقْدَامَنَا.

أَمَا أَنَا وَفُوزِي فَتَأْكُلُ الْبَطِّيخَ. حُقُولُ كَالْبَحْرِ مِنَ الْبَطِّيخِ،
 وَأَنَا وَفُوزِي، وَدَرَّاجَتَانِ تَفْرَقَعَتَ عَجَلَاتُهُمَا.

كُنَّا ذَاهِبِينَ لِرِيَازَةِ أَقْرَبَائِهِ فِي قَوِيَّةِ هَرَمِ شَيْخُو، عَلَى دَرَّاجَتَيْنِ
 أَسْتَأْجَرْنَاهُمَا. وَوَسَطَ الْبَرَارِيِّ الَّتِي تَقْلَدَتْ سُيُوفَ الظُّهَيْرَةِ
 حَرَدَتِ الدَّرَّاجَتَانِ. آزَتْخَتَا رُؤَيْدًا رُؤَيْدًا كَأَنَّ عَجَلَاتِيهِمَا مِنْ
 شَمْعٍ، فَاضْطَرُّرْنَا أَنْ نَجْرَّهُمَا جَرًّا بِأَقْدَامِنَا آغَائِصَةً فِي تُرَابِ

الطُّرُقِ، ثُمَّ تَفْتَقَّتْ فِكْرَةً فِي رَأْسِ قَوْزِي، فَحَبَّأْنَاهُمَا فِي
أُخْدُودِ جَانِبِيٍّ مِنَ الْأَحَادِيدِ الَّتِي حَفَرَتْهَا السُّيُولُ، عَلَى أَنْ
نَسْتَعِيدَهُمَا فِي الْعَوْدَةِ.

وَمَا الَّذِي يُعْرِي، فِي هَذِهِ الظَّهِيرَةِ، غَيْرُ الْبَطِيخِ الْأَحْمَرِ
بُصْفُوهِ الْمُتَوَازِنَةِ؟ كُنَّا عَطِشَيْنِ، فَاسْتَدْبَرْنَا الطَّرِيقَ وَفَتَحْنَا
أُذْرَعَنَا لِلنَّبَاتِ الْحَيِّ. أَكَلْنَا الْبَطِيخَةَ الْأُولَى السَّاحِنَةَ فِي ذَلِكَ
الْوَهْجِ. أَكَلْنَا الثَّانِيَةَ فَازْتَوَتْ أَحْشَاؤُنَا، وَظَلَّتْ عُيُونُنَا عَطِشَى.
كَسَرْنَا الثَّالِثَةَ وَبَلَّلْنَا بَعْصَارَتَهَا رَأْسَيْنَا. كَسَرْنَا الرَّابِعَةَ وَتَرَأَّشَقْنَا
بِهَا. كَسَرْنَا الْخَامِسَةَ، وَالسَّادِسَةَ، وَالسَّابِعَةَ... وَالْعِشْرِينَ،
وَنَحْنُ نَتَرَأَّشَقُ بِاللَّبِّ الْأَحْمَرِ حَتَّى تَحْوَلَ الْمَكَانُ إِلَى بَرْكَةٍ مِنَ
الطَّيْنِ. تَدَخَّرَجْنَا عَلَى الثَّرَابِ فَلَمْ نَعُدْ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَعْضَائِنَا وَبَيْنَ
الثَّرَابِ. صَبَرْنَا كُنُتَلَيْنِ لَا مَلَامِحَ لَهُمَا، يَطِرُّ فَوْقَ شَعْرِهِمَا الدَّبِيقُ
ذُبَابٌ أَرْزَقُ وَأَسْوَدُ خَرَجَ مِنَ الشُّقُوقِ الْجَافَةِ حِينَ أَشْتَمَّ
الرَّائِحَةَ السُّكَّرِيَّةَ.

كَانَتْ ثِيَابُنَا مُلْتَصِقَةً بِأَجْسَادِنَا، وَلَهَا حَشْحَشَةُ الْوَرَقِ يَفْعَلِ
الْعُصَارَةَ الَّتِي يَبْسُتْ. وَكَذَلِكَ كَانَتْ شِفَاهُنَا، وَأَهْدَابُنَا.
يَا لَحْنِينِنَا إِلَى بَرْكَةٍ مَاءٍ نَسْتَلْقِي فِيهَا. يَا لَحْنِينِنَا إِلَى دَلْوِ مَاءٍ

نَذَلُّهُ مِنْ فَوْقٍ. أَمَّا هَرَمَ شَيْخُو فَكَانَتْ تَنْبُضُ فِي الْمَدَى
الْبَعِيدِ كَحَرَزَةِ رَمَادِيَّةٍ.

حِينَ اقْتَرَبْنَا مِنَ الْقَرْيَةِ مَدَى يُمْكِنُنَا مِنْ رُؤْيَةِ عَمُودَيْ بَيْرِهَا،
وَالدَّلْوِ الْأَسْوَدِ الصُّخْمِ، رَكَضْنَا مُتَسَابِقِينَ، وَإِذْ جَاوَزْتُ فُوزِي
دَفَعَنِي فَتَدَحَّرَجْتُ إِلَى الْأُخْدُودِ الَّذِي يُجَاوِزُ الطَّرِيقَ. كَانَ
عَمِيقاً ضِعْفِي مَا تَرَأَى لَنَا مِنَ الْأَعْلَى. لَمْ أَكْلُفْ نَفْسِي
الْخُرُوجَ مِنْهُ. صِرْتُ أَرْكُضُ فِيهِ، وَفُوزِي يَرْكُضُ مِنَ الْأَعْلَى.
غَيْرَ أَنَّ ثُغْرَةً كَبِيرَةً اسْتَوْقَفْتَنِي؛ ثُغْرَةً كَبَابٍ فِي جِدَارِ الْأُخْدُودِ،
إِلَى الْيَمِينِ. نَادَيْتُ فُوزِي فَلَمْ يَتَوَقَّفْ؛ ظَنُّهَا حِيلَةٌ لِاسْتَبْطَاقِهِ.

دَخَلْتُ الثُّغْرَةَ مُتَهَيِّباً أَوَّلَ الْأَمْرِ، غَيْرَ أَنَّهَا كَانَتْ مُضَاءَةً مِنَ
الدَّاخِلِ، كَأَنَّهَا تُفْضِي إِلَى جِهَةٍ يَتَسَرَّبُ إِلَيْهَا ضَوْءُ الشَّمْسِ.
وَبَعْدَ خُطُوبَاتٍ اسْتَوْقَفْتَنِي مُدْرَجٌ تُرَابِي يُحِيطُ بِبَاخَةِ صَغِيرَةٍ مَلَأَى
بِبَغْرِ الْعَنَمِ، وَبِالْكَثِيرِ مِنْ قِشْرِ الْبَطِيخِ. نَادَيْتُ، ثَانِيَةً، فُوزِي، فَمَا
سَمِعْتُ إِلَّا صَوْتِي، كَانَ وَاضِحاً أَنَّ فِي الطَّرَفِ الْمُقَابِلِ مِنَ
الْبَاخَةِ بَاباً مَا. جَاوَزْتُهَا فَوَجَدْتُ أَلْبَابَ الَّذِي يَسْتُرُهُ حَاجِزٌ مِنَ
جِدَارِ الْكَهْفِ، بِحَيْثُ لَا يُرَى إِلَّا حِينَ تَصِيرُ فِي الْجَانِبِ
الْآخِرِ مِنَ الْبَاخَةِ. يَا اللَّهُ. كُلَّمَا اقْتَرَبْتُ مِنْ أَلْبَابِ كُلَّمَا اتَّسَعَ

الْمَشْهُدُ: سُهوبٌ مِنْ وَرَقِ الْحُمَيْضِ الَّذِي لَا يَنْمُو إِلَّا بِجَانِبِ
 الْأَنْهَارِ. سُهوبٌ مَدِيدَةٌ يَحُدُّهَا أَفُقٌ بِنَفْسِجِيٍّ. نَادَيْتُ: «فُوزِي»،
 فَتَقَطَّعَتْ حُرُوفُ الْأَنْشِمِ، إِذْ مَرَّ، فِي اللَّحْظَةِ ذَاتِهَا، كَبَشٌ هَائِلٌ
 مِنْ أَمَامِ أَلْبَابِ. أَلْتَفَّتْ إِلَيَّ فِي لَيْنٍ وَأَخْتَفَى. سِرْتُ حُطَوَتَيْنِ
 فَأَلْفَيْتُ نَفْسِي خَارِجًا، وَسَطَ مَكَانٍ لَا يُشْبِهُ الشَّمَالَ؛ وَسَطَ
 مَكَانٍ لَا ظَهِيرَةَ فِيهِ، بَلْ هُبُوبٌ رَخِيٍّ لِلْغَمَامِ. وَعَلَى مَبْعَدَةٍ لَا
 تُقَاسُ، كَمَسَافَاتِ الْحُلَمِ، أَلْتَمَّتْ بُيُوتٌ غَرِيبَةٌ مِنْ قَصَبٍ
 وَغُصُونٍ.

نَسِيتُ الْكَبَشَ الَّذِي مَرَّ مِنْ أَمَامِ أَلْبَابِ، إِذْ كَانَتْ أُسْرَابُ
 مِنْهَا، فِي حَجَمِ الْحَمِيرِ وَالْبِغَالِ، تَزْعَى هُنَا وَهُنَاكَ، ذَاتُ قُرُونٍ
 خَضِرَاءَ كَالْفَيُورِزِ الْأَخْضَرِ. وَلَمْ أَسْتَوْسِلْ فِي الدَّهْوِلِ طَوِيلًا، إِذْ
 خَرَجَ مِنَ الْبُيُوتِ رِجَالٌ يَتَدَثَّرُونَ بِالصُّوفِ. رِجَالٌ لَا حَوَاجِبَ
 لَهُمْ. خُضِرُ الْعُيُونِ كَقُرُونِ الْأَكْبَاشِ تَمَامًا. كَانُوا مُتَشَابِهِينَ.
 أَصْلٌ تَرَكَ صُورَتَهُ لِلْمَرَايَا وَأَخْتَفَى.

تَقَدَّمَ وَاحِدٌ فَقَطْ. تَقَدَّمَ فِي هُدُوءٍ كَأَنَّمَا يُرَاعِي دُهُولِي.
 جَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَشَارَ عَلَيَّ بِالْجُلُوسِ فَأَمْتَلْتُ. كَانَ يَنْظُرُ
 فِي عَيْنَيَّ وَأَنْظُرُ فِي عَيْنَيْهِ. بَادَرَنِي سَائِلًا: «أَجِئْتَ وَحْدَكَ؟»،

أَجَبْتُ مُضْطَرِباً: «فُوزِي... حَبَّأْنَا الدَّرَاجَتَيْنِ... إِلَى هَرَم
شِيخو». بَدَا وَاضِحاً أَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ شَيْئاً. كُنْتُ أَتَحَدَّثُ بِيَدَي
كَالْأَبْلَه، لَا بِلِسَانِي. جَاوَزَ سُؤَالَهُ، وَتَمَّتْ ثَانِيَةً: «تَنْتَظِرُونَنَا؟
هَآ؟». لَمْ أَفْهَمْ بِدُورِي، لَكِنَّنِي أَجَبْتُ عَنْ سُؤَالِ تَرَدَّدَ فِي
أَعْمَاقِي، لَا فِي أَعْمَاقِهِ هُوَ: «فُوزِي رَمَانِي بِالْبَطِّيخِ... أَنْظُرْ»،
وَأَشَرْتُ إِلَى ثِيَابِي وَوَجْهِي. زَمَّ جَفْنَيْهِ، وَكَرَّرَ سُؤَالَهُ:
«أَتَنْتَظِرُونَنَا؟ أَنْتُمْ تُؤَجِّلُونَ ذَلِكَ بِكَفَاءَةٍ». ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَى الرِّجَالِ،
وَرَأَاهُ، فَتَقَدَّمَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ. قَالَ لَهُ أَلْجَالِسُ أَمَامِي: «أَخْبِرِ
الْأَكْبَاشَ أَنْ تُؤَجِّلَ أَسْئَلَتَهَا. الْأَفُقُ حَامِضُ الْيَوْمِ»، فَأَوْمَأَ الْوَاقِفُ
بِرَأْسِهِ، وَمَضَى. أَمَّا أَلْجَالِسُ أَمَامِي فَقَدْ تَابَعَ: «كَانَتْ هُنَاكَ تُغْرَةُ
فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ هَذَا السَّهْبِ»، وَأَشَارَ بِيَدِهِ شَرْقاً.
«هُنَاكَ، حَيْثُ تَبْتَدِرُ الصَّاعِقَةُ فِي بَرْكََةِ الرَّئِيسِ الرَّاعِي». قُلْتُ:
«لَا أَعِي شَيْئاً مِمَّا تَقُولُ أَيُّهَا السَّيِّدُ»، قَالَ: «سَتَعِي.
حُكُومَاتُكُمْ تَعِي ذَلِكَ. أَكْبَاشُكُمْ الصَّغِيرَةُ تَعِي ذَلِكَ، وَدُيُوكُمْ
أَيْضاً»، وَاسْتَدْرَكَ فَسَأَلَ مُحْتَدّاً: «لِمَاذَا تَصْبِيحُ دِيَكْتُكُمْ طَوَالَ
الْوَقْتِ... بِاللَّهِ لِمَاذَا تَصْبِيحُ؟ أَتَنَامُونَ حَتَّى تَوْقَظَكُمْ؟»، أَجَبْتُ:
«نَعَمْ. نَنَامُ». فَأَضَافَ: «لَا بَأْسَ. يَظَلُّ لَدَيْكُمْ مُتَسَّعٌ مِنَ الْوَقْتِ،

أَبَدًا، لَتَوْفَّرُوا عَلَيْنَا الْمَجِيءَ إِلَيْكُمْ». قُلْتُ: «لَا أَفْهَمُكَ سَيِّدِي»،
 قَالَ: «لَا بَأْسَ. أَتَعْرِفُ بَلِيْرُو؟»، أَجَبْتُ: «نَعَمْ. مَجْنُونٌ
 يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ مُوَكَّلٌ بِحِرَاسَةِ الْجُسُورِ». قَالَ مِنْ جَدِيدٍ:
 «أَتَعْرِفُ عَبَّاسِي قَزُو؟»، أَجَبْتُ: «نَعَمْ. مَجْنُونٌ يَتَوَهَّمُ أَنَّ
 الطُّرُقَ مَلَأَى بِأَكْيَاسِ الْقَمْحِ. فَيَرْفَعُهَا بِخُطَّافِهِ». قَالَ:
 «أَتَعْرِفُ سَيْفِي؟»، أَجَبْتُ: «نَعَمْ. تَتَوَهَّمُ أَنَّهَا حَارِسَةُ الْجَدَاوِلِ».
 قَالَ: «أَتَعْرِفُ دَاوُدَ كُوت؟»، أَجَبْتُ: «نَعَمْ. مَجْنُونٌ يَسُوِّقُ
 قَطِيعًا وَهَمِيًّا مِنَ الْأَغْنَامِ». قَالَ: «أَتَعْرِفُ الصَّوْفِي؟»، صَرَخْتُ:
 «عَمِّي. إِنَّهُ عَمِّي. سَقَطَ فِي الْبَيْرِ وَمَاتَ». إِلْتَفَتَ إِلَى
 الْوَرَاءِ نَازِلًا إِلَى الرُّجَالِ الْوَاقِفِينَ، وَاحِدًا وَاحِدًا، كَأَنَّمَا
 يَسْتَشِيرُهُمْ فِي أَمْرِ غَامِضٍ. تَقَدَّمَ وَاحِدٌ فَقَطَّ. إِنَّحَنِي هَامِسًا:
 «نَعَمْ مِيْرُو».

قفزت واقفاً: «مِيْرُو مِيْرُو مِيْرُو مِيْرُو مِيْرُو». وَأُغْمِي عَلَيَّ.

حِينَ أَفَقْتُ كُنْتُ مُلْقَى فِي بَاحَةِ الْكَهْفِ الثَّرَائِبِيِّ. وَقَفْتُ
 مُسْتَعِيدًا مَا جَرَى، ثُمَّ بَحَثْتُ عَنِ الْبَابِ الَّذِي يُشْرِفُ عَلَى
 الشُّهُوبِ فَلَمْ أَرَهُ. صَرَخْتُ: «مِيْرُو. أَيْنَ الْبَابُ؟»، لَمْ يُجِبْ
 أَحَدٌ. تَرَاجَعْتُ إِلَى وَرَاءِ فَأَنْزَلْتُ عَلَى قَشْرَةِ بَطِيخٍ. رَكَضْتُ

مَدْعُوراً صَوَّبَ الثُّغْرَةَ فِي جِدَارِ الْأُحُدُودِ فَاجْتَزَتْهَا فِي قَفْزَتَيْنِ،
وَفِي قَفْزَتَيْنِ كُنْتُ عَلَى الطَّرِيقِ.

كَانَ فُوزِي عَارِياً أَمَامَ بَيْتِ هَرَمِ شَيْخٍ. لَقَدْ انْتَهَى، تَوَّأ، مِنْ
غَسَلِ مَلَابِسِهِ وَنَشَرِهَا عَلَى شُجَيْرَاتِ الشَّوْكِ، وَهَا هُوَ يَذْلُقُ
دِلَاءً مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى جَسَدِهِ. هَتَفَ بِي مِنْ تَحْتِ الْخُيُوطِ
الْفُضِّيَّةِ الْمُنَسَابَةِ عَلَى وَجْهِهِ: «أَيْنَ كُنْتُ؟ أَجَعَلَكَ الْبَطِيخُ تَبُولُ
سَاعَةً كَامِلَةً؟». أَطَرَقْتُ، ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَيْهِ فِي انْكِسَارٍ: «كُلُّهُمْ مَعَ
مِيرو يَا فُوزِي، وَالْأَكْبَاشُ تَتَكَلَّمُ». تَفَحَّصَنِي فِي اسْتِخْفَافٍ،
مُعْغَمِغَمًا: «تَعَالَ، وَرَشَّنِي بِقَلِيلٍ مِنَ الْمَاءِ».

حِينَ عُدْنَا مِنْ زِيَارَةِ أَقَارِبِ فُوزِي، وَإِذْ أَصْبَحْنَا فِي مُوَاظَةِ
الثُّغْرَةِ ابْتَعَدْتُ وَلَمْ أَلْتَفِتْ، بَلْ قُلْتُ لِفُوزِي: «أُنْظُرْ إِلَى يَسَارِكَ.
أَتَرَى شَيْئًا؟»، أَجَابَ: «الْأُحُدُودِ». وَقَفْتُ سَائِلًا مِنْ جَدِيدٍ:
«أَتَرَى ثُغْرَةً؟»، اقْتَرَبَ فُوزِي مِنَ الْأُحُدُودِ وَأَنْحَنَى: «أَيُّ ثُغْرَةٍ؟
لَا شَيْءَ هُنَا». اقْتَرَبْتُ، بِدَوْرِي مِنَ الْأُحُدُودِ فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا.
صَرَخْتُ: «مِييبييرو»، فَقَهَقَهُ الْعَرَاءُ.

النَّفِيرُ الثَّالِثُ

بَيْنَ الْقَامِشْلِيِّ وَبَيْنَ عَامودَا ثَلَاثُونَ كِيلُو مِثْرًا، وَعَوِيلٌ مُدْمَرٌ
لِصَفَّارَاتِ الْإِطْفَاءِ. تَمْضِي سَيَّارَةٌ وَتَرْجِعُ سَيَّارَةٌ. قَدَرُ عَامودَا،
وَهِيَ بَلَدَةٌ كَبِيرَةٌ، أَنْ لَا يَكُونَ فِيهَا سَيَّارَةٌ إِطْفَاءٍ وَاحِدَةٌ.
وَهَا هِيَ لِامْدِينَتِنَا تَمُدُّهَا، كُلَّ سَاعَةٍ، بِغُولِ أَحْمَرَ ذِي صَفِيرٍ،
يَنْفُثُ الْمَاءَ مِنْ خَرَاطِيمِهِ. لَكِنْ... هَيْهَاتَ. النَّجْدَةُ مُتَأَخِّرَةٌ
كَكُلِّ شَأْنٍ حُكُومِيٍّ، وَلَيْسَ عَلَى سُكَّانِ عَامُودَا إِلَّا أَنْ يُطْفِئُوا
الْحَرِيقَ بِالثَّرَابِ، وَبِالْأَيْدِي، وَبِالْأَكْبَادِ.

لَقَدْ أَنْشَطَرَ التَّارِيخُ بَعْدَ ذَلِكَ الْحَرِيقِ كَفَلَقَتِي مِشْمَشَةٍ. فَإِنْ
سَرَدَ أَحَدٌ أَمْرًا سَنَدَ الْكَلَامَ بِجُمْلَةٍ «مَا قَبْلَ الْحَرِيقِ» أَوْ «مَا بَعْدَ
حَرِيقِ السَّيْنَمَا». نَعَمْ، خَبِرْتُ مُبْتَدَأَهُ الْأَطْفَالَ. جَمَعُوا خَمْسَمَائَةَ
طِفْلٍ مِنْ مَدَارِسِ الطَّيْنِ، بِالْعَصِيِّ، وَقَالُوا لَهُمْ: «فَلْيَجْلُبْ كُلُّ
مِنْكُمْ رُبْعَ لَبِزَةٍ عَدًّا». وَسُكَّانُ عَامُودَا لَا يَمْلِكُونَ إِلَّا الْقَلِيلَ
الْقَلِيلَ مِنَ الثَّقُودِ، لِذَلِكَ يُقَايِضُونَ الدَّجَاجَ بِالسُّكَّرِ، وَالْبَيْضَ

بالتَّبْعِ، وَالْجَنْطَةَ بِالْخِيَارِ، وَالشَّعِيرَ بِالشَّايِ، وَالْخِرَافَ بِالطَّحِينِ،
وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ، وَالْعَالَمَ أَظْلَمَ.

على أَيْةِ حَالٍ، عَادَ الْأَطْفَالُ إِلَى مَدَارِسِهِمْ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي.
مُعْتَصِرِينَ فِي قَبْضَاتِهِمُ الصَّغِيرَةَ قِطْعاً مَعْدِنِيَّةً خَشِيَّةً أَنْ تَضِيعَ
إِذَا وَضَعُوهَا فِي جُيُوبِهِمُ الْمَثْقُوبَةِ مِنْ كَثَرَةِ مَا يَحْشُرُونَ فِيهَا
مِنَ الْحِجَارَةِ لِلْعِرَاكِ. وَهَكَذَا سَاقَهُمُ الْمُعَلِّمُونَ الْمُتَأَفِّفُونَ،
الَّذِينَ يَقْضُونَ سَنَةَ خِدْمَتِهِمْ الْأُولَى فِي التَّدْرِيسِ فِي هَذِهِ
الْبَلَدَةِ - الْمُخْتَبَرِ، عَلَى أَنْ يَعُودُوا، بَعْدَهَا، إِلَى الْمُدُنِ، لِتَعْلِيمِ
الْأَطْفَالِ الْآتِيَيْنِ.

سَاقُوهُمْ فِي طُرُقَاتِ الْبَلَدَةِ كَالدَّجَاجِ، وَكَانَ الْأَهْلُونَ
فَرِحِينَ، يُشِيرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي اغْتِرَازِ سَاحِرٍ: «هَذَا
وَلَدِي». وَإِذْ وَصَلَ الْمَوْكِبُ إِلَى دَارِ السَّيْنِمَا، حَشَرُوهُمْ حَشْراً
فِي الْمَبْنَى اللَّبَنِيِّ الْمُسْتَطِيلِ، ذِي الْبَابِ الْوَاحِدِ؛ الْمَبْنَى الْأَصَمُّ
الَّذِي لَا نَوَافِذَ فِيهِ، حَيْثُ تَتَدَلَّى أَشْلَاكُ كَهْرَبَائِيَّةٍ مِنْ كُلِّ
الْجِهَاتِ، فِي فَوْضَى لَا تَعْدِلُهَا فَوْضَى، وَحَيْثُ الْمَقَاعِدُ
الْحَشَبِيَّةُ، وَصِنَادِيقُ الْخُضَارِ الْفَارَعَةُ، تُسْتَعْمَلُ لَجُلُوسِ
الْمُشَاهِدِينَ. حَشَرُوهُمْ وَقُوفاً وَجُلُوساً، خَمْسُمِائَةِ طِفْلِ، مِنْ

أَجَلٍ مُّشَاهِدَةٍ فَيَلِمَ يَتَحَدَّثُ عَنْ طُرُودِ الْعَرَبِ لِلْأَسْتِغْمَارِ
الْفَرَنْسِيِّ. وَلَمْ تَمُضْ نِصْفُ سَاعَةٍ حَتَّى دَوَّى أَنْفِجَارٌ مُّريِعٌ، إِذْ
لَمْ يَحْتَمِلِ الْمُؤَلَّدُ الْكَهْرَبَائِيَّ الْبَالِي عَرْضَيْنِ مُتَوَاصِلَيْنِ. تَطَايَرَ
شَطَايَا فَتَطَايَرَ بِزَمِيلَا الْمَازُوتِ الْمُضَوَّعَانِ عَلَى السَّقِيفَةِ، قُرِبَ
الْمُؤَلَّدِ. إِشْتَعَلَتِ الدَّارُ دُفْعَةً وَاحِدَةً، وَالْبَابُ لَا يَتَّسِعُ لِمُرُورِ
شَخْصَيْنِ. حَشَرَ الْأَطْفَالُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَفَوَّتُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ
فُرَصَ الْهَرَبِ. صَارُوا يَتَوَهَّجُونَ كَالْبَرْقِ الْأَحْمَرِ، وَتَفَجَّرَ
جَمَاعُهُمْ. مَنْ آخَرَقَ آخَرَقَ، وَمَنْ لَمْ يَحْتَرِقْ خَنَقَهُ الدُّخَانُ،
وَمَنْ لَمْ يَخْنُقْهُ الدُّخَانُ صَعَقَتْهُ أَشْلَاكُ الْكَهْرَبَاءِ. وَصَفَ النَّاجُونَ
لَنَا الْأَمْرَ فَلَمْ نُصَدِّقْ: «كَانُوا إِذَا مَسَّنَّهُمْ الْأَشْلَاكُ تَتَضَاءَلُ
أَجْسَادُهُمْ حَتَّى تُصْبِحَ فِي حَجْمِ بَطِيخَةٍ صَغِيرَةٍ». وَالنَّاجُونَ
آخَرَقَتْ سِقَانَهُمْ، أَوْ أَيْدِيَهُمْ، أَوْ وُجُوهُهُمْ، أَوْ الْأَطْرَافُ كُلُّهَا
مَعًا. وَقَدْ غُصَّ مُسْتَشْفَى الْقَامِشْلِيِّ بِمَائَتَيْنِ مِنْهُمْ، يَثْنُونَ طَوَالَ
الْوَقْتِ، وَيَتَقَيَّأُونَ الدُّخَانَ. وَقَالَ النَّاجُونَ، أَيْضًا، إِنَّ الْبَسَالَاتِ
أُنْقَذَتِ الْكَثِيرِينَ. هَجَمَ الرِّجَالُ يَسْتَحِثُّ بَعْضُهُمْ حِمَاسَةً
بَعْضٍ: «أَنَا أَبُو فَلَانٍ»، وَيَرُدُّ الْآخَرُ بَعْوَاءِ الْمُتَهَوِّرِ: «وَأَنَا أَبُو
فَلَانٍ»، ثُمَّ يَنْهَالُونَ عَلَى حَائِطِ السِّنَمَا بِالْقَبْضَاتِ، وَبِالْأَرْجُلِ،

وَبِالْقَضْبَانِ الْحَدِيدِيَّةِ، حَتَّى يَتَهَاوَى بَعْضُهُ، فَيَدْخُلُونَ وَقَدْ تَقَنَّنُوا بِحَطَّائِهِمْ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ مُتَأَبِّطِينَ أَطْفَالاً ذَاهِلِي الْأَعْيُنِ. وَيُضَيِّفُ النَّاجُونَ مُتَحَدِّثِينَ: «فِي هَذِهِ الْأَتْنَاءِ جَاءَتْ مَفْرَزَةُ الشَّرْطَةِ، وَبَدَلُ أَنْ تُسْهِمَ فِي الْإِنْقَاضِ صَارَتْ تَرُدُّ الرِّجَالَ عَنِ الدُّخُولِ إِلَى الدَّارِ الْمُخْتَرِقَةِ». وَيَسْتَرْسِلُ النَّاجُونَ: «فَكْ رِجَالُ الشَّرْطَةِ أَخْرَجَتْهُمْ الْجِلْدِيَّةُ الْقَاسِيَّةُ، وَهَوَّزُوا بِهَا عَلَى الرُّؤُوسِ، صَارِحِينَ: اتَّبِعُوا أَيُّهَا الْحَمِيرُ». وَظَلَّ الْأَمْرُ بَيْنَ كَرٍّ وَفَرٍّ: يَهْجُمُ النَّاسُ وَهُمْ يَسْمَعُونَ غَوِيلَ أَكْبَادِهِمْ، وَتَهْجُمُ الشَّرْطَةُ فَتُسَيِّئُهُمْ، حَتَّى جَاءَ ابْنُ حَمِيدٍ آغَا، شَاهِراً مُسَدَّسَهُ، مُطْلِقاً طَلْقَةَ تَحْذِيرٍ: «إِنَّمَا نَحْنُ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ»، قَالَ لِلشَّرْطَةِ، وَصَفَعَ أَوَّلَ مَنْ رَأَاهُ مِنْهُمْ فَأَذْبَرَ مُتَرَنَّحاً. دَخَلَ ابْنُ حَمِيدٍ مِنَ الثُّغْرَةِ الَّتِي اسْتَحْدَثَهَا الرِّجَالُ، وَصَارَ يُلْقِي بِالْأَطْفَالِ مِنْهَا فَيَتَلَقَّفُهُمْ مَنْ فِي الْخَارِجِ. أَوْ ابْنُ حَمِيدٍ. هَوَتْ عَلَيْهِ دِعَامَةٌ مِنْ دِعَامَاتِ السَّقْفِ الْحَدِيدِيَّةِ.

لَمْ يَبْقَ بَيْتٌ فِي عَامُودَا لَيْسَ فِيهِ مَأْتَمٌ، أَوْ شَرَاكَةٌ فِي مَأْتَمٍ، وَتَجَدَّدَتِ الْمَقْبَرَةُ الْقَدِيمَةُ بِشَوَاهِدِ الْوَافِدِينَ.

كَانَ لَنَا أَوْلَادُ أَعْمَامٍ وَخَالَاتٍ بَيْنَ النَّاجِينَ، نَزَرُوهُمْ فِي

الْمُسْتَشْفَى لِنُقَاسِهِمْ سَكَارَهُمْ وَفَاكِهَتَهُمْ؛ لِنُقَاسِهِمْ هَدَايَا
 لَا تَجِيئُنَا إِلَّا بَعْدَ فَاجِعَةٍ أَوْ مَرَضٍ. تَبّاً لِبَطْفُولِنَا وَلِصَبَانَا. تَبّاً
 لِحَسَنٍ مَصْرُوعٍ، الَّذِي يَذْرُوعُ رَدَاهَاتِ الْمُسْتَشْفَى فِي صَحْبٍ،
 فَخُوراً بِهَدَايَاهُ وَبِهِابَتِهِ. لَقَدْ أَزْنَأَى أَنْ يَظْهَرَ كَبْطَلٌ وَلَوْ لِمَرَّةٍ فِي
 حَيَاتِهِ. حَسَنٌ مَصْرُوعٌ الَّذِي يَمْلِكُ ثُلُثَ أَرْضِي اللّامْدِينَةِ
 هَذِهِ، وَيُظَلُّ مُهْزِولاً حَوْلَ تُخُومِهَا بِطَرَبُوشِهِ وَخَيْرُزَانَتِهِ، يُرَاقِبُ
 الَّذِينَ يَبْنُونَ بُيُوتَهُمْ قُرْبَ تِلْكَ التُّخُومِ، خِشْيَةً أَنْ يَشْرِقُوا بَوْصَةً
 مِنْهَا، أَوْ يُطْلِقُوا خِرَافَهُمْ لِتَرْعَى أَعْشَابُهَا. حَسَنٌ مَصْرُوعٌ أَكْثَرُ
 بُخْلاً فِي الْأَرْضِ، أَكْثَرُ ضُرَاحاً وَخِسَةً، أَكْثَرُ تَلَفُتاً
 كَالْمُخْبِرِينَ، هُوَ بِذَاتِهِ، يَدْخُلُ الْمُسْتَشْفَى بِهَدَايَا لَا تُحْصَى،
 ضَاحِكاً، تَهْتَزُّ شَرَائِبُ طَرَبُوشِهِ. يَا إِلَهَ.

وَلِمَاذَا تَلْتَفِتُ إِلَى كَرَمٍ حَسَنٍ مَصْرُوعٍ الْفُجَائِي؟ «إِلَهَامُ
 مَحْضٌ» يَقُولُ الْكِبَارُ. «إِلَهَامُ إِلَهِي يُلْمِلُ التَّجِسُونَ بِهِ شَتَاتِ
 أَزْوَاجِهِمْ». وَأَيُّ إِلَهَامٍ هَذَا؟ نَسْأَلُ أَنْفُسَنَا. هَذِهِ جَارَتُنَا. فَهَرْمَانُهُ
 أَلْعَاهِرَاتِ، لَا تَبْخُلُ عَلَى أَحَدٍ. إِسْمُهَا أَمِينَةُ، وَلَقَبُهَا الْحَاجَّةُ.
 حَجَّتْ إِلَى أَيْنَ؟ إِنَّهَا حَاجَّةٌ وَكَفَى. إِمْرَأَةٌ ضَامِرَةٌ، دَاكِنَةٌ
 الْبَشَرَةَ، فِي السَّتِينَ مِنْ عُمرِهَا. حَاوَلْ أَهْلُونَا إِجْلَاءَهَا عَنِ

الْحَيِّ فَمَا اسْتَطَاعُوا، لِسَعَةِ نُفُوذِهَا بَيْنَ الشُّرُطَةِ، فَأَقْتَصَرَ
 آخِثَجَاؤُهُمْ عَلَى مُقَاطَعَتِهَا تَمَامًا، وَعَلَى مُقَاطَعَةِ بَيْتِ الْحَاجِّ
 حَسَنَ، الَّذِي تَقُومُ بِنَاتُهُ، وَزَوْجُهُ، بِخِدْمَةِ الْقَهْرْمَانَةِ لَيْلَ نَهَارَ،
 مُقَابِلَ هِبَاتِ هَائِلَةٍ مِنْ آلِطَعْمَةٍ وَالْأَلْبِسَةِ.

كَانَ نَشَازًا أَنْ تُرَى سَيَّارَةٌ فِي ذَلِكَ الْحَيِّ الْغُبَارِيِّ، الَّذِي
 آخِثَكَرَتِ الدَّجَاجَاتُ سُطُوحَ بُيُوتِهِ وَطُرُقَاتِهِ. غَيْرَ أَنَّ الْقَهْرْمَانَةَ
 مَلَأَتْهُ ضَحْجِجًا؛ تَأْخُذُهَا سَيَّارَةٌ صَبَاحًا، وَتُعِيدُهَا سَيَّارَةٌ بَعْدَ
 مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ.

الْقَهْرْمَانَةُ مَلِكَةٌ حَقِيقِيَّةٌ، تُنَادِيهَا الْعَاهِرَاتُ «مَامَا»،
 وَيَسْتَجِدِينَ رِضَاهَا. وَيَسْتَجِدِي رِضَاهَا الْأَكَابِرُ، أَيْضًا. فَفِي
 وُسْعِهَا، وَحْدَهَا، أَنْ تَأْمُرَ إِحْدَاهُنَّ بِالْمَبِيتِ خَارِجَ الْمَبْغَى مَعَ
 رَجُلٍ تَخْتَارُهُ. وَفِي وُسْعِهَا أَنْ تَطْرُقَ بَابَ أَمِيرِ الثُّكْنَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ
 لِتَشْكُو إِلَيْهِ خُرُوجَ أَحَدِ الْعَسَاكِرِ عَنِ الْإِلْيَاقَةِ، وَأَنْ تَكْفُلَ عَاهِرَةً
 مَا، إِذَا أَرَادَتْ تَرْكَ الْمَبْغَى مِنْ أَجْلِ الزَّوْاجِ.

وَمَنْصِبُ الْقَهْرْمَانَةِ بَرْتُهُ الطَّاعِنَاتُ فِي السَّنِّ، فَإِنْ مَاتَتْ
 قَهْرْمَانَةٌ خَلَفَتْهَا الْأَكْبَرُ سِنًّا بَيْنَ الْعَاهِرَاتِ. وَمَهْمَا كَانَتْ
 الْجَدِيدَةُ وَضِيعَةً قَدَّمَتْ الْأَخْرِيَّاتُ لَهَا آلَ الْوَلَاءِ وَالطَّاعَةِ. هَذَا

عُزُوفٌ لَا يَحِيدُ الْمَبْعَى عَنْهُ، كَمَا لَا تَحِيدُ الْعَاهِرَاتُ عَنْ شَرَفِ
مُؤَخَّرَاتِهِنَّ، فَهِنَّ لَا يَقْبَلْنَ مُضَاجَعَةً مِنَ الْخَلْفِ، وَيَتَبَاهَيْنَ:
«لَوْ أُعْطِينَا زِنَةً وَزَيْنَا دَهَباً لَمَا فَعَلْنَا». هَذَا آخِرُ مَا تَبَقِيَ لَهُنَّ
لِيَتَشَبَّهْنَ بِالْآدَمِيِّ الْمَفْقُودِ.

وَالْقَهْرْمَانَةُ أَمِينَةٌ - جَارُئْنَا - تَمْلِكُ ثَلَاثِينَ قِطَّةً، وَكَلْباً
وَاحِداً، تُطْعِمُهُنَّ بَنَاتُ الْحَاجِّ حَسَنَ فِي غِيَابِهَا. قَطَطُ مُدَلَّلَةٌ،
وَكَلْبٌ أَشَدُّ دَلالاً. يَأْكُلْنَ مِنَ اللَّحْمِ الْأَنْقَى، وَمَا يَعْجِزُنَ عَنِ
الْتِهَامِهِ تَسْرِفُهُ مُرْضِعَاتُهُنَّ - بَنَاتُ الْحَاجِّ.

الْقِطَطُ لَا تُغَادِرُ الْمَنْزِلَ، وَلَهُنَّ رَهَافَةٌ حَدْسٍ يَسْتَطِيعْنَ بِهَا
تَحْمِينَ مَوْعِدِ وَصُولِ الْقَهْرْمَانَةِ، فَيُنْطِنِطْنَ وَيَمُؤْنَ فِي صَحْبٍ.
أَمَّا الْكَلْبُ فَيَمُشُّ حِينَ تَسْنَحُ الْفُرْصَةُ، وَهِيَ لَيْسَتْ فُرْصَتُهُ، بَلْ
فُرْصَتُنَا. نَرُشُّهُ بِرَمَادِ الرُّوْثِ، أَوْ نَسْتَدْرِجُهُ فَنَبُولُ عَلَيْهِ. وَبَعْدَ
مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ نَسْمَعُ غَوِيلَ الْقَهْرْمَانَةِ: «مَاذَا فَعَلُوا بِكَ يَا بُوْبُو،
بُونَجِي؟ مَاذَا فَعَلْتُمْ بِهِ يَا أَثْنَاءَ الشَّوَارِعِ؟»، ثُمَّ يَخْفُتُ صَوْتُهَا
مُدَلَّلَةً: «حَبِيبِي بُونَجِي. كَمْ مَرَّةً نَهَيْتُكَ عَنِ الْخُرُوجِ! هُوَ لَا
أَوْبَاشَ، يَأْكُلُونَ الْبَشَرَ يَا حَبِيبِي. عَيْنَايَ فِدَاكَ...».

مَرَّ وَقْتُ طَوِيلٍ قَبْلَ أَنْ تُقَاطِعَهَا بَنَاتُ الْحَاجِّ حَسَنَ أَيْضاً،

تَحْتَ وَطْأَةٍ أَنْ يَضْفَعَ إِمَامُ الْمَسْجِدِ الْحَاجَّ، صَارِخاً بِهِ:
«بَطْنُكَ مَلَأَى بِالتَّارِ. لَا تَدْخُلْ مَسْجِدَنَا».

بَقِيَتْ الْقَهْرْمَانَةُ وَحِيدَةً مَعَ أُبْهَةِ مُحَرَّرَاتِ السَّيَّارَاتِ الَّتِي
تُقْلِقُ النَّائِمِينَ لَيْلاً، حَتَّى أَنْ الدَّيْكَةَ كَانَتْ تَصِيحُ ظَنّاً مِنْهَا أَنَّهُ
الصَّبَاحُ. ثُمَّ آخَفَتِ الْمُحَرَّرَاتُ وَضَجِيحُهَا، وَبَاتَتِ الْقَهْرْمَانَةُ
ثَلَاثَ أَلْفَيْتِ مُحَدَّوْدَةً كَعَوْدِ يَابِسٍ. وَكَانَتْ تَزُورُهَا بَيْنَ الْحَيْنِ
وَالْحَيْنِ عَاهِرَةٌ تَمْلَأُ الْخَيَّ بِعَطْرِهَا الرَّخِيسِ، ثُمَّ تَمْضِي فَتَخْرُجُ
الْقَهْرْمَانَةُ لِتَجْلِسَ، فِي وَهْنٍ، عَلَى كُرْسِيِّ صَغِيرٍ أَمَامَ بَابِهَا، غَيْرَ
قَادِرَةٍ عَلَى رَدِّ الْقِطْطِ الَّتِي بَدَأَتْ تَشْرُدُ مِنْ حَوْلِهَا، ثُمَّ صَارَتْ
تَحُومُ حَوْلَ الْمَزَابِلِ، ثُمَّ اتَّبَعَتْ إِلَى الْأَرْقَةِ وَالْأَحْيَاءِ، وَلَمْ تَعُدْ.

الْكَلْبُ، وَحْدَهُ، ظَلَّ أَمِيناً لِأَمِينَةٍ. يُقْعِي قُرْبَ كُرْسِيِّهَا وَيَنَامُ.
غَيْرَ أَنَّ أَغْيَبَنَا كَانَتْ عَلَى الْكَلْبِ الصَّغِيرِ، ذَاكَ، ذِي الشَّعْرِ
النَّاعِمِ، فَاسْتَدْرَجْنَاهُ وَحَمَلْنَاهُ فِي كَيْسٍ إِلَى حَيْثُ مَدْحَلَةُ الْبَلَدِيَّةِ
الَّتِي تُسَوِّي الطُّرُقَ فَتَسْتَوِي كَوَرَقَةَ الدُّفْتَرِ. رَمَيْنَاهُ فِي غَفْلَةٍ مِنَ
السَّائِقِ تَحْتَ عَجَلَتِهَا الْحَدِيدِيَّةِ الضَّخْمَةِ، فَأَخْتَلَطَتْ طَقْطَقَةُ
الْعِظَامِ بِقَعْقَعَةِ الْحَجَرِ الْمُتَهَشِّمِ.

«فِدَاكَ عَيْنَايَ»، نَقُولُ الْكَلِمَةَ وَنَحْنُ نَعْبُرُ بِقُرْبِ الْقَهْرْمَانَةِ

الْغَائِصَةِ كَجَنَّةٍ قَدِيمَةٍ فِي كُرْسِيِّهَا، فَتَرَفَعُ عَيْنَيْهَا إِلَيْنَا، وَلَا تَرُدُّ.

تَبَّأَ لَنَا، فَلَنُلْقِ بِالْقَهْرْمَانَةِ أَيْضاً تَحْتَ عَجَلَاتِ الْمَدْحَلَةِ.
فَلَنُلْقِ بِهَا، وَبِالثُّكْنَةِ، وَبِالْبَلْدِيَّةِ، وَبِالْمُسْتَشْفَى الَّذِي تَوْمُهُ
الْعَاهِرَاتُ، أُسْبُوعِيّاً، لِبَسْطِ فُرُوجِهِنَّ تَحْتَ الْمُجْهَرِ. فَلَنُلْقِ
بِالشُّمَالِ. لَكِنَّ الشُّمَالَ كَالزُّبُقِ، يَتَشَطَّى كُرَاتٍ ثُمَّ يَلْتَحِمُ،
فَيَلْقِي بَعْضُنَا بِبَعْضٍ فِي بَسَالَتٍ لَا طَائِلَ تَحْتَهَا.

هَكَذَا، كَاسْتِعْرَاضٍ لِلْبَسَالَةِ الْيَوْمِيَّةِ، وَكَمُنَاوَرَةٍ مِنْ مُنَاوَرَاتِ
الْكَاثِنِ الشُّمَالِيِّ لِلْأَحْتِيَالِ عَلَى أَعْمَاقِهِ، أَنْدَفَعَ الْكُولِيَّونَ
بِخُطَافَاتِهِمْ، وَبِالْهَرَاوَاتِ، وَبِسَكَكِينَ الْهَجِيْبِ، عَلَى أَحْمَدَ
أَبْنِ الْقَصَابِ.

كَانَ سَيِّئَ الْحَظِّ أَبْنُ الْقَصَابِ هَذَا. فَمُنْذُ أُسْبُوعٍ فَقَطْ
دَخَلَ رَجُلٌ مُخَابِرَاتٍ إِلَى الْمَحَلِّ؛ رَجُلٌ فَظٌّ كَعَادَةِ هَذَا
الصَّنْفِ، وَحَصَلَتْ مُشَادَّةٌ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ، شَهَرَ فِيهَا الْأَحِيرُ
مُسَدَّسَهُ وَضَرَبَ أَحْمَدَ عَلَى رَأْسِهِ فَتَسَرَّبَلَ بِالْدَمِ. ثُمَّ جَاءَتْ
الشُّرْطَةُ وَأَخَذَتْ أَبْنَ الْقَصَابِ فَأَمْضَى أُسْبُوعاً فِي السَّجْنِ مِنْ
غَيْرِ مَا سَبَبٍ. وَهَا هُوَ، فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنْ إِطْلَاقِ سَرَاحِهِ،
يَتَشَاجِرُ مَعَ أَبْنِ أَحَدِ الْكُولِيِّينَ، وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ ضَرَبَ أَحْمَدُ

الشَّابَّ بِسَكِينٍ، فَسَلَخَ بَعْضاً مِنْ فَرْوَتِهِ، خَلَفَ الْأُدُنَ. وَمَا إِنْ
تَنَاهَى الْحَبْرُ إِلَى الرِّجَالِ الْفُسَاةِ حَتَّى طَوَّقُوا مَحَلَّ الْقَصَابِ،
وَأَنذَعُوا مُحَاوِلِينَ جَرَّ الْفَتَى خَارِجاً، لَكِنَّهُ رَفَعَ سَاطِوَرًا ضَخْمًا،
وَلَوَّحَ بِهِ فِي أَلْوَجْهِهِ فَاضْطُّرُّوا إِلَى الْإِتِّعَادِ قَلِيلاً. وَكَانَتْ تِلْكَ
فُرْصَةُ الْفَتَى، فَأَسْدَلَ أَلْبَابَ الصَّفِيحِيِّ عَلَى نَفْسِهِ، رَيْثَمَا
يَتَدَخَّلُ أَحَدٌ مَا لِفَضِّ الْمُسْكِلِ.

كَانَ تَقْدِيرُ الْفَتَى، الَّذِي تَنَتَّابُهُ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ نُوبَاتٍ
مِنَ الصَّرْعِ، خَاطِئاً، فَمَا مِنْ بَابٍ مَوْصَدٍ يَرُدُّ كَوَلِيًّا غَاضِباً.

وَقَفَّتِ النِّسَاءُ مِنْ خَلْفِ الرِّجَالِ هَاتِفَاتٍ: «أَيَّتَجَرَأُ أَحَدٌ
عَلَيْنَا؟»، فَيَرُدُّ الرِّجَالُ بِدَمْدَمَةٍ: «خَسِئُوا»، ثُمَّ يَصْدِمُونَ
بَأَجْسَادِهِمْ أَلْبَابَ كَمَا يَصْدِمُ الْجَرَادُ نَوَافِدَ الْبُيُوتِ صَيِّفًا، فِي
طَيْرَانِهِ الْبَلِيدِ. بَلْ جَاءَ بَعْضُهُمْ بِعَمُودٍ طَوِيلٍ. أَبْعَدُوا الْآخَرِينَ
وَأَهْوَوْا عَلَى الصَّفِيحِ قَرْعاً حَتَّى أَهْتَزَّ الْمَحَلُّ مِنْ أُسَاسِيَّاتِهِ،
وَكَانُوا كُلُّمَا أَوْشَكُوا أَنْ يَدْفَعُوا السُّتَارَةَ الصَّفِيحِيَّةَ إِلَى الدَّاخِلِ
قَلِيلاً، خَرَجَتْ مِنْ تَحْتِ أَلْبَابِ شَفْرَةٍ مُضِيئَةٍ، فِي حَرَكَةٍ دَائِرِيَّةٍ
تَكَادُ تَحْصُدُ الْأَفْدَامَ.

يَأْسُ وَرَاءَ أَلْبَابٍ، وَغَضَبٌ أَمَامَهُ. يَأْسُ مُضْمَخٌ بِرَائِحَةِ اللَّحْمِ

النَّيِّءِ، وَغَضَبْتُ مُكَابِرًا. وَلَمْ يَكُنِ الصَّرَاغُ صِرَاعًا بَيْنَ فَتَى
وِرْجَالٍ. الْفَتَى يَشْحَذُ مَهَارَاتِهِ فِي جَعَلِ السَّاطُورِ طَيِّعًا، رَخِيمًا
كَصَفِيرِ رِيحٍ تَغْبُرُ الشُّقُوقَ الَّتِي تَتَدَاغُ مِنْهَا الْأَيْدِي. وَالرَّجَالُ
عَاكِفُونَ عَلَى تَقْدِيرِ الْوَقْتِ الَّذِي يَشْتَسِلُهُ فِيهِ بَابٌ كَهَذَا. غَيْرَ
أَنْ كُلًّا مِنْهُمَا، حِينَ يُنْجِزُ مَا عَلَيْهِ، سَيَقِفُ أَمَامَ الْآخِرِ وَجْهًا
لِوَجْهِهِ، وَلَيْسَ فِي وَسْعِهِ، بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ الْيَأْسَ يَأْسًا،
وَالْغَضَبَ غَضَبًا.

فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ الَّتِي اخْتَلَطَ الْعُبَارُ فِيهَا بِالْقَرَعِ، حَضَرَ عَمُّ
الْجَرِيحِ، وَهُوَ وَجِيهٌ مِنْ وَجْهَاءِ الْكَوْلِيِّينَ، اجْتَمَعَتْ لَهُ حِكْمَةُ
السَّيِّدِ. دَفَعَ الرِّجَالُ بِيَدَيْهِ عَنِ الْبَابِ، صَارِخًا: «تَوْتَكِبُونَ مَجْزَرَةً
مِنْ أَجْلِ جُرْحٍ بَسِيطٍ؟ تَبَّأَ لَكُمْ»، فَارْتَحَتِ الْأَيْدِي عَلَى
مَقَابِضِ الْخُطَافَاتِ، وَالشَّكَاكِينِ، وَالْأَسْلِحَةِ الْحَشِيبِيَّةِ. وَإِذْ شَعَرَ
الْفَتَى بِبَعْضِ الْآطَمِئْنَانِ، رَفَعَ الْبَابَ الصَّفِيحِيَّ الَّذِي يَلْتَفُّ عَلَى
بَكَرَةٍ فِي الْأَعْلَى، وَوَقَفَ يَوْقُبُ الْآخَرِينَ كَالْمُحَارِبِ، وَفِي يَدِهِ
سَاطُورُهُ، وَحَوْلَ فِيهِ زَبَدٌ وَغَرَقٌ.

كَانَ عَارِفًا أَنَّهُ نَجَا بِحِكْمَةِ أَحَدِهِمْ، لَا بِبَأْسِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ
لَمْ تَطْرَفْ لَهُ عَيْنٌ، فِي حِينَ جَالَتْ نَظِيرَاتُ ذَاتِ أَنْيَابٍ

وَمَخَالِبَ عَلَى مَعَالِمِ وَجْهِهِ، مِنَ الْجِهَةِ الْمُقَابِلَةِ لِلْمَحَلِّ؛ الْجِهَةُ
الَّتِي تَحَلَّقُ فِيهَا الرِّجَالُ يَعْضُونَ أَعْمَاقَهُمْ، وَحِكْمَةُ الْحُكَمَاءِ.

وَنَحْنُ نَعَضُّ أَعْمَاقَنَا أَيْضاً، نَحْنُ الْفَتَيَّةُ الَّذِينَ نَقْضِي
أَيَّامَ الْعُطْلَةِ الصَّيْفِيَّةِ فِي مُسْتَنْقَعٍ، أَوْ عَلَى ضِفَّةِ نَهْرٍ
جافٍّ. نَشْرِقُ الْبَطِيخَ الْأَحْمَرَ مِنَ الْعَرَبَاتِ، وَأَسْلَاكَ النُّحَاسِ،
وَالصَّفَائِحَ الْفَارِغَةَ، وَأَكْبَاسَ الْخَيْشِ، وَأحياناً كَثِيرَةً جُيُوبَ
آبَائِنَا. مُهْمَلُونَ، وَالْفَرْقُ كَبِيرٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الدَّجَاجِ الَّذِي يُدَلِّلُونَهُ.
فَلْيَشْقُطِ الدَّجَاجُ.

وَلَكِنَّ هَذِهِ السَّنَةَ مِنْ سَنَاتِ صِبَايَ هِيَ أَوَّلُ مَدْخَلٍ لِي
إِلَى كَسْبِ نُقُودٍ لَا أَضْطَرُّ إِلَى سَرِقَتِهَا. فَقَدْ أَخَذَنِي أَبِي إِلَى
مَكْتَبِ تَاجِرٍ حُبُوبٍ. سَلَّمَنِي كَأَمَانَةٍ يَرُدُّهَا إِلَى أَصْحَابِهَا،
وَمَضَى.

كَانَ التَّاجِرُ، هَذَا، كَاتِباً عَدَلاً سَابِقاً. يَمْلِكُ مَحْطَةً بَنْزِينَ،
وَحُقُولَ بَطِيخٍ وَقَمْحٍ، وَسَيَّارَاتٍ، وَأَشْيَاءَ أُخْرَى كَثِيرَةً. رَجُلٌ
قَصِيرُ الْقَامَةِ، عَصْبِي الْمِزَاجِ. يَصْرُخُ فَيَخْرُجُ الصُّرَاخُ مِنْ
خَنْجَرَتِهِ، وَلِجُيُوبِهِ أَيْضاً. وَقَدْ بَادَرَنِي فَوْزَ خُرُوجِ أَبِي قَائِلاً:
«هَاتِ كُوبَ مَاءٍ». رَكَضْتُ إِلَى الْمَقْهَى الَّذِي لَا يَبْعُدُ أَرْبَعَةَ

أَمْتَارِ، وَأَتَيْتُهُ بِكَوْبِ مَاءٍ. شَرِبَ مِنْهُ وَهُوَ يَزُمُّنِي. بَعْدَ قَلِيلٍ
جَاءَ سَائِقُهُ، أَعْطَانِي لِيرَةً وَقَالَ: «هَاتِ سِنْدُوِيْشِ كَبَابَ»،
رَكَضْتُ إِلَى الْمَطْعَمِ وَأَتَيْتُهُ بِالطَّعَامِ. ثُمَّ جَاءَ عَامِلُ مَحْطَةِ
الْبَنْزِينَ، بَادَرَنِي: «أَتَشْتَغِلُ هُنَا؟»، قُلْتُ: «نَعَمْ». قَالَ: «هَاتِ
الْبَطِّيْخَ الَّذِي فِي آلَانْدَرْوَر». رَكَضْتُ وَجِئْتُ بِالْبَطِّيْخِ إِلَى
الْمَكْتَبِ، عَلَى ثَلَاثِ دُفْعَاتٍ. ثُمَّ نَادَانِي الطَّاْبِغُ عَلَى آلَاةِ
الْكَاتِبَةِ، قَائِلاً: «هَاتِ غُلْبَةَ تَبْغٍ»، رَكَضْتُ وَجِئْتُ بِغُلْبَةِ التَّبْغِ.
دَخَلَ ابْنُ الْمُعَلِّمِ الصَّغِيرِ، تَفَحَّصَنِي وَقَالَ: «أَنْحَنِي، أُرِيدُ أَنْ
تَنْحَنِي لِأَرْكَبَ ظَهْرَكَ»، فَنَهَرَهُ وَالِدُهُ: «هَذَا لَيْسَ حِمَاراً»،
فَسَكَتِ الصَّغِيرُ، لَكِنَّهُ حَاذَانِي وَرَكَلَنِي عَلَى سَاقِي فَتَرَفَّرَقَ الْأَلَمُ
فِي الْعَظْمِ. ثُمَّ دَخَلَ صَیْفَانِ. غَمَعَمَ الْمُعَلِّمُ: «هَاتِ قَهْوَةً».
رَكَضْتُ إِلَى الْمَقْهَى فَجَاءَتِ الْقَهْوَةُ. غَمَعَمَ الْمُعَلِّمُ ثَانِيَةً:
«سَأَخْرُجُ الْآنَ، وَحِينَ أَعُودُ فَلْيَكُنِ الْمَكْتَبُ نَظِيفاً». خَرَجَ
الْمُعَلِّمُ وَدَخَلَتِ الْمِكْنَسَةُ. كَانَتْ أَطْوَلَ مِنِّي، فَبَذَلْتُ جُهْداً
كَبِيراً فِي اسْتِعْمَالِهَا، وَكَانَ الطَّاْبِغُ عَلَى آلَاةِ الْكَاتِبَةِ يُرْشِدُنِي:
«هَكَذَا... هَكَذَا...»، وَتَبِعْتُ التَّغْلِيمَاتِ حَتَّى فَرَعْتُ مِنْ
الْمَكْتَبِ، وَلَمْ أَكُذْ أَلْتَقِطُ أَنْفَاسِي حَتَّى دَخَلَ سَائِقُ الْمُعَلِّمِ مِنْ

جديدٍ قائلاً: «أَحْمِلْ هَذِهِ الْأَغْرَاضَ إِلَى بَيْتِ الْمُعَلِّمِ»، حَمَلْتُهَا عَلَى ظَهْرِي مُتَرَنِّحاً، وَاجْتَرْتُ بِهَا كِيلُومِثْرَيْنِ.

هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَدْخُلُ بَيْتاً كَهَذَا، فِيهِ أَرَا جِيحَ لِلْأَطْفَالِ، وَبِرَّادٍ، وَغَسَّالَةٍ، وَغُرْفَ لَا تُحْصَى. وَفِيهِ خَادِمَةٌ هَزَلَتْ صَوْبِي، وَأَنْزَلَتْ الْحِمْلَ. نَظَرْتُ إِلَيْ فِي تَعَاطُفٍ وَاضِحٍ: «أَأَنْتَ جَدِيدٌ؟»، أَوْمَأْتُ بِرَأْسِي إيجاباً. عِنْدَيْهِ أَقْتَرَبْتُ أَبْنَتَا الْمُعَلِّمِ، وَأَبْنَاهُ الصَّبِيُّ. تَفَحَّصُونِي بِدِقَّةٍ، وَتَبَادَلُوا نَظَرَاتِ الرُّضَا.

قَالَتْ إِحْدَى الْفَتَاتَيْنِ: «أَتَذْهَبُ إِلَى الْمَدْرَسَةِ؟»، أَجَبْتُ: «نَعَمْ». قَالَتْ: «تَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ إِذَا»، أَوْمَأْتُ: «نَعَمْ». قَالَتْ: «هَاتِ مَجَلَّةً سَمِيرَ مِنَ الْمَكْتَبَةِ»، وَنَقَدْتَنِي نِصْفَ لَبْرَةٍ. رَكَضْتُ عَائِداً إِلَى سَوَاقِ الْمَدِينَةِ، فَاشْتَرَيْتُ مَجَلَّةً وَغَدْتُ إِلَى بَيْتِ الْمُعَلِّمِ، وَمِنْ هُنَاكَ غَدْتُ، ثَانِيَةً، إِلَى الْمَكْتَبِ. قَالَ الْمُعَلِّمُ: «أَيْنَ كُنْتَ؟»، قُلْتُ: «اشْتَرَيْتُ مَجَلَّةً لِبَنَاتِكَ»، رَمَقَنِي فِي أَزْدِرَاءٍ: «هَاتِ فَهَوَّةً»، رَكَضْتُ إِلَى الْمَقْهَى.

رَاكِضاً أَنْجِزُ الْأُمُورَ. سَرِيعٌ أَنَا، سَرِيعٌ كَسَيَّارَةِ الْمُعَلِّمِ. سَرِيعٌ حَتَّى الْإِغْيَاءِ، وَالزَّائِرُونَ كَثُرُوا، وَالطُّلَبَاتُ أَكْثَرُ، كُلُّهُمْ

يَدْخُلُونَ فِي أَفْوَاهِهِمْ كَلِمَةً «هَاتِ». قُلْتُ لِنَفْسِي:
«لَا. سَأَخْتَلِقُ أَيَّ أَمْرٍ يُسَبِّبُ طُرْدِي. لَا. لَنْ أَضِيرَ هُنَا».

بَعْدَ أُسْبُوعٍ مِنْ بَدْءِ الْعَمَلِ نَفَّذْتُ تَهْدِيدِي تَجَاهَ الْمَكْتَبِ
الْمَقِيَّتِ. دَخَلَ ابْنُ الْمُعَلِّمِ الصَّغِيرُ وَرَكَلَنِي كَعَادَتِهِ، فَرَكَلْتُهُ،
بِدَوْرِي، فَأَرْفَعَ عَنِ الْأَرْضِ نِصْفَ مِثْرٍ وَهَوَى. قَامَ وَشَكَانِي إِلَى
أَبِيهِ الَّذِي أَكْتَفَى بِتَهْدِيدِيهِ. لَمْ يَطْرُدْنِي. آه. سَأَخَفُّ عَنْ نَفْسِي
الْكَثِيرِ إِذَا. لَنْ أُشْتَرِيَ شَيْعاً، بَعْدَ الْيَوْمِ، لِسَائِقِهِ؛ وَفِعْلاً حِينَ
جَاءَنِي السَّائِقُ طَالِباً شِرَاءَ غُلْبَةٍ تَبْعٍ، قُلْتُ: «إِذْهَبْ أَنْتَ». ذَهَبَ
السَّائِقُ وَشَكَانِي إِلَى الْمُعَلِّمِ. نَادَانِي الْمُعَلِّمُ صَارِخاً: «إِذْهَبْ إِلَى
بَيْتِكَ. لَا تُرِيدُ آعاً».

وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي جَرَّنِي أَبِي جَرّاً إِلَى الْمَكْتَبِ. وَشَوْشَ
الْمُعَلِّمُ، وَكَانَ وَاضِحاً أَنَّ الْأَخِيرَ يَحْتَرِمُ أَبِي عَلَى مَجْدِ مَضَى،
فَوَافَقَ عَلَى اسْتِيفَائِي.

وَعَادَتِ الطُّلُبَاتُ مِنْ جَدِيدٍ، لَكِنَّ عَزَائِي كَانَ فِي التَّعَلُّمِ
عَلَى آلَاةِ الْكَاتِبَةِ. فَالطَّابِعُ الشَّابُّ دِمِثٌ، مَنَحَنِي أَسْرَارَ
الصُّرْبِ عَلَى آلَاةِ مُعَمَّضَ الْعَيْنَيْنِ. وَكَانَ يَسْأَلُنِي بَيْنَ الْحَيْنِ
وَالْحَيْنِ عَنْ فِتْيَاتِ حَيِّنَا.

لَمْ أَعْرِفْ فِي الْبِدَايَةِ سَبَبَ أَسْئَلَتِي تِلْكَ، لَكِنَّهُ أَوْضَحَ الْأَمْرَ
بِنَفْسِهِ. فَهُوَ مُتَزَوِّجٌ، حَدِيثًا، مِنْ ابْنَةِ الْحَاجِّ حَفْزَةٍ، وَيُرِيدُ بَعْضَ
مَا أَعْرِفُهُ عَنْ سِيرَةِ الْفَتَاةِ الَّتِي يَفْصِلُ بَيْتَ أَبِيهَا عَنْ بَيْتِنَا
شَارِعَانِ. وَأَجَبْتُهُ أَنَّنِي لَا أَعْرِفُ الْكَثِيرَ عَنْهَا، غَيْرَ أَنَّنِي لَمَحْتُهَا،
مِرَارًا، تَحْمِلُ صَفِيحَةً فَارِغَةً لِيَجْمَعَ الرُّوثَ. كُنْتُ مُتَأَكِّدًا أَنَّ
لَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يُرِيبُ، فَلَأَمُرُ طَبِيعِي، مُتَوَارِثٌ بَيْنَ هَؤُلَاءِ
الْفُقَرَاءِ. لَكِنَّ الطَّايِعَ بَوَّغَتْ بِالْخَبَرِ.

قَالَ لِي: «نَزَوَّجْتُهَا عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَخْرُجْ مِنْ بَيْتِ أَبِيهَا قَطُّ»،
وَأَضَافَ: «أَبُوهَا كَذَّابٌ. أَخَذَ مِنِّي مَهْرًا لَا تَسْتَأْهِلُهُ فَتَاةٌ تَجْمَعُ
الرُّوثَ».

لَمْ يَعْينِي أَمْرُ زَوْجَتِي، وَلَا أَمْرُ وَالِدِهَا. أُرِيدُ، فَقَطُّ، أَنْ
تَنْقُضِي أَشْهُرَ الصَّيْفِ هَذِهِ. فَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِي أَتَمَنَّى الْعُودَةَ
إِلَى الْمَدْرَسَةِ، لِأَنْجُو مِنْ مَكْتَبِ الْمُعَلِّمِ الْقَصِيرِ، الَّذِي أَقْفُ
أَمَامَهُ فِي نِهَايَةِ كُلِّ أُسْبُوعٍ لِيُعْطِيَنِي خَمْسَ لِيرَاتٍ، وَأُحْيَانًا
يَزِدُّنِي قَائِلًا: «سَأُعْطِيكَ فِيمَا بَعْدُ». وَقَدْ أَمْتَدَّتْ كَلِمَةُ «فِيمَا
بَعْدُ» حَتَّى نِهَايَةِ الصَّيْفِ، وَإِذْ طَالِبْتُهِ بِأَجْرِي صَرَخَ: «لَمَلَمْتُكَ
حَتَّى لَا تَشْرُدَ فِي الشُّوَارِعِ صَيفًا، فَلَيْشُكْرُنِي أَهْلُكَ عَلَى هَذِهِ

النَّعْمَةَ»، فَعُدْتُ إِلَى الْبَيْتِ مُحْتَنِقًا. سَرَدْتُ الْأَمْرَ عَلَى أَبِي
فَعَمَّعَ: «سَأْرِيهِ»، لَكِنَّهُ كَانَ أَقْلَ سُلْطَةً مِنْ أَنْ يَسْحَلَ الْمُعَلِّمَ
فِي سَوْقِ الثُّجَارِ، بِإِشَارَةٍ مِنْ إِضْبَعِهِ، مِثْلَمَا كَانَ يَفْعَلُ، فِي
الْمَاضِي، بِرِجَالِ أَكْبَرَ شَأْنًا.

مَضَى زَمَنُ أَبِي. مَضَى أَنْ يَجْتَمِعَ مِنْ حَوْلِهِ مَائَةُ عَتَالٍ
بُخْطَافَاتِهِمْ، صَارِحِينَ: «مَنْ نُؤَدِّبُ يَا سَيِّدَنَا الْمَلَأَ؟»، وَهَا هُوَ
يَجْلِسُ، كُلَّ يَوْمٍ عَلَى طَاوِلَةٍ فِي الْمَقْهَى، مُرْتَشِفًا شَايَا دَاكِنًا،
كَأَنَّمَا يَنْتَظِرُ النَّفِيرَ الَّذِي يَوْقِظُ الْقُرَى فَتَهْتَفُ: «لَبَيْكَ»، وَيَوْقِظُ
الشُّهولَ فَتَنْحَنِي لِقَامَتِهِ السَّنَابِلُ.

مَضَى زَمَنُكَ أَبِي، وَبَاتَ كَاتِبٌ عَدْلٌ سَابِقٌ يَأْكُلُ عَرَقَ
طِفْلِكَ أَنْتَ!! تَبًّا، لَكِنَّ زَمَنَ الْمُعَلِّمِ مَضَى أَيْضًا. فَالْأَرْضُ
تَبْتَلِغُ بُدُورَهَا سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ، وَيَبْسُطُ الْجَفَافُ ظِلَّهُ الصُّبْبَانِيَّ
عَلَى الشُّهولِ. وَمِنْ أَجْلِ أَنْ تَكْتَمِلَ حَلَقَةُ حِقْدِي، هَوَى آبُو
الْمُعَلِّمِ الْأَكْبَرُ مِنْ سَوْرِ الْمَدْرَسَةِ عَلَى رَأْسِهِ. دَارَ بِهِ الْمُعَلِّمُ مِنْ
طَبِيبٍ إِلَى طَبِيبٍ، وَمِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ، ثُمَّ عَادَ رَاضِيًا، عَلَى
مَضَضٍ، بِأَبْنٍ يَهْزُهُ صُدَاعٌ دَائِمٌ، وَتَشْتِجَاتُ تُحْدِلُ الْعُرُوقَ.
وَلَمْ يَقِفِ الْأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، فَقَدْ تَشَرَّدَ مُوظَّفُو الْمُعَلِّمِ

وَعَمَّالُهُ، كَأَنَّمَا أَصَابَتْهُمْ لَعْنَةٌ. فَالطَّابِيعُ عَلَى آلَاةِ الْكَاتِبَةِ أَبْثُلِي
بُنْكَافٍ تَحْتَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ، وَالتُّكَافُ يَقْطَعُ النَّسْلَ. ثُمَّ كَبُرَتْ
الدَّمْلَةُ الْحُمْرَاءُ حَتَّى أَلْتَوَى فَمُهِ. وَكَانَ آخِرُ عَهْدِنَا بِهِ يُعَلِّمُ
الضُّرُوبَ عَلَى آلَاةِ الْكَاتِبَةِ فِي الْمَرْكَزِ الثَّقَافِيِّ لِمَدِينَةِ الْقَامِشْلِيِّ،
مُعْتَمِراً حَظَّةً بَيْضَاءَ عَلَى رَأْسِهِ يَتَقَنُّعُ بِهَا مِنْ فِدَاخَةِ التَّشْوِيهِ
الَّذِي أَصَابَ وَجْهَهُ. أَمَّا سَائِقُهُ فَبَاتَ يَنْتَقِلُ مِنْ سِجْنٍ إِلَى
سِجْنٍ، وَكُلَّمَا خَرَجَ ارْتَدَى ثِيَاباً كَثِيباً رِجَالِ النَّقْطِ الْعَرَبِ
السَّائِحِينَ، حَامِلاً حَقِيْبَةً سَوْدَاءَ ضَخْمَةً، يَشُدُّ بِهَا غَيْباً مِنْ
الْأَغْبِيَاءِ إِلَى عَمَلِيَّةٍ نَضْبٍ لَا تَلْبُثُ أَنْ تَكْشِفَهَا الشُّرُطَةُ.

لَمْ يُعَيِّرِ الرَّجُلُ دَوْرَهُ قَطُّ، وَلَمْ يُعَيِّرْ فِي أَسَالِيهِهِ، أَمَّا مُتَعَهِّدُ
حُقُولِ الْبَطِّيخِ، ذُو الْيَدِ الْمَفْلُوجَةِ، فَقَدْ ارْتَضَى بِمَحْطَةِ الْبَنْزِينَ
نَصِيباً مِمَّا لَهُ فِي دِمَّةِ الْمُعَلِّمِ. لَكِنَّ الْمَحْطَةَ النَّائِيَةَ عَلَى التُّخُومِ
لَمْ تَكُنْ تَمُرُّ بِهَا سَيَّارَةً فِي الْأُسْبُوعِ، فَأُقْفِلَتْ. وَحِينَ ضَاقَ بِهِ
الْأَمْرُ دَفَعَ زَوْجَةَ ابْنِهِ إِلَى أَمْتِهَانِ الْبَغَاءِ، فذَاعَ صَيْتُهَا، وَتَمَرَّغَ
صَيْتُهُ، وَقَسَّ عَلَى ذَلِكَ خَادِمَتُهُ الَّتِي طَلَّقَهَا زَوْجُهَا، وَعَمَّالَ نَقْلِ
قَمَحِهِ، الَّذِينَ بَاتُوا يَبِيعُونَ الْكَازَ عَلَى طَنَابِرٍ تَقْوُذُهَا الْبِغَالُ بَيْنَ
الْحَارَاتِ، فَلَا يُصِيبُونَ مِنَ الرُّزْقِ إِلَّا نَزْراً يَسِيراً.

هَيْتَ لَكَ يَا مُعَلِّمُ. هَيْتَ لَكَ، خُذْ مَا يَمْلِكُ الشُّمَالُ مِنْ

هَبَاءٍ. كَاتِبٌ عَدْلٌ كُنْتُ، وَنَحْنُ كَتَبَةُ عُدُولٍ عَلَى طَرِيقَتِنَا،
نُزَوِّقُ النَّصَّ وَنَمَهِّرُهُ بِحَافِرِ الْحِمَارِ، وَنَحْرُضُ الْفَجِيعَةَ عَلَى
الْفَجِيعَةِ. فَهَذَا دِينُو الشَّابِّ يَجْلِسُ الْقَرْفُصَاءَ أَمَامَ بَابِ بَيْتِهِ،
مَطْعُونًا فِي صَمِيمِ قَلْبِهِ؛ وَهَا نَحْنُ مُقْتَرِبُونَ مِنْهُ: «هَاتِ رِسَالَةَ
دِينُو. هَاتِ رِسَالَةَ، وَسَتَدَبَّرُ أَمْرَ إِصَالِهَا»، فَيَكْتُبُ دِينُو:
«حَبِيبَتِي سَامُوثُ. أَبُوكَ بَغْلٌ وَآبُنُ بَغْلٍ»، وَنَأْخُذُ الرِّسَالَةَ إِلَى
حَبِيبَتِهِ، وَهِيَ مُعَلِّمَةٌ آتِدَائِيَّةٌ، وَأَبْنَةُ شَاعِرٍ كُرْدِيٍّ مَشْهُورٍ، فَتَرُدُّ:
«حَبِيبِي إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَحْتَطِفَنِي فَأَفْعَلْ، لَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ». وَيَغِيبُ
دِينُو مِنَ الْحَقِيقَةِ عَلَى أَحْوَالِهِ. لَقَدْ بَدَّلَ الْمُسْتَحِيلَ لِیُثْقِنَعَ
أَبَاهَا بِتَرْوِيجِهَا مِنْهُ، فَرَفَضَ. عَلَّلَ دِينُو الْمَسْأَلَةَ بِسُوءِ أَحْوَالِهِ
الْمَادِّيَّةِ، فَسَهَرَ سَتَتَيْنِ حَتَّى نَالَ شَهَادَةَ دَارِ الْمُعَلِّمِينَ، وَصَارَ
مُعَلِّمًا فِي مَدْرَسَةِ آتِدَائِيَّةٍ. غَيْرَ أَنَّ الْأَبَ ظَلَّ عَلَى مَوْقِفِهِ.

«ضَاعَ دِينُو»، كُنَّا نَقُولُهَا فِي إِشْفَاقٍ. لَقَدْ بَدَأَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ
مَاشِيًا. يَقِفُ فِي الْمُنْعَطَفَاتِ وَيَحْتَدِمُ، كَأَنَّمَا يُجَادِلُ أَشْخَاصًا
حَقِيقِيَّينَ. أَمَّا حَالُهُ، فِي الْمَدْرَسَةِ، فَكَانَتْ أَذْهَى، يَجْلِسُ وَرَاءَ
طَاوِلَتِهِ وَيَشْرُدُ بِفِكْرِهِ بَعِيدًا، بَيْنَمَا يُحَوِّلُ التَّلَامِذَةَ الْعُرْفَةَ إِلَى
زُرْبَةٍ. يَكْتُبُونَ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ، وَيَنْفُخُونَ فِي دَقِيقِ الطَّبَاشِيرِ

فَتَتَبَّعَ بِذَلِكَ السُّودَاءَ الْمُخْطَاطَةَ، وَيَبْيِضُ شَارِبَاهُ الدَّقِيقَانِ.
وَأَخِيرًا رَفَعَ الْمُدِيرُ تَوْصِيَةً بِفَضْلِ «الْمُخْتَلِّ عَقْلِيًّا»، فَفَصَّلَتْهُ
وِزَارَةُ التَّرْبِيَةِ. وَهَا هُوَ يَجْلِسُ الْفُرُصَاءَ أَمَامَ بَابِ بَيْتِهِ، بَيْنَمَا
نُحَرِّضُهُ - نَحْنُ الصَّبِيَّةُ - عَلَى آخِرِ قُفْلِ سَرَقَ مِفْتَاحَهُ الْجُنُونُ.
لَمْ نَيَأْسْ، وَلَمْ يَفْأَسْ دِينُو. نَأْخُذُ رِسَائِلَهُ وَنَأْتِيهِ بِرِسَائِلِهَا،
وَكِلَاهُمَا قَانِعَانِ بِالَّذِي تَبَقَّى لَهُمَا.

تَزَوَّجَتِ الْفَتَاةُ مِنْ شَخْصٍ آخَرَ، وَظَلَلْنَا نَنْقُلُ رِسَائِلَ دِينُو.
إِنْتَقَلَتِ الْفَتَاةُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَدِينَةٍ أُخْرَى، وَظَلَلْنَا نَنْقُلُ رِسَائِلَ
دِينُو. لَكِنَّا كُنَّا نَعُودُ إِلَيْهِ، هَذِهِ أَلَمْرَّةُ، بِرِسَائِلِ أَشَدَّ حِمَاسَةً،
ذَاتِ حُرُوفٍ وَخَطٍّ رَكِيكَيْنِ: «حَبِيبِي، إِنِّي فِي أَنْتِظَارِكَ بَيْنَ
أَشْجَارِ الْهَلَالِيَّةِ». «حَبِيبِي، سَأَقْتُلُ أَبِي الْيَوْمَ. تَجَهَّزْ لِنَهْرَبَ إِلَى
تُرْكِيَا». «حَبِيبِي، أَعْطِ حَامِلَ الرِّسَالَةِ لِيرَتِّينَ لِشِرَاءِ غَرَضٍ لِي». «حَبِيبِي، أَنْتَ أَجْمَلُ شَابٍّ فِي الْعَالَمِ»، وَيُنْفِذُ دِينُو مَا تَطْلُبُهُ
الرِّسَائِلُ.

وَدِينُو لَيْسَ وَحْدَهُ فِي آلِهَمَّ، فَهَذَا أَبْنُ عَمَّنَا، أَيْضًا، تَكَادُ
تَأْخُذُهُ عَمَامَةٌ قَلْبِهِ السَّارِحَةُ. يَشْقُ قَمِيصُهُ غَضَبًا، وَيَعْضُ عَلَى
الْأَبْوَابِ: «يَحَقُّ الشَّيْطَانُ، مِنْ أَيْنَ وَجَدُوا هَذِهِ الصِّلَةَ؟».

كَانَ أَبْنُ عَمَّنَا يُحِبُّ ابْنَةَ عَمِّهِ، وَالْعُرْفُ يُقَرُّ لَهُ أَنَّهُ أَوَّلَى مِنْ
أَيِّ آخَرَ بِالزَّوْاجِ مِنْهَا. لَكِنَّ أُمَّ الْفَتَاةِ صَرَخَتْ، فِي لَحْظَةٍ مِنْ
لَحَظَاتِ التَّجَلِّي: «الْفَتَاةُ حَرَامٌ عَلَيْهِ. إِنَّهَا أُخْتُهُ فِي الرِّضَاعَةِ». وَتَدْعُمُ
أَقْوَالَهَا بِالْكَثِيرِ مِنَ الْوَقَائِعِ: «ذَهَبَتْ أُمُّهُ لِجَمْعِ الْقَشِّ مِنَ
الْبَيَادِرِ، وَتَرَكَتُهُ عِنْدِي، حِينَ كَانَ وَلِيدًا، فَأَرْضَعْتُهُ». وَتُضِيفُ،
سَائِلَةً زَوْجَةَ عَمَّنَا الْآخَرَى: «أَتَذْكُرِينَ يَوْمَ حِتَانِ ابْنِ حَمَوِ
الْأَكْبَرِ؟ يَوْمَ ذَبَحْتَ دَجَاجَتِكَ الْمِثْيَاةَ فَوَجَدْتَ فِي بَطْنِهَا
بَيْضَةً بِثَلَاثَةِ صَفَرَاتٍ؟ يَوْمَ تَدَخَّرَجْتَ عَرَبَةً حَامُوشَ فِي وَادِي
الْحَنَازِيرِ؟ يَوْمَ... يَوْمَ». إلخ. وَتَتَذَكَّرُ أُمُّ الشَّابِّ الْوَاقِعَةَ
فَتَوَافِقُهَا، وَيَضِيغُ الْأَمْرُ عَلَى ابْنِ عَمَّنَا، فَيَقْتُلِعُ شُجَيْرَاتِ اللَّيْفِ
مِنْ سَاحَةِ الْبَيْتِ فِي نَوْبَةِ مَرِيرَةٍ، صَارِخًا: «مَا هَمَّ؟ فَلْتَكُنْ أُخْتِي
فِي الرِّضَاعَةِ... أَحِبُّهَا يَا اللَّهُ». وَمَنْ يَجْرُؤُ عَلَى قَوْلِ كَلَامٍ
كَهَذَا؟ أُخْتُكَ فِي الرِّضَاعَةِ هِيَ أُخْتُكَ. مَنْ أَرْضَعْتَهُ أُمُّرَأَةً قَرِيبَةً،
أَوْ غَرِيبَةً، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَنَاتِهَا. «أَنْغَيِّرَ الدِّينَ؟» يَصْرُخُونَ بِهِ.
«إِهْدَأْ وَأَصْبِرْ، فَأَمَامَكَ بَنَاتُ أَعْمَامٍ كَثِيرٍ غَيْرِ عَمِّكَ هَذَا...
إِهْدَأْ»، وَلَا يَهْدَأُ الْعَاشِقُ.

كَانَا يَلْتَقِيَانِ، كُلُّ صَبَاحٍ، فِي الْبَيَادِرِ، يَجْمَعُ الْعَاشِقُ

لِلْعَاشِقَةِ وَلِأُخْتِهِ حُزْمَ الْقَشِّ. وَكَانَ الْأَهْلُونَ يَعْضُونَ الطَّرْفَ:
«إِنَّهُ ابْنُ عَمِّهَا. سَيَتَزَوَّجُهَا عَلَى آيَةِ حَالٍ».

لَقَدْ اسْتَعْلَلَ الْعَاشِقَانِ ذَلِكَ الرِّضَا الْخَفِيَّ، وَذَلِكَ الْإِعْضَاءَ،
فَأَمَعْنَا فِي رَشْقِ عُمْرِهِمَا بِالْقَبْلِ وَبِاللُّهَاتِ الْحُلِيِّ. وَكَانَتْ أُخْتُ
الْعَاشِقِ تُسَوِّرُهُمَا بِحُزْمِ الْقَشِّ فَيَغِيْبَانِ عَنْ غِيَوَنِ الْحَاصِدَاتِ.
سَمَاءٌ مِنَ الْقَشِّ وَأَرْضٌ مِنَ الْقَشِّ، وَحَرَكَةٌ لَيِّنَةٌ كَأَنَّمَا
تَطْوِي الْعُدُوبَةُ جِذْعَهَا وَتَحْضُدُ النَّبْضَ السَّكَرَانَ. «الْكَلْبَةُ...
الْكَلْبَةُ» يُتِمَّتُمْ ابْنُ عَمَّنَا. «مِنْ أَيْنَ اجْتَمَعَ لِسَلِيلَةِ الشَّيْطَانِ
هَذَا الْمَكْرُ؟... يَا زَوْجَةَ عَمِّي فَلْيَأْكُلْكَ السِّلُّ»، وَنَرْدُدُ
نَحْنُ: «أَمِينَ»، ثُمَّ نُحَرِّضُهُ، فَيُضْغِي كَطِفْلِ: «فُضَّهَا يَا أَحْمَقُ،
وَسَيَرُضَّخُونَ. أَشَدُّ آبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ رَفْضًا يَرُضَّخُونَ صَاغِرِينَ
أَمَامَ بَكَارَةِ مَهْدُورَةٍ يَا أَحْمَقُ. فُضَّهَا فُضَّهَا». وَيَدُورُ ابْنُ
عَمَّنَا بِعَيْنَيْهِ عَلَى الْهَوَاءِ: «إِنَّهَا ابْنَةُ عَمِّي، أَضِنُّ بِهَا عَلَى
أَمْرِ كَهَذَا». وَنُعِيدُ الْكَرَّةَ: «أَخْطَفُهَا، وَاعْقِدْ قِرَانَكَ عَلَيْهَا
عِنْدَ شَيْخٍ لَا يَعْرِفُ الْمَسْأَلَةَ، يَا أَحْمَقُ»، وَيَرْدُدُ مُسْتَسْلِمًا:
«وَأَيُّ دَهَاءٍ يَنْفَعُ؟ هِيَ أُخْتِي مَهْمَا أَعْمَانِي قَلْبِي»، وَتَطِنُ
كَلِمَةُ «أُخْتِي» كَدَبُورٍ حَوْلَ رَأْسِهِ. فَيَقْرَعُ الْهَوَاءَ بِيَدَيْنِ

هَازِيَتَيْنِ: «إِلَهِي، لِمَاذَا لَمْ تَأْخُذْ رَوْحَ هَذِهِ الْحَيَرَبُونَ قَبْلَ أَنْ تُخَيِّرَهُمْ؟».

يَهْدُ الْعَاشِقُ حِينًا، وَيَثُورُ حِينًا آخَرَ، وَنَحْنُ نَسْتَعِِلُ الْحَيَنِينَ فِي أَنْ نَبْنِيَهُ حِكْمَتَنَا الْفَجَّةَ: «تَزَوَّجْ أُخْتَهَا يَا أَحْمَقُ، وَسَيَكُونُ الْأَمْرُ مُبَرَّرًا لِتَزْوَرِكَ كُلَّ يَوْمٍ». وَيَنْظُرُ ابْنُ عَمَّنَا إِلَيْنَا مُسْتَعْرِبًا «مِنْ أَيْنَ لَكُمْ، أَنْتُمْ أَيْضًا، هَذَا الدَّهَاءُ يَا أَوْلَادَ الشَّيْطَانِ؟ أُخْتَهَا أُخْتِي. أَتَبْعِدُوا عَنِّي قَبْلَ أَنْ أَزْتَكِبَ حِمَاقَةً»، وَيَنْهَضُ بَاحِثًا عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يَضْرِبُنَا بِهِ، فَتَهْزُولُ مُبْتَعِدِينَ، ثُمَّ نَرْفَعُ خَنَاصِرَنَا فِي حَرَكَةٍ بِذِيْقَةٍ: «خُذْ يَا عَكَرُوت... لَا تَسْتَأْهِلِ النَّصِيحَةَ».

حَرَامٌ أَنْ تَنْصَحَ عَاشِقًا. كُلُّهُمْ يَزْكَبُونَ رُؤُوسَهُمْ وَلَا يُضْغَوْنَ، تَمَامًا كَأَبْنِ السُّمَكْرِ فِي هَذَا. وَأَبْنُ السُّمَكْرِ أَكْبَرُ مِنَّا بِسَنَتَيْنِ، وَفِيهِ الْكَثِيرُ مِمَّا نَحْسُدُهُ عَلَيْهِ. غُرَّتُهُ أَوْلَا؛ غُرَّتُهُ الْمُسْدِلَةُ عَلَى جَبِينِهِ، الَّتِي يَزُدُّهَا حِينًا بَعْدَ حِينٍ بِإِدِيهِ. يَا اللَّهُ. أَهْلُنَا يَمْنَعُونَنَا مِنْ إِطَالَةِ غُرْرِنَا حَتَّى لَا نَبْدُو مُخْتَشِينَ. وَنَحْسُدُهُ عَلَى تَذْخِينِهِ أَمَامَ وَالِدِهِ، ثَانِيًا، بَلْ يُشْعِلُ لَهُ وَالِدُهُ لِفَافَاتِهِ. يَا اللَّهُ. مَنْ يَجْزُو مَتَا عَلَى التَّذْخِينِ أَمَامَ وَالِدِهِ؟، فَأَبَاؤُنَا يَشْمُونَ أَصَابِعَنَا وَأَفْوَاهَنَا، كُلَّ مَسَاءٍ، كُلَّ مَسَاءٍ، بَحْثًا عَنِ الرَّائِحَةِ؛ وَفِي

كُلُّ مَسَاءٍ نُضْطَرُّ إِلَى مَضْغٍ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَغْشَابٍ، وَأَوْرَاقٍ
شَجَرٍ، قَبْلَ دُخُولِنَا إِلَى بُيُوتِنَا. وَنَحْسُدُهُ عَلَى مِهْنَتِهِ ثَالِثًا، وَعَلَى
مَهَارَتِهِ الَّتِي لَنْ نُجَارِيَهَا قَطُّ: يُشْعِلُ مَوْقِدَ الْكَازِ، وَيَصْغُ فَوْقَهُ
مِطْرَقَةً صَغِيرَةً مُسَنَّنةً حَتَّى يَحْمَى حَدِيدُهَا، وَإِذْ يَتَوَهَّجُ الرَّأْسُ
الْحَدِيدِيُّ يَرْفَعُهَا بِيَدٍ، مُمَسِّكًا بِقَضِيبٍ دَقِيقٍ مِنَ الْقَصْدِيرِ فِي
يَدِهِ الْأُخْرَى، وَيَقْرَبُهَا مِنْ آلَاةِ الْمُرَادِ تَصْلِيحُهَا فَيَلْحَمُ
الثُّقُوبَ وَالشُّقُوقَ، وَيَبِينُ وَقْتُ وَآخِرُ يُمَرُّ رَأْسُ الْمِطْرَقَةِ فَوْقَ
قِطْعَةٍ مِنْ حَجَرِ النَّشَادِرِ فَيَعْلُو دُخَانٌ أَزْرَقُ ذُو رَائِحَةٍ كَرِيهَةٍ.
أَه، حَجَرِ النَّشَادِرِ يُنْظَفُ الْمِطْرَقَةُ مِنَ الْقَصْدِيرِ الْعَالِقِ بِهَا.
وَالْأَمْرُ كُلُّهُ مُنْتَعٍ، وَالْأَكْثَرُ مُنْتَعَةً مُرَاقِبَتَنَا لَهُ، وَهُوَ يَمُدُّ بِرَأْسِهِ مِنْ
بَابِ بَسْطِيَّتِهِ الْحَشِيشَةِ لِيَرَى ابْنَتَهُ جَارِهِ الْمُهَرَّبِ حَسَو.

نَقُولُ لَهُ: مَا لَكَ وَابْنَتَهُ حَسَو يَا أَحْمَقُ؟ أَبَوْهَا مَا هِرٌّ فِي
التَّضْوِيبِ بِبُنْدُوقِيَّتِهِ، وَلَا يُخْطِئُ هَدَفًا عَلَى مَبْعَدَةِ مِليونٍ مِثْرٍ
يَا أَحْمَقُ، وَيَغْضِي ابْنُ السَّمَكِرِيِّ مُتَفَكِّرًا. بَيْنَمَا نُكْمِلُ نَحْنُ:
«أَخُوهَا يَا أَحْمَقُ. أَخُوهَا أَمْهَرُ مَنْ يَذْلُقُ الْأَخْشَاءَ بِسَكِينِهِ فِي
ثَانِيَةِ وَاحِدَةٍ يَا أَحْمَقُ». وَيَزْدَادُ ابْنُ السَّمَكِرِيِّ إِغْضَاءً. لَكِنَّ
الْإِشَارَاتِ بِالْأَيْدِي، وَالْعَمَزَاتِ بِالْأَعْيُنِ، تَفْلَأُ الْمَسَافَةَ بَيْنَ بَسْطِيَّتِهِ

وَبَيْتِ حَسُو، حِينَ تُطِلُّ الْفَتَاةُ الْمُتَوَرِّدَةُ أَبَدًا. وَكُنَّا، كُلَّمَا
 اسْتَرْسَلَا، قَطَعْنَا بَيْنَهُمَا ذَلِكَ السَّلَكَ الرُّوحَانِيَّ الْمُتَوَهَّجَ بِصَخِينَا:
 «عَوَافِي... عَوَافِي. يَلَلَا يَا حِمَارَ الْحُبِّ، يَا مَنَدِيلِي»، خَالِطِينَ
 كَلِمَاتِ الْأَغَانِي، الَّتِي لَا نُتَقِّنُهَا، بِالنَّهْيِ وَالنَّبَاحِ، فَيُضْطَرَّانِ إِلَى
 التَّرَاجُعِ، كُلٌّ إِلَى مَمْلَكَةِ شَجُورٍ وَوَوْنِهِ.

غَيْرَ أَنَّ زَمِيلَنَا أَوْسَمَانَ الْأَعْرَجَ لَمْ يَكُنْ يُشَارِكُنَا التَّفَكُّهَ
 بِالْعَاشِقِينَ. يُرَاقِبُ الْأَمْرَ كُلَّهُ فِي أَنْطَوَاءٍ، وَيَتَنَهَّدُ عَالِيًا.
 «مَا ذَهَكَ أَوْسَمَانُ؟ هَيَّا أَنْهَقْ»، نَضْرُخُ بِهِ، وَيَظَلُّ صَامِتًا.
 «أَزُقُصْ عَلَى رَجُلِكَ الْأَعْرَجَاءِ أَوْسَمَانُ»، وَيَظَلُّ صَامِتًا. «صَفَّرْ
 أَوْسَمَانُ»، وَيَظَلُّ صَامِتًا.

«إِنَّهُ يُحِبُّهَا» يَقُولُ لَنَا آبْنُ السَّمَكِرِيِّ، فَتُبَاغِثُنَا كَلِمَاتُهُ.
 وَيُضَيِّفُ شَارِحًا: «يَدْخُلُ إِلَى بَيْتِ حَسُو بِحُجَّةٍ مُسَاعِدَةٍ آتِيَةٍ فِي
 دُرُوسِ الْحِسَابِ، وَيَتَوَدَّدُ إِلَى آبْنَتِهِ. أَسْأَلُونِي، أَنَا أَعْرِفُ».
 يَا أَلَلُّهُ، كَيْفَ كَبُرَ أَوْسَمَانُ فَجْأَةً؟ أَوْسَمَانُ مِنْ عُمْرِنَا، وَهَذَا نَحْنُ
 نَبْحَثُ أَمَامَ بَوَابِ قُلُوبِنَا عَنْ أَثَرِ لِفَتَاةٍ، فَلَا نَجِدُ شَيْئًا. لَمْ تَقْتَرِبْ
 أَنْتَى بَعْدُ؛ أَمَّا أَوْسَمَانُ!!! يَا أَلَلُّهُ، سَبَقْنَا الْأَحْمَقُ، سَبَقْنَا الْحَزْبُ
 الصَّامِتَةُ اللَّامُتْكَافِئَةُ بَيْنَ الْغَرِيمَيْنِ: الْأَعْرَجِ، وَآبْنِ السَّمَكِرِيِّ.

بِرْغَمِ إِعْجَابِنَا بِأَبْنِ السَّمَكْرِيِّ نَأْخُذُ جَانِبَ الْأَعْرَجِ، لَكِنْ
 مَا الْحِيلَةُ؟ الْفَتَاةُ لَا تُحِبُّ الْأَعْرَجَ. نَقِفُ، وَنَحِينُ، أَمَامَ بَابِ
 مَدْرَسَةِ الْبَنَاتِ، وَنَدْفَعُ بِرِسَالَةٍ إِلَيْهَا فَتَرُدُّهَا إِلَيْنَا فِي حَيَاءٍ. نَتَّبِعُهَا
 هَامِسِينَ: «الرَّسَالَةُ مِنْ أَوْسَمَانَ»، فَتَلْتَفِتُ هَامِسَةً بِدَوْرِهَا:
 «فَلْيَأْكُلْ رِسَالَتَهُ».

عِنْدَئِذٍ نَتَوَعَّدُهَا: «سَنَلْحِمُ مُوَحَّرَةَ ابْنِ السَّمَكْرِيِّ بِقَصْدِهِ».

نَتْرُكُ الْفَتَاةَ لِحَالِهَا بَعْدَ التَّهْدِيدِ، مُلْتَفِتِينَ حَوْلَنَا، كَأَنَّمَا
 بَاعْتَنَّا سُحْبَ فِي غَيْرِ أَوَانِهَا: «يَا لِلْمَرْبِ الْجَمِيلِ»، فَيَأْتِ مِنْ
 أَعْمَارِنَا، وَفَيَأْتِ أَكْبَرُ قَلِيلًا، أَوْ أَصْغَرُ. مُذْنَبٌ سَاحِجٌ مِنَ الشُّعُورِ
 السُّودَاءِ وَالْمَرَاوِيلِ. مُذْنَبٌ أَخْتَرَقَ مَجَالَاتِ أَرْوَاحِنَا فَجَاءَهُ،
 وَمَرَايَا تَطَايَرَتْ فَرَأَيْنَا صُورَنَا. يَا لِلْهَوْلِ. رَكَضْنَا نَشْتَرِي أَمْشَاطًا،
 وَدِهَانَاتٍ لِلشَّعْرِ وَلِلْأَخْذِيَّةِ: «فَلْنَكُنْ لَائِقِينَ بِأَعْمَارِنَا بَعْدَ الْيَوْمِ».

هَكَذَا بَدَأَتِ الدَّوْرَةُ الْمُخْمَلِيَّةُ لِإِحْصَاةِ دَمِنَا، وَصِرْنَا نَقِفُ
 أَمَامَ أَبْوَابِ مَدَارِسِ الْبَنَاتِ بِبَنَاطِيلِنَا الَّتِي نَضْعُ فَوْقَهَا الْفُرُشَ،
 لَيْلًا، لِتُحَافِظَ عَلَى طَيِّبَاتِ أَنْفَتِهَا، وَبِشُعُورِنَا الَّتِي لَا تَقِلُّ التِّمَاعَا
 عَنْ أَخْذِيَّتِنَا. وَرَأَيْنَا، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، كَمْ سَبَقْنَا الْآخَرُونَ: فَيَنَانٌ عَلَى
 الدَّرَاجَاتِ. فَيَنَانٌ بِقُبُعَاتٍ تَزْكِيَّةٍ لِلْفَتَى الْأَنْظَارِ. فَيَنَانٌ بِبَنَاطِيلِ

وَاسِعَةً مِنَ الْأَسْفَلِ، وَبِأَخْزَمَةٍ مُرَقَّطَةٍ. فَنِيَانٌ فِي قُمْصَانٍ نَارِيَّةٍ.
 فَنِيَانٌ بِشُعُورٍ مُمَشَّطَةٍ إِلَى وَرَاءِ، وَبِسَوَالِفَ طَوِيلَةٍ. يَا أَلَلَّهُ، مِنْ
 أَيْنَ نَأْتِي بِسَوَالِفَ؟ لِحَانًا لَمْ تَنْبُتْ بَعْدُ، فَلَنْصَنَعَ السَّوَالِفَ. وَقَدْ
 صَنَعْنَا بِدِهَانِ الْأَخْذِيَّةِ الْأَسْوَدِ. فَكَأَنَّا تَسِيلُ عَلَى دُفُونِنَا
 حِينَ نَعْرِقُ. وَكَانَ الْفَثِيَانُ، هَؤُلَاءِ يَكْتَفُونَ مِنْ طَرَائِدِهِمْ
 بِأَبْتِسَامَةٍ، أَوْ تَلْوِيحَةٍ سِرِّيَّةٍ. وَقَرَرْنَا أَنْ نَكْتَفِي، نَحْنُ أَيْضًا،
 بِذَلِكَ؛ لَكِنْ لَمْ يَلُوحْ لَنَا أَحَدٌ.

«إِذَا، عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِضَ مَقْدِرَاتِنَا الْخَاصَّةَ»، يَقُولُهَا وَاحِدُنَا
 لِلْآخَرِ، ثُمَّ يَسْتَدْرِكُ: «مَا هِيَ مَقْدِرَاتُنَا الْخَاصَّةُ؟». لَيْسَتْ
 لَدَيْنَا - حَقًّا - أَيُّهُ مَقْدَرَةٌ مُهَدَّبَةٌ لِلْفَتِ أَنْظَارِ الْفَتِيَّاتِ. سَكَكِينَا
 الَّتِي تَحْتَ الْقُمْصَانِ؟ لَا، لَيْسَتْ لِلْعَرُضِ. مَهَارَتُنَا فِي اسْتِدْرَاجِ
 الدَّجَاجِ بِحُبُوبِ الْعَدَسِ لِسِرْفَتِهَا؟ لَا، لَيْسَتْ لِلْعَرُضِ. أَقْبَعَتُنَا
 الْمُخِيفَةُ الْمَصْنُوعَةُ مِنَ الْكَتَّانِ وَالْحَيْشِ؟ لَا، لَيْسَتْ لِلْعَرُضِ.
 سُرْعَتُنَا فِي خَلْعِ الْقَطْعِ الثَّحَابِيِّ مِنَ السَّيَّارَاتِ لِبَيْعِهَا؟ لَا،
 لَيْسَتْ لِلْعَرُضِ. حِيلُنَا فِي الْأَخْتِيَاءِ دَاخِلَ مَرَايِضِ السَّيْنِمَا، فِي
 الْأَوْقَاتِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَ غُرُوضِهَا؟ لَا. لَيْسَتْ لِلْعَرُضِ. شَفَرَاتُنَا
 الَّتِي نَسْرِقُهَا مِنْ آبَائِنَا لِنَقْطَعَ بِهَا حِبَالَ عَرَبَاتِ الْبَطِّيخِ؟ لَا،

لَيْسَتْ لِلْعَرَضِ. جَسَارَاتُنَا بَيْنَ الْمَقَابِرِ لَيْلًا، وَإِقْلَافُنَا لِلْمَوْتَى؟ لَا،
لَيْسَتْ لِلْعَرَضِ.

وَتَعَرَّيْنَا نَوْبَةَ تَتَفَتَّحُ فِيهَا فِظَاطَاتُ أَزْوَاجِنَا، فَالْخَاسِرُ خَاسِرٌ:
عَالَيْنَا وَعَلَيْهِنَّ إِذَا.

نَضَعْدُ فَوْقَ أَسْوَارِ الْمَدَارِسِ، فِي أَوْقَاتِ آسْتِرَاحَةِ الْفَتَيَاتِ،
مَالِئِينَ جُيُوبَنَا بِخَصِيٍّ صَغِيرٍ فَتَرْشُقُهُنَّ بِهِ. وَإِذْ نُفْرِطُ فِي لَهْوِنَا
السَّجِّحِ يَذْهَبْنَ إِلَى نَاطِرَاتِهِنَّ، فَتَخْرُجُ النَّاطِرَاتُ إِلَيْنَا. بَعْضُهُنَّ
عَصَبِيَّاتٌ، يَصْرُخْنَ: «أَوْلَادُ شَوَارِعَ. بِئْسَ التَّرْيِيبَةُ»، وَبَعْضُهُنَّ
يُعْتَفِنُنَا فِي لَيْنٍ: «أَلَيْسَ لَكُمْ أَخَوَاتٌ؟ مَاذَا لَوْ رَأَيْتُمْ شُبَانًا
يَقْذِفُونَ أَخَوَاتِكُمْ بِالْحَصَى؟ أَتَرْضَوْنَ؟»، فَلَا نَجِدُ جَوَابًا، بَلْ
نَنْسِلُ نَازِلِينَ فِي حَجَلٍ، وَإِنَّمَا أَخْتَفَتِ النَّاطِرَاتُ فِي مَكَاتِبِهِنَّ
الْمُغْلَقَةِ عُنْدَنَا صَاعِدِينَ. أَمَّا خَارِجَ الْأَسْوَارِ فَالطَّيِّشُ عَلَى غَارِيهِ.
فَفِي كُلِّ يَوْمٍ نَخْتَارُ صَاحِبَةً وَاحِدَةً مِنْ بَيْنِ السَّرْبِ، فَتَنْتَبِعُهَا
حَتَّى بَيْتِهَا: «تَحْنَنِي يَا حُلُوةَ». «يَسْلَمُ الْخَضِرُ». «الْبِنْتُ مِنْ
أُمِّهَا». «حَنَانُكَ يَا دَلْعَ». «دَلَال... أَمَان... إلخ. لَقَدْ صِرُونَ،
إِذَا بَدَوْنَا فِي الشَّارِعِ، يَنْزِعْنَ، بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضٍ، جَمَاعَةً
جَمَاعَةً. كُلُّ سَبْعِ بَنَاتٍ يُوَصِّلُنَّ وَاحِدَةً يَكُونُ بَيْتُهَا الْأَبْعَدَ

بَيْنَهُنَّ، وَمِنْ ثَمَّ تَوَصَّلُ الْبَقِيَّةُ وَاحِدَةً أُخْرَى، وَهَكَذَا. حَتَّى لَا
يَتْرُكُنَ لَنَا مَجَالاً لِلْاِسْتِفْرَادِ.

لَمْ تَسْتَهْوِنَا فَتَاةُ. الْأَمْرُ مَحْضُ عَبَثٍ بَعْدُ. لَكِنَّ أَعْمَاقَنَا
تَسْتَجْدِي نَظْرَةَ إِعْجَابٍ وَاحِدَةً فَلَا تَجِدُهَا. يَا أَللهُ: حَرَكَاتُنَا
الْبَهْلَوَانِيَّةُ هَبَاءٌ، وَهَبَاءُ ثِيَابُنَا الْمَكْوِيَّةُ، وَأَحْذِثْنَا الْمُتَمَنِّعَةُ
كَعُيُونِنَا. يَا أَللهُ: ضِحْكَةُ أَوْ التَّفَاتَةِ. لَا أَكْثَرَ. تَبّاً لَهُنَّ. تَبّاً لِهَذِهِ
التَّمْلِيذَةِ الْخَرْسَاءِ الَّتِي لَا يَرْفَعُ سُلُو عَيْنَيْهِ عَنْهَا. مَا الَّذِي
أَسْتَهْوَاهُ فِيهَا؟ جَمِيلَةٌ مُتَوَرِّدَةٌ، كَأَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْ تُوْنِجٍ أَيْضَ،
لَكِنَّهَا خَرْسَاءُ!

بَاتَ سُلُو يَتَخَلَّفُ عَنِ الْآخَرِينَ، فَالْناظِرَةُ هِيَ آخِرُ مَنْ يُغَادِرُ
الْمَدْرَسَةَ، وَالْخَرْسَاءُ أَبْنَتْهَا. تَمْضِيَانِ مَعاً. جَمِيلَتَيْنِ، مِلْءُ
مِشْيَتَيْهِمَا أَهْبَةُ الْمَلِكَاتِ. وَيَمْضِي سُلُو خَلْفَهُمَا.

وَبَيْتُ النَّاظِرَةِ قَرِيبٌ مِنَ الْمَدْرَسَةِ. بَيْتُ قَوْمِي قَدِيمٌ،
يَعْبَقُ بِرَائِحَةِ سُلْطَانٍ مَا: بَوَابُهُ خَشَبِيَّةٌ. وَمَمَرٌ مِنَ الرُّحَامِ يَقْطَعُ
الْحَدِيقَةَ نِصْفَيْنِ فَيُنْخَنِ كُلُّ نِصْفٍ بِزَهْرَاتِهِ لِلدَّاخِلِينَ. أَمَّا
دَاخِلُ الْبَيْتِ فَلَمْ نَرَهُ، لَكِنَّ نَعَمَاتِ الْبَيَانِو تَشِي بِالْكَثِيرِ.

نَحْنُ لَمْ نَرِ بَيَانِو إِلَّا فِي الْأَفْلَامِ السِّيْنِمَائِيَّةِ، وَالْخَرْسَاءُ

تَمْلِكُ بَيَانُو. آاه سُلُو. تَقُولُ صَدِيقَاتُهَا إِنَّ الْخَرْسَاءَ رَاقِصَةٌ
 بَارِعَةٌ، وَعَازِفَةٌ، وَأَشَدُّ التَّلْمِيزَاتِ ذَكَاءٌ. لَا تُجِيدُ النُّطْقَ،
 وَتُخَاطِبُ الْأَخْرِيَّاتِ كِتَابَةً. آه سُلُو. وَسُلُو لَا يُبَارِحُ الْحَيَّ
 ذَاكَ؛ الْحَيَّ الَّذِي اجْتَمَعَتْ فِيهِ بُيُوتُ النُّخْبَةِ مِنْ مُوظَّفِي
 الدَّوْلَةِ. وَكَلَّلَهُ اللَّهُ بِحَدَائِقَ تَهْذِي مِنْ فَرْطِ الْهَنْدَسَةِ.

غَرِيبٌ سُلُو، قَابِغٌ كِسْلَوٍ بَرِّيٌّ قُرْبَ الْأَسْوَارِ الْمُطَرَّرَةِ
 بِاللَّبْلَابِ، كَأَنَّمَا أَخْطَأَ الطَّرِيقَ. غَرِيبٌ كَنْبَاتِ الْأَرْضِ الْبَغْلِ،
 تَرَاهُ الْخَرْسَاءُ، مِرَاراً، قُبَالَ بَوَابَةِ بَيْتِهَا، حِينَ تَخْرُجُ إِلَى
 الْحَدِيقَةِ، فَتُشِيرُ بِيَدِهَا فِي اسْتِهْجَانٍ: «مَاذَا تُرِيدُ؟». حَرَكَهَ يَدِ
 تَقُولُ لَهُ: «مَاذَا تُرِيدُ؟». آه سُلُو. مَاذَا تُرِيدُ حَقّاً؟، تُغْضِي وَقَدْ
 أَغْرُورَقْتَ عَيْنَاكَ. حَنِينٌ أَخْرَسَ إِلَى أَخْرَسَ، وَوَحْدَكَ تُعِيدُ
 تَرْتِيبَ الْإِشَارَاتِ. مَاذَا لَوْ أَشَارَتْ إِلَيْكَ: «تَعَالَ؟». مَاذَا لَوْ
 حَضَنْتَكَ وَقَادَتْكَ. عَلَى الْمَمَرِّ الرُّخَامِيِّ، إِلَى الْبَيْتِ، قَائِلَةً
 لِأُمِّهَا: «هَذَا بَطْلِي؟». سَتَجْلِسُ مَزْهُوًّا بِنَفْسِكَ، وَهِيَ تَغْرِفُ
 عَلَى الْبَيَانُو. سَتَذَلُّلُكَ، وَسَيَذَلُّكَ أَهْلُهَا. إِنَشَقَّ حُلْمُهُمْ
 وَخَرَجَتْ أَنْتَ، فَرِيداً بِبَسَالَتِكَ وَتَعَالِيكَ، فَرِيداً يَهْدُوكَ وَرَزَانَةَ
 حَرَكَاتِكَ، فَرِيداً كَمَا كَثُرَ مَا يَكُونُ آدَمِيٍّ. وَسَتُشِيرُ إِلَيْكَ

صَدِيقَاتُ الْخَرْسَاءِ فِي إِعْجَابٍ. وَسَتَكْتُبُ الْخَرْسَاءُ لَصَدِيقَاتِهَا:
«هَذَا لِي» كُلَّمَا سَأَلْنَهَا. آاهْ سَلُّو. أَفَقُ أَيُّهَا الْأَحْمَقُ. هَذَا بَيْتُ
بازر باشي، سَلِيلِ بَرَقِ الْآسِتَانَةِ، فَمَنْ تَكُونُ أَنْتَ؟

الْيَوْمَ عِيدٌ وَطَنِيّ، عِيدٌ مِنَ الْأَغْيَادِ الْمَلِيُونِ لِحَادِثَةِ لَمْ يَزَفَعْ
فِيهَا أَحَدٌ إِضْبَعَ آخْتِجَاجٍ، وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ عِيدٌ. وَالتَّرْتِيبَاتُ
الْأَخْتِفَالِيَّةُ قَائِمَةٌ مُنْذُ عَشْرَةِ أَيَّامٍ. وَلَسَوْفَ تَتَوَجَّحُ الْآنَ.

سَيَمَّا حَدَادٌ قَدَمَتْ صَالَتَهَا مَجَانًا لِلْحَفْلِ. جَاءَ خَطِيبٌ
وَمَضَى خَطِيبٌ. جَاءَتْ وَضَلَّةٌ مَسْرُحِيَّةٌ، وَمَضَتْ وَضَلَّةٌ
مَسْرُحِيَّةٌ. لَمْ نَكُنْ نَرَى شَيْعًا، فَالزُّحَامُ عَلَى أَشَدِّهِ، وَمِنْثُلَا لَا يَجِدُ
مُتَّسِعًا لَهُ بَيْنَ الْمَنَاكِبِ الْعَرِيضَةِ، وَبَيْنَ أَحْزِمَةِ الشُّرْطَةِ، لَكِنَّا
نَسْمَعُ مَا يَجْرِي عِزْرَ مُكَبَّرَاتِ الصُّوْتِ ذَاتِ الْخَشْخَشَةِ وَالصَّفِيرِ
وَالرَّيْنِ الْمُتَّصِلِ كَقَرْعِ الصُّنُوجِ.

نَتَدَفَّعُ وَنَتَرَاجَعُ. نَضَعُدُ الْأُكْتَفَافَ وَنَسْقُطُ أَرْضًا. أَمَا سَلُّو
فَيَدُهُ عَلَى قَلْبِهِ.

هَتَفَ الْمُكَبَّرُ: «وَالْآنَ نُقَدِّمُ لَكُمْ جُمَانَةَ بَازَرِ بَاشِي». يَا إِلَهَ
الْأَرْضِ. قَفَزَ سَلُّو مِنْ فَوْقِ الرُّؤُوسِ، وَتَعَلَّقَ بِقُضْبَانِ بَوَايَةِ السَّيْنِمَا
الْخَارِجِيَّةِ. جَذَبَتْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ حَتَّى تَمَرَّقَ قَمِيصُهُ مِنَ الْكِتِفِ، وَلَمْ

يَنْزِلُ. وَهَا هُوَ يَرَاهَا: جُمَانَةُ الْخَرْسَاءِ فِي ثَوْبٍ أَثِيصٍ فَضْفَاضٍ،
تَنْتَقِلُ كَالْإِوَرَّةِ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، مُنْحَنِيَّةٌ، مَائِلَةٌ، مَشْدُودَةٌ،
قَافِرَةٌ، مَوْمِقَةٌ، مُبْتَسِمَةٌ، غَاضِبَةٌ، رَقِيقَةٌ، قَاسِيَةٌ، بَطِيئَةٌ، مُهْزِلَةٌ.
وَصَرَخَ سُلُو: «إِنِّهَا لِي. إِنِّهَا لِي»، وَالتَّصَقَّ أَكْثَرَ بِالْقُضْبَانِ، تَكَادُ
عَيْنَاهُ تَخْضِضَانِ الْخُضُورَ، وَالْعِمَارَةَ، وَالْخَرْسَاءَ، وَالْأَعْلَامَ الْوَرَقِيَّةَ،
وَالْعِيدَ الْحَلْيُونَ لِلتَّوَارِيخِ الْوَطَنِيَّةِ. «جُمَاااااا، أَنَا هُنَا».

أَيُّ نَفِيرٍ هَذَا؟ أَيُّ دُرُوعٍ هَذِهِ الَّتِي تَخْتَرِقُهَا الضَّرْبَاتُ الْعَمِيَاءُ
لِقَلْبِ سُلُو؟. مُم... مُم... الْجِيَادُ تَعُضُّ الْجِيَادَ، وَالْحَدَائِقُ تَشُقُّ
الْحَدَائِقُ بِمَحَارِيثَ مِنَ الرُّخَامِ، فَتَتَبَدَّى الْهُوَّةُ الْمُعْتِمَةُ نَابِضَةً
بَسْرَاطِينِهَا. «هَاتِ سُلْمًا سُلُو. هَاتِ الْمَنْجَنِيْقَ، وَالزُّنْبَقَ
الْمَضْهُورَ»، تُتِمَّتِمْ أَعْمَاقُهُ؛ وَيَخْتَدِمُ فَيَعُوي: «أَبْتَعِدُوا... إِنِّهَا لِي».

لَا، لَنْ يَتَّبِعِدَ أَحَدٌ. سَيَبْقَى الْمُشَاهِدُونَ حَتَّى آخِرِ مِصْبَاحِ
كَهْرِبَائِي يُطْفَأُ فِي الصَّالَةِ. أَمَّا مَنْجَنِيْقَاتُ أَعْمَاقِ سُلُو فَمَا مِنْ
رُمَاةٍ يَدْكُونُ بِهَا السُّورَ الْآدَمِيَّ، بَلْ تَتَدَخَّرُ مِنْ سُفُوحِ نَبْضِهِ،
وَتَتَحَطَّمُ فِي هَاوِيَةِ الْقَلْبِ.

لَقَدْ أَنْفَضَ الْجَمْعُ آلَانَ، حَتَّى بَاعَهُ بُذُورِ الْبَطِّيخِ وَالْيَقْطِينِ
دَفَعُوا عَرَبَاتِهِمْ أَمَامَهُمْ، وَمَضُوا. لَمْ يَبْقَ إِلَّا كِ سُلُو، وَأَنْتِ

تَدْرِي، سَتَخْرُجُ الْخَوْسَاءُ، بَعْدَ قَلِيلٍ، تُمَطِّرُهَا أُمُّهَا مِنْ خَلْفِهَا
 بِالثَّنَاءِ وَاتِّسَامَاتِ الرُّضَا. سَتَقِفَانِ قَلِيلًا دَوْمًا التِّفَاتِ إِلَيْكَ؛
 دَوْمًا التِّفَاتِ إِلَى عَيْنَيْكَ الْمُحْتَضِنَتَيْنِ أَعْشَاشَ رَوْحِكَ. وَسَيَأْتِي
 الْأَبُ فِي سَيَارَتِهِ السُّودَاءِ، يَوْمِيءُ لَهُمَا فَتَضَعْدَانِ. سَتَلْحَقُ
 بِالسَّيَّارَةِ عَشْرَ خُطَوَاتٍ ثُمَّ تَقِفُ. لَكِنَّ عَيْنَيْكَ سَتُكْمِلَانِ
 التَّحْقِيقَ كَعُصْفُورِي نِعْمَةٍ، وَسَتَزُطِمَانِ طَوِيلًا بِالزُّجَاجِ فِي
 مُحَاوَلَةٍ أُخِيرَةٍ لَأَسْتِذْجَاجِ أَحَدٍ إِلَى آلِ التِّفَاتِ... هَيْهَاتَ سُلُو.
 سَيُعْثِيكَ بَرَقُ الْآسِتَانَةِ، فَارْجِعْ أَيُّهَا الْأَحْمَقُ.

وَرَجِعْ سُلُو، تَارِكًا خَلْفَهُ حَيَّ مُوظَّفِي الدَّوْلَةِ، تَارِكًا سُيُوفَهُ
 اللَّبْلَابِيَّةَ، وَبَرَاعِمَهُ، وَغَمَامَاتِ دَمِهِ. رَجِعْ غَنِيْفًا مُوَحَّشًا، يُقَابِلُ
 التَّحِيَّةَ بِشَتِيمَةٍ، وَيُعَادِرُ الْبَيْتَ لِأَتْفِهِ سَبَبٍ، فَلَا يَعُودُ إِلَّا بَعْدَ أَيَّامٍ.

فِي صَيْفِ تِلْكَ السَّنَةِ الَّتِي شَهِدَتْ مِيلَادَ قَلْبِهِ، اسْتَأْجَرَ
 وَالِدُهُ قِطْعَةً أَرْضٍ مِنَ الْبَلَدِيَّةِ، وَصَارَ، هُوَ، حَارِسًا عَلَى أَكْبَاسِ
 الْقَمْحِ فِيهَا. وَحِرَاسَةُ الْأَكْبَاسِ مِهْنَةٌ مُؤَسِمِيَّةٌ، دَرَجَ الْكَثِيرُونَ
 عَلَى أَمْتِهَانِهَا. فَهِيَ تَدُرُّ نَزْوَةً أحيانًا، وَتَخْذُلُ فِي أَحَايِينِ
 أُخْرَى. وَالْمَسْأَلَةُ تَتِمُّ عَلَى الْوَجْهِ التَّالِي: يَتَقَدَّمُ شَخْصٌ مَا
 يَطْلُبُ اسْتِغْجَارَ أَرْضٍ مِنْ أَرْضِي الْبَلَدِيَّةِ، الَّتِي تَقَعُ فِي صَوَاحِي

الْمَدِينَةِ، مُقَابِلَ رَسْمٍ نَقْدِيٍّ بِحَسَبِ الْمِسَاحَةِ الْمُسْتَأْجَرَةِ، وَإِذْ يَحِينُ الْحَصَادُ، يَبْعَثُ الْمُزَارِعُونَ بِمَحَاصِيلِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ، فِي شَاحِنَاتٍ كَبِيرَةٍ. وَلِأَنَّ الْبَيْعَ لَا يَتِمُّ فِي الْحَالِ، فَهُمْ يَسْتَوْدِعُونَهَا فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مُقَابِلَ رَسْمٍ عَنْ كُلِّ كَيْسٍ، بُعْيَةٍ ضَمَانٍ جِرَاسَتِهَا. وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ التَّجَارُ بَيْنَ الصَّفَقَةِ وَالصَّفَقَةِ، أَيْ أَنَّ حُرَاسَ الْمُسْتَوْدَعَاتِ الْمَكْشُوفَةِ يَتَقَاضُونَ أَجُوراً طَوَالَ الْمَوْسِمِ، كُلَّمَا أَفْرَعَتْ شَاحِنَةٌ حُمُولَتَهَا، وَكُلَّمَا اسْتَعَادَتْ شَاحِنَةٌ حُمُولَتَهَا، وَمَضَتْ.

كَانَتْ الْأَرْضُ الَّتِي اسْتَأْجَرَهَا وَالِدُ سُلو، قُرْبَ سَوْرِ الْمَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّةِ، وَمِنْ جِهَةِ الْعَرَاءِ الْمُطِلِّ عَلَى مَقَابِرِ الشُّرَيَّانِ، مَلَأَى بِالشُّوْكِ وَبِجُذُوعِ السَّوسِ الْيَابِسَةِ الصَّلْبَةِ. وَقَدْ اقْتَضَى الْأَمْرُ مِنْهُ، وَمِنْ أَخِيهِ الْأَصْغَرِ، ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ كَذْحاً. يَحْمِلَانِ فَأُسَيْهِمَا وَالْمِنْكَاشَ، وَيَنْكَبَانِ عَلَى الْأَرْضِ قَرْعاً، وَنَقْباً، وَتَذْرِيةً، وَنَكْشاً، وَعَزْقاً، حَتَّى اسْتَوَتْ الْأَحَادِيدُ وَالْأَثْلَامُ كَصَفْحَةٍ دَفْتَرٍ. هَكَذَا سَتَسْتَقْبِلُ أَرْضُهُمَا أَوَّلَ شَاحِنَةٍ، وَحِينَ جَاءَتِ الشَّاحِنَةُ الْأُولَى بِحُمُولَتِهَا، كَانَ عَلَى سُلو أَنْ يَبْنِي بَرَاكِيَّةً، فَتَصَبَّ عَمُودَيْنِ قُرْبَ سَوْرِ الْمَدْرَسَةِ، وَجَعَلَ السَّقْفَ مِنْ كَرْتُونِ

الصَّناديقِ، ثُمَّ مَدَّ عَلَى الْأَرْضِ كَيْسَيْنِ مِنَ الْخَيْشِ، وَجَاءَ بِجَرَّةٍ
لِلْمَاءِ: «جَاهِزُونَ».

لَمْ تَكُنْ لَهُوَ حِرَاسَةُ أَكْيَاسِ الْقَمْحِ، الَّتِي تَرَكَمَتْ يَوْمًا بَعْدَ
يَوْمٍ، ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ غُلُوءًا. حَتَّى اسْتَحَالَتِ الْأَرْضُ قَلْعَةً ذَاتَ
أُبْرَاجٍ، وَأَسْوَارٍ، وَمَمَرَّاتٍ. «الْمَوْسِمُ خَيْرٌ» قَالَ سُلُو لِأَخِيهِ،
وَأَضَافَ: «حَذَارِ نِسَاءِ النَّوْرِ». فَالْمُسْتَوْدَعَاتُ، تِلْكَ، يَمْتَزِجُ
تُرَابُهَا بِالْكَثِيرِ مِنَ الْحِنْطَةِ الْمَتَسَرِّبَةِ مِنَ الْأَكْيَاسِ الْمَثْقُوبَةِ بِفِعْلِ
خُطَافَاتِ الْعَتَالِينَ، وَالْحُرَّاسِ يَجْمَعُونَهَا عَنِ الْأَرْضِ، ثُمَّ
يُعْرِبِلُونَهَا فَيَقْصِلُونَ الثَّرَابَ عَنِ الْحُبُوبِ، وَلَرُبَّمَا اجْتَمَعَ
لِوَاحِدِهِمْ خَمْسُونَ كَيْسًا آخَرَ الصَّيْفِ، وَتَمْنُهَا لَا يُسْتَهَانُ بِهِ.
«... وَحَذَارِ الْحُرَّاسِ الْآخَرِينَ، الَّذِينَ يُجَاوِرُونَنَا. فَبَعْضُهُمْ
يَسْرِقُ مِنْ بَعْضٍ. لَتَكُنْ عَيْنُكَ عَلَى الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ، حَيْثُ
تُنَاجِمُنَا مُسْتَوْدَعَاتُ أُخْرَى».

أَمَرُوا وَاحِدًا يُنْعِصُ عَلَى سُلُو حِمَاسَتَهُ فِي الْعِرَاكِ مِنْ أَجْلِ
الْعَيْشِ، أَلَا وَهُوَ النَّوْمُ، لَيْلًا، فَوْقَ أَكْوَامِ الْأَكْيَاسِ، تَحْتَ
السَّمَاءِ الْعَارِيَةِ، حَيْثُ تَجْتَذِبُ رَائِحَةُ الْخَيْشِ جَحَافِلَ الْبَعُوضِ
الصَّارِي. يُفِيقُ كُلُّ سَاعَةٍ. يُفِيقُ وَلَوْ تَغَطَّى، فَالْحَرَاطِيمُ الصَّغِيرَةُ

تَنْقُبُ الْأَغْطِيَّةَ. وَسَلُّوْ، عَلَى أَيِّ، يَتَنَاوَبُ الْحِرَاسَةَ مَعَ أَخِيهِ
الْأَصْغَرِ، وَذَلِكَ مَا يُخَفِّفُ عَنْهُ قَلِيلاً، إِلَى أَنْ شَارَكَهُمَا شَخْصٌ
ثَالِثٌ، لِشَهْرٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ تَرَكَهُمَا. وَكَانَ الشَّرِيكُ، هَذَا، نَصَاباً
بِحَقِّ، جَاءَهُمَا عَلَى أَنَّ لَهُ خِزْرَةَ سِنِينَ فِي هَذِهِ الْمِهْنَةِ، لَكِنَّ
خِزْرَتَهُ الْحَقِيقِيَّةَ كَانَتْ فِي تَفْرِيعِ حَفَنَاتٍ مِنْ كُلِّ كَيْسٍ، حِينَ
تَكُونُ نُوبَةُ الْحِرَاسَةِ لَهُ، فَيَجْمَعُ فِي اللَّيْلَةِ الْوَاحِدَةِ سَعَةً
صَفِيحَتَيْنِ مِنْ صَفَائِحِ الْكَازِ، ثُمَّ يَأْتِي أَبْنَاهُ بِعَرَبَةٍ جَرٍّ فَيَنْقُلُهَا.

لَمْ يَكْتَشِفْ سُلُو الْأَمْرَ. بَلْ أَخْبَرَهُ أَحَدُ الْحُرَاسِ الْمُجَاوِرِينَ:
«أَرَأَيْتُمْ شَرِيكَكُمْ؟»، وَرَدَّ سُلُو: «مَا بِهِ»، فَأَزْدَفَ الْأَوَّلُ:
«رَاقِبُوهُ».

تَصَنَّعَ سُلُو أَنَّهُ مَضَى إِلَى الْبَيْتِ، بَعْدَ الْعِشَاءِ، ثُمَّ قَفَلَ
رَاجِعاً، وَكَمَنَ بَيْنَ مَمَرَاتِ الْأَكْيَاسِ: «ضَبَطْتُكَ» صَرَخَ سُلُو،
وَأُسْقِطَ فِي يَدِ الشَّرِيكِ فَتَلَعْنَمَ. حَاوَلَ أَنْ يَعْتَذِرَ فَتَلَعْنَمَ. تَمَتَّمَ:
«لِي أَطْفَالٌ...» وَتَلَعْنَمَ. جَاءَ أَبُو سُلُو، صَبَاحاً، وَصَفَعَ الشَّرِيكَ
فَقَطَّائِرَتْ حُطَّتُهُ.

عَادَ سُلُو وَأَخُوهُ وَحِيدَيْنِ، يَتَقَاسِمَانِ نُوبَاتِ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ.
كَانَ سَيِّئاً حَظُّهُمَا عَلَى أَيَّةِ حَالٍ، فَقَدْ اجْتَمَعَتْ، فِي

أَرْضِهِمَا، أَهْرَامَاتٍ مِنْ أَكْيَاسِ الْقَمْحِ، لَكُنْهَا لَمْ تُنْقَلْ. الرُّبُحُ أَنْ
تُنْقَلَ أَكْيَاسٌ وَيَأْتِي غَيْرُهَا. الرُّبُحُ أَنْ تَدُومَ حَرَكَةُ الْآسْتِيْدَاعِ
وَالْآسْتِيْزِجَاعِ. فَسِعْرُ حِرَاسَةِ الْكَيْسِ، عَلَى الْأَرْضِ، هُوَ هُوَ:
عَشْرَةُ قُرُوشٍ، سِوَاءِ أَتَقِيَ سَاعَةً أَمْ يَوْمًا، أَمْ طَوَالَ الصَّيْفِ. هَذِهِ
قَاعِدَةٌ وَمِثَاقٌ.

فِي آخِرِ الصَّيْفِ بَدَأَ التُّجَّارُ يَسْتَرْجِعُونَ وَدَائِعُهُمْ. فَاتَ
الْأَوَانُ عَلَى أَيِّ آسْتِيْدَاعٍ جَدِيدٍ. لَكِنَّ الْأَكْثَرَ إِثَارَةً لِلْعَيْظِ أَنْ
يَتَبَقَّى فِي أَرْضِ سُلُو شُحْنَةٌ صَغِيرَةٌ لَمْ يَسْتَرِدَّهَا صَاحِبُهَا.
«الْقَاعِدَةُ قَاعِدَةٌ. وَالْمِثَاقُ مِثَاقٌ». عَلَيْهِ أَنْ يَحْرُسَ هَذِهِ الشُّحْنَةَ
إِلَى مَا يَشَاءُ اللَّهُ.

فَتَحَتِ الْمَدَارِسُ أَبْوَابَهَا وَبَقِيَتِ الشُّحْنَةُ. عَيْنٌ عَلَى
الْأَكْيَاسِ، وَعَيْنٌ عَلَى طَرِيقِ الْمَدْرَسَةِ. آآه سُلُو.

جَاءَتْ أَوَّلُ عَاصِفَةٍ خَرِيفِيَّةٍ مُحَمَّلَةً بِالْغُبَارِ الْأَحْمَرِ،
وَبَقْطَرَاتٍ مِنَ الطِّينِ. آآه سُلُو.

غَطَّى سُلُو الشُّحْنَةَ بِشَادِرٍ كَبِيرٍ خَشِيَّةٍ أَنْ تَبْتَلَّ الْأَكْيَاسُ،
وَهِيَ إِنْ أَتَبَلَّتْ أَنْتَشَ الْقَمْحُ فِي دَاخِلِهَا مِنَ الرُّطُوبَةِ، وَفُسَدَ...
أِهْ سُلُو.

لَمْ يَغْدُ يَهُمُّهُ الْأَمْرُ. إِنْ تَصَفَّ الْخَرِيفُ: «فَلْيَذْهَبْ صَاحِبُهَا إِلَى فَرْجِ أُمِّهِ».

خَرَجْتُ مِنَ الْأَكْيَاسِ الرُّطْبَةِ سُؤْيَقَاتٍ خَضِرَاءُ. إِمْتَدَّتِ السُّؤْيَقَاتُ مَعَ الشُّهُورِ. آه سُلُو.

تَشَقَّقَتِ الْأَكْيَاسُ فِي الرَّبِيعِ، ثُمَّ اخْتَمَرَتِ السَّنَابِلُ قَلِيلًا قَلِيلًا، وَلَمْ يَأْتِ صَاحِبُهَا. وَحِينَ جَاءَ الصَّيْفُ الثَّانِي، كَانَتْ كُثْلَةً مِنَ الذَّهَبِ تَتَوَهَّجُ بَيْنَ الْعَرَاءِ الْمَوْشَى بِرِثَاتِ الشُّوْكِ، وَلُهَاثِ الْجُدُوعِ الصَّلْبَةِ لِنَبَاتِ السُّوسِ.

كَانَ سَيِّئًا حَظُّ سُلُو فِي الصَّيْفِ الَّذِي مَضَى، وَهَا هُوَ صِبْهُهُ يَغْرِضُ عَلَيْهِ حَظًّا جَدِيدًا هَذَا الصَّيْفُ: «إِسْتَعِلْ مَعِيَ مُعَاوَنًا فِي شَاحِنَتِي»، وَقِيلَ الْفَتَى. «سَأُعَلِّمُكَ تَصْلِيحَ الْمَحَرِّكَاتِ»، وَقِيلَ الْفَتَى. «سَأُعَلِّمُكَ قِيَادَةَ هَذَا الْغُولِ»، وَقِيلَ الْفَتَى. «سَأَجْعَلُكَ رَجُلًا»، وَقِيلَ الْفَتَى. «سَأُمْتَحِنُ صَبْرَكَ غَدًا. إِرْتَدِ بِنِطَالِكَ الْكَاكِيِّ، وَقَمِصْكَ الْأَسْوَدَ، وَضَعْ عَلَى رَأْسِكَ حَظَّةً»، وَقِيلَ الْفَتَى.

أَيَقْظُهُ فِي الْفَجْرِ بوق شَيْطَانِيٍّ. هَبَّ عَلَى عَجَلٍ، أَوْتَدَى ثِيَابَهُ وَخَرَجَ. ضَعِدَ إِلَى الشَّاحِنَةِ ذَاتِ الْمُقَدَّمَةِ الْعَالِيَةِ، وَجَلَسَ

إلى جوارِ صِهْرِهِ. وَالْفَجْرُ بارِدٌ عَذْبٌ؛ مَنْ يُصَدِّقُ أَنَّ صَبَاحاً
مَضْهُوراً كَالْقَارِ يَتَعَقَّبُ أَذْيَالَهُ؟ الْأَفْضَلُ أَنْ يُصَدِّقَ سُلُو. بَلْ
يُصَدِّقُ فِعْلاً، وَيَلْمُسُ الْأَمْرَ بِجَبِينِهِ. فَالْعَرَقُ يَنْسَابُ خُيوطاً
خُيوطاً مِنَ الْجِهَاتِ كُلِّهَا، وَالْغِطَاءُ الصَّفِيحِيُّ لِحُجْرَةِ الْبَقَاةِ
يَتَلَاوُ كَالْحُمَى. وَيَبْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ يَتَطَّلَعُ إِلَيْهِ صِهْرُهُ بِطَوِّفٍ
عَيْنِهِ مُبْتَسِماً: «لَفْ حَطَّتْكَ حَوْلَ رَأْسِكَ كَالْعِمَامَةِ لِمَتَّصَ
الْعَرَقُ، وَسَمُّرُ أَكْمَامِكَ يَا بَطْلُ»، ثُمَّ يَضْغُطُ بِرَاحَتِهِ عَلَى فُرْصِ
أَلْبَقِ: طَووُوطُط، مُحْذِراً أَلْهَوَاءَ، وَأَشْبَاحَ الْبَرَارِيِّ الْمُتَمَتِّدَةِ
عَلَى جَانِبَيْهِ الْإِسْقَلَتِ.

عَرَجَتِ الشَّاحِنَةُ، بَعْدَ خَمْسِينَ كِيلُو مِثْراً، عَلَى مَسَالِكِ
ثُرَائِيَّةٍ. تَعْلُو وَتَهْبِطُ بَيْنَ الْأَحَافِيرِ. وَعَلَى جَانِبَيْ الْمَسَالِكِ كَانَتْ
قُرَى صَغِيرَةٌ تَدُورُ عَلَى نَفْسِهَا حِينَ تُحَافِظُهَا، ثُمَّ تَغِيْبُ فَيَلُوحُ
غَيْرُهَا. «أَجُعْتُ؟» بَاغَتْهُ صِهْرُهُ. رَدَّ: «نَعَمْ». وَسَادَ الصَّمْتُ
بَيْنَهُمَا مِنْ جَدِيدٍ، غَيْرَ أَنَّ أَحْشَاءَ سُلُو تَتَمَرَّعُ فِي تَجْوِيفِهَا.
تَزْتَجُّ وَتَتَلَاطُمُ. نَظَرَ إِلَى صِهْرِهِ بِحَنَقٍ فَأَبْتَسَمَ صِهْرُهُ، وَضَرَبَهُ
عَلَى فَخْذِهِ: «تَعِبْتَ يَا بَطْلُ؟ نَحْنُ فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ، حِينَ نَصِلُ
سَنَتْنَاوُلَ إِفْطَارِنَا». تَمَتَّمَ سُلُو: «وَلِمَاذَا لَيْسَ الْآنَ؟»، فَرَدَّ الرَّجُلُ

الصُّلْبُ مِنْ تَحْتِ شَارِيَّتِهِ الْأَشْقَرَيْنِ: «أَخَافُ أَنْ يُنْتَابَكَ الْعَثِيَانُ
مِنْ آلِزَيْجَاجِ. الْمَعِدَّةُ الْفَارِغَةُ تَحْتَمِلُ، أَمَّا الْمَلَأَى فَلَا». وَابْتَلَعَ
سُلُو رِيقَهُ عَلَى مَضَضٍ.

أَخِيرًا وَصَلَا. مِسَاحَاتٌ شَاسِعَةٌ، وَحَصَادَاتٌ ذَاتُ مَرَاوِحَ
صَحْمَةٍ، يَتَطَايَرُ الْقَشُّ مِنْ مُؤَخَّرَاتِهَا الْمَفْتُوحَةِ كَالْمَدَاحِنِ،
وَرِجَالٌ يَخْلُؤُونَ الْأَكْيَاسَ، وَآخَرُونَ يَخِيطُونَهَا بِالْقُتْبِ. وَهُنَا،
وَهُنَاكَ، رَهْطُ نِسَاءٍ، يَجْمَعْنَ الْقَشَّ فِي حُرْمٍ، وَيَضَعْنَهَا فَوْقَ
ظُهُورِ الْحَمِيرِ.

كَانَ ثَمَّتَ شَاحِنَةٌ أُخْرَى تَحْزِمُ حُمُولَتَهَا، وَفِي أَنْتِظَارِ أَنْ
يَفْرَعَ الْعَتَّالُونَ مِنْهَا. نَزَلَ سُلُو وَصَهْرُهُ، حَامِلَيْنِ حَبَاتٍ مِنْ
الْبَنْدُورَةِ، وَقُرْصَ جُبْنٍ، وَرَغِيفِي تَنْوِيرٍ. فَرَدَا فِي ظِلِّ شَاحِنَتِهِمَا
كَيْسًا فَارِعًا، وَجَلَسَا يَأْكُلَانِ، ثُمَّ اسْتَلْقَيَا لِسَاعَةٍ أَوْ أَكْثَرَ.

جَاءَ دَوْرُهُمَا الْآنَ. اقْتَرَبَ مِنْهُمَا الْعَتَّالُونَ وَهَتَفُوا: «هَيَّا
يَا شَبَابُ»، فَهَتَفَ بِهِ صَهْرُهُ: «إِلَى ظَهْرِ الشَّاحِنَةِ. إِضْعُدْ
وَصُفِّ الْأَكْيَاسَ». وَسُلُو يَعْرِفُ كَيْفَ يَصُفِّ الْأَكْيَاسَ.
يَضْعُدُ الْعَتَّالُونَ إِلَى الشَّاحِنَةِ عَلَى سُلَمٍ، وَيُلْقُونَ بِهَا كَيْفَمَا
اتَّفَقَ، وَعَلَيْهِ - هُوَ - أَنْ يُنْصِّدَهَا هَنْدَسِيًّا. الْأَمْرُ شَاقٌّ. الْأَمْرُ

أَمْرٌ غَضَلٍ وَشُرْعَةٍ. يُسَوِّي سُلُو بِخُطَافِهِ زَاوِيَةَ الْكَيْسِ هَذَا،
وَيُذْخِرُجْ ذَاكَ، ثُمَّ يَضْعُدُ فَوْقَ كُلِّ كَيْسٍ، وَيُنْطِنِطُ رَاقِصاً
لِيَنْجَبْتَهُ فِي مَكَانِهِ. وَكُلَّمَا فَتَرَتْ هِمَّتُهُ قَلِيلاً، صَرَخَ بِهِ صِهْرُهُ:
«سُلُو، لَنْ تُصْبِحَ رَجُلًا، هَكَذَا. خَيِّبَتْ ظَنِّي»، فَيُفِيقُ سُلُو:
«حَا. حَو. هَوُو».

الْعَرَقُ فِي كُلِّ مَكَانٍ. عَرَقَ تَحْتَ الْأَقْدَامِ، وَفَوْقَ السُّلَمِ
وَالْأَكْيَاسِ. عَرَقَ فِي شَوَارِيخِ الْعَتَالِينَ، وَفِي بِنْتَطَالِ سُلُو وَفَوْقَ
قَدَمَيْهِ الْعَارِيَتَيْنِ. عَرَقَ يَتَطَايَرُ مِنَ الْجِبَاهِ الَّتِي يَحْمِلُ أَصْحَابُهَا
الْأَكْيَاسَ، وَمِنَ الْجِبَاهِ الَّتِي تَنْحَنِي فَوْقَ الْأَكْيَاسِ. عَرَقَ
يَتَذْخِرُجْ ضَاحِكًا، وَيُرْفِرُفُ، أَوْ يَنْقَضُ، وَيَطِيرُ. عَرَقَ
كَالْمَهْرَجَانِ. خُطَبَاءُ مِنَ الْعَرَقِ، وَحُضُورٌ مِنَ الْعَرَقِ، وَأَعْلَامٌ مِنَ
الْعَرَقِ. مَسْرُوحٌ وَعِمَارَاتٌ مِنَ الْعَرَقِ. حُكُومَاتٌ وَشَعْبٌ مِنَ
الْعَرَقِ. لُغَاتٌ، وَأَقْلَامٌ. وَحُرُوبٌ، وَدِيَكَةٌ، مِنَ الْعَرَقِ. عَرَقَ
يَنْشُقُ عَنِ الْعَرَقِ، وَيَلْهَجُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ».

«نَعِيمًا سُلُو» قَالَ لَهُ صِهْرُهُ. رَفَعَ سُلُو جَفَنَيْهِ فِي وَهْنٍ صَامِتٍ.
لَمْ يَنْتِهِ الْأَمْرُ بَعْدُ، عَلَيْهِ أَنْ يَحْزِمَ الْحُمُولَةَ، الْآنَ، بِحَبْلِ مَجْدُولٍ
مِنَ الْأَسْلَاحِ. غَمَمَ: «هَاتِ الْحَبْلَ»، فَرَدَّ صِهْرُهُ: «إِسْتَرِخْ قَلِيلاً».

لَمْ يَنْتَظِرُوا سُلُومَهُ. فَتَحَ صُنْدُوقَ الْعِدَّةِ وَأَخْرَجَ الْحَبْلَ الثَّقِيلَ:
«فَلَنْتَنَهُ». ثُمَّ صَعِدَ إِلَى سَطْحِ الشَّاحِنَةِ. وَعَمَلِيَّةُ الْحَزْمِ مُزْهِقَةٌ
بِدَوْرِهَا. يُمَرِّزُ سُلُومَ الْحَبْلِ فِي الْحَلَقَاتِ الْحَدِيدِيَّةِ الْمَرْصُوفَةِ
حَوْلَ هَيْكَلِ الشَّاحِنَةِ، مُتَنَقِّلًا مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، بِإِذْلٍ جُهْدُهُ
لِيَكُونَ التَّخْزِيمُ مَتِينًا. وَحِينَ فَرَعَ مِنَ الْأَمْرِ جَلَسَ إِلَى جِوَارِ
صِهْرِهِ، وَقَدْ بَلَغَ مِنْهُ التَّعَبُ مَبْلَغَهُ.

إِنَّهُمَا يَعُودَانِ، وَالْوَقْتُ عَصْرٌ. الْقُرَى ذَاتُهَا تَدُورُ عَلَى نَفْسِهَا
وَتَغِيْبُ، وَالْأَرْضُ تَتَمَاجَجُ تَحْتَ الْحِمَاوَةِ. نَسِيَ سُلُومَ جُوعَهُ،
وَتَذَكَّرَ الْعَصَبَ: «تَفُوْا عَلَيَّ غُمْرِنَا». وَإِذْ وَصَلَ إِلَى مَحْطَّةِ
الْمِيرَا فِي الْمَدِينَةِ، كَانَ الْمَغِيْبُ الصَّارِمُ يَجْمَعُ تَحْتَ تَاجِهِ
خُصْلَاتِهِ الشَّقْرَاءَ.

لَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا آلَانَ. أَلْعَتَالُونَ وَخَدَهُمْ، يَتَوَلَّوْنَ
الْأَمْرَ، فَيُفْرِغُونَ الشَّاحِنَاتِ تَحْتَ سُقُوفِ تِلْكَ الْمَحْطَّةِ الَّتِي
اجْتَمَعَتْ فِيهَا قِطَارَاتٌ مِنْ عَهْدِ الْأَثَرَاكِ. إِلَيْهِ مَحْطَّةُ الْمِيرَا.
الْمَكَانُ مُزْدَحِمٌ لَيْلَ نَهَارٍ، وَلَا بُيُوتٌ عَلَى مَدَى فُرْسَحَيْنِ.
مَحْطَّةٌ كَالْمَدِينَةِ، مَسْقُوفَةٌ بِالْكَثِيرِ مِنَ الصَّاجِ وَالْحَدِيدِ، يَأْتِي
قِطَارٌ وَيَمْضِي قِطَارٌ. قِطَارَاتٌ مُتَعَبَةٌ ذَاتُ أَنْبِيْن، وَتُجَارٍ يَبِيعُونَ

وَيَسْتَرُونَ؛ وَغُرِفَ مِنَ الطِّينِ لِمُعَامَلَاتِ الْجَمَارِكِ، وَأَطْفَالٌ
يَسْبِعُونَ الطُّوَابِعَ الْمَالِيَّةَ؛ وَمِيزَانٌ أَرْضِيَّ يَزِنُ الشَّاحِنَاتِ الْفَارِغَةَ
وَالْمَلَأَى؛ وَحُرَّاسُ قَمَحٍ؛ وَلُصُوصٌ يُغْرِبِلُونَ الثَّرَابَ؛ وَغَتَّالُونَ
يَتَشَاجِرُونَ حِينًا، أَوْ يَجْلِسُونَ فِي حَلَقَاتٍ عَلَى أَمَلِ رِزْقٍ
مُفَاجِئٍ؛ وَدَجَاجَاتٌ حُكُومِيَّةٌ يَمْلِكُهَا الْجُمْهُرُ كَثِيرُونَ وَسَائِقُونَ
الْقِطَارَاتِ وَمُعَاوِنُوهُمْ؛ دَجَاجَاتٌ تَسْرُحُ وَتَمْرُحُ فِي أَرْضِ
الْحُبُوبِ الْوَفِيرَةِ؛ دَجَاجَاتٌ مُوقِرَةٌ مُحْتَرَمَةٌ. وَفِي الْمَحْطَةِ جِرَارٌ
كَبِيرَةٌ لِلْمِيَاهِ، مَرْكُوزَةٌ عَلَى قَوَاعِدَ خَشَبِيَّةٍ، يَشْرَبُ مِنْهَا النَّاسُ،
وَالْعَصَافِيرُ الْعَطْشَى، وَالْدَّيَكَةُ الْقَادِرَةُ عَلَى تَسْلُقِهَا. وَثَمَّتْ
صَيَادُونَ لِلْعَصَافِيرِ. أَيْضًا، بِنَادِقِ الضَّغْطِ الْهَوَائِيِّ، وَنَزَاعَاتُ
عَلَى أُولَوِيَّةِ الشَّحْنِ أَوْ التَّفْرِيعِ، وَمَلَابَسَاتٌ تَحُلُّهَا التَّقْوُدُ الَّتِي
تَوْضَعُ فِي أَيْدِي رِجَالِ الْمِيرَا جِلْسَةً؛ وَخِرَافٌ تُهْدَى؛ وَبَوَالِصُ
مُزَوَّرَةٌ؛ وَأَخْتَامٌ يُعْضِي الْمَوْظَفُونَ عَنْهَا؛ وَجُبَاةٌ يَجْبُونَ الضَّرَائِبَ
عَلَى الْهَوَاءِ، وَالظَّلُّ، وَعَلَى تَأْخُرِ الشَّاحِنَاتِ - قَسْرًا - عَنْ تَفْرِيعِ
حُمُولَاتِهَا، وَعَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ. وَثَمَّتْ لُغَاتٌ كُرْدِيَّةٌ، وَعَرَبِيَّةٌ،
وَتُرْكِيَّةٌ، وَأَشُورِيَّةٌ، وَسُريَانِيَّةٌ، وَمُسْتَقَاتُهَا.

مَحْطَةُ الْمَحْطَاتِ هَذِهِ. مَحْطَةُ الرُّوحِ وَالْعَصَبِ... وَسَلُّوْ

جَائِعٌ لِكِنَّ بَائِعِ اللَّحْمِ بَعْجِينَ الْكَهْلَ يُنْقِذُهُ. بَائِعٌ آزَتْبَطْتُ
صَوْرَتُهُ بِصَوْرَةِ الْمَحْطَةِ. يَحْمِلُ سَلَّةَ مَلَأَى بِالرَّقَائِقِ الطَّيِّبَةِ،
وَكُلَّمَا فَرَعَتْ عَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَمَلَأَهَا، وَقَلَّ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ.

فِي الْفَجْرِ التَّالِي تَظَاهَرَ سُلُو بِاسْتِعْرَافِهِ فِي النَّوْمِ، وَظَلَّ بوقُ
الشَّاحِنَةِ يُعَوِّلُ لِأَكْثَرِ مِنْ رُبْعِ سَاعَةٍ خَارِجَ سَوْرِ بَيْتِهِ. هَزَّهُ وَالِدُهُ
فَتَنَاوَمَ. هَزَّتْهُ أُمُّهُ فَتَنَاوَمَ. أَبْلَعَا الصُّهْرُ أَنَّ سُلُو مُثْعَبٌ، فَرَدَّ
الصُّهْرُ: «لَنْ يُصْبِحَ رَجُلًا»، وَمَضَى. ثُمَّ لَمْ يَعُدْ قَطُّ لِأَصْطِحَابِهِ.

سُلُو رَجُلٌ. سُلُو الَّذِي هُوَ أَنَا. سلو، سليمو، بافي غزو -
أَبْنُ الْمَلَا بَرَكَاتٍ هُوَ أَنَا. الرَّجُلُ الصَّغِيرُ الْهَارِبُ، الْمُدَقَّقُ
الْمُتَفَحِّصُ فِي الْحِسَابَاتِ الْكُبْرَى لِلشُّمَالِ، هُوَ أَنَا. وَسُلُو، أَيُّ
أَنَا، لَمْ يَعُدْ لَدَيْهِ مَا يَفْعَلُهُ غَيْرُ أَنْتِظَارِ مَوْتِ الصَّوْفِيِّ زِينُو.
سَيَمُوتُ الصَّوْفِيُّ زِينُو، وَسُلُو يَعْرِفُ ذَلِكَ. لَمْ تُنْجِبْ زَوْجَتُهُ
زِينُو وَلَدًا لَهُ، وَهَا هُوَ يَمُوتُ مَيِّتَيْنِ: كَهَوْلَةً وَغَيْظًا. وَغَيْظُهُ
غَيْظَانِ. وَاحِدٌ عَلَى أَبْنِ لَمْ يَأْتِ، وَثَانٍ عَلَى بَقَرَتِهِ الَّتِي أَفْلَتَتْ
مِنْ زُرَيْبَتِهَا ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَظَلَّتْ تَأْكُلُ مِنْ كَيْسِ النُّخَالَةِ حَتَّى
انْفَجَرَتْ.

كَانَ زِينُو يَتَمَدَّدُ عَلَى فِرَاشِهِ قُبَالَ بَابِ الزَّرِيْبَةِ، صَارِخًا بَيْنَ

سَاعِيَةً وَأُخْرَى: «ها هُوَ»، وَتَهْدِيءُ أَمْرَاتُهُ مِنْ رَوْعِهِ: «لَا أَحَدَ هُنَاكَ، زِينُو»، فَيَتَمَتُّمُ: «بَلْ أَرَاهُ كُلَّمَا فُتِحَ بَابُ الزَّرِّيَّةِ». وَيَسْأَلُهُ الزَّائِرُونَ: «مَنْ تَرَى زِينُو؟»، فَيَرُدُّ: «الشَّخْصَ الْأَبْيَضَ الَّذِي قَطَعَ رَسْنَ الْبَقَرَةِ، وَتَرَكَهَا تَأْكُلُ الثُّخَالَةَ لِتَمُوتَ».

بَابُ الزَّرِّيَّةِ مُغْلَقٌ أَبَدًا، وَعَيْنُ زِينُو عَلَى الْبَابِ. يَتَقَلَّبُ فِي فِرَاشِهِ، وَتَتَقَلَّبُ عَيْنَاهُ فِي مَحْجَرَيْهِمَا. عَيْنَانِ مَلُؤُهُمَا الْوَدَاعُ وَالتَّشَبُّهُ. وَسُلُو يَأْتِيهِ زَائِرًا كُلَّ يَوْمٍ. لَا يَعْرِفُ مَا الَّذِي شَدَّهُ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، لَكِنَّهُ يَأْتِيهِ كُلَّ يَوْمٍ: «ذَهَبَتِ الْحُكُومَةُ يَا زِينُو»، ذَهَبَتِ الْحُكُومَةُ الَّتِي حَطَمَتِ مَدِينَةَ الْمَلَاهِي، وَأَتَتْ حُكُومَةً أُخْرَى، فَيَتَمَتُّمُ زِينُو: «قَلْبِي عَلَى الْعَصْرِ، وَقَلْبُ الْعَصْرِ عَلَى الْحُكُومَةِ... آه يَا بَقَرَةَ الْبَقَرَاتِ». يَقُولُ سُلُو: «أَتَذْكُرُ يَوْمَ وَقَفْتُ فِي وَجْهِ جَكَرْخُوين؟»، وَيَرُدُّ زِينُو: «أَذْكُرُ. مَنَعْتُ زَائِرِيهِ مِنَ الدُّخُولِ إِلَى بَيْتِهِ. بَنَاتُهُ كَالْعَاهِرَاتِ... ثَفُو». يَقُولُ سُلُو: «جَكَرْخُوين شَاعِرٌ كُرْدِيٌّ، وَلَهُ مُرِيدُونَ وَأَتْبَاعٌ»، فَيَرُدُّ زِينُو: «كُرْدِيٌّ؟ لَنْ أَكُونَ كُرْدِيًّا إِذَا كَانَ جَكَرْخُوين كُرْدِيًّا. بَيْتُ كَالْمَاخُورِ. بَنَاتُهُ يُمَارِضْنَ الْغُرَبَاءَ، وَيَلْبَسْنَ ثِيَابًا قَصِيرَةً... ثَفُو».

لَمْ نَفْهَمْ جَكَرْخُوين الشَّاعِرَ فِي ذَلِكَ الْعُمْرِ، وَلَمْ يَفْهَمْهُ

زينو، وآباؤنا الْمُحَافِظُونَ. لَكِنَّ زينو لَا يَعْرِفُ الْمُجَامَلَةَ قَطُّ، وَلَا يَتَجَاهَلُ مَا لَا يُوضِيهِ. غَاضِبٌ أَبَدِيٌّ عَلَى زَمَنِ لَا يَتَوَقَّفُ عِنْدَ تَحْوِيهِ هُوَ. مَضَى مُعْظَمُ جِيلِهِ، وَاحِداً وَرَاءَ الْآخِرِ، غِضَاباً مِثْلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ عَزَاءٍ غَيْرِ أَثْنَائِهِمْ. أَمَّا زينو فَيَتَعَزَّى بِمَوْتِهِمْ: «مَنْ يَمُتُ قَبْلِي مِنْ جِيلِي يَكُنْ عَزَائِي فِي الْمَوْتِ، وَمَنْ أَمْتُ قَبْلَهُ أَكُنْ عَزَاءَهُ فِي الْمَوْتِ». مُصِيبٌ زينو فِي نِصْفِ مَا يَقُولُ، وَعَيْنُهُ عَلَى بَابِ الزَّرِيْبَةِ.

يَسْأَلُهُ سُلُو، فِي اللَّحْظَاتِ الَّتِي يَصِفُو فِيهَا الْكَهْلُ: «مَنْ هُوَ الشَّخْصُ الْإِيْبُ زينو؟»، فَيُرَدُّ زينو حَاجِباً فَرَعَ أَعْمَاقِهِ بِسُعَالٍ مُتَقَطِّعٍ: «لَا أَعْرِفُ». «فَلْنَدْخُلْ إِلَى الزَّرِيْبَةِ، مَعاً» يَقُولُ سُلُو، لَكِنَّ الْكَهْلَ يَزْفَعُ يَدَهُ الْمُرْتَجِفَةَ إِلَى صَدْرِهِ: «أَتُظَنُّنِي أَخَافُ؟ لَا. فَلْيَبْقَ هُنَاكَ. نَحْنُ لَا نَعْرِفُ مَا سَيَفْعَلُ إِذَا هَرَبَ. لَرُبَّمَا أَطْلَقَ كُلَّ بَقَرَةٍ، فِي الْحَيِّ، عَلَى أَكْيَاسِ النُّخَالَةِ». وَيَسْأَلُهُ سُلُو مِنْ جَدِيدٍ: «أَتُظَنُّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْهَرَبُ؟»، وَيَحَارُّ الْكَهْلُ فَلَا يَرُدُّ. لَا جَوَابَ لِسُؤَالِ كَهَذَا فِي الْحَالِ. الْوَقْتُ، وَخَدُهُ، سَيَصَوِّغُهُ مُتَقَطِّعاً؛ الْوَقْتُ الَّذِي يَنْثُرُ زَهْرَاتِهِ الذَّائِلَةَ فِي جَدُولِ زينو. آه زينو. إِنْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ.

زِينُو مُمَدَّدٌ فِي الْعُرْفَةِ، وَقُوبَ رَأْسِهِ أَرْمَلَتْهُ، مُوهَنَةً، يَخْذُلُهَا
 الْبُكَاءُ فَتَتَمَتِّعُ فِي تَوَشُّلٍ: «مَاذَا رَأَيْتَ يَا رَجُلِي؟»، وَتَلْتَفِتُ
 إِلَى الْبَاكِينَ مِنْ حَوْلِهَا: «صَرَخَ: خَرَجَ الْأَبْيَضُ. هَزَوْلْنَا
 إِلَيْهِ. كَانَ بَابُ الزَّرِيْبَةِ مَفْتُوحًا، وَعَيْنَا زِينُو مُسْمَرَتَانِ
 عَلَيْهِ. هَزَزْتُهُ فَلَمْ يَنْطِقْ. تَرَكَنِي رَجُلِي، أَأَهْوَنُ عَلَيْهِ إِلَى هَذَا
 الْحَدِّ؟».

شِمَالُ أَنْتَ يَا شِمَالُ، تَرَكَنَا لَكَ أَنْ تَتَّبَاهِيَ بِنَا عَلَى
 مَضَضٍ. كَانَتْ أَلْجِهَاتُ الْأُخْرَى قَدْ اخْتَارَتْ شُعُوبَهَا، فَلَمْ
 يَرِ - كِلَانَا - بُدًّا مِنْ عَقْدِ قِرَانِ الْمُصَادَفَةِ.

رَضِينَا بِكَ، فَارَضَ. أَلَا تَرَانَا مَرِحِينَ تُنِيْمُنَا الْحُكُومَاتُ،
 وَتَوْقُظُنَا الدِّيْكَةَ؟، وَإِذْ نَسْتَيْقِظُ تَتَطَايَرُ ثِيَابُ رَاقِصَاتِ مَدِينَةٍ
 أَلْمَلَاهِي، وَتَزْكُضُ دَجَاجَاتُنَا خَلْفَنَا فِي الْأَعْيَادِ الْوَطَنِيَّةِ؟، أَلَا
 تَرَى أَلْعَتَالِينَ وَحَاصِدَاتِ الرُّؤُثِ، وَالْفُكَاهَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي
 نُطْلِقُهَا فِي بِلَاطِكَ فَتُقَهِّقُهُ الْأَبْدِيَّةُ؟

رَاضُونَ مَرْضِيَّوْنَ. أَنْظُرْ إِلَى جِمَارِ أَثْنِ الصُّوْفِي؛ الْجِمَارِ
 الَّذِي يَأْتِي إِلَى الْمَدْرَسَةِ، فِي الْمُنَاسَبَاتِ، وَقَدْ كُتِبَتْ عَلَى
 بَطْنِهِ، بِدِهَانِ أَبْيَضٍ، كَلِمَةُ «اسْتِعْمَار». نَفْرَحُ بِهِ، وَيَفْرَحُ

الْمُعَلَّمُونَ وَالْمُدَرِّاءُ وَالْقَائِمَقَامُ. فَحِينَ تَخْرُجُ التَّظَاهِرَاتُ الشَّعْبِيَّةُ
الْمُنْتَظَمَةُ بِمَرْسُومٍ، يَخْرُجُ آئِنُ الصُّوفِيِّ مَحْمُودٌ مُرْتَدِيًّا قَلَنْسُوَّةً
عَلَيْهَا نَجْمَةٌ سُدَّاسِيَّةٌ، مُطَرَّزَ الْوَجْهِ بِالْأَصْبَاغِ كَمُهْرَجٍ، رَاكِبًا
حِمَارَهُ ذَاكَ، وَيَسِيرُ بَيْنَ الصُّفُوفِ فَيَكُونُ مَحَطًّا الْأَنْظَارِ
وَالضَّحِكِ.

أُنْظَرُ إِلَى مَرْوَانَ ذِي الْيَدِ الْوَاحِدَةِ، الَّذِي يَقُودُ دَرَاجَتَهُ
كَأَمْهَرٍ مَنْ يَقُودُ، وَيُغَافِلُ أَكْثَرَ مُرَاقِبِي الْمَدْرَسَةِ سَهْرًا وَحِيْطَةً،
فَيَدْخُلُ فِي أَلْبَاحَةِ، وَفِي غُزْفَةِ الدَّرَاسَةِ. أُنْظَرُ إِلَيْهِ يَضْرِبُهُ الْمُعَلِّمُ
الْحَزْبِيُّ بِالْعَصَا، وَيَدُوسُهُ بِحَدِيدِهِ، وَمَا يَكَاذُ يَنْتَرِكُهُ حَتَّى يَنْفِرَ
الْأَكْثَرُ ضَاحِكًا.

رَاضُونَ مَرْضِيُونَ. لِكِنَّا نَنْفَجِرُ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ، لَيْسَ
أَحْتِجَاجًا عَلَى أَحَدٍ، بَلْ لِنُؤَجِّلَ مَجِيءَ مِيرَا: الْعَتَالُونَ يُمَزَّقُونَ
الْعَتَالِينَ؛ وَالْأَقَارِبُ يَنْقَسِمُونَ بِفِعْلِ ثَوَرَاتِ نِسَائِهِمْ؛ وَالْمُعَلَّمُونَ
يَنْتَقِمُونَ - عَبْرَ تَلَامِذَتِهِمْ - مِنَ الْمَاضِي، وَمِنَ الْحَاضِرِ، وَمِنَ
الْمُسْتَقْبَلِ؛ وَالذَّرَكِيُّونَ الْجَوَالَةُ عَلَى خُيُولِهِمْ يَنْهَبُونَ الْقُرَى،
لِيَعْوِضُوا عَنْ ضَالَّةِ مُرْتَبَاتِهِمْ؛ وَالْمُقَامِرُونَ يَطْعَنُونَ بِالْمُدَى أَشْبَاهَ
الْمُقَامِرِينَ؛ وَالرِّيَاضِيُّونَ يُحَاصِرُونَ حَارَاتِ بِأَكْمَلِهَا؛ وَالْعَاهِرَاتُ

الْمُرَحَّصَاتُ يَشْتَأْجِرُونَ الْقَبْضَايَاتِ لِلْمُضَارَبَةِ؛ وَسَائِقُو الشَّاحِنَاتِ
يَدْفَعُونَ بِالسَّيَّارَاتِ الصَّغِيرَةِ إِلَى الْمَهَاوِي؛ وَالْمُتَصَوِّفَةُ يَتَحَزَّبُونَ
لِهَذَا، أَوْ لِذَاكَ، مِمَّنِ اخْتَلَفُوا عَلَى حَرْفِ عِلَّةٍ، أَوْ تَفْسِيرِ بَدْءِ
آيَةِ «نُون»؛ وَالْبَدُو يُطْلِقُونَ نِعَاجَهُمْ بَيْنَ حُقُولِ السَّنَابِلِ
فَتَتَرَكُهَا هَشِيمًا؛ وَالْأَبَاءُ يَحْتَقِرُونَ بَنَاتِيْلَ الْأَبْنَاءِ؛ وَالْفَلَاحُونَ
يَمَسِّحُونَ مُؤَخَّرَاتِ بَغَالِهِمْ بِالنَّشَادِرِ فَتَنْظُلُ رَاكِضَةً أَمَامَ
الْمَحَارِيثِ... إِلَى آخِرِهِ.

كُلُّ شَخْصٍ يُؤَجِّلُ مَجِيءَ مِيْرُو عَلَى طَرِيقَتِهِ؛ يُؤَجِّلُ مَجِيءَ
الْأَكْبَاشِ الَّتِي سَتَشُقُّ بِقُرُونِهَا الْغِشَاءَ الْأَرْضِيَّ، فَتَبِينُ، فِي أَكْثَرِ
الْأَمَاكِنِ الَّتِيصَاقًا بِالْعِمَارَاتِ، وَالْأَشْوَاقِ، بَقَايَا مَمْلَكَةِ الرُّعَاةِ
الْأُولَى، ذَاتِ الْآسَاسَاتِ الْجَبْرِ، وَالْأَخْوَاضِ النَّائِمَةِ كَقُبُورِ مَنْ
ذَهَبَ.

مَنْ تُخْوِمِ الشُّمَالِ، إِذَنْ، تَنْتَظِرُ الْأَرْضُ صَاعِقَةً سِحْرِهَا،
وَأَبَاطِرَةَ الْمَلْهَاءِ.

بيروت، ١٩٨٠

نزيف الطّبعة الثانية

٧

الجندب الحديدي

(السيرة الناقصة لطفل لم يَزْ
إلا أرضاً هاربة فصاح: هذه فخاخي أيّها القطا)

مدخل

هيهات أيّها الطفل، هيهات

١١

فاصل أول

١٩ العُنف الهندسي

فاصل ثان

٣٣ في ارتطام الجهات

فاصل ثالث

٤٩ في الحريق وفي الصيد

فاصل رابع

٦٥

في انهيار بريثا

فاصل خامس

٨١

في الثلج والخراب

خاتمة يليها صبا لم أكتبه بعد

٩٩

*

هاتِه عاليًا، هاتِ النَّفِيرَ على آخره
(سيرة الضُّبا)

إيدان

١٠٧

١١١

النَّفِير الأول

٢٠٥

النَّفِير الثاني

٢٤١

النَّفِير الثالث

